عِلمُ اللغةِ

بين القديم والحديث

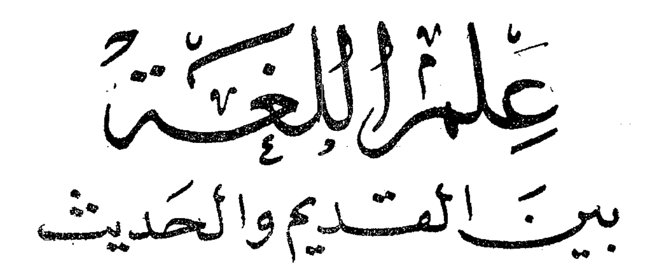
دكتور

عبد الغفار حامد هلال

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية بجامعة
الأزهر

الطبعة الثانية

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



علم اللغة بين القديم والحديث

دكتور
عبد الغفار حامد هلال

أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية بجامعة
الأزهر

الطبعة الثانية

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حمدا لك اللهم على ما أوليت من فضل ونعمة ، وأعطيت من توفيق للعمل ، وبذل الجهد ، فى سبيل خدمة لغة القرآن الكريم ، كتابك الخالد ، وصلاة وسلاما على مصطفاك نبينا محمد صاحب الفصاحة والبلاغة ، وسراج هذه الأمة التى جعلتها خير أمة أخرجت للناس .

وبعد :

فقد عنيت الأمم — منذ أمد طويل — بدراسة لغاتها ، ويعد العرب من أسبقهم فى هذا المضمار ، وكانت بحوثهم منارة استرشد بها الباحثون فى اللغات المختلفة .

فعلى أيدى العرب تفتحت البحوث اللغوية ، ونضجت ، وهم يرسون قواعد لغتهم ، ويضعون قوانينها ، من خلال العمل اللغوى الجاد الذى قام به فحول علمائهم لخدمة كتاب الله العزيز .

وقد استطاعوا — بدأبهم على البحث والدرس — أن يقيموا الدعائم الوطيدة لـ (علم اللغة) .

وكان الأوربيون — آنذاك — لايزالون فى سبات عميق ، ثم استيقظوا وقد ازدهر هذا العلم فى الشرق ، وتقدمت بحوثه ، فهبوا — متأثرين بما دعاهم من ظروف — لبحث اللغات — بعامة — ولغاتهم — بخاصة — فدرسوا ظواهرها ، ووضعوا القوانين التى تحكمها .

ثم تطور هذا العلم فى العصر الحديث ، باعتماده على الآلات ، والأجهزة المعملية حتى استقل فى منهجه ، وتخصص فى وسائله .

وفى هذا الكتاب بينت — بالبحث العلمى التاريخى — خطى هذا العلم ، ومناهجه وخلاصة التجارب والقوانين اللغوية التى وصل اليها على يد هؤلاء وأولئك ، وأوضحت الوشائج التى تربط بينهما .

ثم عرضت — على بساط البحث — قضايا أساسية ، وحللتها فى اطار التطبيق لمبادىء هذا العلم ، وقوانينه ، وبينت طرق الافادة منها لتكون نبراسا للباحث .

وقد حاولت جهدى أن أناقش الآراء لأصل — قدر علمى وبتوفيق الله — الى الحقيقة العلمية التى ينشدها المنصفون فى دراستهم لهذا الفن .

وأخيرا فان هذا الكتاب — بنظراته الواعية — يضع أسسا جديدة للدراسة العربية ، والنهوض بها .

ومن خلال مايثيره من مبادىء (علم اللغة ومناهجه) يجد اللغوى ضالته بين يديه .

هذا . واننى أقدم للقارىء العربى هذه الطبعة الثانية مشمولة بمراجعة مانذ فى الطبعة الأولى .

والله أسأل أن يجعل عملى خالصا لوجهه ، وهو حسبى ونعم الوكيل

مدينة نصر فى :

٢٠ من ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

٢ من ديسمبر ١٩٨٥ م

د/ عبد الغفار حامد هلال

حاجة الانسان الى اللغة ومبلغ اهتمامه بها :

اللغة ــ كما قال علماؤنا القدامى ــ أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وكما قال علماء الاجتماع : نظام من رموز ملفوظة عرفية يتعامل ويتعاون بواسطتها أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة •

فهى اذن ــ الأداة الفعالة التى تربط بين أفراد المجتمع وتجعل منه وحدة متماسكة ، فهى المعبرة عن أفكاره ، وعن احتيــاجاته ؛ وعن كل مايهمه فى هــذه الحيــاة ؛ بل هى الأداة المستعملة فى كل مايريده •• للقصص ، للدعاية ، للترفيه ، للتسلية ؛ للحب ؛ لــكل مايسوءه ويسره جدا أو هزلا •

ولم نجد مجتمعا لاتربطه وسيلة للتفــاهم بين أفراده ، وأسره ، واننــا لنشاهد الــكائنات الحية ، وقــد استخدمت وسائل للتفاهم بين جماعاتها ، فالحيوان الأعجم يستطيع أن يفهم ذويه مايهمه ، وما يريده، فالأم تعطف على ابنها ، وتعرف جيرانهــا ، وتصــدر من الأصــوات والاشارات مايساعدها على فهم مرادها ، وعالم الطيور ــ كذلك ــ له لغته التى يتعامل بها ، وتجعل منه دولة لها كيانها ورئاستها ، وشئونها التى تهمها ، وهكذا غير هذين من كائنات حية مدركة •

فلا غرو أن تكون للانسان ــ الذى هو أرقى الــكائنات الحيــة ، والذى ميزه الله بالعقل ــ لا غرو أن يتخــذ وســيلة للتفــاهم مع بنى جنسه •

وقــد لعبت الاشارة دورا مهما فى نشأة اللغة الانسانية الأولى ، والتى لانزال نستخدمها حتى الآن فى تعاملنا بعضنا مع بعض ، وقــد لعب غيرها كذلك من وسائل التفاهم الأخرى أدواره ، الا أن أرقى تلك

الوسائل فى الفهم ، والافادة هى الأصوات التى أصدرها الانسان ، معبرة عن أغراضه وأشيائه ، وكانت ساذجة — فى أرل الأمر — ثم ارتقت هى الأخرى حتى وصلت الى الحد المنظم المعقد الذى خضع فى صوره وأشكاله للظروف التى عاشها الانسان ، ولتفكيره الذى أثر فى نظامها الذى سارت عليه وقطعت — على طريقه — أشواطا بعيدة حتى استقرت ووصلت الى ما رأينا .

وسواء كانت تلك الأصوات ناشئة عن طبيعة الانسان — الذى بدأ يتكلم من تلقاء نفسه ، أو أنه أجمع بالاصطلاح على وجودها ، أو كانت بوحى الهى وتوقيف أو نشأت محاكاة لأصوات الحيوانات والأشياء الطبيعية من حوله أو غير ذلك من آراء قيلت فى نشأتها ، سواء كان أى هذه الآراء هو الأصل فى وجود لغة الانسان فان الذى تريد أن تقرره هو أنه احتاج الى أداة يتعامل بها ، فكانت اللغة ، التى استقرت فى تلك الأصوات المألوفة لكل مجتمع بشرى .

والانسان — مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع — بحث فيما حوله من كائنات عله يجد مايفيده وينتفع به ونقب فى الأرض التى يعيش على ظهرها ، واستطاع — بعد تقدم فكرى وعلمى — أن يصف حقائق الموجودات ، ويضع قوانين لما قام به من دراسات ، فوجدت قوانين للطبيعيات ، وقوانين للرياضيات ، وقوانين للفلك ، واستقرت بذلك علوم الطبيعة ، والرياضيات ، والفلك ، والجيولوجيا والجغرافيا ، والتاريخ ، والعمران البشرى ، وغير ذلك .

ولم يكتف الانسان بذلك ، بل نظر فى نفسه وجسمه ، فحلل أعضاءه ومكوناته الجسمية ، وبين أسس تكوينها ، ووظائفها ، ومبلغ قدرتها ، وأسباب قيامها بعملها ، واستمرار نشاطها ، وأسباب توقفها عن العمل ، أو ضعف قوتها ، وعجزها عن أداء مهمتها ، وبعد أن « شخص » الظواهر الفسيولوجية ، والبيولوجية ، استطاع أن يصف العلاج الملائم — حين تحتاجه — كما هيأ السبل التى يمكن بها حفظ الحياة الصحيحة ، للبشر ،

فى صورة قواعد عرفت بفن الطب الذى ارتقى فى عصرنا الى درجات بعيـدة •

وكما بحث نفسه بحث لغته التى عرف أهميتها فى وجوده ، والحفاظ على مجتمعه فقد عرف أنه لا يمكن أن يستغنى عن الجماعة التى ينتسب اليها ، وقـد صدقت نظرية ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع حين قالوا ((الانسان مدنى بطبعه)) ، بمعنى أنه لايستغنى عن أهله ، ويميل الى الألفة والاجتماع مع بنى جنسه •

وقـد أدرك أن لغته هى الوسيلة لتحقيق هذه الغاية ، فنظر اليها بعين الاهتمام ، وحاول أن يعرف حقيقتها • وأسـباب بقائهـا سليمة لايعتورها الضعف مستمرة فى أداء مهمتها فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وقد دعاه ذلك الى درس ظواهرها ، ليعرف منشأها ، وعوامل حياتها ، وأسباب بقائها متوحدة ، وأسباب انقسـامها ، وانتشـارها فى ربوع الأرض ، وانتقالها الى مجتمعات أخرى ، وصراعها مع اللغات المتجاورة، والنتائج المترتبة على ذلك ، واختلافها فى مراحلها التاريخية •

أراد بذلك أن يحدد علاقته باللغة ، والحفاظ عليها ، ومن هنا ، وبعد أن ارتقى الانسان ، وانقسمت طوائفه فى شتى أرجاء المعمورة ، وجدنا القوميات المختلفة ، التى تعتز كل منها بلغتها ، وتنهض لدراسـتها ، بل تؤكد — بالبحث وبغيره — أنها أرقى اللغات الانسانية ، وربما زعمت أنها أولى اللغات فى العالم •

فقد ادعى العبريون أن لغتهم العبرية ، تمثل اللغة الأولى التى تكلم بهـا الانسـان فى بدء وجوده التـاريخى وذهب العرب الى أن لغتهم العربية هى أولى اللغـات ، ووقف عالم تركى فى العصر الحـديث [1] ليعلن أن التركية هى صاحبة السبق على جميع اللغات •

---

(١) كان ذلك فى مؤتمر لغوى عقد سنة ١٩٣٤ م • أنظر د. ابراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٠ •

وهذا تعصب قومى نابع من اهتمام تلك الأمم بلغاتها ، وقد هبت لدراستها ، لتكشف عن سر بقائها واستمرارها .

واللغة العربية — بحق — تعد من أرقى اللغات المتصرفة بيانا أن لم تكن أرقاها على الاطلاق ، ولا نقول ان الانجليزية أو الفرنسية أرقى لأنهما انتشرتا فى أماكن كثيرة من العالم ، وتستعملان كثيرا فى المحافل الدولية ، لأن انتشار اللغة ليس دليلا على رقيها ، بل انه ينشأ تبعا لأسباب كما تنطبق على لغة تنطبق على أخرى .

فقد هيأ الزمن للغزو الانجليزى والفرنسى أن ينشر هاتين اللغتين فى المجتمعات التى تقع تحت وطأته ، وأن تتأثر بهما لغات الشعوب المغلوبة ، ولأن الضعيف يحب تقليد القوى اتخذت الشعوب المغلوبة هاتين اللغتين وسيلة للتفاهم تاركة لغاتها الأصلية تمرض وتموت ، ونحن نعرف أن انجلترا يوما ما كانت تسمى الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس ، لاتساع رقعة البلاد التى غزتها واستعمرتها ، فلا عجب أن يكون لهاتين اللغتين وجود على المسرح العالمى ، فمعظم الدول التى وقعت تحت نير الاستعمار تتحدث — حتى الآن — الانجليزية أو الفرنسية .

وسنتكلم — فى علم اللغة — عن أسباب انتشار اللغات أو انكماشها وصراع اللغات بعضها مع بعض ، ومن بين تلك الأسباب الغزو ، وما ينجم عنه ، من سيطرة بعض الشعوب ، بقوتها ، وثقافاتها على شعوب أخرى ، وآثار ذلك على لغاتها .

ويوم أن خرجت العربية من جزيرتها مع العرب الفاتحين للأقطار المحيطة بها تغلبت العربية على لغات البلاد المفتوحة ، فى بلاد فارس والشام ومصر ، وصرعت الفارسية فى الأولى ، والرومية فى الثانية ، والقبطية فى الثالثة ، حتى اقتصرت على أداء المراسم ، والعبادات فى الكنائس ، والأديرة .

وبذلك تعرف أن الانتشار ليس دليلا على رقى لغة ، وتفوقها على غيرها ، بل لذلك أسباب أخرى ، تنبع من نظام اللغة ، وجوهرها ، وقواعدها المعجمية ، والنحوية ، والصرفية ، والدلالية ، وغيرها •

والعرب أرباب البيان يفخرون به على غيرهم ، ولذلك حظيت لغتهم بدراسة لها طابع الجودة ، والقوة الى الحد الذى أثار اعجاب المستشرقين والمشتغلين بدراسة اللغات فى العالم •

فقد اهتموا بها من الناحية المعجمية ، ووضعوا لها القواعد التى تحفظ كيانها ، نحوا ، وصرفا ، واشتقاقا ، وكانت دراستهم على جانب كبير من الدقة ، فى وقت كان العالم الخارجى يغط فى سبات الجهالة العميق ، فدراستهم من أسبق الدراسات اللغوية ، اذا نظرنا الى بعض الدراسات الهندية ، واليونانية ، بيد أن الدراسة العربية كانت أسدى وأقوى •

والذى ساعد على ذلك هو أنها نشأت لخدمة كتاب الله العزيز ، (القرآن الكريم) وحوله قامت كل الدراسات الاسلامية تقريبا • فقد جمع الحديث وشرح ، لخدمة القرآن ، وكانت التفاسير المتعددة للقرآن والتى وصلت حدا من الكثرة والابداع يدعو الى الاعجاب ، ولا يطلب مزيدا ، وكانت — كذلك — الدراسات اللغوية حفاظا على لغة القرآن حتى يبقى بين أصحابه يتلى ويعمل بمقتضاه •

ففى علم التجويد وضعت الأسس الصوتية للغة العربية ، فحددت الأصوات العربية ، ووصفت مخارجها وصفاتها ، وتفاعلها مع غيرها ، وما يبقى وما يغير ، وما يجب اتباعه عند النطق وصحة الأداء •

ومن هذا بقى لأصوات العربية عمر طويل استمر حتى عصرنا الحالى شابا فتيا •

وفى المجال المعيارى وضعت قواعد النحو والصرف والعروض وغيرها من العلوم اللسانية واتبع فى هذا الوضع أحد طريقى البحث اللغوى المنهجى ، وهو الطريق الوصفى ، فقد جمع العلماء العرب

الشواهد (عينات لغوية بتعبير المحدثين) ووضعوا القواعد والقوانين حسب مايظهر من أكثر الشواهد التى تمثل ظاهرة لغوية معينة ، وما يخالف الأكثرية لايعول عليه ويعــد شــاذا كما ثبت ذلك فى دراسـة البصريين التى تعد لونا من الدراسة النحوية المنهجية الصحيحة •

ولا معول على دراسة الـكوفيين التى تضع قانونا لغويا لـكل شاهد ، (عينة من نموذج واحــد) ولو كان مصــنوعا أو غير موثوق بصحته ، فقد أجازوا — مثلا — دخول اللام فى خبر لـكن استنادا الى قول الشاعر ، فى شطر لاتعرف تتمته ولا قائله وهو :

• • • • • ولــكننى من حبهـــا لعميــــد [٢]

على كل حال ، فان الدراســة العربيـــة ، — متمثلة فيما قام به البصريون — دراسة منهجية سليمة ، وقد قامت على أساس وصفى •

وبحق ، فان الدراسة العربيــة ، كانت تحتاج الى لون من الاتجاه التاريخى ، فتدرس الظواهر اللغوية فى عصـــور التــاريخ العربى ، الجاهلى والاسلامى والأموى والعباسى ، والتركى والحــديث ، حتى نعرف مدى التخالف والتوافق ، وخط سير الظاهرة الواحدة فى هــذه العصور المختلفة ، وذلك كان يتأتى بالمقــارنة بين النتائج التى تصل اليها الدراسة فى كل عصر منها •

وأساس هذا اللون الدراسى هو اللون الأول (الوصفى) الذى نفذه علماؤنا فى دراسة فصحانا العربية •

ولعل اكتفاءهم بالجانب الوصفى راجع الى اهتمامهم بالفصحى ، ولم يكن لهم اتجاه الى اللهجــات الشعبية ، بغرض استمرار الفصحى

---

(٢) تردد فى معظم كتب النحو ولم يثبت له صــدرا الا ابن عقيل فى شرحه على الألفية وهو : يلوموننى فى حب ليــلى عواذلى (فى باب « ان » وأخواتها) ج ١ ص ٣١٠ •

فى الانتشار والانتقال من عصر الى آخر ، وقد كان لاهتمامهم بهاء الأثر الأكبر فى بقائها بيننا حتى الآن ، ففى مجتمعاتنا — على الرغم من تعدد العاميات — من يتحدث العربية الفصحى على وجه يقترب — ان لم يماثل تماما — الوجه العربى الأصيل الذى كان ينطق فى عصور للعربية الأولى ، ويمكن للرجل الشعبى أن يفهم الفصحى لأنها ليست بغريبة عليه •

نعم نحن نعرف أنه قد ماتت ألفاظ ، ونشأت أخرى ، وتطورت أصوات ، وبقيت أخرى ، ونشأت ثالثة ، وتغيرت الدلالة لبعض الألفاظ والتراكيب ، وغير ذلك من وجوه التطور ولكن — بوجه عام — لايزال للعربية وجود لغوى واقعى •

كما كانت لهم دراسات لغوية تكشف عن أسرار العربية ، وسبب قوتها وفصاحتها ، وعوامل نموها ، وصلاحيتها للحياة والحضارة فى تلك البحوث القيمة التى قام بها الخليل ، وسيبويه ، وعبقرى الأبحاث اللغوية الفذ ابن جنى ، ومعاصره أحمد بن فارس ، وغيرهم من أقطاب الدارسين الذين كشفوا عن خصائص العربية ، وسماتها الأصيلة ، وتعد أبحاثهم من صميم علم اللغة بجانب ما أثاروه من قضايا لهجية ، وصوتية وتطورية تعد جارية على المنهج العلمى الذى اعتمده المحدثون من علماء اللغة ، وسنأتى الى تفصيل ذلك بعد •

وقد نشأت دراسات لغوية متعددة ، فى أرجاء كثيرة من أقطار العالم ، وبخاصة فى أوربا بعد أن نهضت وأخذت طريقها فى الحضارة التى تأثرت بالحضارة العربية السابقة ، فوجدت طرائق ومناهج للبحث اللغوى فى الجهات المختلفة بلغت فى عصرنا الحديث درجة كبيرة من الدقة والعمق ، ووجدت الآلات والأجهزة العلمية التى تساعد الدارس ، والباحث على الوصول الى مراده من أيسر طريق ، ثم انها تعطى له فرصة الدرس العملى التحليلى ، المعتمد على الحقائق ، فيمكن درس ظاهرة لغوية فى لغة ما باستحضار العينات اللغوية وتحليلها ، والوقوف على القوانين التى تحكمها •

الباب الأول

علم اللغة عند علماء العرب

علم اللغة عند علماء العرب

مدلوله والموازنة بينه وبين (فقه اللغة) :

يختلف مدلول « علم اللغة » عند علماء العرب عنه عند علماء الغرب لاختلاف الداعى اليه ، وظروف نشأته ، وما وصل اليه من شأو فى الشرق والغرب ، وسنبين ذلك تفصيلا .

ولما كانت الدراسات العربية فى درجة من الأهمية للباحث اللغوي — بصفة عامة — لأنها من الأسس التى بنيت عليها الدراسات اللغوية فى العالم — قديما وحديثا — وللباحث العربى — بصفة خاصة — لصلاتها الوثيقة بلغته وتراثه العربى والاسلامى ، ولتكون الافادة من دراسة علم اللغة — فى نشأته وتطوره — محققة غايتها كان لزاما علينا أن نبدأ بدراساتنا ذات القيمة العلمية واللغوية ، ثم نثنى بالدراسات الأوربية — وغيرها من الدراسات الأجنبية — حيث شب علم اللغة عن الطوق ، ونهض نهضة كبرى بفضل التقدم العلمى ، والبحث التجريبى الذى كشف الكثير مما كان مجهولا من قبل .

ويجدر بالباحث فى هذا العلم عند العرب ، أن يوازن — على النحو المعجمى — بين اصطلاحات ثلاثة (علم — فقه — لغة) حتى يصل الى المراد من الدراسة التى أنشأها علماء العربية ويتضح له مفهومها .

مادة (علم) :

تفيد الفهم الدقيق ، والمعرفة ، والخبرة بالشىء ، ويتضح ذلك بآثاره الحسية .

ولعل المادة — أساسا — كانت تدل على الأثر يستدل به على الشىء ماديا أو معنويا .

جاء فى اللغـــة : المعلم : الأثر يستدل به على الطريق ، والعلم : الشق فى الشفة العليا ، ومعلم كل شىء : مظنته ، وفلان معلم للخير .

فـــكأن الأشـــياء التى يطلب الانســـان معرفتها تحتاج الى آثار توضحها ، وتبينها لطالبيها ، وفى أماكنها التى تكون فيها .

وعلى هذا جاء : علمت الشىء : عرفته وخبرته ، وعلم بالشىء : شعر به ، وعلم الأمر وتعلمه : أتقنه ، ومنه عالم ومتعلم ، فالانسان — أول دخوله فى العلم — يعد متعلما ، فاذا طالت مزاولته له وملابسته صار كأنه غريزة ، فيقال له : عالم لا متعلم ، ويخرج به الفعل الى باب (فعل) — بضم العين — : (علم) ولذا يكسر على فعلاء ولا يقال لأحد انه عالم بكذا الا اذا اتضحت عنـــده أمارات ، وآثار ، تثبت المعرفـــة لديه ، فالعالم يحتاج الى برهان ومن هنا أصبحت الآثار التى تدل على شىء ما معنويا أو ماديا (معالم) (١) .

مادة (فقـــه) :

تدل هذه المـــادة على (الفهم والعلم) ويتبين ذلك من تصرفاتها فـ (الفقـــه) : العلم بالشىء والفهم له ، و (فقـــه) تأتى بالمعنيين معا ، فقه : علم ، وفقه : فهم ، وفقهت الحديث أفقهه : اذا فهمته ، وفقيه العرب : عالمهم ، وكل عالم بالشىء فهو فقيه ، ويقال : فقه — بضم القاف — : صار فقيها .

وماضى الثـــلاثى — كما نرى —مكســـور العين ، ومضمومها ، ويستعمل الأول لازما ، ومتعديا أما الثانى فلازم ، والوصـــف منهما على (فعيل) : فقيه ، والأنثى فقيهة من نسوة فقائه ، وحكى اللحيانى : نســـوة فقهـــاء ، وهى نادرة ، وفى القرآن الـــكريم : (ليتفقهوا فى الدين) أى ليكونوا علماء به ، ويقال : فقهه — بالتضعيف — وأفقهه : علمه ، وفاقهته : باحثته فى العلم .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ ١٥ ص ٣١١ — ٣١٥ .

وفى الحديث : لعن الله النائحة والمستفقهة ، وهى التى تجاوبها فى قولها ، لأنها تفهم ماتقول ، وتجيبها عنه (٢) .

مادة (لغـة) :

اللُّغة من الأسماء الناقصة وأصلها (لغوة) على وزن (فعلة) بضم الفاء وسكون العين من (لغا يلغو لغوا) : تكلم ، أو من (لغى يلغى) — بكسر الغين فى الماضى وفتحها فى المضارع — : لهج .

قال ابن جنى : (أما تصريفها ومعرفة حروفها فانها (فعله) من (لغوت) أى : تكلمت وأصلها (لغوة) ككرة وقلة وثبة كلها لاماتها واوات ، لقولهم : كروت بالكرة ، وقلوت بالقلة ، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب ، وقالوا فيها : لغات ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغى يلغى : اذا هذى) (٣) .

والاشتقاقان اللذان قال بهما ابن جنى مذكوران فى المعاجم .

وقيل : ان فعله (لغى) — بكسر الغين — الا أنه فتح لحرف الحلق ، فيكون ماضيه (لغا) ومضارعه (يلغو) و (يلغى) .

ومن معانى (اللغو) : النطق و (اللغا) : الصوت ، و (لغوى الطير) : أصواتها .

ويطلق كل من اللفظين (اللغو) و (اللغا) على معان أخرى لها صلة بالنطق ، والأصوات (٤) .

---

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١٧ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

(٣) ابن جنى : الخصائص ١/٣٣ واعتبار أصل لغة : (لغوة) على (فعله) فيه جمع بين العوض والمعوض ولا يجتمعان الا نادرا . أنظر الأشمونى ٤/٣٤٠ — ٢٤٣ ومنار السالك ٢/٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ وسيبويه : الكتاب وتعليق الأعلم على قول الشاعر ، (هما نفثا فى فى من فمويهما) ٢/٨٣ ومحاضرات لأستاذنا الدكتور محمد قناوى .

(٤) ابن منظور : اللسان ٢٠/١١٦ — ١١٩ .

ومما ورد من نصوص خاصة بكلمة (اللغة) واشتقاقاتها نستنتج أنها تدور حول معنى (الأصوات) الانسانية وغيرها ، وما يشبهها من معان مختلفة [٥]

وعلى هذا فان (علم اللغة) أو (فقه اللغة) يعنى فهم الأصوات مفردة ومركبة ، وادراك خصائصها .

وباعتبار اطلاق كل من المصطلحين على علم خاص يصبح مفهومه : العلم الذى يتناول مفردات اللغة وتراكيبها وما لها من خصائص .

وبهذا عرف ابن خلدون (علم اللغة) فقال : هو بيان الموضوعات اللغوية [٦] .

وعرفه الفارابى بقوله : علم الألفاظ الدالة عند كل أمة على قوانين تلك الألفاظ [٧] .

موقف علماء العربية من مصطلحى (علم اللغة) و (فقه اللغة) :

تبعا للمفاهيم المذكورة فى تحليل كلمات (علم — فقه — لغـة) نجد تقاربا بين (علم اللغة) و (فقـه اللغة) عند العرب ، فكل من الاصطلاحين يعنى : فهم اللغة ، ومعرفة خصائصها ، واكتناه أسرارها .

ويظهر أن علماءنا القدامى كانوا لايفرقون بين المصطلحين (علم اللغة) و (فقـه اللغة) فهما — عندهم — بمعنى واحد داخل أساسا فى (علوم اللغة العربية) — حسبما تبين من التفسير المعجمى السابق — لـكنهما يختلفان عن مصطلحات العلوم العربية الأخرى من نحو وصرف وبلاغة ، وأدب بمعاناها التعليمى .

---

(٥) كتابنا (اللغة العربية — خصائصها وسماتها) ص ٦ .
(٦) ابن خلدون : المقـدمة ص ١٢٥٨ .
(٧) الفارابى : احصاء العلوم تحقيق الدكتور عثمان أمين ط ٢ القاهرة ١٩٤٩ ص ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ .

وقد أطلقوا (علم اللغة وفقـه اللغة) على (متن اللغة) أو (جمع ألفاظ اللغة وشرحها) . على نحو ماهو معروف فى المعاجم اللغوية ، كما أطلقوا كلا منهما على تتناول بعض قضايا اللغة العربية كالتعريب ودلالة الألفـاظ — كالمشترك والمتضاد والمترادف — والفصيح وغيره . على غرار ماورد فى كتاب (فقه اللغة) للثعـالبى ، والمزهر للسيوطى وهم — مع ذلك — كانوا يؤمنون بأن هذه الدراسة تختلف عما يسمى بـ (علم النحو) المتعارف عليه .

فحين اختلط العرب بالأعاجم ، وشـاع الفسـاد على الألسنة ، وضعت القواعد والقوانين التى كان الهدف منها وقاية اللسان من العثار . والوقوع فى الخطأ ، وليستطيع الأعاجم تعلم لغة الاسلام الذى دخلوا فيـه ، وهم فى حاجة ملحة الى معرفة مبادئه وتعاليمه ، فلما استشرى الفساد بتحريف أصـوات بعض الـكلمات ، وتغيير معـانى بعضـها الآخر ، وأماتة كلمات وتراكيب عربية ، وحلول كلمات وطرائق أعجمية محلها ، لمـا حدث ذلك وأشباهه دخلت العربية مرحلة جديدة ، ودخلت دراستها مرحلة مناسبة لحفظها ، وصيانتها ، من تلك التيارات الأجنبية .

وقد بين ابن خلدون أن اللغة — فى تلك الفترة — احتاجت الى لون دراسى جديد يخالف النظام النحوى — المصطلح عليه — يقول : (انه لمـا فسدت ملـكة اللسان العربى فى الحركات المسماة — عند أهـل النحو — بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد الى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ، ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربيـة ، فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالـكتاب والتدوين ، خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين) [٨] .

---

(٨) ابن خلدون : المقـدمة ص ١٢٥٨ .

وقــد ضرب أمثلة لمــا ألف فى ذلك ، وحصره فى المعجمات وما اشتمل عليه (فقه اللغة العربية) من دراسات على غرار مافى كتــاب (فقه اللغة) الثعالبى ونحوه •

ويظهر مما كتبه الشيخ حمزة فتح الله أن القدامى خصوا هــذين المصطلحين بما ذكره ابن خلدون من (علم متن اللغة) وبعض القضايا اللغوية كارتباط الألفاظ بالمعانى وغيره من المباحث التى تتعلق بالعربية فيقول : (اعلم أن التأليف فى علم اللغة مبنى على أسلوبين : لأن من العلماء من يذهب من جانب اللفظ الى المعنى بأن يسمع لفظــا ويطلب معناه ، ومنهم من يذهب من جانب المعنى الى اللفظ ، وقد وضعوا لــكل من الطريقين كتبا ، فمن وضــع بالاعتبــار الأول فطريقــه فى حروف التهجى جعل أواخرها أبوابا ، وأوائلها فصولا كالجوهرى فى الصحاح ، ومجد الدين فى القاموس ، وابن مكرم فى اللسان ؛ أو بالعكس كابن فارس فى المجمل ، والمطرزى فى المغرب ، ومن وضع بالاعتبار الثانى جمع الأجناس بحسب المعانى وجعل لــكل جنس بابا كالزمخشرى فى قسم الأسماء من مقدمة الأدب ، ومنهم من يعتبر الأول والثــانى وما يثلثهما كالفيومى فى المصباح) •

ويقول : اعلم أنه يقال لعلم اللغة (علم متن اللغة) [٩] •

وينقل عن العلامة شمس الدين الأكفانى مانصه (القول فى علم اللغة) ووه علم ينقل الألفاظ الدالة على المعــانى المفردة ، وضــبطها وتمييز الخاص منها بذلك اللسان من الدخيل فيه ؛ وتفصيل مايدل على الذرات مما يدل على الأحداث ، وما يدل على الأدوات ، وبيان ما يدل على أجنــاس الأشياء وأنواعها ، وأصنافها ؛ مما يدل على الأشخاص ، وبيان الألفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة ، والمتشابهة [١٠] •

---

(٩) الشيخ حمزة فتح الله : المواهب الفتحية جـ ١ ص ٢٠ ، ٢١ ، و د. بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الثانى ص ٤٠ ، ٤١ .

(١٠) الشيخ حمزة فتح لله : المواهب الفتحية جـ ١ ص ٢١ ود. بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الثانى ص ٤١ •

وفى كتاب (الصاحبى فى فقه اللغة) لابن فارس و (الخصائص) لابن جنى ألوان دراسية خاصة بالعربيــة ، تدخل فى هــذا النطاق ، ويجعلها كل منهما لب الدراسة اللغوية أو بتعبيرهما (أساس علم العرب وأصــوله) .

يقول ابن فارس : (ان لعلم العرب أصــلا وفرعا ، أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا : رجل وفرس ، وطويل وقصــير ، وهذا هو الذى يبدأ به عند التعلم ، وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ، ومنشئها ، ثم على رسوم العرب فى مخاطباتها وما لها من الافتنال تحقيقا ومجازا) (١١) .

ويقول ابن جنى (هذا الـكتاب ليس مبنيــا على حــديث وجوه الاعراب وانما هو مقام القول على أوائل أصول هذا الـكلام ، وكيف بدىء ، والام نحى .. يتســاهم ذوو النظر من المتكلمين والفقهــاء ، والمتفلسفين ، والنحاة ، والـكتاب ، والمتأدبين التأمل له والبحث عن مستودعه) (١٢) .

ويقول : ان هذا (من أشرف ماصنف فى علم العرب ، وأذهبــه فى طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصون ، وآخذه له من حصة التوقير والأون ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة) .

ويؤكد ابن جنى أن تلك الدراسة مختلفة عما عرف بالنحو والصرف أو جمع اللغة اذ يذكر أن ماسلكه من طرق فى الدراســة عجز عنــه البصريون والـكوفيون ، ولم يستطعه الا هو (١٣) .

وقد أطلق ابن فارس على مؤلفه اسم (فقه اللغة) وسمى ابن

---

(١١) ابن فارس : الصاحبى ط بيروت ص ٢٩ .
(١٢) ابن جنى : الخصائص ١/٦٧ وانظر أيضا ١/٣٣ .
(١٣) المصــدر السابق : جـ ١ ص ١ ، ٢ .

جنى كتابه (خصائص العربية) وهو كتاب جدير بأن يطلق عليه اسم (فقه اللغة) •

ويشير بعض الباحثين المحدثين الى مايعنيه (المفكر اللغوى الاسلامى الكبير — ابن جنى — بذلك من الفرق بين علوم اللغة وعلم اللغة أو فقه اللغة فعلوم اللغة هى العلوم الموازين الحاوية للقواعد ، والقوانين التى تبين الخطأ من الصواب ، أما علم اللغة وفقه اللغة فهما من المباحث التفسيرية الفلسفية الوصفية ، التى تنبنى على درس العلاقة القائمة بين الفكر والتعبير ، ودرس التطور التاريخى للغة ، واستقراء الظاهرة اللغوية فى خلال النصوص ومقارنة الظواهر بعضها ببعض) [١٤] •

ويقول الأستاذ زكى مبارك : ان عبارة (فقه اللغة) لم يكد يتفق القدماء على افرادها بمدلول خاص ، وانما وردت عندهم اختيارا لسبب معين ، ويمكن أن يكون لها فى نفوسهم مع ذلك مدلول خاص فقد ذكر الثعالبى سبب تسمية كتابه (فقه اللغة) بأن الأمير الذى رفع الكتاب اليه اختار هذا الاسم ، ولكن — مع ذلك — فان الاسم يدل على تفكير علماء القرن الرابع والخامس فى فن جديد يختلف عن علوم البلاغة وما عرف اصطلاحا بمسائل النحو والصرف فى ولعل بعضهم غلبت عليه صفة الكتابة فمال الى مادة الانشاء ، فبحث عن الألفاظ وذكر ماتبدد منها وبعضهم غلب عليه النحو ، والتصريف ، فأراد أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الاعراب ، فجاءت دراستهم مزيجا من أسرار اللغة، وأسرار الاعراب ، وقد غلب ذلك على دراسة المخصص لابن سيدة ، والصاحبى لابن فارس ، والخصائص لابن جنى [١٥] •

ولعل الفرق لم يظهر واضحا بين المصطلحين فى كتب القدماء — كما رأيت وكما يظهر فيما كتب السيوطى فى مزهره •

---

(١٤) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ٤٣ بتصرف •

(١٥) زكى مبارك — النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٣٧ — ٤٠ •

وقد جرى على عدم التفريق بينهما كثير من المتخصصين فى اللغة حديثا فهم قد يفهمون أن علم اللغة دراسة الصرف أو النحو أو الاشتقاق ومعرفة الشوارد النادرة وحواشى الكلام . وتمييز الكلام الفصيح من غير الفصيح على نحو ماجاء فى المزهر السيوطى أو فقه اللغة للثعالبى أو على أحسن تقدير على غرار ماعرض ابن جنى فى خصائصه أو على أنه علم المعجمات وهم يجعلون (علم اللغة) مرادها للمصطلح القديم (متن اللغة) مخدوعين فى ذلك الاستعمال التقليدى بمصطلح (علم اللغة) الذى ورد ذكره بهذا المعنى كثيرا فى كتب اللغة العربية القديمة كالصاحبى لابن فارس ، والمزهر للسيوطى وغيرهما ، وفى بعض المؤلفات الحديثة كذلك (١٦) .

وبعض المستشرقين الذين قاموا بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة خلطوا بين (علم اللغة) وبين مايسمونه (فقه اللغة) مريدين به فى الأغلب دراسة العلاقات التاريخية بين العربية وبين سائر اللغات السامية أو دراسة المفردات على أساس تاريخى أو ماقارب ذلك ونمى هذا الاتجاه جيل من أساتذة معهد اللغات الشرقية بجامعة القاهرة (١٧).

وهذا خلط بين « علم اللغة » والفيلولوجيا فالفيلولوجيا معرفتنا بها أسبق كثيرا من معرفتنا بعلم اللغة ، والمستشرقون الذين كانوا يأتون للتدريس فى الجامعات المصرية سابقا كانوا كلهم أو معظمهم من العلماء المعنيين بالدراسات السامية المقارنة ، وهذه الدراسات — كما هو معروف — دراسات فيلولوجية بالدرجة الأولى (١٨) .

---

(١٦) د. بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الأول من مقال عن كتاب علم اللغة للدكتور السعران ص ١٢ .

(١٧) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٢ .

(١٨) د. بشر : دراسات فى علم اللغة ص ١٣ .

بل ان الأستاذ جويدى (الذى كان أستاذا لفقه اللغة العربية فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦) يذكر أن كلمة Philology يصعب تفسيرها وترجمتها الى العربيــة وأن بعضهم جعلها تشمل ذلك وتشمل معه الحيــاة العقلية بكل وجوهــا ؛ فتشمل تاريخ اللغــات والمقارنة بينها ؛ وعلم الأدب بمعناه الواسع ، فيــدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم دينية أو فلسفيــة أو لغوية ، فهو علم واسع الدائرة وعلى (الفيلولوج) اذا حاولل أن يدرس درجة التمدن عند شــعب ما أن يدرس كل العلاقات والحوادث السياسية والتاريخية ، لغوية ودينية وأدبية وغيرها وذلك باب واسع عسير جعل الأستاذ جويدى نفسه يقول: أن معرفة كل ذلك صعب ولا يمكن لباحث أن يجيد كل أجزائه (١٩) .

ومن هنا اعتبر الدكتور صبحى الصالح أن التفرقة بين التسميتين « علم اللغة وفقه اللغة » تافهة لا وزن لها ، فكلاهما علم الكلام بمعنى: معرفته وفهمه الا أنه فى الثانى فهم عميق وبحث دقيق ، وهذا مادفع علماء العربيــة قــديما الى تسمية كثير من البحوث المتعاقبة باللغــة باسم (فقه اللغة) ولم يقف الأمر عند القدماء ، بل تابعهم على ذلك المحدثون فقالوا : « أما بحوث علم اللغــة فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفــة أشهرها اسم « فقه اللغة » هذه التسمية هى خير مايوضع لهــذه البحوث فان فقــه الشىء هو كل مايتصــل بفلسفته وفهمــه ، والوقوف على مايسير عليه من قوانين ، فقــد قال صــاحب المصــباح : الفقــه فهم الشىء ، وقال ابن فارس : كل علم لشىء فهو فقــه » .

---

(١٩) زكى مبــارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ص ٣٧ — ٤٠ بتصرف .

ومصطلح علم اللغــة يقترب من مصــطلح فقــه اللغــة عنــد الفرنجة [٢٠] .

واذا كان هــذا هو شأن الســابقين ومن جرى على منوالهم من المحدثين فاننا نلمح أن التسمية لغوية بحتة على أساس التفسير اللفظى لمصطلحات « علم وفقه ولغة » على النحو المعجمى السابق .

ويعــد الدكتور كمــال بشر « فقــه اللغة » — بمفهومه القديم والحديث— حلقة من حلقات الدروس فى « علم اللغة » وبهــذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام « علم اللغة » .

ويرى — ونحن نتابعــه فى هذا الرأى : أنه لامانع من الاحتفاظ بالمصطلح « فقــه اللغــة » لارتباطه بتاريخ طويل ، وتقليد ممتد عبر القرون فى الدرس اللغوى العربى والســامى ، بوجه عام ، وهــذا بشرط قصره على الدراسات السابق ذكرها . وعدم الخلط بينه ، وبين ذلك الاطــار الأعم والأشمل « علم اللغة » فالعــلاقة بينهما علاقــة العموم ، والخصوص وليست علاقة الترادف [٢١] .

---

(٢٠) د. الصــالح : دراســات فى فقــه اللغة ص ٣ ، ٤ فالأول عنــدهم هو : Linguistique ou Science du Langage
بمعنى (العلم المختص بالــكلام أو اللغة) والثــانى عنــدهم هو : Philologie والمركب من كلمتين اغريقيتين الأولى Philos ومعنــاها (صــديق) والثانيــة Logos ومعناها (الــكلام أو الخطبة) فالمعنى العام هو : حب الــكلام للتعمق فى معرفة قواعده ، وأصوله ، وتاريخه.

(٢١) د. بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الثانى ص ٤٩ وهذا بنــاء على التأثر بالدراسات الغربية التى اعتمــدت تقسيم الدراســات الى نوعين :

(أ) نوع خاص بدراسة لغة معينة أو طائفة متشابهة من اللغات ، وقــد أطلقوا عليه اسم (فقه اللغة) .

(ب) نوع عام يشمل دراسة ظواهر اللغات جميعا لاستخلاص مبادىء وأحكام عامة تنطبق عليها وقد أطلقوا عليه اسم (علم اللغة) .

ولا ريب أن الأول خاص والثانى عام ، أو بحوث الثانى مترتبة على بحوث الأول على الرغم من الفصل بينهما .

الداعى اليه :

لم يكن العربى الأول محتاجا الى من يفسر له اللغة ، أو يعلمها له ، فقد كانت فطرته التى فطره الله عليها ، وكان — مع ذلك — أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلما جاء الاسلام ، وامتدت فتوحاته بدت الحاجة الى جمع اللغة ، والحفاظ عليها ، لأن اللحن بدأ يتسرب الى ألسنة المتكلمين بالعربية ، وقد ظهر فى العصر الاسلامى كثير من الأخطاء وحدثت بوادر منها فى عصر الرسول ﷺ فقد روى أنه ﷺ سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال : « أرشدوا أخاكم فانه قد ضل » وورد — أيضا — أن أحد ولاة عمر — رضى لله تعالى عنه — كتب اليه كتابا لحن فيه ، فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطا ، ومما نقل — كذلك — أن أعرابيا اقرأه المقرىء « أن الله برىء من المشركين ورسوله » (بجر رسوله) ، فقال الأعرابى برئت من رسول الله وكان على رضى الله عنه حاضرا فأنكر ذلك ، ورسم لأبى الأسود من عمل النحو مارسمه [٢٢] .

فكان ذلك من الدواعى الملحة لوضع القواعد النحوية التى تقى اللسان من الخطأ .

وقد خفيت — فى صدر الاسلام — بعض الألفاظ على بعض العرب — حتى الفحول منهم — فقد خفى على عمر معنى كلمة « الأب » فى قوله تعالى « وفاكهة وأبا » فسأل عنها ، وخفى على ابن عباس معنى كلمة « فاطر » فى قوله عز حكمه « الحمد لله فاطر السموات والأرض » فسأل عنها كذلك [٢٣] . فكان ذلك داعيا ، الى جمع الألفاظ،

---

(٢٢) ابن جنى : الخصائص ج ٢ ص ٨ والسيوطى : المزهر ط. الحلبى ج ٢ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٢٣) الأب : جميع الكلأ الذى تعتلفه الماشية ، فالأب من المرعى للدواب كالفاكهة للانسان — فطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم ، وبدأهم ، والفطرة : الابتداء ، والاختراع . أنظر هذين المعنيين — وما ورد عن عمر ، وابن عباس رضى الله عنهم فى اللسان ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ج ٦ ص ٣٦٢ .

مؤيدة بمأثور الـكلام — وبخاصـة الشعر — حتى تظل اللغة واضحة المعانى فيستعان بهـا على فهم ماقد يخفى من ألفاظ القرآن الـكريم ، ومن هنـا قيل : اذا ألبس عليكم شىء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فانه عربى [٢٤] وفى المزهر [٢٥] « اذا سألتهم عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فان الشعر ديوان العرب » .

يضاف الى ذلك أن أهل البـلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام لابد لهم من تعلم العربيـة ، لفهم كتاب الله وسـنة رسـوله ، ليثبت فى نفوسهم ذلك الدين الحنيف ويعرفوا مبادئه وتعاليمه ، وفى المصدرين السالفين أساس وطيد لمـا يصبون اليه وما يحتاجون ، كما رغب هؤلاء الأجانب — مسلمين وغير مسلمين — فى نباهة الشأن والتربع على قمم المنـاصب العالية فى الدولة ، ولا يتأتى لهم ذلك الا بمعرفة تلك اللغة الجديدة ، فأدى بهم شغفهم الى تعلم العربيـة ، ومحاولتهم الدائبـة لاجادتها ، وكما يقول علماء اللغـة « ان المتعلم لأية لغة يخلع عليهـا عوائد النطق فى لغتـه الأصلية ، فالانجليزى — مثلا — لايمكنه نطق العين العربيـة فاذا نطق كلمة عربيـة مشتملة على هذا الصوت ، فانه يبدله بصـوت الهمزة فكلمة (على) العربية ينطقها (Aly) واليونانى ينطق — فى العربية — الحاء خاء فيقول (مخمد) فى محمد » [٢٦] .

وهكذا فالنـاطق بلغـة غير لغته يطبق عليها قواعـد النطق فى لغته الأولى ، ونحن نلاحظ أن الانجليزى حين يتعلم العربية ينطقهـا بلهجة تشبه طريقتـه فى لغتـه الأولى فهى عربيـة الأصوات انجليزية فى طريقتها النطقية ، وكذلك العـربى حين يتعلم الانجليزية فـكثيرا مانلاحظ نطقه للأصوات الانجليزية بطريقة عربية .

---

(٢٤) ابن منظور : اللسان جـ ٦ ص ٧٨ ، ونسب فيه الى الرسـول صلى الله عليه وسلم .

(٢٥) جـ ٢ ص ٣٠٢ ونسب فيه الى ابن عباس .

(٢٦) أنظر د. ابراهيم نجا : اللهجات العربية ص ٢١ .

ومن هنا ، فلقاء اللغة العربية بلغات البلاد التى فتحها المسلمون أوجد تشوها فى أصواتها ، وطريقة أدائها ، بل أدى الى اهمال بعض الألفاظ العربية ، واستعمال كلمات أجنبية ، دخل كثير منها للحاجة اليه [٢٧] ، أو لشيوعه على ألسنة الناطقين به من أهل تلك البلاد ، ثم دورانه فى الاستعمال العام واهمال نظائره العربية ، أو تقليدا من العرب لما استعذبوه من ألفاظ تلك اللغات الأخرى [٢٨] ، وبخاصة بعد أن اتسع نطاق الاختلاط بالأعاجم ، فى العصر العباسى، الذى رفع من شأن الموالى وترك لهم مقاليد الحكم فى الدولة ، حتى علا شأنهم فى عهد الرشيد الى الحد الذى طمعوا فيه فى الاستيلاء على السلطة مما أدى الى نكبتهم على يد الرشيد فى حادثة البرامكة المشهورة فى التاريخ .

هذا — الى جانب انفتاح العرب على ثقافات الأعاجم وعلمهم وحضاراتهم — أدى الى استعمال لغاتهم وطرق مخاطباتهم ، فشاع الفساد واللحن فى اللغةالعربية ، التى دخلت فى صراع مع لغات الأقاليم الجديدة ، وكل مصارع — مهما خرج منتصرا — لابد أن يعتريه الوهن ، وتبدو عليه آثار المعارك التى احتدمت بينه وبين خصمه ، ولا شك أن العربية صرعت لغات البلاد المفتوحة — كالفارسية فى العراق والرومية فى الشام ، والقبطية فى مصر ، ولكن هذا الصراع بدت آثاره على العربية ، بذيوع اللحن والفساد وشمل ذلك — كما ذكرنا — الأصوات ومعانى الكلمات والأساليب ، والقواعد ، التى فسد منها ما فسد ، ودخل عليها ما دخل .

---

(٢٧) كالألفاظ المعربة فى الطب والعلوم مثل السقمونيا والمصطكى من اليونانية والبابونج والزرنيخ من الفارسية والأصطوانة والبركار من الفارسية .

(٢٨) من ذلك المسك الطيب المعروف وله نظير عربى أهمل وهو المشموم والقوت ويعرف عند العرب بالفرصاد فاستعمل المعرب (الفارسى) وأهمل النظير العربى .

وهذا مادفع الحريصين على العربيـة للاهتمـام بهـا ، وتدوين ألفاظها ، وطرائقها فى التعبير ، خوفا من طمس معالمها ، فهى اللغـة التى نزل بهـا كتاب الله تعالى ، فاذا عزت على الأفهام ، بعد المسلمون عن ادراك معانى القرآن وضاعت مبادئه فيضيع الاسلام وينطوى ، وهو الأمل المنشور للانسان بعد أن أخرج الله به النـاس من الظلمات الى النور •

وقد ذكرنا من قبل نصا لابن خلدون يتحدث فيـه عن فساد ملكة اللسان العربى وما ترتب عليه من جمع اللغة وتدوينها وقيام الدراسات حولها (٢٩) •

ويتضح من هـذا النص ، أن الدراسات اللغوية ، التى بـدأت بجمع اللغـة ، واستنباط القواعـد العربيـة منهـا ؛ فى المفردات ، والتراكيب والأسلوب ، والدلالة وبيـان الأصيل منها والدخيل ، وغير ذلك مما يتصل بهذه الدراسة ؛ والاهتمام بشرح القرآن — على أساس الاحاطة باللغـة على الوجه السابق ؛ وجمع الحـديث ، وكل مايتعلق بعلوم الدين واللغـة كل تلك الدراسات قامت من أجل الحفاظ على كتاب الله — بعد أن فسدت السلائق — حتى لاتنبهم معانيـه على الأفهـام فيضيع ، وتضيع مبادىء الاسلام معه •

ويمكن أن يضاف الى ذلك الداعى المهم ، أن بعض العلماء أرادوا — فيما بعد مع الحفـاظ على دين الاسـلام وكتابه — أن يثبتوا براعة العربيـة ، ورقيها على غيرها من اللغات وصلاحيتها للحياة والحضارة، وقـد بدا ذلك واضحا فى مؤلفات عربيـة قامت لترغب فى العربية ؛ وتكشف عن أسرارها ، فى البنيـة ، والأسلوب ، والقواعد ، كخصائص العربيـة ، وسر صـناعة الاعراب لعبقرى اللغويين أبى الفتح عثمان ابن جنى ، — وهو الرومى الأصل — الذى بهرته العربيـة بسحرها ،

---

(٢٩) أنظر ص ١٩ من هذا الـكتاب .

وجمالها ، فقــال : لو أحست العجم بلطف صــناعة العرب فى هــذه اللغــة ، وما فيها من الغموض والرقة ، والدقة لاعتذرت من اعترافها بلغتها ، فضلا عن التقديم لها ، والتنويه منها [٣٠] ، ويقول أيضا : انا نسأل علماء العربيــة ممن أصــله أعجمى ، وقــد تدرب بلغتــه قبل استعرابه عن حال اللغتين ، فــلا يجمع بينهما بل لايكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه ، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه [٣١] .

ثم يشرح لنا منهجه فى خصائصه فيقول : انه « ليس مبنيا على حديث وجوه الاعراب وانما هو مقام القول على أوائل أصــول هــذا الــكلام ، وكيف بدىء ، والام نحى الخ » [٣٢] .

وقد أشرنا من قبل الى حديث أحمــد بن فارس عن وجود فرع وأصل لعلم العرب ، فالفرع معرفة الأسماء والصفات والأصل الوقوف على موضوع اللغة وطرائق العرب فى مخاطباتها وافتنانها [٣٣] .

وحقا ما قاله الأستاذ العقــاد : ان « للأمم فى تنافسها بالمناقب والمزايا ألوان من المفاخرة بلغاتها ، يضيق بها نطــاق البحث ، ومعظم هــذه المفاخر دعوى لا دليل عليها ... وحجتها الــكبرى « أنانيــة » قومية تشبه « أنانية » الفرد فى حبه لنفسه وايثاره لصفاته ، بغير حاجة الى دليل ، أو مع القنــاعة بأيسر دليل ، ولــكن الفصاحة العربية فى دعوى أهلها مفخرة لا تشبه هــذه المفاخر فى جملتها ، لأن دليلها العلمى حاضر لا يتعسر العلم به ، والتثبت منه على ناطق بلســان من الألسنة ، ولا حاجة له فى هــذا الدليــل الى غير النطق ، وحســن الاستماع [٣٤] .

---

(٣٠) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٣١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٣٢) ابن جنى : الخصائص : جـ ١ ص ٦٧ وانظر ص ٢١ من هــذا الــكتاب .
(٣٣) أنظر ص ٢١ من هذا الــكتاب .
(٣٤) العقاد : اللغة الشاعرة ص ٥٤ ، ٥٥

فكانت تلك الدراسات — بألوانها المتعددة — محافظة على العربية ، فجمعت المفردات وحددت الأصوات وطرائق التعبير التركيبية والأسلوبية ، وكشفت عن أسرارها ، وبينت الدخيل من الأصيل ، حتى يكون الطريق واضحا جليا ، وقد استفادت من ذلك الدراسات القرآنية التى اتصلت بضبط القرآن ، وقراءاته وتفسيره ، وتحديد معانيه الدقيقة وسر اعجازه ، وفقا لما نقل عن العرب أرباب اللغة ، وجمع الحديث ، وشرحت معاينه ، واستخلصت الأحكام الدينية من الكتاب والسنة ، وبقى لنا ذلك الأثران المهمان فى اقامة دعائم الاسلام .

وكانت تلك الدراسات اللغوية — أيضا — مفيدة فى نواحى الحياة وشتى الشئون التى احتاج اليها المجتمع الاسلامى ، فى سيره نحو التطور والحضارة ، وما يجد من مستحدثات فى العلوم والفنون المختلفة حتى اليوم .

وقد كانت للعلماء العرب طرائق خاصة فى البحث ، مستمدة من ثقافاتهم والباعث لهم على الدرس ، وتلك الطرائق واضحة ، فى ألوان البحث العلمى ، الذى وصلنا عنهم ، فى العربية ، ومبادئها ، وسلوكها التعبيرى ، وكانوا يعتمدون فى ذلك ، على الذوق والعقل ، ودقة الملاحظة ، ويرسمون حدودهم فى اطار الدراسة القرآنية ، فلا غرو أن تكون لهم شخصيتهم المستقلة ، وبحوثهم التى تتجه اتجاها لغويا يخدم الدين ، ولم يكن عندهم آلات ، أو معامل يجرون فيها تجاربهم اللغوية ، كما وجد — بعد ذلك — لدى الغربيين ، الذين اتسعت بحوثهم ، وارتقت ، نتيجة تقدم العلوم والفنون ، وفى ظل المستحدثات من الآلات والمعامل ، التى مكنتهم من اجراء البحوث التجريبية ، التى توصل الى حقائق معينة ، ربما تكون قد خفيت فى ماضى العصور .

وأيا ما كان الأمر فان بحوث العرب كانت — كما قلنا — الأساس الذى بنى عليه الغربيون مستحدثاتهم فى مختلف الدراسات اللغوية ،

وهى — وان نسبت الى علماء الغرب — فى مظهرها الحـالى — فان الناظر فى جوهرها ، يلمح فيهـا الأصل العربى ، الذى نمت وتفرعت من جذوره والفضل — كما يقولون — لمن بدأ الطريق الشاق وكما قيل :

• • • • • • والحمد فى صوب الحيا للرياح لا للغيوم [٣٥]

التاريخ المنهجى لعلم اللغة [٣٦] :

عرفنا أن الحفاظ على كتاب الله ودينـه كان السبب القوى لنشأة الدراسات اللغوية عند العرب ، بعـد أن نشأ الاختـلاط بين العرب والعجم ، وخيف على الاسـلام وكتابه ومبادئه من شره ، فأدى ذلك — أول الأمر — الى ارتيـاد طائفـة من الرواة وعلماء اللغة للبادية ، لجمع اللغة من العرب الخلص •

وكانت تلك المرحلة خاصـة بالجمـع فحسب ، دون أية دراسـة لغوية فان عزم العلماء — آنذاك — كان متجها الى ضـبط الألفـاظ وتدوينهـا ، وكانت نتيجـة هـذا تـدوين طوائف من الألفـاظ فى موضوعات خاصـة ، كالابل والخيل والوحوش ، والنبـات ، والشجر ، والأنواء ، وأشهر مادون فى ذلك رسائل الأصمعى [٣٧] وأبى حنيفـة الدينورى [٣٨] ، كما وجدت بعض الـكتب التى تجمع ألفـاظ اللغـة الموضـوعة للمعانى المختلفة ، كألفـاظ ابن السكيت [٣٩] ، والألفـاظ الـكتابية للهمذانى [٤٠] •

---

(٣٥) من قصـيدة أرسلها الشاعر ابن زيدون الى الأمير ابن جهور بعد خمسمائة يوم فى السجن •

(٣٦) أنظر اشـارة الى بعض ذلك فى كتابنا (اللغـة العربيـة — خصـائصها وسماتها) ص ٨ — ١٢ •

(٣٧) ت ٢١٦ هـ •

(٣٨) ت ٢٨٩ هـ •

(٣٩) ت ٢٤٤ هـ •

(٤٠) ت ٣٢٧ هـ •

ولما توفر هذا القدر من ألفاظ اللغة ، بدأت مدرسة اللغويين تتناوله بالبحث ، فكانت تدرس المفردات على نحو يجمع الجزئيات ، ويوضحها ، ويذكر مايتصل بها من حوادث ، وقصص أدبية ، ولغوية ، وتاريخية ، ويبدو ذلك فى كتب المبرد [٤١] والأصمعى ، وأبى على القالى [٤٢] ففيها كثير من هذا الذى يشتمل على بيان للمفردات اللغوية، وما يتبعها من قصص تاريخية ، وأخبار عربية ، ومباحث أدبية [٤٣] .

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدى [٤٤] أول من نظر الى البحث اللغوى نظرة عميقة واتجه اليه اتجاها جديا ، فقد عرف قيمة الدراسات الصوتية ، وصلتها باللغة ، فرتب الحروف الهجائية على نحو صوتى ، من الحلق والفم الى الشفتين ، وبين مواطن اخراج الحروف من حلقية ، وشجرية ، وأسلية ، ونطعية وذلقية ، وشفوية، وقد حدد مخرج كل حرف ، على وجه دقيق ، ثم بين صفاتها ، وخصائصها [٤٥] . وهو عمل لاينهض له الا المتخصص ، والباحث الذى يرجو من وراء بحثه ثمرة فى دراسة اللغة ، أما الترتيب الأبجدى العادى فهو من سمات المبتدئين .

وعلى أساس هذا الادراك للأصوات ، وترتيب الحروف عليها،

---

(٤١) ت ٢٨٦ هـ .

(٤٢) ت ٣٥٦ هـ .

(٤٣) أنظر — مثلا — الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٣ عندما بدأ يفسر كلمة (حسرتها)من قول عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك : « يابنى إن نفسى مطيتى ، فان حملت عليها فى التعب حسرتها » فقد أخذ يشرح الكلمة، ويذكر مايوضحها من شعر ، ثم يتطرق الى شرح بعض مفردات هذا الشعر، وينتقل الى شعر آخر ، وهكذا وهو يذكر خلال ذلك بعض القصص التاريخية ، والأدبية ، واللغوية ، وهكذا فى موضوعات الكتاب المتعددة نجد حديث المبرد عن الأدب ، والبلاغة ، والنحو ، وغيرها من علوم العربية ممزوجا بالقصص والروايات التى توضحه ، وتتعلق به .

(٤٤) ت ١٧٠ أو ١٧٥ هـ

(٤٥) الخليل بن أحمد : العين ١/٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٥

أمكن للخليل أن يناقش قضايا لغوية ، وأن يفسرها تفسيرا صوتيا ، كالابدال ، والادغام ، والقلب ، فى اللغة ، وهى ظواهر تقوم على امتزاج الأصوات ، وطرق ائتلافها ، نظرا لتقاربها أو تباعدها .

وملاحظة الأصوات جانب خطير فى دراسة اللغة ، يمكن أن تستفيد منه قضايا كثيرة .

وقد تابع الخليل على ذلك تلميذه سيبويه (٤٦) مع دقة فى التحليل والتفصيل .

كما ألف الخليل — أيضا — معجمه (العين) مرتبا ترتيبا صوتيا متبعا طريقة التقليبات التى تلاحظ وضع الكلمة وتقلباتها فى مكان واحد مهما اختلف ترتيبها ، وهذا المكان هو أبعد الأصوات مخرجا .

« ولقد ظلت أفكار الخليل وتعليلاته وابتكاراته نبراسا ، وهديا لعلماء اللغة ، والنحو ، والصرف ، والعروض ، والعلوم اللسانية ، بصفة عامة » (٤٧) .

وكانت الدراسة اللغوية فى هذه الفترة ، وحتى نهاية القرن الثالث لاتتعدى — كما قال السيوطى — احدى طرق أربع ، هى الاملاء ، والافتاء ، والتعليم ، والرواية (٤٨) وكل هم الباحثين متجه — كما عرفنا — الى المفردات ، وما يتصل بها من أخبار ، ولم يكن ينظر الى الجمل أو التراكيب .

فلما جاء القرن الرابع الهجرى ، اتسعت الثقافات وكثرت العلوم ، نتنجة لامتزاج الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية ، فقد سهل على العرب الحصول على كتب الأجانب والاطلاع على ما فيها ، من

(٤٦) ت ١٨٠ هـ .
(٤٧) من كلام محقق كتاب (العين) فى المقدمة ص ٥ .
(٤٨) السيوطى : المزهر ط ١٢٨٢ هـ جـ ٢ ص ١٦٢ — ١٦٩ .

فلسفة وطب ونجوم ، ورياضيات ، وغيرها مما يوسع دائرة الفكر ، ويزيد من توقد العقل ، الى جانب مابرز من الاتجاهات الجديدة ، والنزعات التحررية ، التى ظهرت مع مبدأ الاعتزال الذى اتبعه كثير من النحاة ، والباحثين ، فى اللغة ، يضاف الى ذلك تقريب العلماء — فى هذا العصر — لدى الملوك والرؤساء ، فاتجهت دراسة اللغة الى نحو جديد يخالف ما كانت عليه ، فى سابق القرون ، لتتناسب حاجيات، ومناهج العصر وأخذت تستفيد من العلوم والمعارف « وتخلص علم اللغة كما تخلص علم الكلام من طريقة الفقهاء ، ومناهجهم ، حتى من الناحية الشكلية ، وأخذوا يسيرون على خطة الخليل بن أحمد » [٤٩] .

كما برز فى هذا العصر لون من البحث اللغوى يختلف عن مسائل النحو والصرف ، والاشتقاق ، لبيان ألفاظ اللغة ، وتفسير مايحدث فيها ، من القلب والابدال والاعلال ، فتحددت أنواع المقلوب ، والمقلوب عنه وما يكون من ذلك معبرا عن اختلاف اللهجات ، وما هو صادر عن جماعة العرب ، وما هو قياسى ، وما هو سماعى ، بعد أن كان ذلك لايرد فى البحوث السابقة كما ذكر ابن سيدة [٥٠] فقد قال :

ان السابقين كانوا « لا يبينون ما انقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحددون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو ، مع عكس ذلك ، ولا يميزون مما يخرج على هئة المقلوب ماهو منه مقلوب ، وما هو من ذلك لغتان ، وذلك كجذب وجبذ ، ويئس وأيس ، ورأى ، وراء ، وكذلك لاينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز ، على ماينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا ، وما يعتقد منه بدلا سماعيا ، ولا

---

(٤٩) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ٣٨٧ .
(٥٠) ت ٤٥٨ هـ .

يفرقون بين القلب والابدال ولا بين ماهو جمع يكسر عليه الواحد وبين ماهو اسم للجمع » (٥١) .

فرأينا بعض اللغويين يعود الى طريقــة الخليل فينظم اللغــة ، وينظر الى هــذه الأمور بعين الاعتبار ، فيقوم الأزهرى (٥٢) بتأليف كتابه « تهــذيب اللغة » متبعا طريقة الخليل فى العين ، وهى التقليبات الصوتيــة ، ومثله أبو على القالى فى بارعه ، ويأخــذ ابن دريد (٥٣) طريقــة التقليبات الا أنه يتبع نظام الترتيب الهجائى العادى فى تأليف معجمــه (جمهرة اللغــة) ، ويبتكر اسماعيل بن حماد الجوهرى (٥٤) طريقــة جديدة فى جمع اللغــة ، هى الأبجدية العــادية ملاحظا جعل آخر الــكلمة بابا ، وأولها فصــلا ، وذلك فى معجمــه (تاج اللغــة وصحاح العربيــة) وبذلك قضى على سوء الترتيب الذى كان موجودا من قبل ، فى كتب الأصــمعى ، وابن الأعرابى (٥٥) وأبى زيــد (٥٦) وغيرهم .

كما ناقش هؤلاء العلماء مادة اللغة ، ومشكلاتها النحوية ، والمعجمية وكانت طريقــة التقليبــات — وبخاصة عند ابن دريد — وكذلك

---

(٥١) ابن سيدة : مقدمة المخصص ط بيروت جـ ١ ص ٧ .

(٥٢) ت ٣٧٠ هـ .

(٥٣) ت ٣٢١ هـ .

(٥٤) ت ٣٩٣ أو ٣٩٨ هـ ويذكر بعض الباحثين أن رائد هذه الطريقة هو أبو بشر اليمان بن أبى اليمان (٢٠٠—٢٨٤هـ) الذى اتبعهــا فى معجم سماه (التقفية) وتلاه الفارابى اللغوى (اسحاق بن ابراهيم خال الجوهرى) فى كتابه (ديوان الأدب) وعنه أخذها الجوهرى ، وقد اشتهر بين اللغويين ابتكار الجوهرى لهــذه الطريقــة لأن بنــاء الجوهرى الرائع فى كتــابه الصحاح قيد الأنظار عن الالتفات الى غيره . أنظر : د. أحمد مختــار عمر : البحث اللغوى عند العرب ص ١٤٧ و د. حسين نصــار : المعجم العربى — نشأته وتطوره ص ٤٨٧ .

(٥٥) ت ٢٣١ هـ .

(٥٦) ت ٢١٥ هـ .

طريقـــة الاشتقاق ، التى سار عليها فى كتبه ، لاكتناه أسرار العربية ، فاتحة عهد جديد فى ادراك خصـــائص العربيـــة ، فى دوران المـــادة حول معنى واحد ، أو أكثر ، وقـــد مهد ذلك الطريق الوعر لمن يستطيع السير فيـــه ، وممن سار على دربه فى اجتيـــاز هـــذا المسلك الشاق ، وركب هـــذا المركب الصعب ، وأكد ســـلامة السير فيه عبقرى اللغويين أبو الفتح عثمان بن جنى ، الذى استطاع أن يوسع دائرة الاشتقاق ، ويبتكر — على أساسه — الاشتقاقين الـــكبير والأكبر ، وكذلك معاصره أحمد بن فارس ، فقد ألف معجمه مقاييس اللغة ، منتهجا هذا المنهج ، وان اتبع فى ترتيبه وترتيب كتابه الآخر المسمى بالمجمل طريقة الأبجدية العادية ، وكلا هذين العلمين فى اللغـــة قـــد اعترف بأنه اطلع على كتب التقليبات ، كالعين ، والجمهرة ، وان لم يركن ابن جنى اليها ، لمـــا وجد فيها من الخطل والاضطراب (٥٧) .

وقد ظهرت دراســـات فى اللغـــة على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ، فقـــد كان أبو الحسن الأخفش (٥٨) قـــد وضع كتيبا فى أصول النحو ، وجاء من بعده ابن السراج (٥٩) فألف كتابا فى ذلك ، الا أنهما كانا ضيقين فى معناهما فجاء ابن جنى من علماء القرن الرابع فـــدرس ماعجز عنه الأوائل أو قصروا فيه ، وسد الفراغ فى هـــذا الجـــانب الدراسى ، وكشف عن أسرار اللغـــة فيـــه ، وســـماه « علم أصـــول النحو » ، وقـــد نوه بابتكاره لهـــذا العلم فى مقـــدمة كتابه الجليل الخصائص ، وأشار الى من سبقوه فى التأليف فيـــه ، وحوزه قصب السبق فى ميـــدانه فقال « واعتقادى فيه أنه من أشرف ماصنف فى علم العرب ، وأذهبه فى طريق القيـــاس والنظر ، وأجمعه للأدلة على

---

(٥٧) ابن جنى : الخصائص ج ٣ ص ٢٨٨ ، وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ١٠٨ ، ودار الـــكتب ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، وابن فارس : مقاييس اللغـــة ج ١ ص ٣ ، ٤ .

(٥٨) هو سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ت ٢١٠ أو ٢١٥ هـ .

(٥٩) ت ٣١٦ هـ .

ما أودعته هذه اللغـة الشريفة من خصائص الحكمـة ونيطت به من علائق الاتقان والصنعة ... وذلك أنا لم نر أحدا من علماء البلدين [٦٠] تعرض لعمل أصول النحو ، على مذهب أصول الـكلام والفقه ، فأما كتاب أصـول أبى بكر [٦١] فلم يلمم فيه بما نحن عليه ، الا حرفا أو حرفين ، فى أوله ، وقـد تعلق عليه به ، وسنقول فى معناه ، على أن أبا الحسن قـد كان صنف فى شيء من المقاييس كتيبا اذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذاك أننـا نبنا عنه فيه وكفيناه كلفة التعب به »[٦٢]

وبناء على ذلك ، وضع ابن جنى كثيرا من الأصـول النحوية على نحو مافعل علماء أصـول الـكلام والفقه ، وبعد منشئا لهذا العلم ، وعارضا لأكثر مسائله بطريقـة علمية ، ولم يأت من بعده من يتمم عمله، اللهم الا السيوطى ، فقـد أورد مسـائل منـه فى كتابه « الأشـباه والنظائر » ولـكنه شيء قليل بالنسبة لمـا عالج ابن جنى من مسائله، ولو قرأت خصائصـه أدركت هـذا الفيض من بحـوثه فى أصـول النحو ، ومن أمثلة ذلك ماذكره فى « باب فى ترافع الأحكام » و « باب علل العربية أكلامية هى أم فقهيـة ؟ » ففى هذين البابين — وغيرهما كثير — مايوضح لنا سلوكه هذا الطريق فى عرضه لمسائل هذا العلم .

ومع ذلك فان هـذا العالم الفذ قد ابتكر كثيرا من مسائل « علم اللغة » فهو مؤسس الاشتقاق بنوعيه الكبير والأكبر [٦٣] ، الذى أرسى

---

(٦٠) البصرة والـكوفة ويقصد بذلك البصريين والـكوفيين .

(٦١) يقصـد ابن السراج .

(٦٢) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ١ ، ٢ .

(٦٣) الاشتقاق الـكبير هو : ما اتفق فيه المشتق والمشتق منـه فى الحروف واختلفا فى ترتيبها مثل : قال ووقل وولق الخ ويسمى — فى علم الصرف — القلب المـكانى ، والاشتقاق الأكبر هو : ما اتفق فيه المشتق والمشتق منه فى بعض الحروف واختلفا فى بعضها الآخر مع اتفاق الحروف المختلف فيها مخرجا وصفة كالنضح والنضخ وامتقع لونه وانتقع الخ انظر : د. نجا : فقه اللغـة ٣/٤٩ وكتابنا (اللغة العربية) ص ٩٨ وما بعدها ففيهما تفصيل كثير لذلك .

على أساسه العربيـــة ، وبين أصولها ، وفروعها ، وأصليها وزائدها ، ودلالتها خاصـــة كانت أو عامة ، وأصواتها ، وما يحدث لها من ابدال ، وغير ذلك مما يدل على سمو العربية ، ويبين مبادئها اللغوية .

وفى الأصوات « نحس بمبلغ القوة العلمية ، والدقة الفائقـــة ، حتى ليثير اعجابنا وصفه للجهاز الصوتى ، وصف الفيلسوف الحكيم ، والعالم التجريبى الذى كشف عن الأسرار الصوتية وانهـــا تحتاج الى دراسة آلية ، — كما يقول علماء اللغة المحدثون — فقد شبه الحلق ، بالناى (المزمار) وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التى توضع عليها الأصابع فاذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى ، المنسوقة ، ورواح بين أنامله ، اختلفت الأصوات ، وسمع لـــكل خرق منها ، صوت لايشبه صاحبه ، فـــكذلك اذا قطع الصوت فى الحلق والفم ، باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة » .

ويربط ابن جنى بين علم الأصـــوات ، وعلم الموسيقى ، ويقول (ان علم الأصوات والحروف له تعلق ، ومشاركة للموسيقى ، لمـــا فيه من صنعة الأصوات والنغم) (٦٤) .

ونظرة ابن جنى هـــذه نظرة علمية صـــائبة ، تشير الى حاجـــة الدراسة الصوتية ، الى مجال العمل التطبيقى المعتمد على الآلات ، كما نرى ذلك متبعا فى العصر الحديث ، الذى أجـــريت فيـــه التجـــارب الصوتية المعتمدة على الآلات ، والأجهزة ، العلمية الدقيقـــة ، وكتاب ابن جنى الذى حـــوى تلك المعلومات الصوتيـــــة ، والذى سماه سر صناعة الاعراب عنوان واضح على تفوقه فى دراسة الأصوات ، فقـــد تكلم فيـــه عن الصوت — كمادة علمية ، لها مفهومها المحدد ، وتناول

---

(٦٤) ابن جنى : سر الصناعة ج ١ ص ١٠ .

الأصـــوات العربية من معظم جهاتها ، وائتلاف الحروف بعضـــها مع بعض ، لتكون الـــكلمات والتعبيرات اللغوية (٦٥) .

وله — أيضـــا — دراســـة فى اللهجـــات فهو لشغفه بالعرب ، والعربية ، يمدح هؤلاء القوم ، ولغتهم ، ويقف منها موقف المؤيد لها، المـــدافع عنها ، المعلل لأسباب توحدها ، أو انقســـامها ، وهو فى كل ذلك يقيم أدلة تتراءى له وهى تعد دقيقة كل الدقة فى نظر المنهج العلمى الحديث ويبدو ذلك واضحا فى كتابه الخصائص .

وطريقـــة ابن جنى فى البحث لا تقل شأنا وسلوكا عن طريقـــة المحدثين فى دراسة اللغـــة ، فهو يجمع المـــادة اللغوية ، ويبـــدأ فى مناقشتها ، ثم بعد استيفائه البحث فيها يستنتج منهـــا القوانين التى تحكم الظاهرة اللغوية التى يتحدث عنها .

وهكذا فان ابن جنى ، قـــد فتح آفاقا جديدة ، من بحوث اللغة ، فى القرن الرابع ، بذبها من قبله ، ومن بعـــده ، ويمكن أن يطلق على دراساته اسم « علم اللغـــة » أو الاصطلاح الذى عهـــد عند علمـــاء العربيـــة « فقه اللغـــة » ، ولعل هـــذا المصطلح الذى ظهر — كمـــا قيل — فى القرن الرابع ، وأطلق على مؤلفات أخرى فى هـــذا العصر جدير بأن يطلق على مؤلفات ابن جنى ، وهو — دائما — يشير الى تلك الأبحاث البكر التى لم يتنـــاولها غيره بقوله « هـــذا شىء لم أره لأحد من أصحابنا » ... (٦٦) .

ولابن فارس معاصره بعض المؤلفات التى تكشف عن أصول لغـــة العرب ومنها كتابه المشهور باسم « الصاحبى فى فقه اللغة » وفيـــه

---

(٦٥) أنظر كتابنـــا (اللغـــة العربيـــة — خصـــائصها وسماتها) ص ١٥١ وما بعدها .

(٦٦) أنظر : ابن‌جنى: الخصائص ج١ ص١٠٨ وسر الصناعة مخطوطة الأزهر الورقة ٦٣ ، ٦٩ ، ١٢٨ والمحتسب ج ١ ص ٢٥٥ وغيرها .

يتناول بعض بحوث فقه اللغة فيجعل للغة العرب أصولا وفروعا ، ويجعل البحث فى نشأة اللغة ، وطريقة العرب فى مخاطباتها أولى بالبحث بل هى الدراسة اللغوية الجديرة بالنظر [٦٧] •

ويقول فى تقرير مبدأ الاشتقاق « أجمع أهل اللغة الا من شذ منهم أن للغة العرب قياسا ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض ، وان اسم الجن مشتق من الاجتنان » [٦٨] •

كما تناول معجماه « المقاييس والمجمل » مادة اللغة ، وخصائصها ، ولا سيما الاشتقاق الذى أرسى له دعائم قوية فى بحثه •

فالحق أن الدراسات التى أتى بها ابن جنى فى الاشتقاق الأكبر والنواحى الصوتية ، التى رتبها عليه ، وصلتها بالمباحث الكلامية واللغوية ، التى وردت فى كتبه ، تعد عملا ذا قيمة فى تاريخ الدراسات اللغوية ، فاذا أضفنا اليها أعمال أحمد بن فارس كانت هذه وتلك مكونة لأساس قوى ، ومعبرة عن مبادىء أرساها علم اللغة الحديث ، الذى عبر عن قوانين اللغة العامة بما هو أشمل مما ورد فى كتب النحو •

ومنذ نهاية القرن الرابع توالى التأليف فى متن اللغة وفقهها ولكن دون مناهج مبتكرة أو مادة علمية جديدة — فى أغلب الأحيان — ونبين ذلك فيما تلاه من عصور •

ففى القرن الخامس ظهرت مؤلفات لغوية تحوى بحوثا متعلقة بفقه اللغة ومتنها ككتاب « فقه اللغة » للثعالبى [٦٩] فقد حوى كثيرا من معانى الألفاظ التى تهم المتحدث بالعربية والباحث فيها ،

---

(٦٧) أنظر نصه فى ذلك فقد أوردناه ص ٢١ •
(٦٨) ابن فارس : الصاحبى ص ٦٧ •
(٦٩) ت ٤٢٩ هـ •

ومنها جزء خاص بكلمات معربة عن الفارسية أو مشتركة بينهـا وبين العربيـة ، وكذلك كلمات نسبها بعض الأئمة الى اللغة الرومية ، وقد أجرى بعض المقارنات بين تلك الألفـاظ فى اللغات المشار اليهـا فى درجات الاستعمال كثرة وقلة ، وهـذه البحوث التى تتعلق بالتعريب قليلة ، وهى تعد من مباحث فقـه اللغـة على وجه الحقيقة أما غيرها فهو من مباحث متن اللغة ، ومثله فيما يتعلق بمتن اللغة كتاب « مبادىء اللغـة » للاسكافى [٧٠] .

وأغزر الكتب فى متن اللغـة ، وبيان اشتقاقاتها ، ومجازاتها ، والمعرب منها « المخصص » لابن سيدة [٧١] — ويقع فى سبعة عشر مجلدا — وفيـه بحوث تدخل فى نطاق فقـه اللغة ، كدلالة الألفـاظ متمثلة فى المشترك ، والمتضاد ، والمترادف ، والمجاز والمعرب ، وقضية الابدال التى ناقشها ، وأبدى رأيه فيهـا بجانب مسائل لغوية أخرى كالتذكير ، والتـأنيث ، وغير ذلك مما يمكن لمراجع الكتاب أن يطلع عليـه .

كذلك مؤلفه « المحكم والمحيط الأعظم فى اللغـة » وهو معجم مهم ، سلك فيه طريقة التقليبات الصوتية .

وفى القرن السادس ألف أبو منصور الجواليقى كتابه « المعرب من الكلام الأعجمى » وقـد رتبه حسب الحروف الهجائيـة ، وذكر فى مقدمته بعض شروط التعريب وأماراته ونشأته .

والى جانب ذلك ظهر معجم « أسـاس البـلاغة » الذى انتحى منحى لغويا جديدا سلـكه مؤلفـه الزمخشرى [٧٢] ، وهو الفصل بين المعانى الحقيقية ، والمجازية .

---

(٧٠) ت ٤٢١ هـ .
(٧١) ت ٤٥٨ هـ .
(٧٢) ت ٥٣٨ هـ .

وفى القرن السابع ألف ابن منظور الأفريقى المصرى [٧٣] « لسان العرب » جامعا معظم مادة اللغــة حتى قيل عنه انه حوى مواد العربية التى تبلغ ثمانين ألف مادة وعد عمدة الباحثين فى متن اللغة •

وفى القرن العــاشر ألف السيوطى « المزهر فى علوم اللغــة » وهو مرجع مستفيض فى بحوث اللغــة ، والتى يعد معظمها من صميم فقهها كدلالة الألفــاظ والأصــيل والدخيل ، والصحيح والضــعيف ، والمنكر من اللغــات ، وتداخل اللغــات وتوافقها ، والقلب ، والابدال• والنحت ، وغير ذلك من البحوث اللغوية •

وفى القرن الحادى عشر يؤلف شهاب الدين الخفــاجى كتــابه « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » وقــد ذكر فى مقدمته شروط التعريب وأماراته ، وضمن كتابه كثيرا من الــكلمات المعربة ، والدخيلة وبيان أصولها •

ومعظم تلك المؤلفــات التى جــدت بعد نهاية القرن الرابع ينقل مؤلفوها الــكثير من علم السابقين ، وأشهر الأمثلة على ذلك ابن سيدة فى مخصصه ، والسيوطى فىمزهره ، وابن منظور فىلسانه ، فالمراجع لها يلمح صــورة الجمع لآراء السابقين ، وقــد بين ابن ســيدة ذلك فى مقدمة كتابه ، وتضاعيفه •

ويمكن العثور على كثير منها غير مانبه عليه •

كما جمع صــاحب اللسان — باعترافه وبما يبدو من معجمه — من المعــاجم وكتب اللغــة السابقة عليه مما جعل كتــابه يصــل الى عشرين جزءا وناهيك بكتاب « المزهر » الذى يعــد نقلا عن السابقين ، فى كل فصوله ، ولا يظهر رأى مؤلفه السيوطى الا لماما •

وما عدا ذلك مما ذكرنا من مؤلفات دراسة للألفـــاظ والمعــانى

---

(٧٣) ت ٧١١ هـ .

واستعمالاتها فى العربيـة ، وغيرها ، وهى — على كل حال — دراسة مفيـدة (٧٤) الى جانب مايبـدو لأصحابها — أحيـانا — من آراء مدعمة بالـكثير مما ورد فى كتب السابقين .

وهذا لأن الحركة العلمية فى تلك القرون قـد أخذت تخبو ، بعد أن قسمت الدولة العبـاسية الى دويلات ، ثم انفرط عقدها بالسقوط ، واستيلاء أيد غير عربية على مقاليد الحكم .

وكانت الأندلس حافلة بالعلم والأدب ودراسة اللغة التى قامت على أسـاس العلم والأدب والدراسـة اللغـوية فى الشرق ، وكانت للأندلسيين نظرات ثاقبـة مستقلة ، وجـديدة ، فى تلك النواحى بلا ريب ، أو جـدال ، وقـد ظلت تنـافس المشرق أمدا طويلا ، ثم دالت دولتها العربيـة والاسـلامية ، على يد الفرنجـة سنة ٨٩٧ هـ فقضى على تراثهم .

وقـد فر من فر من علماء القطرين « المشرق والمغرب » الى مصر والشام اللتين حاولتـا الابقاء على العلم بعد سقوط الخلافتين العباسية والأندلسية ، وضـياع معظم المؤلفـات فى الحوادث التى ألمت ببلاد الاسـلام .

---

(٧٤) كانت تلك الدراسة تلبية لحاجة العصـور المتتالية فقد قوض ملك العرب واستولى الأجانب على السلطة ، وبدأت اللغات الأخرى تنافس العربيـة وتجاريها فى الاستعمال وبخاصة أن الحاكمين الأجانب استخدموا لغاتهم فى الرسميات ، والأدب والشعر ، كالفارسية فى العهد السلجوقى ، والتركية فى عصر العثمانيين ، حتى وقع الخواص من المثقفين بالعربية فى أخطاء لغوية جعلت الحريرى يذكرها فى كتابه « درة الغواص فى أوهام الخواص » ومن أجل ذلك ألفت الـكتب المعجمية ، للتمييز بين العربى ، والأجنبى من الألفـاظ مثل كتاب (المعـرب) للجواليقى و (شفاء الغليل) للشهاب الخفـاجى ، كما كان الحفاظ على العربيـة ، واستجلاء روائعها دافعا لتأليف مثل أساس البـلاغة ، ومخصص ابن سيدة حتى يتحبب الى الناس الحديث بتلك اللغة الفائقة .

يقول السيوطي « وقـد ذهب جل الـكتب في الفتن الـكائنة من التتـار وغيرهم بحيث أن الـكتب الموجودة الآن في اللغـة ، من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد » (٧٥) •

وقد ازدهرت الدراسة في مصر والشام فترة من الزمن (٧٦) لم تلبث أن خبت جذوتها بعد تلك الفترة ، في عهد بني عثمان ، الذي بدأ على يد السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ فضعفت تلك النهضـة العلميـة ، وركدت الحركة اللغوية ، لاهتمام الحكام بلغتهم التركية ، واضعافهم شأن العربيـة ، وعلى الرغم من ذلك استمرت حركة التأليف ، الا أن معظم المؤلفـات اتسم بسمة معينـة هي النقـل عن السـابقين ، أو تلخيص ماقالوه ، أو شرحه ، أو التعليق عليه ، ولولا ذلك لخبا العلم العربي ، وانطفأت شعلته ، منذ تفكك الخلافة الاسلامية ، والقضـاء عليها ، لـكنه بقي ••• كما أراد الله له أن يبقى •

فلما جاءت العصـور الحديثـة ، وتحررت مصر من الاستعمار التركي ، وتفتحت على الثقـافات ، بعـد مجيء الحمـلة الفرنسية ورحيلها عن مصر ، انتشر التعليم ، وأوفدت البعوث العلمية الى أوربا، ونما الاتصـال الفكري بين العرب والغرب ، والاطلاع على المستحدث في العلوم والفنون ، — ومنها علوم اللغة — ووجد فن الطباعة وآلاتها، وبرزت الصحافة ، والمسارح ، ودور الخيالة ، ومن بعد ذلك الاذاعة ، وغيرها من الوسـائل التي عملت على ذيوع اللغـة العربية ، فارتقى الفكر ، وغزرت المعـارف ، ونهضت اللغـة العربيـة ولمـا تقـدمت

---

(٧٥) السيوطي المزهر ط الحلبي جـ ١ ص ٩٢ •

(٧٦) كعهد المماليك الذي عرف بالموسوعات العلمية واللغوية كلسان العرب ، وصبح الأعشى ، والمزهر ، وتلك الموسوعات كانت دعائم الرقي العلمي في ذلك الأوان ، وما تلاه ، ومع ذلك كان النشاط اللغوي مقصورا على الجانب العلمي المحدود ، لأن اللغة وصلت الى هـذا العهد بعـد أن وهنت مع فساد السلائق فيما مضى من العصـور • (أنظر د• نجا : فقه اللغة العربية جـ ٤ ص ١٠٣ وما بعدها) •

الصناعة وكثرت المخترعات محلية وأجنبية — ولا سيما بعد قيام الثورة المباركة — احتيج الى مناقشة القضايا التى تهم اللغة لتفى بحاجة المجتمع الجديد ، فأنشئت المجامع اللغوية فى مصر والعراق وسوريا وكان لذلك فضل كبير فى نهوض الدراسة اللغوية فكان للمحدثين اتجاه تنم عنه ثقافاتهم ، واطلاعهم على ما استحدث فى علم اللغة ، والدراسات الأجنبية ، كأحمد فارس الشدياق [٧٧] فى كتابه « سر الليال فى القلب والابدال » ونظريته الجديدة فى دوران المادة حول معنى واحد [٧٨] وحديثه عن العلاقة بين أصوات الكلمات ومعانيها ، ودلالة الصوت على معناه فى كل تركيب ورد فيه ، مهما كان موضعه من الكلمة ، ورد الكلمات الى أصولها .

كذلك بحوث الأب أنستاس الكرملى — وبخاصة ما يتعلق منها بثنائية اللغة ، ودفاعه عن هذا الرأى ، كما يبدو من كتابه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » الذى يقول فيه عن هذا الرأى اننا « اتبعناه منذ أولعنا بهذه اللغة المبينة ، الرائقة ، فأخذنا بنشره ، وتفصيل دقائقه منذ سنة ١٨٨١ م » [٧٩] .

وبحوث الأب مرمرجى الدومنكى ، فقد دافع عن الرأى القائل بثنائية اللغة ، وكتب فيه أبحاثا نشر منها ثلاثة صغيرة ، بعنوان « أبحاث ثنائية ألسنية » [٨٠] وقد حاول فى بحوثه أن يقارن بين العربية والألسنية السامية لتأييد مايدعو اليه من رد الثلاثى الى الثنائى [٨١] .

---

(٧٧) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى .

(٧٨) أتبعه فى تلك الطريقة السيد حسين كرامت الهندى فى كتابه « فقه اللسان » .

(٧٩) الأب أنستاس الكرملى : نشوء اللغة العربية ص ٢ .

(٨٠) طبع أولها سنة ١٩٣٧ والثانى سنة ١٩٤٧ والثالث سنة ١٩٥٠ م .

(٨١) الرسالة الأولى ص ٦ .

ومن ذلك بحوث علماء اللغة المحدثين ، ولا سيما المشتغلين بالدراسات اللغوية فى الجامعات ، وبخاصة فى حصن الأزهر المعمور الذى حافظ على العربية فى عهود الظلام ولا يزال — حتى اليوم — يؤدى رسالته على خير وجه وأحسن أداء .

ومنها كذلك مايخرجه المجمع اللغوى — والمجامع اللغوية العربية الأخرى — من بحوث فى مجلاتها المشهورة .

ولا تزال البحوث تجد كل يوم ، حتى تنهض العربية ، ويستعمل لسانها فى تلك الأمة التى كتب لها أن تكون واحدة ، فى كل شىء ، عقيدتها ، وتقاليدها وشئونها العلمية والاجتماعية ، والسياسية ، وأساس ذلك كله لغتها القومية ، حتى يصدق فيها قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

البحوث اللغوية عند العرب

لما خيف من تفشى اللحن ، وفساد السلائق ، الى الحد الذى يعسر معه فهم كتاب الله ، فتضيع مبادئه ، وتنسى أحكامه بدأ العلماء — بجد ونشاط — فى وضع حد للحفاظ على لغة القرآن ، وقد برزت نتيجة سعيهم الحثيث ، وعملهم الدؤوب دراسات متنوعة للغة .

(أ) جمع الألفاظ :

ذهبت طائفة من العلماء الى البادية ، لأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء ، وتدوينها صافية ، لم تشبها شوائب العجمة التى بدأت فى الدخول اليها ، من الأقطار المفتوحة ، ومن العلماء الأجلاء الذين أبلوا بلاء حسنا فى ذلك الخليل بن أحمد والأصمعى ، ويونس بن حبيب الضبى [٨٢] وأبو زيد الأنصارى وغيرهم .

---

(٨٢) ت ١٨٢ هـ .

ونتيجة لهذا الجمع برزت عدة كتب تأخذ اتجاهات ثلاثة :

(أ) جمع الألفاظ الخاصة ببعض الموضوعات :

وهذا الاتجاه مجرد جمع لبعض الألفاظ ، مصنفة حسب موضوعات معينة ، مع ذكر مايتعلق بهـا من معان أو آثار أدبية وعربية ، ويبدو ذلك فى رسائل صغيرة ، من أهمها ما جمعه الأصمعى ، فى أسماء الوحوش والغابات والشجر ، والابل والخيل ، والسلاح ، وأبو حنيفة الديتورى فى الأنواء والنبات ، وأبو زيد فى المطر ، واللبن والغرائز ، والجرائم ، ونحو ذلك مما يشبهه •

(ب) جمع الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى :

وهذا الاتجاه يقوم على أساس ايراد المعانى مرتبة حسب أطوارها — أولا — ثم ايراد الألفاظ الموضوعة لها بعد ذلك ، كمراحل خلق الانسان ،حيث يبدأ — أولا — بذكر تلك المراحل ، من حمله ، ووضعه ، ورضاعه ، وفطامه ، ثم يذكر — بعد ذلك — الألفاظ الخاصة بها ، والتى تحمل هذه المعانى •

ويبدو هذا النظام فى طائفة من المؤلفات اللغوية ، منها ماهو صغير مثل (الألفاظ) لابن السكيت ، و (الألفاظ الكتابية) للهمذانى ، و (مبادىءاللغة) للاسكافى ومنها ماهو كبير مثل (المخصص) لابن سيدة ، فهو يقع فى سبعة عشر مجلدا •

(ج) جمع الألفاظ على نظام معجمى دقيق :

وهذا الاتجاه يقوم على أساس جمع ألفاظ اللغة ، وتنظيمها بطريقة خاصة وشرحها شرحا وافيا ، مؤيدا بمأثور الكلام شعرا ونثرا ، وعلى رأس ذلك القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وهذا النوع هو المعروف بالنظام المعجمى ، وكل كتاب ينتهجه يسمى (المعجم) •

ولهذا النظام المعجمى طرق متعــددة ، بدأت على يد الخليل بن أحمد بابتكاره طريقــة « التقليبــات الصوتية » التى رتب عليها أول معجم عربى هو (العين) وسار على دربه الأزهرى فى تهذيبه ، والقالى فى بارعه ، وابن سيدة فى محكمه وتابعــه ابن دريد فى جمهرته على طريقــة التقليبــات ، لــكنه خالفه فى جمعه الألفاظ على الهجائيــة العادية لا الصوتيــة ثم برزت عــدة نظم معجمية أخرى ، كطريقــة « القافية » التى انتهجها الجوهرى فى صحاحه وحــذا حــذوه بعض اللغويين — كالفيروزبادى فى قاموســه ، وابن منظور فى لســانه ، وكطريقة « الأبجدية العــادية » التى اتبعها ابن فارس فى مقاييسه ، ومجمله ، والزمخشرى فى أساسه ، والمقرى [٨٣] فى مصباحه ، وغير أولئك من أرباب المعاجم الحديثة .

وهذا اللون الدراسى الذى يذكر الألفاظ والمعانى ، يعد دراســة حقيقية واقعيــة ، دون اتجاه الى الدراسة التحليلية ، والتطورية ، فلم ينظــر الى اللفظ ومعنــاه ، فى تاريخــه الطــويل ، وتطوره على مر العصور المختلفة ، ان كان حدث له ذلك وعوامل هذا التغيير ، ونتائجه، وقوانينه ، وغير ذلك مما يكشف عن التاريخ اللغوى ، واتجاهاته ، مما هو من صميم « علم اللغة » .

ومن هنــا لم يعول علماء اللغة المحدثون على مثل هــذا الجمع اللغوى ، فلم يدخلوه فى نطاق « علم اللغة » بمعناه المعروف حديثا .

٢ — وضع القواعد التى تقى اللسان من العثار :

هذا النوع من البحوث قامت به طائفــة من العلمــاء ، لتصحيح الخطأ اللغوى ، والحفــاظ على طبيعــة السليقــة العربيــــة ، حتى لايقع متعلمها فى اللحن ، ولتستقيم الألسنة عليها .

---

(٨٣) ت ٧٧٠ هـ .

ويقوم هذا البحث ، على أساس وضع القواعد اللغوية الخاصة بالمفردات ، والتراكيب العربية — كما نطقها العربى الفصيح ، فالمفردات لها أنواع — من حيث الاسمية والفعلية والحرفية — ولها مواقع فى الأساليب المستعملة على لسان العرب ، ولكل لفظ بنية معينة تتغير حسب المعانى المرادة منها ، وحسب مواقعها المختلفة ، وتجرى عليها أحكام ظاهرية من رفع ونصب وجر وجزم ، ومواقع محلية ، لتركبها فى كلام مفيد ، ويمكن أن تطرأ عليها تغيرات تؤدى الى اختلاف أحوالها اعرابا وبناء ، وبنية ومعنى •

فوضعت لذلك القواعد التى تستمد من كلام العرب ، وتتمشى حسب مناهجهم اللغوية ، وقد أطلق على مايختص منها بمواقع الكلمات والجمل (علم النحو) وما يختص ببنية مفردات اللغة (علم الصرف) •

وقد بدأ الأمر بدراسة النحو ، الى نهاية القرن الأول الهجرى ثم اختلطت به دراسة الصرف ، وظلت — كذلك — تدرس مع النحو ، وان تميزت أخيرا ببحوث خاصة ، عرفت بها مسائل الصرف •

وقد قامت بهذين اللونين من الدراسة طوائف دأبت على هذا النوع من البحوث ، واشتد التنافس بينها ، على الاجادة والاحسان، وحرية الرأى • فى البيئات اللغوية المشهورة البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، والأندلس ، ومصر ، وغيرها •

وتاريخ المدارس اللغوية معروف لدى الباحثين ، وقد اتبع البصريون المنهج العلمى فى طريقة وضع القواعد ، فاعتمدوا على جمع (عينات) لغوية ، ودرسوها دراسة وصفية تحليلية ، ثم شخصوا ظواهرها ، وحددوا معالمها ، وحكموا عليها الحكم الذى رأوه، ووضعوا له القانون الذى يحكمه ، معتمدين — فيما نعلم — على الكثرة من الشواهد ، التى تؤكد القاعدة التى رأوها ، ولكن الكوفيين لجأوا فى تنظيم القواعد الى الاكتفاء بنموذج واحد يستنبط منه

قانون عام ، فهم — كما قال علماء اللغة — يكتفون بالشاهد الواحد ، ولو لم يعرف قائله ، وهذا منهج — فى رأيى ورأى الباحثين المدققين — بعيد عن الدرس اللغوى الصحيح لأنه أدى الى التكثير من القواعد التى تعد متضاربة فى بعض الأحيان (٨٤) ، وعلى نظامهم فالضوابط متشعبة ، لاتحدد للباحث الطرق التى تعصمه من الزلل ، بل تزيد أمامه الأمر تعقيدا ، فهو قد يجد نفسه أمام الشىء ، وضده ، والقاعدة ، وعكسها ، فكيف يستعمل ؟ انه موقف محير ، وغير مفيد لما يرجى من كشف القوانين اللغوية ، ولا يتفق والبحث العلمى السديد ، ومنهج العلم الحديث يدعو الى الكشف عن حقيقة الظاهرة بعد التأكد منها بالنماذج المتعددة ، التى تستلفت الانتباه الى الظاهرة وما يترتب عليها ، شأنها فى ذلك شأن القضايا العلمية فى كل فروع العلوم المختلفة ، والتى تؤيدها التجارب العلمية .

أما الفريق الثالث — وهم البغداديون — فقد وقفوا بين الفريقين السابقين ، يأخذون من هذا وذاك مايوافق هواهم ، وما يحلو لهم ، موفقين بين المذهبين ، وخالطين لمسائل الطرفين ، ولاستنتاجاتهم ، فيأخذون من كل بنصيب .

كما كان للأندلسيين والمصريين ، اسهام فى تلك الدراسة ، وآراء لا يستهان بها .

---

(٨٤) كما فى تجويزهم دخول اللام فى خبر « لكن » — على ماسبق بيانه ص ١٠ .

وقول بعضهم بجواز الجزم بـ « أن » بناء على بيتين من الشعر هما :

اذا ما غدونا قال ولدان أهلنا ... تعالوا الى أن يأتنا الصيد نحطب

أحاذر أن تعلم بها فتردها ... فتتركها ثقلا على كما هيا

مع أن الضرورة واضحة فى البيتين ..

أنظر : ابن هشام : مغنى اللبيب ط عيسى الحلبى ١/٢٩ .

وعلى رأس الواضعين للقواعد الخليل بن أحمد ، زعيم البصريين ، وأبو جعفر الرؤاسى [٨٥] زعيم الكوفيين ولسيبويه ، وابن جنى ، وغيرهما من أعلام هذا الفن باع طويل فى هذا التقنين ، ثم جاء المتأخرون الذين هذبوا القواعد ، وجمعوا أهمها ، كالزمخشرى ، فى « المفصل » وابن الحاجب [٨٦] فى « الكافية » و « الشافية » وابن مالك [٨٧] فى « التسهيل » و « الألفية » وابن هشام [٨٨] فى مؤلفاته المتعددة التى تناسب مستوى المتعلمين [٨٩] .

وهذه البحوث لا تعدو — فى نظر علماء اللغة الغربيين — أن تكون دراسات أولية تعليمية ، ولا تدخل فى نطاق « علم اللغة » بمعناه الحديث لأنها لاتتعدى اصلاح الأخطاء ، وتقويم اللسان الى جوهر اللغة ، وذاتها ، فما نطلق عليه « علم النحو » يقابل — عندهم — « علم التنظيم التعليمى » وما نسميه « علم الصرف » يقابل عندهم « علم البنية التعليمى » .

٣ — الاهتمام بالقراءات القرآنية وأثره :

اهتمت طائفة من العلماء بالقرآن الكريم ، لمعرفة أصواته ، وطريقة أدائه حسب الوجوه المروية فيه ، والمسندة الى النبى ﷺ ، والتى تنقل لنا آثار اختلاف اللهجات العربية ، وتأثيرها على أداء آيات القرآن الكريم ، تخفيفا من الله ، ورحمة .

وتلك الطائفة من العلماء — متمثلة فى القراء وعلماء القراءات — حافظت على تلك الوجوه وأوصلتها الينا كاملة غير منقوصة ، فكانت

---

(٨٥) ت ١٦٧ هـ .
(٨٦) ت ٦٤٦ هـ .
(٨٧) ت ٦٧٢ هـ .
(٨٨) ت ٧٦١ هـ .
(٨٩) مثل قطر الندى — شذور الذهب — أوضح المسالك — مغنى اللبيب .. الخ .

تؤثر محفوظة عنهم — بالمشافهة والتلقين — حتى دونت — آخر الأمر — فى العصر العباسى واضحة القواعد والأسانيد .

فقد ظهر فى الأمصار الاسلامية — بعد انتشار الاسلام — أعلام للقراءة على الوجوه المروية عن الرسول ﷺ ، ولعلهم كانوا كثيرين — فى أول الأمر — وفى نهاية القرن الثانى اشتهر منهم سبعة عرفوا بالعدالة والأمانة والضبط .

ثم جاء ابن مجاهد (٩٠) فألف فى القراءات ، ونتيجة لما كتب ظهرت مؤلفات عدة فيها لأبى بكر بن السراج ، وأبى طاهر عبد الواحد البزاز (٩١) ومحمد بن الحسن الأنصارى (٩٢) ومحمد بن الحسن بن مقسم (٩٣) وأبى منصور الأزهرى .

ومن الكتب المهمة التى وصلت الينا الحجة لابن خالويه (٩٤) والحجة لأبى على الفارسى ، والمحتسب لابن جنى .

ثم تتتابع الكتب المؤلفة فى القراءات ، والاحتجاج لها كالتبصرة ، والابانة ، والكشف ، لمكى بن أبى طالب (٩٥) وجامع البيان ، لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى (٩٦) والكافى فى القراءات السبع لأبى القاسم الرعين الاشبيلى (٩٧) وحرز الأمانى ووجه التهانى (الشاطبية) لأبى القاسم بن فيرة الشاطبى (٩٨) والنشر ، وغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى (٩٩) وغيرها مما جد بعد ذلك حتى الآن .

وللقراءات أهمية خاصة ، حفظت لنا أصوات اللغة العربية عبر أربعة عشر قرنا ، حتى لتمثل — فى معظمها — النطق العربى

---

(٩٠) ت ٣٢٤ هـ .
(٩١) ت ٣٤٩ هـ .
(٩٢) ت ٣٥١ هـ .
(٩٣) ت ٣٦٣ هـ .
(٩٤) ت ٣٧٠ هـ .
(٩٥) ت ٤٣٧ هـ .
(٩٦) ت ٤٤٤ هـ .
(٩٧) ت ٤٧٦ هـ .
(٩٨) ت ٥٩٠ هـ .
(٩٩) ت ٨٣٣ هـ .

الأصيل ، وبذلك بقى لها جدتها ، فمخارج الحروف ، وصفاتها ، محددة مضبوطة ، وما يعرض لها من ألوان التغـير والتفـاعل بينها أكسبته القراءات صموده مع الزمن ، وثبوت قوانينه ، بالدليل العلمى الأكيد .

ومن هـذا المنطلق أمكن ، تحـديد معالم الصـوتيات العربية ، ومناهجها ونتائجها فيما يعرف لدى المحدثين باسم « الفوناتيك » .

ومع ذلك فهى معين ثر نعرف منه اتجاه اللغة العربيـة ، ولهجاتها التى لعبت الأسباب البيئية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والزمنية ، دورا رئيسا فى تكونها ، وتلونها بألوان تلك البيئات ، وصلات القربى بينها، وبين الأم العربيـة الـكبرى الأصليـة ، وكانت دليـلا واضحا على تعدد اللهجات ، عند العرب الأولين ، وتجمعها فى لهجة قريش ، بعد صراع طويل ، الا أنها لم تخل من تأثير اللهجات المحلية الأخرى ، التى تعد طبيعة من طبائع الاجتماع الانسانى .

ومن القراءات التى حفظها لنـا تاريخ القرآن ، أمكن دراسـة العربية ومعرفة أصواتها ، وما يتصل بها ، وطرائق تطورها فى التاريخ السحيق ، حتى الآن ، ودرست أسباب ذلك ، وعرف — عنـد قدامى اللغويين ومحدثيهم ماترتب عليها من تغير مع الأجيال والأزمان المتطاولة، كما درست اللهجات العربيـة ، والصراع اللغوى ، وقوانين الانقسام والتوحد فى اللغـة ، وطرائق النطق ، واختلافها باختلاف النـاطقين وبيئاتهم ، وهـذان اللونان الدراسيان من أهم فروع « علم اللغة » (الفوناتيك والديالكتولوجيا) .

وقـد كان لعلمـاء العرب — دون تعصـب — باع طويل فيهما استطاعوا أن يثبتوا معالم الفرعين بطريقة واضحة ، وعلمية .

ويكفينا الدراسات التى قام بها الخليل فى (العين) وسيبويه فى (الـكتاب) وأبو على الفـارسى فى كتبـه التى منهـا (الحجـة ، والبغداديات ، والبصريات) وتلميذه العبقرى أبو الفتح عثمان بن جنى،

الذى استطاع بعقله الفذ ، ودراسته العلمية الصحيحة أن يقيم عمــد الدراســـة العلميةاللغوية ، وأن يوطد أركان « علم اللغــة » بدراسته للصوتيات ، وسبق الأوربيين بما وصل اليه من نتــائج فى هذا الباب، كأصوات اللين ، ومقاييسها ، التى سبق بها دانيــال جونز الانجليزى، ومعرفته للفونيم ونظريته قبل هذا العالم الأوربى ، كما وصل الى نتائج قيمة فى دراســة اللهجات ، وصراعها ، وطرق انقســامها ، وأسبابه ، ونتائجه ، حين يتلاقى العربى مع أخيــه ، وحين تفرق بينهمــا عوامل البيئات الصحراوية ، والحضرية ، وذلك واضح فى أهم كتبه الخصائص وسر الصناعة •

كما بحث هؤلاء العلماء سمات العربيــة الفصحى ، وخصائصها المميزة ، فى الاشتقاق ، والدلالة ، وصلة اللفظ بالمعنى ، وتعدد المعانى والألفاظ ، وأغراضــه ، ونتائجه ، بما أفاد قوة هذه اللغة ، وصلاحيتها للحيــاة والحضارة وألقى الضوء على نشأة لغة الانسان وطبيعتهــا ، وسلوكها العام ، بما أمكن الاستفادة منه فى دراسة اللغات جميعا •

٤ — الدراسة البلاغية :

وهذا النوع من البحوث يختص ببيان فصاحة الألفاظ ، وجزالتها، وحسن الأساليب ومواقع كل لفظ فيهــا ، ومناسبتها لمقتضى الحال ، وظهورها فى ثوب لائق بديع •

وبه قام جمع من الباحثين فى لغة العرب فدرسوا طبيعة الألفاظ، وطرق النظم والملابسات التى تقتضى لونا معينا من الألفاظ — بأوضاعها المتعددة — والأساليب ذات الايجاز أو الاطناب ، أو المستعملة على وجه الحقيقة ، أو المجاز ، أو غير ذلك من وجوه الأداء العربى وأسبابه، وأسراره ، وأمكنهم الوصول فى ذلك الى قواعــد خاصــة باتجاهات الألفاظ ، والأساليب المستعملة بهذا الصدد ، عرفت — فيما بعــد — بعلمى (المعــانى والبيان) كما درسوا الوسائل التى يستعملها العربى لابراز عبارته فى ثوب ينم عن الاحتفــاء بالمعنى المطلوب ، من الصبغ

البديعى ، الذى عرف بعلم « البديع » وتلك هى علوم البـلاغة « كما يسمونها » .

وقـد ألف فى ذلك أبو عبيدة [١٠٠] كتابه « مجاز القرآن » — والجـاحظ [١٠١] كتابه « اعجـاز القـرآن » وابن المعتز [١٠٢] كتابه « البـديع » ثم جاء أبو هلال العسكرى [١٠٣] بكتابه « الصناعتين » فـكان أوفى فى هـذا المقـام من سابقيه — بعلاجه لعلوم البـلاغة الثلاثة — وتلاه عبدالقاهر الجرجانى [١٠٤] بكتابيه « دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة » اللذين فصل فيهما مسائل هذه العلوم ، بدقة فائقة ، عد — منأجلها — امام البلاغة غير منازع ، وعلى الرغم منذلك داخلت الفلسفة، والمنطق، الدراسة البلاغية — فيمابعد — علىيد السكاكى[١٠٥] فقد ضمن كتابه « مفتاح العلوم » بعض الجوانب البـلاغية ، ومزجها بالفلسفة والمنطق وكذلك الخطيب القزوينى [١٠٦] فى تلخيصه المفتاح ، مما أضاع لذة البلاغة ، وصفاءها وطبيعتها اللغوية .

وهذا اللون الدراسى هو المعروفعند الغربيين بـ « علم الأسلوب التعليمى » .

٥ — الدراسة الأدبيـة والنقدية :

تعد الآثار الأدبيـة لدى كل أمة على جانب كبير من الأهميـة ، ولا سيما عندالعرب ، فهى التى تعى ثروتهم اللفظية ، ومادتهم الفكرية، وأحوالهم الاجتماعية مستعدة من مأثور كـلامهم ، وسـجل تاريخهم الحافل .

---

(١٠٠) ت ٢٠٩ هـ .

(١٠١) ت ٢٥٥ هـ .

(١٠٢) ت ٢٩٦ هـ .

(١٠٣) ت ٣٩٥ هـ .

(١٠٤) ت ٤٧١ هـ .

(١٠٥) ت ٦٢٦ هـ .

(١٠٦) ت ٧٢٩ هـ .

وقـــد نهضت دراسة الأدب ونقده عندهم ، لمـــا بدا له من أهمية، ولمـــا بعث عليها من عوامل ، اجتماعية ، وتاريخية ، ولغوية :

فنشأ (علم الأدب) من دراسة الشعر والنثر ، لبيـــان ألفاظه ، وأساليبه ومعانيـــه ، وما يدل عليه من عادات ، وتقاليد ، وأخبـــار ، وحوادث اجتماعية ، تبين حال العرب ، وتكشف عن مستواهم الفكرى، والحضارى .

كما نشأ (علم تاريخ الأدب) من دراســـة الشخصيات الأدبيـــة — شعراء وخطبـــاء وكتابا — دراسة تتنـــاول حيـــاتهم ، والمؤثرات عليها ، والموازنة بينهم ، كما تتنـــاول الموازنة بين نتاج هؤلاء الشعراء من الناحيـــة الأدبيـــة والفنيـــة [١٠٧]ولا ننسى أن هذين اللونين من الدراسة ، (الأدب وتاريخه) كان يلازمهما نقد النصوص الأدبيـــة ، شعرية ، ونثرنة ، لابراز خصائصها ، واتجاهات أصـــحابها ، — على وجه المقـــارنة — تبعا لظروف نشأتهم ، وثقافتهم ، وطرق الأداء عندهم على مر العصور [١٠٨] .

وقد زادت تلك النهضة نموا فى العصر العباسى ، ولا تزال تتقدم — حتى اليوم — بخطوات واسعة .

وفى هذا الشأن ألفت كتب عديدة ، يرجع اليهـــا فى علم الأدب والنقـــد [١٠٩] .

---

(١٠٧) مما هو جدير بالذكر أن الأدب شـــعرا ونثرا يمثل الشواهـــد العربيـــة الأصيلة ، التى قامت على أساسها الدراسات اللغوية ، لضبط القواعد وتحديد السلوك اللغوى ، فى علوم العربيـــة المشار اليها ، ومنها — كذلك — استنتج الخليل الألوان الموسيقية التى ســـار عليهـــا الشعر العربى ، وأضحت علما مستقلا يسمى « علم العروض والقافية » .

(١٠٨) أنظر د. محمد مندور « النقد المنهجى عند العرب » ففيه بيان لتدرج الدراسة الأدبيـــة ص ١٥ وما بعدها .

(١٠٩) غنى عن الاشارة ، ماكان للعرب من فضل فى بحوث الخط، والـــكتابة ، مما كان له أثر على اللغة ، وطرق رسمها ، والحفاظ عليها .

وأهم هذه الأنواع هو الصوتيات ، واللهجات ، وتحليل البنية ، والأساليب التى كان لعلمائنا شأن كبير فى بحثها ، واستخلاص النتائج منها ، بما ضارع البحوث الغربية ، أو نقول : كان على طريقها .

وقد مرت فترات تاريخية ، لم يحاول أهلها التجديد والاضافة ، ومتابعة السير على ما أصل الأولون ، بل انصرفوا — لقلة استعدادهم ومحصولهم العلمى وقدرتهم على الابتكار — الى نقل أفكار المتقدمين ، بل الى نقل تراثهم ، نقلا حرفيا ، ولم يحاولوا — فى أحيان كثيرة — تفسير مانقلوه خوفا من الوقوع فى الزلل ، ولهذا — وحتى يثبتوا لأنفسهم جولات فى الميدان — داروا حول هذا التراث ، بالتعليل ، والفلسفة ، والمنطق ، بما أبعد منهجهم عن الطريق العلمى المستقيم .

وظلت الحال — كذلك — حتى كانت العصور الحديثة ، التى هب فيها أبناء العرب ، وبخاصة فى مصر ، ينظرون فى اللغات ، بعامة ، ولغتهم العربية بخاصة ، وقد تهيأت لهم السبل ، بمعرفة بعضهم باللغات الأجنبية ، والسامية واطلاعهم على ما أحدثه الغربيون فى هذا الاتجاه ، فطبقوا المناهج الحديثة على لغتهم العربية ، واستخلصوا النتائج ، فى ضوء المقاييس العلمية الجديدة ، واستطاعوا — بدأبهم على البحث والنظر فى تراث العربية الخالد ، الى جانب ما هيأته لهم ثقافتهم من معرفة ملامح التطور فى الدراسات اللغوية فى الغرب ، استطاعوا أن يضعوا بعض المناهج الصحيحة للعربية ، ويكشفوا عن أسرارها ، ويؤكدوا رقيها ، ويرسموا لها طرائق للحفاظ عليها ، ومسايرتها للحياة العصرية ، وقد أحدثوا الدراسات المقارنة بين أفكار أسلافهم القدماء ، ونظراتهم اللغوية ، وأسس الاستنتاج عندهم ، والمواد اللغوية التى كانت أساس دراساتهم ، ومحتواها ، ومفاهيمها المختلفة ، وملاحظاتهم عليها ، قارنوا ذلك كله بما وصل اليه ، « علم اللغة الحديث » ووقفوا على مدى التوافق ، والتخالف ، فأكدوا ماصح ، وفندوا مازيف بالمناقشة العلمية الموضوعية .

ولهم — فى هذا الشأن — دراسات — دون شك — لها أثرها الكبير ، فى توجيه الدراسات اللغوية ، فى خط مستقيم ، مفيد للغة، ولطلابها ، ولحياتنا المعاصرة .

وقد كشفت تلك المحاولات الصائبة ، عن أسرار لغوية جديدة واتجاهات لربط اللغة العربية بما يكفل لها النمو ، وسرعة الحركة ، والتجدد ، والقوة وعمق التأثر والتأثير .

وقد شهدت الجامعات المصرية فى القرن العشرين مجموعة من النابهين فى هذا الشأن ، ومنهم من كانت لأقلامهم صولات خارجها ، ومؤلفاتهم لا تزال — وستظل — نبراسا ، يسترشد به أولو الهمم ممن يغار على لغته ، وقوميته ، فيتابعهم لاكمال البناء .

ففى الصوتيات ، واللهجات ، وعلم اللغة — بوجه عام — وتاريخ اللغة وآدابها ، رأينا الجديد ، المطبق على تراث أجدادنا ، والذى صقله ، وأظهر جلاءه وصفاءه ، ورأينا الدراسات القيمة التى فتحت الآفاق ، للباحثين ، واللغويين ، وان كان الطريق لا يزال طويلا ، الا أن هذه خطوات مشكورة ، ممهدة للسير فيه والاستمرار فى بذل الجهد .

فمعاجمنا لا تزال — كما سبق أن ذكرت — تغص بالألفاظ ، والمعانى ، تتعدد المعانى تارة ، واللفظ واحد ، وتتعدد الألفاظ ، والمعنى واحد تارة أخرى ، ودون تفرقة بين الحقيقى والمجازى (١١٠) والمتقدم ، والمتأخر ، وعوامل الزمن ، والبيئات المختلفة ، وأثرها فى هذا التعدد ، واتجاهاته ، وذلك يحتاج الى جهود جبارة ، لضبط هذه

---

(١١٠) هذا باستثناء أساس البلاغة « للزمخشرى » وتاج العروس « للزبيدى ت ١٢٠٥ هـ » فانهما عنيا بالتفرقة بين الحقيقى والمجازى من المعانى ومع ذلك فلم يفرقا بين أنواع المجاز المختلفة من مجاز لغوى أو عقلى أو استعارة أو كناية . أنظر د. نجا : المعاجم اللغوية ص ١٦١ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

الأمور ، وتحديد اللفظ ، بأصواته السابقة واللاحقة ، ومظاهر التطور ، وأسبابه ونتائجه ، وربط المعنى بالصورة الصوتية ، ونسبتها لأصحابها الأصليين ، وانتقالها من حال الى حال ، وتغير المعنى — تبعا لذلك — وتصفية الألفاظ المشتركة والمتضادة ، والمترادفة ، بما يوضح آثار اللهجات والعوامل الصوتية ، والبيئية ، فيها •

ولا تزال اللهجات الشعبية ، فى الأقطار العربية ، — كذلك — فى حاجة الى التعرف على خصائصها ، وسماتها ، على وجه الدقة ، وبخاصة ، بعد أن بدأت بعض الدراسات فى هذا الشأن ، فبالوقوف على سماتها ، واتجاهاتها ، يمكن ضبط العوامل المؤثرة ، وطرق وصلها بالأم العربية ، حتى لا تفقد أواصر القربى ، فتضل الطريق ويضيع التاريخ العربى •

كذلك فالقواعد العربية ، لا تزال تحتاج الى جهود ، فى المقارنة بينها وبين التقعيد فى شقيقاتها الساميات ، حتى يتضح مسار التنظيم فيها ، والوقوف على القواعد الصحيحة ، والزائفة ، ووجوه الصلات بين العربية ، وأخواتها لنقف على « الأم » السامية الأولى ، التى مازالت طى الغيب ، وان بذلت محاولات فى هذا الشأن •

كذلك لاتزال الحاجة ماسة الى جهود للاستفادة من عوامل نمو العربية كالاشتقاق ، وآثاره ، فى تنوع المعنى ، وصلاحية اللفظ المستعمل للمعنى الذى يوضع له ، وهذه من المسائل المهمة التى تقوم على انجازها مجامع اللغة العربية ، فى مصر ، وغيرها •

وعلى كل حال ، فالطريق الآن أوضح مما كان ، والعلماء كل يوم يكتشفون جديدا ، ويستخدمون أحدث الوسائل ، التى تساعد على الوصول الى ماتتطلبه لغتنا ، من عزة • ومكانة ، ورقى • وانطلاق ، وهذا يحتاج — فيما يحتاج — الى اجادة بعض اللغات الأجنبية ، والسامية ، لصحة البحث ، وسلامة النتائج ، ودراسة القدماء ينقصها هذا الجانب المقارن ، ويرجع ذلك الى عدم احاطة معظمهم

بغير العربيـــة من أخواتها أو الأجنبيـــات عنهـــا ، مع أن كثيرا منهم أشـــاروا فى مواطن مختلفـــة ، الى بعض اللغات السامية ، كالعبرية، والسريانية (١١١) وعلى البـــاحث أن يقارن بين فصـــيلة الســـاميات ، وفصائل اللغـــات الانسانية عامة ، حتى نعرف سر اطلاق السامية على لغتنا (١١١) وسماتها التى عرفت بها .

وقـــد أصبحت تلك المعرفة من أوجب الأمور على الباحث اللغوى وان بدا أن علمـــاء اللغـــة ، وفقهـــاءها كانوا لايجيـــدون غير لغتهم القوميـــة (١١٢) .

فهذه المعرفة توقفـــه على وجوه التقارب ، والتباعد بين المتشابه من اللغات ، والمختلف منها ، والآخذ ، والمعطى ، مع الاستعانة بما كتبه الأجانب فى هذه النواحى .

ونحن على الطريق ماضون ، بعون الله ، حتى نصل الى مانرجوه للغتنا ، من قوة ، ولأمتنا العربية ، من وحدة وتقدم ، وازدهار .

---

(١١١) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٢٤ ، ٢٥ .

(١١٢) المصـــدر السابق ص ٥ و د. السعران : علم اللغـــة ص ١٢ وما بعـــدها .

الباب الثاني

علم اللغة عند علماء الغرب

علم اللغــة عند علماء الغرب

مــدلوله :

عرف ـــ حديثـــا ـــ بين المشتغلين بالعلوم والفنون من الغربيين أن هنـــاك فرقا بين اصطلاحين سائدين فى تلك المجالات ، هما « علم » و « فن » فــكلمة « علم » تطلق اصطلاحا : على البحث الذى يتناول دراسة مجموعة من الظواهر لمعرفة حقائقها ، ووظائفها ، وعلاقتهـــا بغيرها ، وتطورها ، وأسباب ذلك ونتائجه •

وكلمة « فن » تطلق اصطلاحا : على البحث الذى يتناول الوسائل الموصلة لغايات معينة •

فمثلا : « الفسيولوجيا » (1) « علم » لأنها تدرس الانسان ، من حيث أعضاؤه ، ووظائفها ، ونموها ، والعـــلاقات بينها ، وبين غيرها ، والمبادىء التى تسير عليها نشأة وتطورا وأداء وظيفة •

ولـــكن « الطب » « فن » لأنه يدرس جسم الانســـان لبيـــان الوسائل التى تفيد فى شفائه من الأسقام التى يحتمل أن تصيبه •

« والسيكولوجيـــا » (2) التى تدرس القـــوى العقليـــة ـــ على الطريقـــة الأولى ـــ « علم » ، ولـــكن دراستها لبيان الوسائل المفيدة لترقيتها وتهذيبها ـــ على الطريقة الثانية ـــ وهى ماتسمى بـــ « التربية العـــامة » يطلق عليهـــا اسم « فن » •

وهكذا فـــكل مايدرس الظواهر مشخصا لها ، ومبينا حقائقها ، وما يتصل بها ، على جهة الوصف التحليلى ، يسمى « علما » •

---

(1) علم وظـــائف الأعضـــاء •
(2) علم النفس •

أما مايتجه الى التطبيق والاستفادة من دراسة الظواهر فانه يسمى « فنا » وموضوعات اللغة من قبيل العلوم لا الفنون ، لأنها تدرس الظواهر اللغوية دراسة تحليلية وصفية ، على ماهو الواقع لا ماينبغى أن تكون عليه .

وطيلة أحقاب متطاولة من التاريخ الذى درس فيه العرب لغتهم، ووضعوا لها القوانين والمبادىء ، كانت « أوربا » تغط فى سبات عميق .

فقبل أواخر القرن الثامن عشر لم تكن لهم دراسات لغوية ، تأخذ طابع العلم وقوانينه ، بل مجرد مسائل محدودة ، تتعلق بالبنية ، والتنظيم والأسلوب على صورة يفيد منها المتعلمون .

ثم أخذت الدراسة اللغوية الحقة فى الظهور ، والاكتمال ، بعد ذلك فقد حاول علماء الغرب دراسة لغات العالم ، وصفا وتاريخا ، ومقارنة ، فأخذوا يحددون ظواهرها ، ويصفونها وصفا دقيقا ، ويبحثونها فى مراحلها التاريخية ، التى مرت بها ، ويوازنون أحوالها فى تلك العصور ، ويعقدون المقارنات بين مراحل اللغة الواحدة ، واللغات بعضها وبعض ، فدرسوا قواعد اللغة النحوية ، والصرفية ، والاشتقاقية ، والمعجمية ، ومفرداتها ، ومظاهر دلالتها ، وتطوراتها ، فى المجتمع الواحد ، والمجتمعات المختلفة ، وعوامل الاختلاف والاتفاق، والمؤثرات على وجود كل منها ، وما يتصل بذلك ، وغيره من المظاهر اللغوية ، ووصلوا من ذلك قوانين عامة تحكم تلك الحالات التى وقعت تحت أبصارهم اتفاقا واختلافا حسب ماتمليه ظروف النشأة اللغوية ، فى اللغات الانسانية التى توفروا على بحثها ، وخلصوا من دراساتهم الى رسم مناهج تسير عليها تلك اللغات ، وتحكم تصرفها .

ومن ثم تغيرت النظرة الى طبيعة اللغة ، ووظائفها ، ومناهج دراستها التى أضحت « علما » من العلوم ، محدد الموضوع والمنهج والوسائل .

وقــد برز « علم اللغــة » واستقل فى منهجه ، وتخصص فى وسائله منذ أواخر القرن التاسع عشر •

فمدلوله — حسب دراسات الغربيين — أصبح واضح القسمات — فهو — عندهم — العلم الذى يتناول الظواهر اللغوية ، فيحدد معالمها ، واتجاهاتها ، فى اللغات الانسانية ، ونتائجها ، والقوانين التى تحكمها •

وبه يستفيد الباحث ، فيقف على مدى اختلاف اللغات ، وعلاقة بعضها ببعض ، وتطور أصواتها ، ومفرداتها وقواعــدها ، ودلالتهــا ولهجاتها ، وعوامل انقسامها ، والمؤثرات المختلفة على سيرها ، ومن هنا يمكن تفسير الغامض من أمرها •

كما يقف به على حقيقة هذه الظواهر ، وتشخيصها ، ووظائفهــا التى تؤديها فى مختلف المجتمعات الانسانية •

ومن ذلك كله يمكن أن تربط المجموعات المتشابهة من الظواهر فى بعض اللغات ، برباط يضمها ، ويرجعها الى أصل واحد ، وربما كشف ذلك عن المــكونات الأولى للغة الانسانية •

ولذلك فان موضــوع هــذا العــلم — كما يقول فرديناند دى سوسير — : اللغــة معتبرة فى ذاتهــا ، ومن أجل ذاتها [٣] ومعنى فى ذاتها ومن أجل ذاتهــا « أن علم اللغــة بالمفهوم الحديث لايجرى وراء تصحيح الــكلام ، أو الــكشف عن أخطائه ، وليس من وظيفته المبــاشرة وضع قواعد ، أو أحكام عامة ، للتمييز بين الجيد والردىء منه ، وانما وظيفته دراسة اللغــة ذاتها ، اذ هى — فى عرفنــا — مايتكلمه الناس بالفعل ، لا مايجب أن يتكلمه الناس » [٤] •

---

(٣) د• السعران : علم اللغــة ص ٥١ •

(٤) د• بشر : دراسات فى علم اللغــة القســم الأول ص ١١ من مقال عن كتاب علم اللغــة للدكتور السعران ، وانظر د• السعران : علم اللغة ص ٥١ وما بعــدها •

فهو يكشف عن حقيقة اللغـة التى تكون موضوع دراسته ، ولا يقصد منه تحقيق أغراض تربوية ، أو أية أغراض عملية أخرى .

ومع ذلك يمكن أن يتخذ من تلك الدراسة وسـائل ناجعة تفيـد اللغة دراسة واصطلاحا ، فيستفاد — منه — فى تعلم اللغة المدروسة، بأسهل الوسائل ، وكذلك فى وضع قواعـدها اللغوية والأدبيـة ، على أسس علمية ، واصـلاح كتابتها ، وتدوين معجماتها ، وحسن الضـبط للمفردات ، وتحديد دلالتها .

ويمكن — أيضا — مقـاومة أسباب التحريف واللحن ، والتوسع فيها بما يحافظ على سـلامتها ، ومسايرتها للحيـاة ، والحضارة ، وغير ذلك مما يؤدى الى النهوض باللغـة ، وصون كيانها ، وهذه جوانب فنية ، استفيدت من قيام هذا اللون ، من الدراسة يمكن أن يسمى (فن اللغـة) .

ومن الدراسة العلمية للظواهر اللغوية يمكن للمشتغلين فى هـذا الميـدان والحريصين على اللغـات ، فى كل مجتمع أن يعتمـدوا على ذلك الوصف الدقيق الذى يقوم به علم اللغة ، للنظم والأحوال القائمة على الاستنتاج من دراسة الظواهر المختلفة لها ، والقوانين التى تحكمها فيأخـذوا منها المنهج العلمى السليم لـكل اصـلاح لغوى ، أو نظرة جديدة ، لمشروعات لغوية ، — كمحاولتهم انشاء لغة عالمية — وبذلك تكون الأسس وطيـدة ، والنتـائج سديدة ، عكس ماكانوا يفعلون فى المـاضى من نظرات فردية لاتجد لها سندا من الواقع، ولا من التاريخ، ولذلك سرعان ماباءت بالفشـل ، وكانت عواقبهـا ضـياع الآمال ، والرغبـات [٥] .

وبهذا المفهوم الذى وصل اليه « علم اللغة » عند الغربيين فى

---

(٥) أنظر مزيدا من التفصيل لذلك فى كتاب « علم اللغة » د. وافى ص ١٤ وما بعـدها .

هـذا القرن ، استقل « علم اللغة » عن « فقه اللغة » فأصبح لكل منهما مجاله الخاص به ، ولكن الصلات بينهما وثيقة .

فعلم اللغة : يتناول ظواهر اللغات جميعا ، لا فرق بين المتشابه منها وغيره ، ويستقى مادته من النظر فى اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل الى فهم الحقائق ، والخصائص التى تسلك اللغات جميعا فى عقد واحد [٦] .

وفقه اللغة : مجاله دراسة احدى اللغات ، كالعربية أو الانجليزية ، أو طائفة متشابهة منها ، كالطائفة السامية أو الحامية، أو الهندية الأوربية « لبيان خصائصها ، وتاريخها ، وتطورها ، وتفاعلها مع الفكر ، ومع البشر ، ومع غيرها من اللغات » [٧] .

وكلا العلمين يستفيد من الآخر فى الوصول الى نتائج صادقة ، فقوانين صراع اللغات — مثلا — من مجالات « علم اللغة » وعند تطبيقها على لغة معينة ينتقل مجال البحث الى « فقه اللغة » ، فتغلب العربية على القبطنة فى مصر ابان الفتح الاسلامى ، وعدم تغلب الانجليزية على العربية فيها ابان الاحتلال الانجليزى يعود الى أسباب معينة يكشف عنها « علم اللغة العام » الذى يحدد القوانين العامة التى تخضع لها اللغات جميعا .

و « علم اللغة » يضع قوانينه بالاستعانة بالبحث اللغوى فى كل لغة على حدة ، أو مجموعة متشابهة من اللغات ، والجمع بين النتائج المستفادة ، وضمها الى غيرها من اللغات الأخرى ، ووضع القواعد العامة على أساسها .

« وعلى ذلك يمكننا القول بأن « فقه اللغة » و « علم اللغة »

---

(٦) د. السعران : علم اللغة ص ٥١ .

(٧) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ١٢ .

ميدانان من البحث متميزان أحدهما عن الآخر ، وان تداخلا أحيانا واستعان كل منهما بالآخر دائما » (٨)

الداعى اليه :

تختلف أسباب النشأة هنا عنها عند العرب ، فقد دعا الحفاظ على القرآن الكريم الى أن يجمع علماء العربية عزمهم ، ويكرسوا جهدهم للدراسات اللغوية التى يرتكز عليها فهم كتاب الله ، وبقاء دينه على الأرض ، فنشأ علم اللغة — عندهم — كما قلنا سابقا — لكن السبب هنا يختلف ، والطريقة — كذلك — تختلف .

فقد كان هم الأوربيين — منذ عصر النهضة — أن يسيطروا على العالم فى أطراف الأرض ، ويبتزوا أمواله ، ويعيشوا على خيراته ، وينشروا فيه مبادئهم ودياناتهم ، وطريق ذلك هو اللغة ، فلا يمكن — كما هو مسلم — أن يتصل شخص بآخر أو شعب بغيره ، دون التعرف على لغته التى تفتح الأبواب للالتقاء ، وفهم الأغراض المطلوبة للآخر ، أو محاولة افهامه ، وفرض موضوع ماعليه .

وقد عرف الغربيون هذا المفتاح الذى يترك أبواب البلاد أمامهم على مصاريعها ، يدخلون كما يشاءون ، ويفعلون مايريدون ، فانطلقوا يدرسون لغات العالم .

وفى نشأة الدراسة اللغوية فى « أوربا » مايدل على أن للاستعمار ، وحملات التبشير المسيحية دورا رئيسا ساعد على ظهورها ، وانتشارها ، وتطورها ، للوصول الى شعوب العالم التى يقصدونها ، ويرجون من ورائها السيطرة ، والنفوذ .

فالمعروف تاريخيا أن الدراسة اللغوية — عند الغرب — ظهرت منذ احيائهم تراث اليونان والرومان ، ومع رحلات الكشوف

---

(٨) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ١٤ .

الجغرافيـــة التى أعطت الأوربيين فرصـــا واسعة للاتصال بشـــعوب أخرى ، ومعرفة لغـــاتهم ، ودراستها ، وتبعا لحركات التبشير المسيحية التى صـــاحبت تلك الرحلات ، ولذلك وجدناهم ينقلون كتبهم المقدسة الى لغات البلاد التى عرفوها ، وأنشأوا لتلك اللغات قواعد ومعاجم •

وقـــد درس الأوربيون بعض اللغـــات الســـامية وخطوطهـــا ، كالسريانية ، والحبشية القديمة والعبرية والعربية •

وكان للبرتغاليين حظ وافر فى دراســـة اللغـــات الهندية ــ ماعدا لغـــات شمال الهنـــد ــ والانجليزى اليسوعى توماس ستيفنس درس عاميات الهنـــد ــ التى عاش فى أحضانها الفترة الزمنية « ١٥٧٩ ــ ١٦٦٩ م » ووضع أول نحو للهجة الـــكونكاتية •

وكان للهولنديين والدانيمركيين والانجليز دراسات فى لغات الهند الجنوبية تقدمت كثيرا فى القونين السابع والثامن عشر •

وكان للبعثـــات التبشيرية دورها فى دراسة لغات شمال الهنـــد ، فى القرنين السابقين وشملت ــ مع ذلك ــ نيبـــال ، والتبت ، وبورما ، والصـــين •

ومع كثرة احتكاك الغربيين بدول العـــالم أخذت الدراسة اللغوية فى التقدم ، ومع البعثـــات التبشيرية سار البعث اللغوى ، واحيـــاء الدراسات اللغوية والاهتمام بها ، حتى ظهر علم اللغة الحـــديث فى بداية القرن التاسع عشر [٩] •

ورب ضارة نافعة ، فقد كانت تلك الأهداف الغربية الاستعمارية ، سببا فى بروز هـــذا العلم الذى نشأ من تنـــاولهم للغـــات العالم ، وصفا ، وتاريخا ومقـــارنة ــ على ماذكرنا ســـابقا ــ فمهد الطريق

---

(٩) د. السعران : علم اللغـــة ص ٣٥٨ ــ ٣٦٤ •

لمعرفة ظواهر كل لغة ، وظروف نشأتها ، وتطورها ، ووسائل معرفتها ، واكتشاف أسرارها ، حتى انتهى هـذا العلم الى تأصيل اللغـات ، والربط بينها ، ومحاولة اصلاحها •

البحوث اللغوية عنـد الغربيين

مدخل تاريخى :

دراسة اللغـة قديمة ، بدأت مع الانسان ، ووجـدت عند جميع الأجنـاس البشرية ، وقـدماء المصريين كانوا يعتبرون الههم «تحوت» قلب « رع » ولسانه وسائر الأمم القـديمة — كاليونان والرومان — تخيلوا مثل ذلك فى خالق اللغـة ولذلك وجدناهم يدعون أن اللغـة وما ينتابها من التغيرات كلها أمور الهية موحى بها •

وقـد كان للهنود فى أصـوات لغتهم « السنسكريتية » دراسة قيمة ، كما وضعوا لها نحوا وصـفيا بعيدا عن الاتجاه المنطقى ، ومن أشهر نحاتهم بانينى [١٠] « الذى يسمى سيبونه السنسكريتية » ويعد — كما قالوا — خير النحويين الوصفيين القدماء •

وكان لليونانيين آراء فى أصـوات لغتهم ، ونحوها ، الا أنهـا اعتمدت على الناحيـة الفلسفية والمنطقية ، فدرسوا العلاقة بين اللفظ ومعناه ، ورأوا أنهـا ضرورية ، وربطوا بين النحـو والمنطق ، ولهم — مع ذلك — بعض الدراسات اللغوية التى تستحق الاعتبار •

وللرومان — كذلك — دراسات فى اللغـة اللاتينية [١١] نهجوا فيها منهج اليونانيين فى لغتهم ، ولـكنهم لم يبلغوا شأوهم ، أو شأو الهنود فى دراستهم اللغوية ، مع خطئهم فى قيـاس لغتهم على لغـة تخالفها منهجا واتجاها وطبيعة [١٢] •

---

(١٠) عاش فى القرن الرابع ق‌م •
(١١) بدأت منذ القرن الثانى ق‌م •
(١٢) أنظر د• السعران : علم اللغـة ص ٣٥٢ •

وللعرب دراسات فى لغتهم خصصناها — فيما سبق — بمزيد من البحث .

أما الغربيون فحتى العصور الوسطى لم يجددوا شيئا فى مجال الدراسة اللغوية شأنهم فيها كشأنهم فى سائر النشاطات الأخرى، علمية ، واجتماعية حيث لم يكن لهم فيهـا حظ يستحق النظر ، فعاشوا على ماورثوه من دراسة قديمة للغة اليونان .

ولما بدأ عصر النهضة ، والكشوف الجغرافية ، وحملات التبشير المسيحية اتصل الغربيون بأمم أخرى ، فدرسوا لغاتها ، ووضعوا لها أنحاء ومعاجم — وان كانت فى مبدئها غير دقيقة — وكان بين اللغات التى درست لغات جنوب الهند ، وشمالها .

والى ذلك التاريخ لم تكن للغربيين بحوث لغوية ذات بال ، بل كانت لهم مسائل تتعلق بالبنية ، والتنظيم ، والأسلوب . فى صورها التعليمية وكانت مسائل اللغة مهملة اللهم الا القليل من الاتجاهات اللغوية العامة ، وبعض النظرات الصوتية ، والآراء فى أصول الكلمات الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانية (١٣) ، التى عولجت على سبيل الاستطراد ، ودون خضوع للمنهج العلمى الذى لم يكن قد ظهر بعد .

---

(١٣) من ذلك — كما يقول الدكتور وافى — بعض نظرات فى أصوات اللغة « التونانيك » وردت فى مؤلف لكورديموا ظهر عام ١٦٦٨ م وبعض ملاحظات وتجارب على الصوت قامت بها المدارس المنشأة فى القرن الثامن عشر لتعليم الصم والبكم ، وبعض آراء لسانت أوجيستان بصدد تطور اللغة وبعض آراء فى أصول الكلمات لكلودفوشيه ، وبير يون وهنرى استيان وبعض بحوث لغوية عامة وخاصة قامت بها الأكاديميات « المجامع اللغوية » التى أنشئت فى صدر العصور الحديثة كالأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الأسبانية ، وأكاديمية فلورنسا وغيرها . أنظر د. وافى : علم اللغة ص ٤٨ .

ثم كان الحدث المهم والتطور الكبير بكشف اللغة السنسكريتية على يد سير وليام جونز الانجليزى سنة ١٧٨٦ م فعرف كثير من أوجه الشبه ، وصلات القربى بين اللغات الهندية والايرانية ، وبين اللغات الاغريقية واللاتينية ، والجرمانية كما أمكن الاطلاع على الدراسات الصوتية والنحوية لعلماء الهنود والتى خلت من النواحى المنطقية والفلسفية واتجهت الى الوصف والتحليل ، ولا ريب أن وصف الأصوات فى السنسكريتية لا يقوم على الأثر السمعى بل على أسس فسيولوجية (١٤) ونحو السنسكريتية كان — حتى ذلك التاريخ — ذا أثر كبير فى دراسات العصر ، ولم يكن من علماء اللغة آنذاك من يجهل السنسكريتية ، فكلهم عالم بها قبل أى شىء آخر .

وفى القرن التاسع عشر ازدادت درجة التقدم فى الدراسات اللغوية ، لما زادت صلة العالم الغربى بالعوالم الأخرى ، وبرزت سمة النزوع الى التطور ، وظهرت العلوم الطبيعية ، فى مجتمع هذا القرن ، مع نظرية داروين المشهورة ، وما أحدثه ذلك كله من تغير فى مناهج العلوم والفلسفة ، فتأثرت الدراسات اللغوية ، ومناهجها ونظر الى التغيرات اللغوية على أنها من طبيعة التغيرات فى العالم الطبيعى ، فما يصدق عليه يصدق عليها ، فحكم بعض علماء اللغة بأن تلك التغيرات تحكمها « قوانين عمياء » وأن اللغات واللهجات كائنات متنوعة يمكن تحديد عددها ، وتقسيمها الى فصائل أو « عائلات » بينها صلات نسب ، وهى — فى تطورها واختلافها ، وحدوث تأثيرات فيها — مشابهة للحيوانات والنباتات وغيرها مما هو من كائنات العالم الطبيعى .

وعلى هدى ذلك تمكن العلماء من عقد المقارنات بين اللغات ، واللهجات ، وتحديد صلاتها ، ووجوه الشبه ، والاختلاف بينها ، وعوامل ذلك .

---

(١٤) عضوية .

وقــد نال شىء من اهتمامهم ــ على هــذا النحو ــ بحثهم فى اللغــات الأوربيــة ، والهنــدية ، فقارنوا بينها ، من حيث الألفــاظ والمعــانى ، والقواعد نحوا ، وصرفا ، واشتقاقا ، وطريق هذه اللغات فى تعبيراتها ، وتركيب كلماتها ، وجملها ، فعثروا على وجوه من التشابه جد كبيرة ، جعلتهم يحكمون بأنهــا من فصيلة واحــدة هى الفصــيلة « الهندو أوربيــة » .

وهكذا بدأ تاريخ المقارنات اللغوية ، والتغير اللغوى ، على يــد طائفــة من العلمــاء ، أنشأوا « علم القواعــد المقــارن » و « علم القواعد التاريخى » .

ومن هؤلاء العلمــاء الألمــان جاكوب جريم [١٥] ، منشىء النحو المقــارن وفرانز بوب [١٦] ، أول فنولوجى صوتى [١٧] وبوت [١٨] ، مؤسس النحو الهندو أوربى .

وأضا هرمان بول [١٩] الذى يعد كتابه « أصول التاريخ اللغوى » أساس علم اللغة التاريخى .

ولدويت هويتنى العــالم الأمريكى [٢٠] كتاب « اللغــة ودراسة اللغة » تتضح منه سمة القرن التاسع عشر فى الاتجــاه التــاريخى لفقــه اللغة .

علم القواعــد المقــارن :

كان كشف اللغــة السنسكريتية على يد الأستاذ دانيــال جونز فاتحة هــذه الدراسة ، التى مكنت العلماء ــ فيما بعــد ــ من بحث وجوه الشبه بين مجموعة اللغات الهندية ، والأوربية ــ كما بينا .

---

(١٥) ١٧٨٥ — ١٨٦٣ م .
(١٦) ١٧٩١ — ١٨٦٧ م .
(١٧) أى أول من درس الفنولوجيا التاريخية، وراجع معنى الفنولوجيا فى موضعه من هذا الــكتاب .
(١٨) ١٨٠٢ — ١٨٨٧ م .
(١٩) ١٨٤٦ — ١٩٢١ م .
(٢٠) ١٨٢٧ — ١٨٩٤ م .

وقــد انتقل البحث من تلك المجموعة الى غيرها ، من اللغــات الأخرى التى تتشابه فيما بينها ، حتى امتد الى جميع اللغات الانسانية.

ويجرى البحث فى هــذا الفرع متوخيا دراسة مجموعة متشابهة من اللغــات من حيث معــانى الــكلمات التى قــد تبقى ، وقد تتغير ، تبعا لاختلاف الزمن والبيئات ، ومن حيث تكوين الــكلمات الاشتقاقى والصوتى ، ومظاهره وآثار البيئــة فيه ، وأنواع الــكلمات من اسم ، وفعل ، وحرف ، وما يتصل بذلك من أحكام صرفيــة ، والتغيرات التى تتطلبها المعــانى ، ومن حيث مواقع الــكلمات فى الجمل ، ووظائفها ، ومراعاة أحكامها الواجبــة لها من تذكير وتأنيث ، وأحكام اعرابية ، وحالات الأسلوب فى كل لغــة من تلك المجموعة المتشابهة ، ومقتضيات الأحوال ، ومطابقتها لها ومقــارنة كل تلك الحالات فى الطائفة اللغوية التى تكون موضــوع البحث لمعرفة وجوه الاشتراك بينها ، واستخلاص الأصــول التى تجمع بعضها ببعض وتؤلف بينها فى مجموعة واحدة ، وتؤكد رجوعها الى مصدر واحد .

ويمكن بطريق المقــارنة العلمية لأحوال اللغــة الواحدة وأخواتها الأخريات أن يصل البــاحث الى نتائج مرضية ، لو أنه تتبع مراحلهــا التاريخية ، وتطور أصــواتها ومعانيها وأحوالهــا البنائية ، والنحوية والمعجمية ثم وازن بين جميعها مستخلصا النتائج الأساسية التى تبرز التقارب فى أصولها جميعا .

وقــد حاول العلماء — بعد تطبيق مبــادىء هــذا العــلم على مجموعة اللغــات الهندية الأوربية — أن يطبقوه على مجموعة اللغــات السامية التى لايزالون يبحثون عن الأصول التى تشترك فيها وترجعها الى أم واحدة .

وقــد تنبه علماء الشرق الى مثل هذه المقارنات التى تعــد نواة لعلم القواعد المقــارن فى هذه المجموعة السامية ، فالباحثون — فى أقــدم العصور — قد حكموا بانتماء أفرادها (الأكدية ، الأشورية ،

الآرامية ، البابلية ، العبرية ، العربيـــة ، اليمنية القديمة ، الحبشية)
الى فصيلة واحدة ، ومنذ القرن العـــاشر الميلادى ظهر للعلماء وجوه
الشبه بين العبرية والعربيـــة ، وفى القرن السابع عشر اكتشفوا قرابة
الحبشية والعربيـــة ، ولم يمض أكثر من نصف هـــذا القرن حتى أدرك
المستشرقون صـــلات القرابة بين معظم أفراد هـــذه الفصيلة السامية،
وذلك قبل أن يكتشف الأوربيون رجوع أفراد المجموعـــة الهنـــدية الى
فصيلة واحدة على الوضع الذى اتضح فيما بعد [٢١] •

وهكذا رأينـــا أن هذه الدراسة فى « علم القواعـــد المقـــارن »
كانت — فى بدئها — مقصورة على المجموعة الهنـــدية الأوربية ، ثم
انتقلت الى غيرها من مجموعات لغوية متشابهة ، ويمكن أن يمتد ذلك
الى جميع اللغـــات •

علم القواعد التـــاريخى :

يدرس هـــذا الفرع لغـــة واحدة ، دراســـة تاريخية من حيث
مفرداتها ، وقواعـــد التنظيم فيها ، واتجاهات أساليبها ، فى مراحلها
التاريخية المختلفـــة ، فيتتبع اللغـــة منذ عصرها الطفولى ، كيف كانت
المفردات فيـــه ؟ ومعانيها ؟ وكيف كانت القواعد التى تنتظم الـــكلمات،
من أحوال اعرابيـــة ، وصرفيـــة ، واشـــتقاقية ، وأحوال التراكيب ،
وصـــلاتها بالمعانى ، وما تقتضيه من أحكام لغوية ، وأدبية • وبلاغية ؟
ثم فيما تلا ذلك من عصور ملاحظا أن يتناول البحث الوصف الدقيق
لكل مرحلة من المراحل ، من حيث النواحى السابقة فى الأصوات، والمعانى،
والبنية ، والأسلوب ، والتطورات التى اعترت المواد اللغوية ، والتغيرات
التى مرت بها ، والعوامل التى أثرت فيها ، ونتائج ذلك كله •

وكان هذا اللون من الدراسة نتيجة للدراسة المتقـــدمة فى « علم
القواعد المقارن » فلما بحث العلماء فى مجموعة اللغات الهندية الأوربية،

---

(٢١) د• وافى : فقـــه اللغـــة ص ٣ ، ٤ •

على طويق المقارنة بين دلالتها وألفاظها لايجاد وجوه الشبه ، كان ذلك خاليـــا من النظر الى تلك اللغـــات فى تاريخها الطويل ، ومن ملاحظة تطور قواعــدها وألفاظها ودلالاتهـــا ، تبعا لاختــلاف الأزمنة ، ومن مقارنتها فى مراحلها التاريخية ، فكانت دراسة داخلية بحتة لا تتعلق ببيـــان أسباب التطور الخارجية ، ومعالمها •

فجاء هذا اللون الثانى « علم القواعد التـــاريخى » مرتكزا على ماسبق ، ومكملا مافات من طرق البحث التى توصل الى نتـــائج مهمة من بحث تاريخ لغـــة واحدة مرحلة بعد أخرى ، لبيان معالم التطور فيها ، وأسبابه ، ونتائجه وقوانينه •

ويمكن أن نوازن بين الفرعين السابقين على النحو التالى :

١ — علم القواعد المقارن يدرس الظواهر اللغوية فى طائفـــة من اللغـــات أو فى جميعها لـــكن علم القواعد التاريخى يخص دراســـته بلغـــة واحدة •

٢ — يوازن المقـــارن بين تلك الظواهر فى المجموعة اللغوية التى يدرسها أو فى جميع اللغـــات ، والتـــاريخى لا يوازن لأن وظيفتـــه الوصف والتحليل فقط •

٣ — يختص الأول بالعنـــاصر الداخلية للألفاظ والقواعد ، ولكن الثانى يختص بالعناصر الخارجيـــة التى تكشف عن الجو الذى عاشت فيه تلك الألفاظ والقواعد وما أحاط بها من ظروف •

وقـــد كان هذا الفرع « علم القواعـــد التـــاريخى » — فى آون الأمر — خاصا بلغـــة ما من مجموعة اللغات الهندية الأوروبيـــة التى عكف علماء الغرب على دراستها ، ثم انتقل الى اللغـــات الأخرى فى العـــالم ، فدرست — ولا تزال تدرس — بعض تلك اللغات واحـــدة واحدة ، فى تاريخها الطويل على هذا الطريق التحليلى والوصـــفى ،

الخالى من الموازنة ، ليُـدرك كنه اللغـة التى هى موضـوع البحث وطريق سيرها ، واتجاهاتها ، ونتائجها ، والقوانين التى تحكمها •

وقـد أدت هذه البحوث المستحدثة فى اللغات جميعا الى البحث عن اللغة الانسانية الأولى ، كيف نشأت ؟ ومتى ؟ وأصولها الأولى فى اللغـات العالميـة ، من حيث الأصـوات ، والدلالة ، وظواهر التطور المختلفة ، ومنابعها الأولى •

وقد ألفت — فى هـذا العصر — مجموعة من الـكتب التى تبحث فى أمور عامة فى أصول اللغة فقد ألف العالم الألمانى فرن همبولت[٢٢] — ضمن ما ألف — بحثا عن اختلافات الـكلام الانسانى ظهر سـنة ١٨٣٦ [٢٣] وهو — بهذا المعنى — خاص بعلم اللغة العام ، ومن أتباعه عالم ألمانى آخر يسمى هيمان ستينثال [٢٤] وله مؤلفات فى موضوعات عامة عن اللغـة وأصـولها ، وله بحث عن الأنواع الرئيسـة للبنيـة اللغوية نشر عام ١٨٦١ م ، ويميل فيـه الى بعض التفسيرات النفسية، وكتب ولهلم فنت [٢٥] بحثا عد فيـه « عالم نفس » أكثر منه « عالم لغة » فقـد عنى فيـه بابراز العلاقة بين الظواهر اللغوية ، والظواهر النفسية [٢٦] •

ولم تكن تلك الـكتابات خاضعة للمنـاهج العلمية التى ترسـم الطرق السديدة وكانت الطريقة السائدة هى الطريقة التاريخية المقارنة للقواعد والأساليب وتوزيع اللغات للتقسيم العائلى أو البنائى •

فلما كانت أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين هب العلماء يرفضون ربط الظواهر اللغوية بما يحدث فى العالم الطبيعى ،

---

(٢٢) ١٧٦٧ — ١٨٣٥ م •
(٢٣) أى بعد وفاة مؤلفـه بعـام واحد •
(٢٤) ١٨٢٣ — ١٨٩٩ م •
(٢٥) ١٨٣٢ — ١٩٢٠ م •
(٢٦) أنظر د. السعران : علم اللغـة ٣٦٩ — ٣٧٠ •

وبدا لهم صلتها بالمجتمع الذى توجد فيه ، بنـــاء على ماثبت لهم من صلتها بالظواهر الاجتماعية .

فكما تخضع الظاهرات الاجتماعية — بشتى أشكالها — لقوانين معينة مستمدة من الواقع الاجتماعى الذى يمارسه أربابها ، فى مختلف الأمم والأزمان — وقد ثبت لهم ذلك علميا — كذلك لأن اللغة ظاهرة اجتماعية — تخضع لمثل ما تخضع له بقية الظواهر الاجتماعية من قوانين .

وقد استطاع علماء القرن العشرين أن يصلوا من وراء هــــذه النظرة الجديدة الى قوانين تحكم الظواهر اللغوية ، فى حالات الدلالة ، والأصوات والقواعد النحوية ، والصرفية ، والأسلوبية ، وما يمكن أن يؤثر عليها من عوامل نفسية واجتماعية .

وكان هذا — فى منشـــئه — تبعا للمذهب الجــديد الذى جاء به جول جيرون[٢٧] فى « علم اللغة الجغرافى » الذى حدد أن اللغة يمكن دراستها من حيث هى لغة ، لأنها بنية أو نظام يعتمد بعضه على بعض ، وعن طريقه يمكن فهم التغير اللغوى ، واللغة من حيث هى لغة ، ورسالتها فى المجتمع .

وفصل ذلك فرديناند دى سوسير[٢٨] وزاد تصورا جديدا هــو الفرق بين اللغة التى هى بنية ونظام ، وبين الكلام الذى هو النشـــاط العضلى الذى يمارسه المتكلم باللغة ، فاللغة نظام اجتماعى ، والفرد يستخدم هذا النظام على طريق الأثر السمعى المعروف ، واللغة — عند دى سوسير — « نظام من العلامات » ولذلك اقترح دراسة هذا النظام فى فرع يسمى « السسيولوجيا » أى علم العلامات[٢٩] .

---

(٢٧) ١٨٥٤ — ١٩٢٦ م .

(٢٨) ١٨٥٧ — ١٩١٣ م .

(٢٩) د. السعران : علم اللغـــة ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

وهذه النظرة الى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية متأثرة بمذهب اميل دوركيم ونظريته فى الظواهر الاجتماعية •

وبناء على هذا التطور فى النظرة العلمية الى اللغة ، بدأت دراستها تأخذ مظهر الجدية فى البحث العلمى ، فحددت خطة السير فى البحوث اللغوية وفى تحديد الاطار الخاص لكل موضوع يمكن أن يستقل به النظر اللغوى •

١ — فقد تمكن العلماء الغربيون — منذ أواخر القرن التاسع عشر — من اضفاء صفات المناهج العلمية على البحوث اللغوية ، كسائر العلوم الأخرى الطبيعية والرياضية وغيرها ، فبرزت الحقائق ، وأبعدت الأمور الميتافيزيقيـــة التى تبعد بالظواهر اللغوية عن الوصف الدقيق لها ، وتزج بها فى عالم فلسفى غامض لا تدرك من خلاله ، ولا يستفاد من توجيهها فى اطاره •

وعلى هذا الأساس نحيت بحوث كنشأة اللغة ، التى يعد الخوض فيها من قبيل الحدس ، والفرض ، ولم يمكن الوصول الى رأى يقينى بشأنها •

ومن هنا وضحت سبل البحث ، وحددت طرائقه ، وبخاصة بعد أن ظهرت مدرسة « المحدثين من علماء القواعد » التى أثبتت أن ظواهـــر اللغة « جبرية » لا تخضع لسلوك فردى أو للمصادفات ، والأهواء ، بل أنها تسير على ناموس لا يتخلف كسائر ظواهر العلوم ، الطبيعية وغيرها ، ولها قوانين — كقوانين العلوم — يمكن الكشف عنها •

ولـــكن بعض المدارس القائمة فى تلك الحقبة وهى « المـــدرسة الايطالية » — ومن أعضائها أسكولى — و « المدرسة الانجليزية » — ومن أعضائها سيس الانجليزى وجسبرسن الدانيمركى — عارضت القول بجبرية الظواهر وأرجعتها — بما فيها الظواهر الصوتية — الى سلوك الأفراد ، والانتشار بطريق التقليد •

وهناك مدرسة أخرى — من أعضائها بريال الفرنسى — سلمت بجبرية الظواهر الصوتية وأرجعت الظواهر الدلالية الى ارادة المتكلمين باللغة .

٢ — خصص العلماء — حينئذ — أنفسهم على سبيل التفرغ لدراسة كل فرع من فروع اللغة — على حدة — حتى يتقنوه ، ويصلوا فيه الى نتائج يكون لها المقومات الأساسية ، فنهضت بذلك الدراسة اللغوية ؛ لأن القدماء أضاعوا الوقت فى علاجهم لجميع فروع اللغة فجاءت بحوثهم غير وافية ولذلك ظهرت دراسات فى شتى الفروع اللغوية حتى يستكمل هذا النقص ، وهى :

الفوناتيك « علم الأصوات » .

الدياليكتولوجيا « علم اللهجات » .

السيمانتيك « علم الدلالة » .

السيكولوجيا اللغوية « علم النفس اللغوى » .

السوسيولوجيا اللغوية « علم الاجتماع اللغوى » .

وتخصصت الدراسة فى كل فرع على حدة ، وان استفاد منه غيره تبعا لما وصل اليه الباحثون فيه من نتائج ؛ بل هذه هى الثمرة المرجوة حقا .

أولا — الفوناتيك « علم الأصوات » :

تقدمت الدراسات الصوتية فى الغرب ، وبخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر — فقد أدرك اللغويون أهمية الأصوات — ولا سيما الصوت الانسانى الذى بحثوا فيه ؛ وعلموا مراحله التى مر بها ؛ وطوروا ألوان الدراسات فيه تبعا لتلك المراحل وهى :

١ — مرحلة صدور الأصوات من جهاز النطق :

وتلك المرحلة خاصة بالعملية الحركية التى يقوم بها هذا الجهاز — عند الانسان — وهى عملية فسيولوجية أو عضوية .

٢ — مرحلة انطلاق الصوت غب مغادرته فم المتكلم — مارا بالهواء الخارجى الى أذن السامع :

وتتناول الذبذبات والموجات التى تحمل الصوت فى الهواء بعد خروجه من أعضاء النطق وهى عملية فيزيائية •

٣ — مرحلة استقبال أعضاء السمع لتلك الذبذبات والموجات وتحويلها الى أصوات مدركة :

وتتمثل فى عملية استقبال الموجات والذبذبات الحاملة للصوت ، والتى تؤثر فى أعضاء السمع ، بأعمال ميكانيكية ينجم عنها ادراك السامع للاصوات •

وتلك المراحل تدخل فى نطاق علم اللغة ، ومن أجلها ظهرت فروع ثلاثة لعلم الأصوات[٣٠] هى :

١ — علم الأصوات النطقى أو الفسيولوجى •

٢ — علم الأصوات الأوكستيكى أو الفيزيائى •

٣ — علم الأصوات السمعى[٣١] •

فعلم الأصوات النطقى (أو الفسيولوجى) : يبحث أعضاء النطق لدى الانسان ، ونشاطها فى اصدار الأصوات وطبيعة وظائفها ، ودراسة الأصوات الناجمة عنها •

وقد كان لهذا الفرع وجود عند دارسى اللغات فى الأزمنة المتقدمة التى لم تسعفها الآلات ، والتجارب ، كالدراسات العربية ، واليونانية ، والهندية ، وغيرها ، ثم تقدمت الدراسات فى هذا القسم ، نتيجة لتقدم

---

(٣٠) تدخل تحت مايسمى « علم الأصوات العام » فهى فروع له .

(٣١) د. بشر : علم اللغة — القسم الثانى ص ١٣ ، ومعنى « فسيولوجى » عضوى ، ومعنى « فيزيائى » : طبيعى .

العلوم والمعارف وبخاصة علوم التشريح والأحياء والفسيولوجيا ، التى اعتمد عليها اعتمادا مباشرا ، فعلمت خصائص الجهاز النطقى ، وتكوينه ، وما يؤدى الى اصلاحه ، وما يعوقه عن أداء وظائفه ، فأمكن استخدامه الاستخدام الصحيح ، وبذلك وضحت عمليات نطق الأصوات الانسانية •

وقد وجدت الأجهزة والآلات المعملية التى تساعد على تأدية هذا الجهاز لوظائفه بعد أن كان العلماء — فى الماضى — يعتمدون — فى ذلك — على الملاحظة الذاتية التى لا تؤدى الى نتائج مؤكدة الصحة •

ولذلك سمى هذا الفرع « علم الأصوات الفسيولوجى » •

وعلم الأصوات (الفيزيائى أو الأوكوستيكى) : يتضمن البحث عن الذبذبات والموجات الصوتية التى يحملها الهواء — بعد تأثيره فى أعضاء النطق ، وخروجه منها — لتصل الى أذن السامع وبعض اللغويين يرى أنه يشمل البحث عن أعضاء السمع ، وآثار الذبذبات فيها ، مما يعد — عند غيرهم — من مباحث علم الأصوات السمعى الذى سنتحدث عنه بعد قليل •

وقد نشأ هذا الفرع نتيجة تقدم العلوم الطبيعية على يد المتخصصين ، ومن لهم دراية بعلم الصوت ، وبذلك أدرك علماء اللغة طبيعة الأصوات وخواصها ومن ثم وقفوا على طبيعة الصوت الانسانى ، وخواصه •

وسمى هذا الفرع (علم الأصوات الفيزيائى) أو (الأوكوستيكى) لاعتماده على بعض علوم الطبيعة (الفيزياء) •

وعن طريق هذا الفرع وصل علماء اللغة الى نتائج صحيحة ، وقوانين لغوية جديدة ، وتأكدوا من صحة بعض ما توصلوا اليه من قبل ، وعلى أساسه تغيرت مناهج دراستهم للأصوات ، فاستخدموا طرقا لم

تكن موجودة فيما مضى ، وتغيرت مواقفهم بالنسبة للاحداث الصوتية ، وتطوراتها ومبادئها التى تسير عليها •

ولهذا الفرع فوائد فى هندسة الصوت ، وصدوره عن أجهـــزة الاصدار المـكبرة كالاذاعة المسموعة والمرئية وغيرها ، وبالوقوف على الجانب الأوكوستيكى للاصوات يمكن علاج بعض أنواع الصمم ، وعيوب النطق ، ويستفاد منه فى دراسة تطور الأصوات تاريخيا ، ولا ســيما بعد اعتماده على الأجهزة الفنية ، التى استحدثت منذ أوائل القرن التاسع عشر وزاد تجددها فى النصف الثانى منه ، والى اليــوم ، ودعا الى الاعتماد على تلك الأجهزة — فى مجال الأصوا ت— ظهور نقص الجانب اللغوى الدقيق فى استخدام الأذن •

ومن هنا يمكن القول بأن الفرعين «النطقى والأوكوستيكى» يعتمدان اعتمادا كبيرا — فى العصور الحديثة — على الآلات والأجهزة المعملية ، مما دعا الى بروز فرع آخر يسمى « علم الأصوات التجريبى » •

وعلم الأصوات السمعى : له جانبان :

أحدهما : فسيولوجى خاص بأعضاء السمع التى تستقبل الصـــوت فيبحث فيها من حيث طبيعتها ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، وما يؤثر عليها•

والثانى نفسى يتعلق بآثار الذبذبات الصوتية فى أعضاء السمع ، وادراك السامع للاصوات ، فيبحث هذا الفرع عن هذه الذبذبات الصوتية، وتأثيراتها ، وكيفية ادراك السامع لـــا تحمله من أصوات •

وبعض اللغويين يقصر دراسته على الناحية النفسية فقط ، ويجعل ما يتصل بأعضـــاء الســـــمع والذبذبات ، من مباحث علم الأصـــوات الأوكوستيكى ، كما سبق بيانه •

وحتى الآن لم تتهيأ الطــرق ، والمباحث العلمية ، والأجهــزة ، والآلات المعملية والصوتية التى تمكن الباحث اللغوى من الوصول الى

مبادىء دقيقة لهذا الفرع من البحوث الصوتية ، بقدر ما توفر للفرعين الآخرين اللذين تقدمت الوسائل التى تهيىء لهما التقدم الذى لمسناه فى تطور الدراسات الصوتية •

وهذه الدراسة — تبعا للفروع السابقة — لم تتعد التحليل والوصف، لكن اللغويين لم يكتفوا بذلك ، بل أرادوا الوصول الى حقائق لغوية وقوانين يستفاد منها فى دراسة اللغات ، وبخاصة أصواتها ، ولذلك قسموا الدراسة الصوتية الى قسمين :

(أ) الفوناتيك •
(ب) الفنولوجيا[٣٢] •

فمهمة الأول هى : البحث عن الكلام المنطوق بالفعل — وهو الجانب المادى الصوتى الذى يصدر عن جهاز النطق ، دون نظر الى وظيفته اللغوية •

ويشمل ذلك الأقسام السابقة لعلم الأصوات وهى : علم الأصوات النطقى — الأوكوستيكى — السمعى •

ومهمة الثانى هى: البحث عن وظائف الأصوات فى اللغة باستعراض القيم الصوتية وصورها الذهنية ، وتنظيمها ، ووضع القواعد والقوانين لها على ما هو مختزن فى ذهن الجماعة الاجتماعية المعينة •

ومن موضوعاته دراسة الصوت كوحدة مستقلة والمقاطع الصوتية والنبر والتنغيم وتأثر الأصوات وتأثير بعضها فى بعض وهو ما يعرف فى علم الأصوات بالمماثلة •

فالوحدات الصوتية — أو كما يسمونها « الفونيمات » — لها قيم صوتية ، فهى تغير المعانى تبعا لتغير الوحدة الصوتية التى تؤدى كل منها وظيفة خاصة بها •

---

(٣٢) يسمى « علم الأصوات الخاص » أو « علم الأصوات التنظيمى » أو « علم التشكيل الصوتى » •

فمثلا : كتب وكثُب[٣٣] تختلفان معنى تبعا لاختلاف « الوحـــدة الصوتية » أو « الفونيم » الواقعة فى المقطع الثانى فهى فى الأول تاء ، وفى الثانى ثاء .

وكذلك : سد وصد[٣٤] فالأول سين ، والثانى صاد ، فى المقطـــع الأول — ومن أجله اختلف المعنى فى كل من الـــكلمتين .

وكل « فونيم » — على حدة — تكون لها — عادة — عدة صـــور نطقية ، لكنها لا تؤثر فى تغير الوظيفة اللغوية التى تؤديها ، فالمعنى — مع تعدد تلك الصور يكون واحدا ، كالنون — فى العربة — فهى وحـــدة صوتة تتعدد صـــورها النطقية بين الاظهـــار والادغام ، والاخفـــاء ، والاقلاب [٣٤] ، ولكن لا يغير ذلك من معنى الكلمة التى تكون فيها .

---

(٣٣) الكتابة معروفة ، والكثب : القرب .

(٣٤) الصد : جانب الجبل ، والسد للباب ونحوه .

(٣٤م) تظهر النون الساكنة اذا وقع بعدها أحد أحرف الحلق الستة مثل قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن » .

وتدغم بغنة مع النـــون أو الميم ، فمثالها مع النـــون قوله تعـــالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » — « ان نحـــن الا بشر مثلكم » ، ومثالها مع الميم « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وتدغم مع الاختلاف فى الغنة اذا اجتمعت مع الياء أو الواو . فمثالها مع الياء قوله عز حكمه : « وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

ومثالها مع الواو قوله سبحانه : « وما لهم من دونه من وال » .

وتخفى النون مع واحد من خمسة عشر حرفا مجموعة فى قولهم :

صف ذاثنا كم جاد شـــخص قد ســـما
دم طيبا زد فى تقى ضـــــع ظالمـــا

ومن أمثلة اخفائها مع الصاد قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » ومع الذال قوله سبحانه « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا » الى آخـــر الحروف المذكورة فى أول كل كلمة فى البيت السابق .

وتقلب ميما اذا تلتها باء مثل قوله تعالى « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » .

فهذه الأحوال من تغير الفونيم وتغير المعنى تبعا لها ، ووظائفها فى اللغة ، والفرق بين حالات استبدال غيرها بها وحالات وجودها مع تعدد الصور النطقية — تبعا للموقع السياقى ، الذى تكون فيه ، هو موضوع القسم الذى يسميه علماء اللغة « الفنولوجيا » .

فهذا اللون يدرس « الفونيمات » ووظائفها فى لغة معينة ، ومشكلاتها ويفرق بين الصور النطقية للصوت الواحد ، وبين اختلاف الأصوات ، التى يترتب عليها اختلاف المعانى ، التى تعد بمثابة الوظائف[٣٥] .

وهذا التقسيم فى الدراسة الصوتية بدأ فى أواخر النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد أدرك عالم اللهجات السويسرى ج. ونتلر الفرق بين النوعين ووجد ما يدل على ادراكه فى كتابات سويت الانجليزى ، وتلميذه جسبرسن الدانيمركى .

ولكن دى كورتينى هو أول من فرق بينهما بشكل واضح ، وصريح حين فصل بين أصوات الكلام ، والصور الذهنية للأصوات ، وسمى الأول « علم الأصوات العضوى » والثانى « علم الأصوات النفسى » وأطلق على الصور الذهنية اسم « الفونيم » كما يظهر من قوله : ان « الفونيم هى المعادل النفسى للصوت »[٣٦] .

وقد تعددت الآراء حول الفصل بين هذين الفرعين « الفوناتيك والفنولوجيا » والصلة بينهما .

---

(٣٥) وهذا على سبيل المثال ، والا فدراسة الموضوعات المشار اليها فيما سبق تعد من صميم هذا الفرع .

(٣٦) د. بشر : علم اللغة — القسم الثانى ص ٤١ .

رأى المدرسة البراجية(٣٧) :

فرق علماء تلك المدرسة التشيكية بين النوعين .

فالكلام المنطوق بالفعل من متكلم ما فى موقف معين يدخل تحت الفرع الأول « الفوناتيك » .

أما اللغة المعينة التى لاتنطق ، وانما تختزن فى عقول الجماعة ، ويتبعها الناس فى نطقهم ، محتذين قواعدها ، ونظمها ، فهى نطاق البحث الثانى « الفنولوجيا » .

فالأول يبحث فى أعضاء النطق ، ووظائفها ، وأوضاعها ، والذبذبات الصوتية التى تنجم عن حركة الهواء بها . فهو أقرب الى علوم الطبيعة منه الى علم اللغة .

أما الثانى فيدرس « الفونيمات » من حيث كونها عناصر مكونة للمعانى ، وهى عناصر عقلية لا مادية ، وتحقيقها يكون بنطقها الفعلى ، وهذا الفرع داخل فى نطاق علم اللغة ، ويعد من مباحثه .

ولكن التفريق التام بين الفرعين لم يحظ بالقبول ، عند كثير من الباحثين فلا فرق بين اللغة المعينة التى تختزن صورها الذهنية فى عقول الجماعة ، وبين الكلام المنطوق فعلا ، والذى تبرز أحداثه الصوتية معبرة عما فى عقول الجماعة ، فهنا أمثلة مختزنة ، وصور نطقية تعبر عنها ، والجانب الأول عقلى ، والثانى مادى ، جماعى ، وفردى ، وصلتهما وثيقة .

فعالم الفوناتيك يجمع ملاحظاته عن المادة الصوتية ، ووصفها من

---

(٣٧) من مؤسسيها العلماء الروس المهاجرون تربتسكوى وجيكبسون وكارسيفسكى ، وقد فرقوا بين الفوناتيك والفنولوجيا فى المؤتمر اللغوى الأول الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٢٨ ، وتمتاز تلك المدرسة من غيرها باثارها الجلية وآرائها الخاصة فى البحوث اللغوية لاسيما الحديث منها . أنظر د . السعران : علم اللغة ص ٣٧٥ ود . بشر : علم اللغة — القسم الثانى ، ص ٤٣ — ٤٥ .

الناحية العضوية ، لا لمجرد الجمع ، بل ليخضع تلك المادة للقواعد والتنظيم ، أو الكشف عن وظائف الأصوات التى جمعها ، ووصفها فى المرحلة الأولى •

وعالم الفنولوجيا الذى يبحث — أساسا — عن قيم الأصوات ، وتقنين قواعدها لابد أن يعتمد على الجانب العملى النطقى المادى •

فهما مرحلتان تكمل احداهما الأخرى ، فلا يفرق بينهما الا عند الضرورة ، كأن يكون المراد وضع منهج لبحث خاص بالجانب العملى النطقى أو بالجانب الوظيفى للغة •

ومع ذلك فلا يغيب عن ذهننا أنهما متكاملان ، يرتبط أحدهما بالآخر وينبنى عليه ، ويستفيد منه •

ومن لغويى براج من أدرك ذلك الوصل بينهما ، ويبدو واضحا من قول أحدهم — وهو ترنكا •

عندما تبدأ الدراسة من الصورة الصوتية ، وتتدرج فى طريقها ، حتى تصل الى القوانين المجردة ، فانها تجد نفسها فى مجال الفنولوجيا ، أما اذا أخذت طريقها هذه المرة ، من القوانين المجردة ، وسارت فى عملها حتى وصلت الى الصورة الواقعية للاصوات ، فانها تجد نفسها فى مجال الفوناتيك اننا اذا علمنا أن الفوناتيك انما يختلف — فقط — عن الفنولوجيا فى انتهاج طريق مخالف فى سير الدراسة أدركنا أن مشكلة الحدود الفاصلة بين الظواهر الفوناتيكية ، والفنولوجية أصبحت غير ذات موضوع ، لأن هذين النوعين من الظواهر متكاملان ، ومتعاونان ، فى سبيل تحقيق أهدافهما الفردية والاجتماعية[٣٨] •

وأى عمل تطبيقى لأصحاب التفريق بين الفرعين توجد فيه الصلة

---

(٣٨) د • بشر : علم اللغة القسم الثانى ، ص ٤٩ •

بينهما مما يقدم الأدلة القوية على عمق تلك الصلة ، والاشتراك ، وينقض قولهم بالاقتران •

ومن هنا وجدنا أن علماء اللغة — فى العصر الحاضر — يحاولون الجمع بينهما بصورة نظرية ، وتطبيقية ، حتى أطلقوا عليهما معا « علم الأصوات » دون نص على الجانب العملى ، أو الجانب الوظيفى •

وعلى كل حال فقد كانت جهود مدرسة براج نواة لما أتى بعدها من دراسات صوتية •

رأى المدرسة الانجليزية[٣٩] :

كانت تلك المدرسة تطلق « الفنولوجيا » — حتى وقت قريب — على الدراسات التاريخية للاصوات ، أما « الفوناتيك » فيشمل البحث الصوتى بجانبيه المادى وغيره ، فلم يكن هناك فصل بين قسمى الأصوات العضوى الفسيولوجى • والوظيفى الذى يبحث عن القيم الصوتيـة ، فهو بحث هام فى الأصوات •

ولحظ هذا فى أعمال لغوييهم مثل سويت ودانيال جونز ، ومدرسة فيرث فى أول نشأتها •

وهو من علم اللغة على هذا الأساس •

وعندما شاع التفريق بين الفرعين فى القارة الأوربية ، أخذ الانجليز بهذا التفريق ، وتركوا ما كانوا عليه ، تمشيا مع المنهج العالمى ، واعترف بذلك فيرث •

ولكن الانجليز لم يفصلوا بين الفرعين فصلا تاما ، — على حد المبالغة التى وقع فيها غيرهم من الأوربيين — ، فلم يفرقوا بينهما الا حيث

---

(٣٩) أسسها فيرث ولها أتباع من الانجليز وغيرهم حتى الآن •

يدعو أمر كخطة بحث تقتضى الانتقال من الجانب العضوى الى الجانب الوظيفى •

وقد عرفوا الفوناتيك التجريبى الذى ينتقل بالأصوات الى مجـال الفيزياء ووسعوا من دائرة الفوناتيك بحيث يجمع الأصوات ، ويصفها ، ويصنفها فى نظام فنولوجى ، يخضعها لقوانين تستمد من اللغة المعينة •

وهم — لتطويرهم للدراسة الصوتية فى السنوات الأخـيرة — قسموا الفنولوجيا — على حد ما وجد فى بعض المدارس اللغوية كالمدرسة الامريكية — الى :

« فنولوجيا الوحدات » :

وتختص بما يدخل فى التركيب الصوتى ، وعرف — عند الامريكيين — باسم « الفونيمات الأساسية » •

و« فنولوجيا التطريز الصوتى » :

وتختص بما لا يدخل فى نفس التركيب الصوتى ، مثل ظاهرة النبر ، وبداية المقاطع ، ونهاياتها ، والتنغيم وغـير ذلك ، ويسمى — عنـد الأمريكان « الفونيمات الثانوية أو فوق التركيب » •

وقد بنى الانجليز ذلك التقسيم على منهجهم فى تعدد الأنظمـة الذى يتبعونه عندما تتعدد الظواهر اللغوية ، على العكس من الامريكان الذين جمعوا الاثنين تحت قسم واحد هو : « الفونيمات » تبعا لمنهجهم فى « توحد الأنظمة » •

وهناك اتجاهان آخران فى بريطانيا :

أحدهما : يفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا •

والثانى : لا يفصل أحدهما عن الآخر ، الا انه يجعل الفوناتيك قسيم علم اللغة ، فهما معا يكونان ما أطلقوا عليه اسم «علوم اللغة» والفنولوجيا تمثل حلقة الاتصال بين الاثنين •

رأى المدرسة الامريكية(٤٠) :

نظرت تلك المدرسة الى فرعى الأصوات السابقين نظرات متفاوتة فى عصور متعاقبة .

فكانت — أول الأمر — ترى أن الفنولوجيا خاصة بالدراسة التاريخية للاصوات ، على حين أن الفوناتيك يشمل الدراسة الصوتية — بوجه عام — وهذا الرأى يماثل ما عرف عن الانجليز أول أمرهم .

ثم بعد تقدم الدراسات الصوتية — عند الأمريكان — خصوا الفوناتيك بالدراسة العضوية أو الفسيولوجية ، أو كما يقول علماء الأصوات بالجانب المادى النطقى .

ولكنهم لم يطلقوا مصطلح « الفنولوجيا » على ما عرف به من « الفونيمات » ووظائفها اللغوية ، بل استبدلوا بمصطلح الفنولوجيا هذا المصطلح الذى يعبر عن موضوعه وهو « الفونيم » وقسموه الى :

أساسى :

وهو العناصر الأساسية فى التركيب ، وتمثله الأصوات الصامتة والحركات ، فهى التى تكون التركيب الصوتى للغة .

وهامشى أو ثانوى : وهو ما لا يدخل فى التركيب الأصلى لعناصر اللغة كالنبر والتنغيم .

وليس كل أرباب المدرسة الامريكية يستخدمون مصطلح « الفونيم » دون مصطلح « الفنولوجيا » بل منهم من علم دقة المصطلح الثانى ، فاستخدمه ، وترك الأول ، لأن الثانى يشمل « الفونيمات » الأساسية

---

(٤٠) برزت للامريكيين — فى السنوات الأخيرة — دراسات لغوية ، وآراء فى البنية اللغوية تتفق مع الأوربيين من بعض الوجوه المهمة ، وقد بينوا ما تختلف فيه اللغات الهندية الامريكية عن لغات العالم القديم ، ومن أشهر لغوييهم فى القرن العشرين ليونارد بلومفيلد وادوارد سابير ، د. السعران: علم اللغة ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

والهامشية ، دون ايحاء باقتصار الدراسة على احداهما ، أو الاهتمام بها أكثر من الأخرى ، على العكس من المصطلح الأول الذى يجعل لهذا الايحاء بالتفضيل مدخلا لدى الباحث والدارس •

والصلة — عند علماء تلك المدرسة — وثيقة بين فرعى الدراسة الصوتية المذكورين ، وهما داخلان فى اطار علم اللغة •

ومن الامريكيين من أخرج بحث الفوناتيك من نطاق علم اللغة ، وألحقه بعلمى الفسيولوجيا والفيزياء •

وقد تقدمت الدراسة بهذا العلم الصوتى هناك — فيما بعد — وحللت جزئياته ، وخصت ببحوث عميقة ، بحيث أصبحت وكأنها علوم قائمة برأسها •

وزاد اهتمام الامريكيين بالدراسات اللغوية ومناهجها — بوجه عام — فجد — عندهم — بحث يعد وسطا بين الفنولوجيا أو علم الفونيمات ، والصرف سموه « علم الفونيمات الصرفى »(٤١) ومع وجود دراسات منه عند البراجيين فقد تفوق الأمريكيون الى درجة كبيرة وعميقة ، لا تصل اليها أية مدرسة أخرى •

وهذا الفرع يدرس « المورفيمات »(٤٢) ويحللها بحسب مواقعها فى السياق وما تدل عليه •

---

(٤١) يسمى — عند غيرهم الآن — الفنولوجيا الصرفى أو المورفولوجيا • علم اللغة د• بشر القسم الثانى ص ٦٩ •

(٤٢) هى دوال النسبة التى تميز الأصل (الجذر الذى ينتظم أصل المعنى مثل « ق ت ل » ويسمى بدوال الماهية) •

ولها عدة صور تتحقق بالحركات أو اللواحق أو العلاقات بين الكلمات• فالمورفيم يكون حركة توضح نوع الجذر والمعنى المراد منه مثل : (ق ت ل) فالحركات — فى التصرفات : (قتل — قتل — قاتل — مقتول) وفى بعض جموع التكسير كرجال — جمع رجل — توضح نوع الجذر ، والمعنى المراد منه •

فمثلا : مادة (ق ت ل) يدرك نوعها ومدلولها بحسب « المورفيمات » التى تحدد طبيعتها ، فتكون « فعلا » — بأنواعه الثلاثة — قتل — يقتل — اقتل ، وتكون اسما مثل : قاتل ، فالعناصر الصوتية حددت نوعها .

كما يمكن أن تحدد — كذلك — تذكيرها وتأنيثها ، وشخصية المتكلم[٤٢] حسب وجودها فى السياق مثل : قتلت — قتلا — قتلوا — قتلن .

فالعناصر الصوتية — أيضا — بينت ما أراده المتكلم .

هـذه هى آراء تلك المدارس فى الصـلة بين فرعى الأصـوات « الفوناتيك والفنولوجيا » .

ونحن — لانرى فاصلا طبيعيا بينهما فأحدهما مكمل للآخر ، ودارس كل قسم محتاج الى الاستعانة بصاحبه ، على ما استقر عليه الرأى فى عرضنا لآراء الدارسين البراجيين والانجليز ، والامريكيين .

وعلى أساس الفوناتيك والفنولوجيا — وما تفرع عنهما — وما ظهر

ويكون متطعا مثل : (يقتل — تقتل — تقتل — قتلت) فكل من المقاطع ، (يـ — ت — ن — ت) مورفيم ، ويكون سابقا ، ولاحقا — كما فى هذه المقاطع — وحشوا مثل ألف (قاتل) ونحوها .

ويكون كلمة كاملة مثل (كان) — فى قولك : كان الجو صحوا ، و(ليس) فى قولك : ليس الجو صحوا ، فقد حددت نسبة الصحو الى الجو فى الزمن الماضى أو نفيته عنه كذلك .

ومثل كان وأخواتها ، أفعال الشروع ، حين تدخل على الجملة فهى تعد مورفيمات .

ويكون علاقة أو علاقات تنشأ بين المدركات (أو المعـانى) مثـل : (المدينة هادئة) فللمدينة حقيقة مدركة ، وللهدوء حقيقة مدركة كذلك ، ونسبة الهدوء للمدينة مورفيم .

وتسمى هذه المورفيمات بالفصائل النحوية .
انظر : فنريس : اللغة ص ١٢٥ وما بعدها .

(٤٢) مفردا — مثنى — جمع مذكر — أو مؤنث .

من تقدم فى دراسة الأصوات ، قامت الدراسات المتخصصة ، التى وصلت الى نتائج قيمة دعمت « علم الأصوات » وقوت من شأنه •

الدراسة الصوتية المتخصصة :

كانت الدراسة الصوتية — فى العصور الماضية — تختص بلغة معينة يقوم أهلها بالنظر فى أصواتها ، وتحليلها وبيان وظائفها ، وملاحظة ما يتصل بها ، وما تخضع له من قواعد ، وقوانين ، وكان اعتمادهم فى دراستها يتم على أساس الملاحظة الذاتية التى قد تؤدى بالباحث — أحيانا — الى البعد عن جادة الصواب •

فلما نهضت البلاد الأوروبية ، وتفوقت الدراسات الحديثة ، وزاد تقدم العلوم والمعارف وجدنا ألوانا متخصصة من البحث ، فى الأصوات اللغوية •

أحدها : يعد امتدادا لما كان — قديما — من بحوث لغوية قامت بها الأمم ، لتحافظ على لغاتها ، وسلامة النطق بها ، بيد أن التقدم الأوربى ، قد أوجد الأجهزة • والآلات الدقيقة التى ساعدت على نهوضه ، ودقة النتائج التى يتوصل اليها ، فيه باجراء التجارب المعملية ، والعلمية ، بعد أن كان القدماء من لغويى الأمم الماضية ، لا يجدون ما يؤكد الحقائق اللغوية — عندهم — أكثر من الذوق والملاحظة الشخصية •

ودرست اللغة دراسة متخصصة فى فروع محددة من علم الأصوات •

فاذا درست فى فترة خاصة لا تتعداها الى غيرها على طريق الوصف والتحليل ، دون مقارنة أو تفسير يعتمد على مراحلها الأخرى ، التى مرت بها فى تاريخها اللغوى ، فلها قسم خاص يسمى : « علم الأصوات الوصفى » •

واذا كان الهدف من دراسة اللغة المعينة ، فى تلك الفترة المحددة

استخلاص القواعد ، والقوانين ، الصوتية التى تسير عليها ونعد نماذج « للنطق السليم » للحفاظ على اللغة ، وتصحيح نطقها ، فهذا فرع يسمى « علم الأصوات المعيارى » ويسمى هذا اللون الخاص بدراسة أصوات اللغة فى فترة محددة « ستكرونى » أو علم الأصوات المتزامن .

أما اذا درست أصوات اللغة فى مراحلها التاريخية المتعاقبـــة ، لملاحظة التطور الحادث فيها ، وعوامل تغيرها ، فذلك منهج آخر له فرع خاص يسمى « علم الأصوات التاريخى »ويطلق عليه اسم «تياكرونى»

وعند مقارنة الظواهر الصوتية للغـــة معنية فى مراحلها التاريخية المختلفة ، أو مقارنة الظواهر الصوتية فى مجموعة متشابهة من اللغات، واللهجات التى توجد بينهـــا صـــلات قربى ، فى تاريخهـــا اللغوى ، الطويل ، أو فى فترة منه ، ماضية أو حاضرة ، فلهذا قسم خاص من البحث يسمى « علم الأصوات المقارن » .

وثانيها : يعد لونا جديدا يتجه الى دراسة الصوت الانسانى — على امتداد الناطقين به فى بقاع الأرض ، وتعـــدد لغاتهم ، فيتحدث عن آثاره السمعية وأعضـــاء النطق ، ووظائفها ، وطبيعـــة اصدارها للأصوات ، وما يمكن أن يؤثر فيها ، والقوانين التى تخضع لها ، بصفة عامة ، وأطلق على هذا النوع اسم « علم الأصوات العام » .

وفى هذا القسم « العـــام » مايفيـــد « الخاص » فى منهجه ، وطبيعـــة بحثه ، وقوانين دراسته ، بحيث يعد الخاص بمثابة التطبيق، المبنى على أسس علمية ، انتهجها القسم العام ، وأكد نتائجها .

ثانيا : الديالكتولوجيا (علم اللهجات) :

قبل أواخر القرن التـــاسع عشر لم ينظر اللغويون الغربيون الى دراسة اللهجات المتفرعة عن لغاتهم ، بل حاولوا أن ينشروا بين الناس الاتجاه الى الفصحى . ونبذ العاميات ، لأن فى الفصحى مايحافظ على كيانهم الحضارى ، والأدبى ، فهم بحفاظهم على الفصحى من لغـــاتهم

يستطيعون أن يحافظوا على وحدتهم الثقافيـــة ، والقوميـــة ، فان تلك اللغات قـــد وعت لهم تاريخ أجيـــال وحضارات مضت ، ونقلتها اليهم، بحيث يستطيعون فهمها ، ووعيها ، فهم بها متصلون بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أما لو اتجه الناس الى العاميات،فسوف تصرفهم عن تراثهم، وتمزق وحدتهم ، وتقضى على أملهم فى المستقبل ولذلك حذر العلماء هنـــاك من استعمال العاميات وطلبوا من مجتمعاتهم أن يحافظوا على فصحاهم ، بل حاولوا — ومعهم الحكام — ابتكار الطرق والوسائل التى تؤدى الى منع انتشار العـــاميات ، ومن ذلك أن الجمعيـــة الوطنيـــة الفرنسية عهدت عام ١٧٩٤ م الى الأب جريجوار بأن يضع تقريرا يبين فيه الوســـائل الناجعة للقضـــاء على اللهجات الشعبية ، ونشر اللغـــة الفصحى [٤٣] .

ولم يكن الاهتمام بالفصحى على هذا النحو —وحده— هو السبب فى اهمال دراسة اللهجات ، فى تلك الحقبة من التاريخ ، بل ساعد على ذلك عوامل أخرى منها :

١ — توجه الدراسة الى الفصحى وبيـــان خصائصها واتجاهاتها — لأنها — مع غرض الحفاظ عليها ودوام استمرارها — معبدة الطرق، واضـــحة المســـار مستقرة النظم ، ممتـــدة عبر التاريخ بسمات يمكن تحديدها والنظر فى أمرها ، على العكس من اللهجـــات الشعبية التى يحتاج تحديد مسارها ونظمها ، وسماتها الى دراسات دائبة ، وجهود جبـــارة ، يتجشمها البـــاحث فيها ، ويحتاج معهـــا الى أزمان طويلة ، لاستخلاص حقائقها وما يتعلق بها من دراســـة الأحوال الاجتماعيـــة والثقافية والبيئية للشعوب .

٢ — العلماء آنذاك كانوا يحبون الدعة ، والهـــدوء ، ودراســـة الفصحى توفر لهم ذلك لأن سماتها واضحة معلومة لاتستدعى الأسفار،

(٤٣) د. وافى : علم اللغة ، ص ٤٩ .

ولا مشقات الانتقال أما اللهجات فتحتاج — لتتبع خصائصها والتعرف على ظواهرها — الى تنقل وترحال لملاقاة أربابهـا فى بيئتهم دنت أو نأت ، سهلت أو صعبت ، مع مايصحب ذلك من عناء السفر والرحلات الشاقـة .

ولـكنها — يوما ما فرضت نفسها عليهم ، وجذبتهم — ان طوعا أو ان كرها — الى دراستها ، وتتبع مناحيها ، لأن التطور سنة الحياة، وما فى الـكون — بشتى ألوانه — يتطور ، فاللغة لاتخرج عن سنن الـكائنات فى هذا الشأن ، فكما يتطور كل شىء تتطور اللغة .

ولذا — على الرغم من محـاولات الغربيين أن يمنعوا زحفها — وجدنا سيلها يتدفق فى كل مكان ورأينـا انشعاب اللغات الفصحى الى عديد من اللهجات الشعبية ، تبعا لسنة الطبيعـة ، وعوامل الاجتماع — فى الداخل والخارج — فلم يستطيعوا أن يحسروا الموجات المتتابعة منها ، فاضطروا الى التسليم بالأمر الواقع ، والاتجاه الى تلك اللهجات الناشئة ، حتى يعرفوا خط سيرها ، فبدأوا فى أواخـر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين فى الاهتمام بتلك اللهجات ، ودراستها .

وكما اهتم الفرنسيون — وجمعيتهم الوطنيـة — بمحـاربة تلك اللهجات — أول الأمر — اهتموا — أيضا — بعد أن علموا ، كغيرهم ، عدم جدوى محاولاتهم — بدراستها وظهر ذلك واضحا — فى انشـاء شعبة خاصـة لدراسة اللهجات الشعبية فى معهـد الدراسات العليـا بفرنسا على يد أول مهتم فرنسى بها وهو « جاستون باريس » ونهضت دراسـتها على يد طائفـة من العلمـاء الفرنسيين منهم : تورتولون وبرنجييه ، وأنطوان توماس ، وألبرت دوزا .

وكذلك على يد غير الفرنسـيين كالعـالمين الايطـاليين كورنو ، وأسكولى ومن أشهر المشتغلين بتلك الدراسة الأب روسلو الذى اهتم بالناحية الصوتية فى اللهجـات وجيليرون الذى درس اللهجـات من ناحيتها الدلالية .

وقد استعانت هذه الدراسة بكل الوسائل العلمية الحديثة حتى استطاعت أن تضع قوانين لحياة اللغات ، وما يعرض لها من انقسام الى لهجات وأسباب ذلك ونتائجه •

فاللغات قد تحيا ، نتيجة لاستمرار بقائها فى الاستعمال على ألسنة أهلها وقد تموت لانقراضها من الاستعمال ، أو تغيرها ، واضمحلالها وليس معنى موت اللغة أن يقضى عليها نهائيا بحيث لايبقى لها أثر ، لأنها — عندما تموت — تكون قد تركت آثارا فى خليفاتها ، كما يقول الدكتور السمران :

« ان اللغة اللاتينية لم تمت فى الحقيقة من الناحية التاريخية ، بل أصابتها تغيرات عميقة ، أنتجت أشكالا حديثة لها ، أبرزها البرتغالية ، والقشالية ولغة قطالونها ، ولغة بروفانس ، والفرنسية ، والايطالية ، ولغة رومانيا ، والأسبانية وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أنا نحس اذا نظرنا الى الأشكال الحديثة للاتينية بأنها لغات مختلفة » (٤٤) •

ووصل العلماء — فى أمر التوحد والانقسام — الى نتائج ذات قيمة علمية كبيرة ، فاللغات — متأثرة بحتمية العوامل الطبيعية والبيئية والاجتماعية ، والثقافية — تميل الى الانقسام أكثر من التوحد ، وهذا رأى بعض اللغويين •

وهو اتجاه تؤيده الدلائل الواقعية ، فاللغات — منذ آدم عليه السلام — يتوالى عليها الانقسام بعد التوحد ، وهى على هذه الحال فى شتى بقاع الأرض الى اليوم ، ولم تستمر — حتى الآن — لغة واحدة على طبيعتها دون تفرق الى لهجات •

بيد أن (يسبرسن) يرى أن القوى الموحدة كانت فى العصور

---

(٤٤) د• السعران : اللغة والمجتمع ص ١٦٧ و١٦٩ •

التاريخية أقوى — فى حقيقة الأمر — من القوى المقسمة (٤٥) ويستدل لذلك بكثرة المتكلمين بكل لغة فى الأزمان الحاضرة ، عنها فى الأزمان الماضية .

ولكن الرأى الأول تسانده ظواهر اللغات العالمية — دون ريب — وكثرة عدد المتكلمين لايعنى توحد اللغة ؛ فهذا قد يحدث مع تشعبها ، وانقسامها ، فكيف توصف بالتوحد مع الانقسام .

وقد حدد العلماء الأسس التى تؤدى الى ظهور لغة عامة ، والى استمرار التوحد اللغوى لأمة اكتملت لها تلك الأسس ، كالاتصال والاختلاط بين المتكلمين ، وشيوع الأدب ، والثقافة بعناصرها المتعددة ، وما يصحب ذلك من حالات اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وعسكرية واعلامية .

واللغات قد تنتشر فى مساحات واسعة من الأرض ، وقد تبقى فى حيز ضيق من الوجود ؛ وربما توسط حالها ، كل ذلك يخضع لعوامل الانتشار والتعثر ، وعدم الانطلاق ، فمع أهلها تدخل أراضى جديدة ، وتتصارع مع لغات جديدة ، نتيجة الغزو والاستعمار ، أو مع زيادة الناطقين بها زيادة طبيعية ، على طريق النمو وذلك قد يدعو الى انقسامها ؛ وقد تساعد على ذلك عوامل أخرى اجتماعية وسياسية ، وثقافية ونفسية ؛ وفسيولوجية ، وجغرافية ؛ فلا ريب أن الجماعات المختلفة على هذا النحو تختلف لغاتها ، بل تنقسم اذا كانت واحدة ثم اختلفت عليها هذه العوامل .

بل ان الاقليم الواحد كجمهورية مصر العربية — تنقسم فيه لغة المحادثة الى ألوان شتى من اللهجات المحلية ، نتيجة لاختلاف البيئات — نسبيا — بين أهلها فى مدنها وقراها ، فنحن نستطيع أن نلمس هذه الفروق من سيرنا فى تلك الأماكن فمن مدينة الى أخرى ، ومن قرية

---

(٤٥) د . السعران : اللغة والمجتمع ، ص ١٨٠ .

الى أخرى نلمح مظاهر هـذا الخلاف بين اللهجـات فعلى حين ينطق بعضهم « يقول » ينطقها آخرون « يثول » وآخرون « يجول » ويعبر بعضهم عن السيارة بكلمة « كومبيل » وبعضهم « أتومبيل » وبعض ثالث « ترمبيل » وساقيـة الميـاه يسميها بعضهم « تابوت » وبعضهم « طبلية » وبعضهم « حلزونة » وبعضهم « حلوفة » وهكذا ، على حين تبقى مع ذلك اللغة العـامة مفهومة للجميع ، ومستعملة فى الـكتابة والأمور الرسمية كلغة قومية ، وهى — عندنا — العربية الفصحى التى تربط بين الأمة العربية فى شتى أقطارها .

والملاحظ أن لـكل بيئـة لهجتها الخاصة ، التى تنبع من حياتها، والمؤثرات عليها فهنـاك لهجات خاصة ، تبعا للطبقات المتعددة ، فلهجة للارستقراطيين ، وأخرى للزراعيين وثالثة للتجاريين ، ورابعة للبحريين، وخامسة لأرباب الصناعات والمهندسين ، وسادسة للرياضـيين ، وغير ذلك من ألوان اللهجات التى تناسب كل الفئات الاجتماعية ولذا يطلق علماء اللغـة المحـدثون على هـذا اللون اللهجى اسـم « اللهجـات الاجتماعيـة » (٤٦) وأهم تلك اللهجـات مايسـمونه « اللهجـات الحرفيـة » (٤٦) .

ويرى بعض علماء « الاتنوجرافيا » أن لهجات هذا النوع ترتجل ارتجالا ، ويتفق عليها ، من أفراد الجمـاعة المتكلمة بها ، ولـكن الرأى السديد هو أنهـا تخضع لعوامل النشأة الاجتماعيـة ، والبيئـة التى تحياها تلك الطوائف ، مع تسليمنا بأنه ربما نشأ اصطلاح أو أكثر عن طريق الاختراع ثم شـاع اسـتعماله بالتقليـد ، ولـكن هذا ليس ظـاهرة عامة .

كل ذلك الانقسام ، واختلاف اللغـات واللهجـات ، قـد خضع لعوامل كانت الدراسة الغربيـة فاتحة له ، وممهدة طريقه ، وواضعة

---

(٤٦) د. وافى : علم اللغة ، ص ١٧٣و ١٧٦ وفندريس : اللغة ، ص ٣١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

أسسه العـامة والخاصة ، حتى أصبحت له قوانين العلم التى طبقت — قـديما — على اللغات الهندية الأوربية وانقساماتهـا الى طوائف لغوية كثيرة (٤٧) وعلى اللاتينيـة — احدى لغات الفرع الايطالى من هذه المجموعة اللغوية — فقد انشعبت الى عـدة فروع لهجيـة — فى أواخر العصور الوسطى — هى : الفرنسية ، والايطالية ، والأسبانية، والبرتغالية ، ولغة رومانيـا (٤٨) وفى العصور الحديثة أخذت انجليزية الولايات المتحـدة تختلف عن انجليزية انجلترا فى كثير من المفردات وأساليب النطق ، وهكذا العربيـة فى أقطارها كالعراق ومصر وسورية وليبيا وغيرها ، وقد علم ذلك بوسائل الدراسة اللهجية .

وعوامل تكوين اللغـة العامة برزت فى دراساتهم أيضا ، فقـد لوحظ أن التغيرات الفردية لا تؤثر تأثيرا فعالا فى هذا المجـال ، بل الاعتماد على العوامل الاجتماعية متضافرة ، فقـد كانوا — كما ذكر الدكتور السعران — يفهمون قـديما « أن الايطالية قـد كونها دانتى، والانجليزية كونها تشوسر والألمـانية كونها لوثر والدنيمركية كونهـا كريستيرن بدرسن فأظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفا » (٤٩) .

كما أن الانقسام الى لهجات ، شعبية ومحلية ، كانت له مبادىء وقوانين عمل الغربيون على اثبـات وجودها ، وتأكيدها بالأدلة السليمة النابعـة من التجـارب ، ودراسـة الوقائع اللغوية ، التى تؤكد صحة النتـائج .

وقـد وصلوا من ذلك الى تحديد عوامل الخلاف ، التى تحدث فى صراع اللغـات ، واللهجات ، وما يعتريها من تشعب ، فقد يكون كثيرا

---

(٤٧) لها طوائف ثمان د. وافى : علم اللغة ص ١٨٠ وما بعدها .
(٤٨) المصـدر السابق ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٤٩) د. السعران : اللغـة والمجتمع ص ١٧٣ .

من الناحية الصوتية ، ثم يكون — أيضا — من الناحية الدلالية ، أما ناحية القواعد فانها تكون قليلة وبطيئة التغير عادة .

واننا نلاحظ ذلك فى لغتنا العربية ، فالخلاف كبير بين اللهجات الفصحى التى كانت فى الجزيرة ، مثل العنعنة (٥٠) ، والفحفحة (٥١) ، والاستنطاء (٥٢) ، وغير ذلك ، وبعض الألفاظ قد اختلفت دلالتها كما فى وثب فهى — عند حمير — بمعنى جلس ، وعند غيرهم من عرب الشمال بمعنى قفز والسدفة — فى لهجة تميم — الظلمة ، وفى لهجة قيس الضوء (٥٣) أما الخلاف فى القواعد — كالبنية ، والاشتقاق ، والجمع ، والتأنيث ، والنسب ، والتصغير ، وتكوين الجمل — فهو قليل، وهكذا فى اللهجات العربية الحديثة .

وقد ظهر من ملاحظة تلك العوامل ، وظواهر الانقسام ، ودراسات المحدثين من الغربيين ومن تابعهم أن تكوين لغة عالمية أمر بعيد المنال ، فما دام البشر مختلفين فى طبيعة بيئاتهم وأجسامهم ، وثقافاتهم، والعوامل التى تتقلب عليهم ، فلا يمكن اتحاد لغاتهم ، لأنها سوف تخضع لتلك العوامل وتتأثر بها ، فمهما كانت واحدة فى أول أمرها فسوف يعروها الانقسام ، وصدق الله العظيم اذ يقول « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » (٥٤) .

وهذا الفرع الذى يتعلق بدراسة اللهجات ، يحتاج اليه دارس

---

(٥٠) ابدال الهمزة المصدرة عينا — وهى لبنى تميم ومن جاورهم من قيس وأسد كقولهم فى أن (عن) .

(٥١) ابدال حاء (حتى) عينا على ما هو المشهور عند هذيل مثل قراءة ابن مسعود « ليسجننه عتى حين » .

(٥٢) ابدال العين — اذا كانت ساكنة قبل الطاء — نونا مثل قراءة « انا أنطيناك الكوثر » وهى لهجة سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار . أنظر د. نجا : اللهجات العربية ص ٨١ — ٨٣ .

(٥٣) السيوطى : المزهر ط الأولى ١/١٨٨ ، ١٩١ .

(٥٤) من سورة الروم الآية ٢٢ .

الفوناتيك والسيمانتيك على سواء ، بل ان أى باحث فى اللغة — بجميع فروعها — لايستغنى عنه ، فهو يحوى دراســة أصــوات اللهجات ، واتجاهاتها ، ودلالة الألفاظ والاختلافات الطارئة عليها ، كما يتنــاول بالبحث نظمها التقعيدية والأسلوبية ، وغيرها من الظواهر اللغوية المتعلقة بها ، وأسبابها ، ونتائجها .

وهى تجرى بمثابة بحوث مقارنة عن أوضــاع اللغات واللهجات الحى منها والميت ، وذلك مفيد لطلاب البحث اللغوى .

كما أنه مفيد فى معرفة مايؤدى الى قوة اللغــة ، وما يضعف من شأنها ، وبه يمكن معرفة الطريق السليم لعلاج تدهور اللغات ، والعمل على اصــلاحها .

ثالثا : السيمانتيك (علم الدلالة) :

هــذا البحث يتنــاول معانى الــكلمات ، وعلاقاتها ببعضها ، وما يطرأ عليها من تغيرات .

فاللغة رمز التعبير ، ووسيلته ، وهى الأداة التى تنقل الأفكار ، وتترجم عنها ، ولا ريب أن تلك الأفــكار تنتقل الى طالبها فى قوالب خاصــة هى الألفاظ ، وهذه الألفاظ يختارها كل مجتمع حسب حاجاته وأحواله الاجتماعيــة ، فأرباب الصــحراء يميلون الى وعورة اللفظ وخشونته ، وأرباب المــدينة تحمل ألفاظهم سمات مدنيتهم وحضارتهم، من رقة وعذوبة .

ولا ريب أن المعــانى التى تحملها هذه الألفاظ تمر عليها — منــذ نشأتها — مراحل تاريخية — كما هو الحال الآن — فاللغات البشرية قد قطعت مراحل طويلة الأمد ، وتقلبت عليها أجيال متعاقبة ، منذ أقــدم العصور ، وكل جيل له سمات قــد ورث بعضها عن أجداده أو أخــذه ممن يخالطهم ، وابتكر بعضها الآخر ، تبعا لمقتضيات حياته ، وبيئته ، والأحداث التى مر بها ، اجتماعة ، ونفسية .

ولا ريب — كذلك — أن الألفاظ تمر فى تلك المراحل ، وتتلقفها الأجيال ، بما تحمله من معان قد تبقى ، وقد تتغير ، وقد تنحرف ، حسب عادات وأسباب لايمكن التنبؤ بها جميعها ، ولكى يمكن من دراسة الألفاظ نفسها الوقوف على بعضها .

كما أن المعنى نفسه قد يتغير مفهومه لدى الأجيال من الشرف الى الضعة ، وبالعكس ، كذلك أصوات الألفاظ عرضه لهذا التغير .

ولكل لغة قواعدها المنتظمة ، وأساليبها المعينة التى تتبعها فى سيرها عبر التاريخ ، غير أن الأيام تؤثر فيها ، وتدخل بعض التغييرات عليها (٥٥) .

وبناء على ذلك فلا نظن أن المعاجم — وحدها — فى أية لغة — مهما كانت متقدمة ومنظمة — هى التى تعبر عن دلالة الألفاظ فى اللغات بحيث لا تحتاج بعدها الى دراسة ، لأن الدلالة تخضع لمؤثرات كثيرة ، وعوامل متعددة اجتماعية ونفسية ، وتطورية ، وتاريخية ، والمعجم انما يصف اللغة فى مرحلة معينة ، ودون تفسير للدلالات التى ينطوى عليها ، من النواحى المذكورة ، أما علم الدلالة (السيمانتيك) فهو الذى يدخل العوامل التى أشرنا اليها فى الاعتبار . فيدرس النص اللغوى أو الكلمة ملاحظا المتكلم والسامع والظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية التى مرت عليهما .

ولأهمية هذا الفرع . وتشعب بحوثه ، ولج بابه علماء كثيرون من الفلاسفة ، واللغويين ، وعلماء النفس ، والأنثربولوجيا ، والأدباء والفنانين ، والاقتصاديين وعلماء الدراسات الطبيعية .

وقد ظهر اسم هذا العلم Semantique فى مقال كتبه ميشيل

---

(٥٥) أنظر رسالتنا للدكتوراه عن « ابن جنى اللغوى » : ص ٥٧١ وما بعدها .

بريال سنة ١٨٨٣ ، ويعد هـذا العالم الفرنسي من أوائل الواضـعين لعلم الدلالة على أساس تاريخي لا وصفي •

وعلم الدلالة التاريخي يدرس تغير المعنى — وما يتصل به — من عصر الى عصر •

أما الوصفي فيـدرس ذلك في مرحلة معينـة ، من مراحل تاريخ اللغـة •

وعنى بالبحث فيه — كذلك — من الغربيين كثيرون منهم الأساتذة: وتنى الانجليزي ، وكروس الايطالي ، وفونت الألماني •

وقد نهضت الدراسة في هذا الفرع على أساس من علم النفس والاجتماع اللذين نهضا في الغرب آنذاك ، وملاحظة لدراسة الأصوات، واللهجات الشعبية التي نهضت ، وتعمقت نظراتها العلمية ، لما وجد فيها من تجارب • وآلات ساعدت على دقة النتـائج وسلامتها ، فكان للدلالة مناهج تتناول اللغات من هذه الزوايا بالتحليل ، والبحث •

فبحثت في الغرب :

١ — معاني الـكلمات ، وأسباب اختلافها باختـلاف العصـور والأمم (٥٦) •

٢ — الاشتقاق اللغوي ، ومظاهره ، وآثار البيئة فيـه ، والمعنى الذي تدل عليـه ، ويعـرف ذلك اللون باسم « المورفولوجيـا » أي علم البنيـة (٥٧) •

وهو أنواع :

(أ) المورفولوجيـا التعليمي : الخاص بدراسـة القواعـد التي تساعد على تصحيح تعلم اللغة •

---

(٥٦) يقـابل هذا البحث ما يسمى بالدلالة المعجميـة •

(٥٧) يقابل هـذا اللون ما يسمى بالدلالة الصرفيـة •

(ب) المورفولوجيا التاريخى : ويدرس تلك القواعـد فى لغة ما من اللغات ، عبر تاريخها الطويل ، دراسة تحليلية ، وما تعرضت له فى تلك العصور المختلفة ، من تغيرات ، وأسبابها ، ونتائجها .

(ج) المورفولوجيا المقارن : ويتناول تلك القواعد ، فى مجموعـة لغوية متشابهة ، أو فى جميع اللغات ، دراسـة تحليل ، ومقارنة ، فى تاريخهـا الذى مرت به للوصـول الى نتـائج تحكم التطورات التى اعترتها ، ووجوه التقارب والصلات ، أو الاختلاف بينها .

٣ — الـكلمة — بأقسامها المعروفة (الاسم والفعل والحرف) — والمعانى التى تؤديها ، ومواقعها فى الجمل ، والعلاقات بينها ، وأحكامها المختلفة ، من فصل ، ووصل ، وتذكير ، وتأنيث ، ونحو ذلك ، وتسمى تلك الدراسة « سنتكس » أى علم التنظيم [٥٨] .

وهو أقسام — كسابقه — تعليمى — تاريخى — مقارن .

فالخاص بقواعـد التنظيم التى تعين على اتقان اللغـة بالتعليم هو الأول .

والخـاص بدراسـة التنظيم فى لغـة من اللغـات دراسـة تاريخية هو الثانى .

والخاص بدراسة التنظيم فى احـدى الفصـائل اللغوية أو فى اللغات جميعـا على وجه المقـارنة والتحليل فى عصـور التـاريخ المختلفة هو الثالث .

٤ — الحديث عن الأساليب اللغوية ، شعرا ، ونثرا ، وخطابة ، ومحادثة ، وغير ذلك ، ومظاهرها ، وتطورها ، ونتائجها ، ويعرف ذلك

---

(٥٨) تقابل تلك الدراسة ما يسمى بالدلالة النحوية ، بيد أن الغربيين توسـعوا فى بحوث الدلالة الى مسـتوى التحليل التـاريخى ، والمقارن ، وسنتحدث عن أنواع الدلالات فيما بعد .

بعلم الأساليب ، ويدرس بالنواحى الثلاث المتقدمة ، تعليما ، وتاريخا، ومقـارنة (٥٩) •

والقسم التعليمى من هذه الأقسام لا يدخل فى نطاق علم اللغة •

وقد ربطوا بين التطور الدلالى ، ومظاهر الـكون ، والحياة ، فهو يتدرج معها ، دون ارادة لانسان ، ويمتد عبر التـاريخ ، ويتأثر بالمـكان الذى تعيش فيـه اللغـة ، وبعلاقاتها اللغوية ، كما تحدثوا عن أسباب التطور الدلالى ، تاريخية واجتماعية ، ولغوية ، وما ينشأ عنه من حياة اللغات •

واستطاع العلماء الغربيون أن يصلوا من وراء تلك الدراسات الى نتـائج وقوانين عامة ، فى علم الدلالة ، وتطور اللغـات ، من هـذه النواحى التى أصبحت تـدرس كبحوث مسـتقلة على النحـو الذى أوضـحناه •

على أن الدلالة ، ومظاهرها ، وتطورها ، تخضع — كما قلنـا — لعوامل كثيرة اجتماعية ، ونفسية ، وتاريخية ، وثقافية ، وغيرها ، مما يختلف من عصر الى آخر ، ومن مجتمع الى غيره ، فكانت قوانين « علم الدلالة » محتاجة كل يوم الى جديد من الآراء والنظريات العلمية ، ولذا فليست لها صرامة القوانين التى تخضع لها التطورات الصوتية •

---

(٥٩) غنى عن البيان أن الدراسة الوصفية هى أساس تلك الدراسات التاريخية والمقـارنة ، اذ التحليل التاريخى ، والمقارن ، قائم — قبـل كل شىء — على أساس الوصـف لـكل مرحلة لغوية قبل الانتقـال الى غيرها، أو المقـارنة بينهـا وبين سـواها •

رابعا : السيكولوجيا اللغوية (علم النفس اللغوى) :

التعبير وليد الفكرة التى تجول بخاطر المتكلم ، وللمتكلمين بواعث وأغراض تختلف باختلاف ظروفهم ، وحالاتهم ، فمجتمع يعيش فى هدوء وطمأنينة ، وآخر ينتابه القلق ، وتهدده الأحداث ، وهكذا المجتمع الواحد بخلاياه الأسرية وأفراده ، وباطن تلك الأحداث يظهر على اللغة ، ونبراتها ، واتجاهات معانيها ، ففكرة راقية ، وأخرى منحطة ، وتعبير واضح ، وآخر غامض ، ومعنى دقيق وآخر منحرف .

ودرجات الفهم عند الشعوب والأفراد والمؤثرات عليها تختلف ، مما يؤدى الى اختلاف الادراك ، والتصورات ، ولذلك طابعه على اللغة ، بأصواتها ، وأساليبها التركيبية والمعنوية .

وقد يرتبط حدث ما بكلمة معينة ، فتوحى الى قائلها ، أو سامعها ، باحساس خاص ، تبعا للحدث المرتبطة به ، فكلمة (الصلاة) — عند ذكرها لمؤمن يقضى حق الله فيها ، وييسر الله تعالى له أعماله توحى له بالطمأنينة والفرح ، وحسن المثوبة ، وعند ذكرها لمستهتر حق عليه شقاء الحياة ، توحى له بالتهكم والسخرية ، وعدم الاكتراث .

وان كلمة لها معنى قاموسى معروف قد يستعملها شخصان لايصال معنى خاص يصطلحان عليه بينهما ، فكلمة مثل « اخرج » ، قد يستعملها شخص فى التعامل مع آخر بمعنى : « حضر فلان » — المعروف بينهما ولا يريدان التصريح به خوفا من ظروف معينة ، تحيط بهما وقت الكلام ، وكلمة مثل « أدخل » قد يستعملها فى خطابه بمعنى « لم يحضر فلان » مثلا على حين يستعمل شخص آخر كلا من الكلمتين المذكورتين فى معنيين آخرين حسب اصطلاح آخر مع سامعه ، وتبعا لظروف نفسية واجتماعية خاصة تحيط بهما .

فالألفاظ — بمعناها القاموسى — لا تعطى تلك الدلالات المتعلقة ، بالجوانب النفسية والايحاءات الاجتماعية المختلفة .

فمن هنا أدرك علماء اللغة — ولا سيما الغربيين — العلاقة الوثيقة بين اللغة ، والظواهر النفسية •

وبالربط بينهما فسرت غوامض ، وحلت مشكلات لغوية لم يتيسر للقدماء الاهتداء بشأنها الى طريق واضح •

كما أدرك علماء النفس أن الظواهر اللغوية تكشف عن حقائق نفسية تتعلق بحياة الأفراد والشعوب فهى المعبر عن خلجات نفوسهم، وهى المرآة التى ينعكس عليها تاريخهم النفسى والمؤثرات عليه ، فهما لونان — من الدراسة — مرتبطان ارتباطا كبيرا •

فدراسة علم النفس تحتاج الى دراسة الظواهر اللغوية ، كما أن دراسة علم اللغة تحتاج هى الأخرى الى دراسة الظواهر النفسية، وكل دراسة لهذين العلمين — دون ملاحظة للأخرى — لا تفى بالمطلوب، ولا تحقق النتائج المرجوة منها •

ولذا نشأ « علم النفس اللغوى » وتناوله علماء اللغة ، وعلماء النفس ، بالبحث والدراسة كشعبة مستقلة تخدم أهداف كل منها •

ومن أساتذة هذا الفرع ريبو وبالى ، وفردريك جار لاندا ، وهنرى دولاكروا وغيرهم •

وقد تقدمت الدراسات فى « علم النفس اللغوى » نتيجة لوضوح صلة الظواهر النفسية بالظواهر اللغوية ، وتأكد الفائدة من ارتباطهما وذلك لعوامل كثيرة من أهمها :

١ — تقدم الدراسة الخاصة ببحوث كسب الطفل للغة : فقد علم — بالدلائل الصحيحة والبحوث الدقيقة — أن الطفل يكتسب اللغة عن طريق التقليد ، وتتوقف درجة التقليد قوة وضعفا ، على الاحساس السمعى ، ونموه عنده •

فقـد ثبت علميـا أن الطفل — قبل الشهر الخامس — لا تتضح — عنده — الاحساسات السمعية ، ولا تتميز ، ثم يبـدأ فى قـوة الاحساس بعد ذلك الى أوائل السنة الثانية ، ثم يصل بعدها الى ادراك يتدرج شيئا فشيئا نحو الـكمال والنضج وكذلك فان حافظـة الطفل وذاكرته لا تتسعان لصيانة مايسمع قبل الشهر الخـامس ، ثم تبـدأ عملها — منذ أول هذا الشهر ، والى أوائل السنة الثانية ، ثم يبدأ بعدها فى الوعى الحفظى والتذكرى ، ونتيجة لهذا التدرج يتدرج التقليد اللغوى .

فالطفل — فى مرحلة ماقبل الشهر الخامس — لا يقـلد شـيئا ولا يعيه ولـكنه — بعد ذلك — يبـدأ فى عملية التقليد اللغوى ، وكلما تقدم احساسه السمعى وقوة حافظته ، وذاكرته ، كلما ارتقى تقليـده اللغوى ، ودق .

ويتوقف التقليد — كذلك — على درجـة فهم الطفل لـدلولات الـكلمات فهو لايستطيع التعبير عن شىء لايفهمـه ، فلا يمكنه نطق مالا يفهم معناه ، فكلما ارتقى فهمه للـكلمات كلمـا ارتقى تقليـده للأصـوات .

أما اذا فقد قوة الفهم ، فانه يفقد قوة التقليد ، فالطفل المجنون يصاب بالبكم ، ولا يمكنه أن يعبر عن شىء ولو اكتملت لديه أعضـاء النطق والسمع (٦٠) .

فعملية كسب الطفل للغـة ، تتـدرج حسب تدرج الاحسـاس السمعى ، والحفظ والوعى ، ودرجة الفهم لمدلول الكلمات ، وقد أجريت البحوث المتعددة التى تقدمت بهذا الموضوع الذى يتعلق بعلم النفس تقدما ملموسا .

---

(٦٠) أنظر د. وافى : علم اللغـة ص ١٤٠ وما بعـدها ، وانظر — أيضا — محمد عبد الحميـد أبو العزم : المسلك اللغوى ومهاراته طبعة أولى ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م ، ص ٣٤ — ٣٩ ، ٦١ — ٧٩ .

٢ — ارتقاء البحوث الخاصة بأمراض الـكلام : فقـد ثبت أن القوى العقلية تتصل باللغـة اتصالا وثيقا ، ففى الحرب العالمية الأولى حدثت أمراض — من هذا النوع — للجنود والضباط ، ففقـد بعضهم النطق ، وبعضهم الآخر فقـد الفهم ، فأصبح يهـذى دون أن يحكم عقلا ، فى ذلك ، وبعضهم فقدهما معا ، الى غير ذلك من مظاهر التلعثم فى النطق وقـد تبين للأطبـاء أن هذا حدث نتيجة الاصـابة العقلية، لمشاهدة أهوال الحرب وأخطارها ، مما أدى الى تلك النتائج التى ظهرت على صور مختلفة .

فبادر العلماء الى دراسة المخ الانسانى ، ومناطقه ، وما تختص به كل منطقة ، والمؤثرات عليها ، وأسباب ذلك ، ونتائجه .

هذا — وغيره — كان من الأسباب التى أكدت أثر العوامل النفسية فى التفكير اللغوى ، ومظاهر الكلام الانسانى ، فى الطفولة وغيرها ، من مراحل النشأة الانسانية . وفى أثناء الاحداث التى قد تعتـرى الانسان ، وتصرفاته المختلفة ، فدون دراسة الجوانب النفسـية تكون الدراسة غير علمية ، وربما لا تؤدى دورها المطلوب منها لحياة اللغة .

ولذلك ارتقت بحوث « علم النفس اللغوى » وحقق الأهـداف المنوطة به

خامسا — السوسيولوجيا اللغوية (علم الاجتماع اللغوى) :

لم يتنبه قدامى اللغويين وباحثوهم الى علاقة اللغة بالمجتمع ، الذى تعيش فيه ، وتأثرها به ، وتطورها بتطوره ، ورقيها برقيه ، وانحطاطها بانحطاطه ، ولذلك بعدوا عن الصواب — أحيانا — فى تفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية — ولا سيما الصوتية منها — فقد ذهبوا بها بعيدا عن الواقع الذى نشأت فيه ، وتركوا فلسفتهم تأخذ مجراها ، دون اتجاه الى الصواب الذى لا محيد عنه .

ولما نشأت الدراسات الاجتماعية التى تتناول المجتمع ، وشئونه ، ومظاهر حضارته ، وعاداته وتقاليده ، ونظمه السياسية والاجتماعية ، وثقافاته ، وفنونه ، لاحظ علماء الاجتماع صلة اللغة بالمجتمعات التى تلهج بها ، وعلى اثر ذلك تبينوا ما فات قدماء اللغويين من هذا الربط الذى ترتب عليه ضياع بعض الحقائق الجديرة بالملاحظة فى بحوث اللغة .

فهب هؤلاء العلماء يفتحون الأبواب لدراسة اللغة ، على أساس اجتماعى ، وكان ذلك على يد بعض المدارس الغربية ، وفى مقدمتها المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى أنشأها اميل دوركيم فى أوائل القرن الحالى ، وانضم اليهم بعض علماء اللغة ومنهم دى سوسير ، ومييه ، وفندريس (٦١) .

فالملاحظ أن اللغة صورة لحياة الأمة بجميع نظمها ، وتقاليدها واتجاهاتها الفكرية ، والدينية ، والاجتماعية .

فحضارة الأمة تظهر على لغتها ، وانحطاطها ملازم لها فاذا تقدمت الأمة سمت لغتها ، وارتقت فى التعبير ، واختيار الألفاظ كما حدث فى العربية ، فهى فى العصر الجاهلى وعرة الألفاظ ، محدودة الأفكار ، متعددة اللهجات التى تتمثل فيها فروق لغوية فى القواعد والأصوات والأساليب ، لكنها فى عصر صدر الاسلام وما تلاه حسنة الألفاظ ، دقيقة المعانى ، قليلة اللهجات والفروق — بعد ثبات القرشية ونزول القرآن الكريم بها ، وحضارة الأمة ، ورقيها ، ثم بعد انتشار الاسلام فى الاقطار المجاورة للجزيرة نلاحظ تلون العربية فى كل منها بلون البيئة التى تضمها ، وبقدر حضارتها ، ورقيها .

---

(٦١) وقف الأول قسطا كبيرا من جهوده العلمية على هذه البحوث ، وتعد مؤلفات الثانى من أهم مراجع علم اللغة فى العصر الحاضر ، وقد عرج الثالث فى مؤلفاته على كثير من مسائل « علم الاجتماع اللغوى » ونشر عنه أبحاثا فى بعض المجلات العلمية . د. وافى : علم اللغة ص ٦٢ .

وعقائد الأمة وأخلاقها ، وتقاليدها الاجتماعية تلمح من خلال لغتها ، وتظهر آثارها على الأساليب والقواعد والألفاظ وأصواتها ودلالتها •

فالعصر الجاهلى برزت فيه أسماء المعبودات الوثنية كاللات ويغوث ويعوق ونسر ، ثم اختفت بظهور الاسلام الذى دعا الى عبـادة الله وحـده •

والعربية — بعد الاسلام — كنت عن العورات فيقال « قبل — دبر — لمس امرأته — قضى حاجته » والقرآن الكريم أعلى مثل فى ذلك ففيه « نساؤكم حرث لكم — فاهجروهن فى المضاجع — لامستم النساء » [٦٢] ومثل هذا الاحتشام يلاحظ فى اللغات الأوروبية الحديثة[٦٣] فالانجليزية لا تصرح بكلمة البطن ، بل تقول — كناية عنها The stomack (أى المعدة) وسراويل الرجل تطلق عليها — أحيانا — كلمة معناها الأصلى « ما لا يمكن التعبير عنه » Inexpressifle وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معنـاها الأصلى « الجمع أو التركيب Combination »[٦٤] •

واللغات التى تسوى — فى درجة القرابة للفرد — بين أسرة الأب وأسرة الأم ، تستعمل كلمة واحدة لكل من العم والخال فهما فى الانجليزية Uncle وفى الفرنسـية Oncle ، والعمة والخالة فهما فى الانجليزية aunt وفى الفرنسية tante وابن العم أو العمة ، وابن الخال أو الخالة ، فهما — فى اللغتين السابقتين cousine وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة cousine [٦٥] على حين أن اللغات التى تفرق بين الاسرتين فى درجة القرابة للفرد تستعمل كلمات محددة لأفراد

---

(٦٢) الآيات على الترتيب من سـورة البقرة الآية ٢٢٣ ، والنساء الآية ٣٤ ، والمـائدة الآية ٦ •

(٦٣) على حين أن اللاتينيـة تعـبر عن العـورات بوضـوح دون استحياء أو كناية •

(٦٤) د• وافى : علم اللغـة ص ٢٢٩ •

(٦٥) نفسـه ص ٢٣٧ •

كل من الاسرتين مثل العربية فكلماتها — كما سبق — العم ، الخـال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن الخال ، ابنة العم ، ابنة الخال ، بنت الخال ، بنت الخالة .

والنظام السائد فى الأمة أيا كان نوعه تحمله الظواهر اللغوية ، فاذا كان المجتمع ينعم بالمساواة بين أفراده فى الحقوق والواجبات، ومظاهر الحياة ومتعها ظهرت آثاره ، فى اللغة ، فيخاطب كل منهم الآخر دون تعظيم للمخاطب ، ولو كان رئيسا للدولة ، كالنظام الجمهورى القائم على مبادىء العدالة ، والمساواة .

أما فى النظـام الطبقى الذى يفصل بين أفراد الأمة وأسرها فى حقوقهم ، وواجباتهم ، وحظهم من لذائذ الحياة ، فيكثر التعبير فى اللغة — عند الخطاب — بصاحب الحضرة والجناب ، والسعادة ، وما الى ذلك ، وفى العصر الملكى البائد كنا نسمع من يقول « نحن فلان ملك مصر » ، أما فى عصنا الحاضر فالكل سيد فى ظل الجمهورية فرئيسها فرد من أفرادها حظه كحظهم فى التبجيل والاحترام .

والنظام الاقتصادى تظهر ملامحه على اللغة ، ولذا نشاهد تغاير اللغات فى دول العالم الصناعية ، والزراعية ، والرعوية ، وتغاير اللهجات فى الأمة الواحدة ، تبعا لاختلاف المناطق ، ولميل الانجليز الى الناحية العملية صبغت لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها ، وتراكيبها ، حتى انه ليقال فيها : دفع زيارة أو تحية ، أو شكرا ، أو انتباها ، وأنفق وقته فى كيت وكيت ، وتربح الساعة أو تخسر » بدلا من « أدى زيارة وقدم تحية أو شكرا ، وأبدى اهتماما وقضى وقته فى عمل ما ، والساعة تقدم أو تؤخر »(٦٦) .

---

(66) To pay visit : compliments : attention.. How can jpay. you for all your good Ç! : He spent His time in.. the Watch gains or loses.

د. وافى : علم اللغـة ص ٢٣٩ .

وفكر الأمة الراقى العميق أو المنحط الساذج توجد آثاره فى اللغة ، فالأمم البدائية ساذجة التعبير ، بل انه فى بعضها لم يتجاوز المحسوسات « ففى لغة الهنود الحمر — مثلا — يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء وهكذا ، ولكن لايوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم » [٦٧] على حين أن الأمم الراقية — كالشعوب الهندية الأوروبية — ترقى لغتها الى التأمل الفلسفى ، والنظر الى الأمور الكلية ولذلك كثرت فيها الأفعال الى أن بلغت الأزمان فى الفرنسية أحد عشر زمنا [٦٨] ، وطالت الجمل وتعددت أجزاؤها ، وعمق التعبير فيها عن الوجدان ، والحقائق العلمية والفلسفية [٦٩] .

ومثل ذلك اللغة العربية التى يكثر فيها التعبير عن الشىء منظورا اليه فى درجاته المختلفة[٧٠] وتبين عن الفكر والوجدان بأساليب ترقى فى التصوير المعنوى الى أفق صاف يؤكد رقى العقلية العربية وصفاءها ، وكما يقول الدكتور عثمان أمين : « العرب يعبرون عن التفكير الواعى — بألفاظ القلب واللب والحجى والنهى أكثر مما يعبرون عنه بألفاظ المخ والدماغ والرأس ، ويفرقون بين القرابة والقربى واحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح »[٧١] .

---

(٦٧) المصدر السابق ص ٢٤١ .

(٦٨) فى السامية للأفعال « زمن انتهى » وهو الماضى و « زمن لم ينته » وهو الأمر والمضارع للحال والاستقبال ومع ذلك فلا يدل هذا — فى رأيى — على سذاجة العقلية السامية بل يدل على رقيها .

(٦٩) د. وافى : علم اللغة ص ٢٤٢ .

(٧٠) فمثلا : الظمأ والصدى والأوام والهيام كلمات تدل على العطش الا أن كلا منها يصور درجة من درجاته ، فأنت تعطش اذا أحسست بحاجة الى الماء ، ثم يشتد بك العطش فتظمأ ، ويشتد بك الظمأ فتصدى ويشتد بك الصدى فتئوم ويشتد بك الأوام فتهيم ، أنظر د. عثمان أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٧١) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٣٧ .

وتلك خصيصة لها تفضل بها اللغات الأخرى يقول المستشرق الفرنسى لوى ماسنيون « انه فى حين أن اللغات الهندية والأوربية جعلت للتعبير عن العالم الخارجى نجد اللغة العربية وكأنها هى لغة التأمل الداخلى ، ففيها — بفضل تركيبها الداخلى وطراز الخلوة الذى توحى به — قدرة خاصة على التجريد والنزوع الى الكلية والشمول ، ومن هنا كان للعرب الفضل فى استكشاف رموز الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية »(٧٢) .

ويقول المستشرق الفرنسى كارادوفو : ان « العربية تنطوى على قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق ، مادام أن احداث تغيير طفيف فى بنية اللفظ العربى يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التى تطابقها »(٧٣) .

وهذا يدل على رقى عقلية أصحابها .

هذا — وغيره كثير — مما أكده علماء الاجتماع واللغة الغربيون ، وأثبتوا الصلات الوثيقة فيه بين المجتمع واللغة ، مما دعاهم الى ايجاد « علم الاجتماع اللغوى » الذى يبحث فيه عن تلك الصلات ، ومظاهرها ، وآثارها ، وما يمكن أن تخضع له من قوانين .

فكان « علم الاجتماع اللغوى » فرعا حظى بنصيب من الدراسة يبين صلة اللغة بالمجتمع ، فهى أداة تربط بين أفراده ، وتجمع شملهم ، وتعبر عن حاجاتهم ويمكن — فى هذا الضوء — معرفة الأسباب والنتائج ، والقوانين التى تحكم ظواهر اللغة التى تصلح للحياة المتشعبة ، ومرونتها ، وقدرتها على تمثل ألوان الحضارات والتغيرات الاجتماعية ، وأيضا اللغة التى لا تصلح لذلك .

---

(٧٢) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٨ .

(٧٣) ومما ذكر فى هذا المقام أن العربية تفرق بين الكبر الداخلى والكبر الخارجى ، فالداخلى استعداد فى النفس ، والخارجى ناتج عن أفعال الجوارح ، أنظر د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص ٤٦ ، ٤٧ .

والجانب الاجتماعى للغة مهم لفهم حقائقها ، ولتفسير مشكلاتها ؛ ومن هنا أخطأ بعض اللغويين القدامى عندما عالجوا بعض الظواهر اللغوية بعيدة عن ملاحظة جوانبها الاجتماعية •

فهذا الفرع تحتاج اليه الدراسات اللغوية — بجميع فروعها — فالأصوات ، والدلالة ومظاهر الانقسام أو التوحد فى اللغة ، وتعرضها للبقاء أو الفناء ؛ وما يطرأ عليها من تغيرات فى القواعد ، والأساليب ، والمعانى ، كل ذلك — وأشباهه — مما قد يحدث للغات واللهجات لا يدرس دراسة حقيقية الا فى ضوء التفسيرات المتعلقة بالظواهر الاجتماعية •

وقد بالغ بعض الباحثين فزعم أن كل تأثير يظهر على اللغة فهو من فعل العوامل الاجتماعية ، لا غير ؛ ولكن ذلك غير سديد ؛ فهناك عوامل كثيرة غير العوامل الاجتماعية لها أثرها الكبير ، فى التغيرات والآثار اللغوية ومنها عوامل جسمية فسيولوجية أو نفسية فردية أو جغرافية ، ونحن لا ننكر ما للعوامل الاجتماعية من أثر مع غيرها من هذه العوامل •

ولا ريب أن نمو الدراسة اللغوية فى الغرب على هذا النحو المتقدم يعد كسبا هائلا للدراسة اللغوية — وان جاء متأخرا — لأنه اعتمد على مناهج علمية استقرت منذ قرن ونصف من الزمان ، ونشأ عن هذا التقدم العلمى — ومنه اللغوى — أن يسرت سبل البحث ؛ وفى المجال اللغوى وجدت المناهج المعتمدة على الآلات والتجارب العلمية والمعملية التى أصبحت من الطرق التى يرجى من ورائها نتائج واقعية صادقة ، ومحققة للمراد منها دون عناء أو حدس ، كما كان يحدث فى غابر الأزمان •

الباب الثالث

بعض قضـــايا علم اللغـــة

أولا : اللغة بين الفرد والمجتمع .

ثانيا : دلالة الألفاظ وتطورها .

ثالثا : اللغة العربية والفلسفة .

أولاً : اللغة بين الفــرد والمجتمع

مدخــل :

الانسان مدنى بطبعه ــ كما يقول علماء الاجتماع ــ فهو يميل الى الانتماء الى طائفة من بنى جنسه ، ليجتمع لهم جملة من الخصائص ، والسمات ، التى تميز جماعة من غيرها ، ومبعث ذلك الغريزة التى ركب عليها الانسان ، والتى تدفعه الى تكوين « هيئة اجتماعية » ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شــعبيهما اذا عاشــا معا مدة طويلة ، كفرنسى وفارسى ، أو عربى وانجليزى مثلا [1] .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعةذاتها، فالأسرة جماعة، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيرا الجنس البشرى[2] .

وهذا الانتماء يأخذ أشكالا متعددة ، فهو ــ أحيانا سياسى ، أو جغرافى أو جنسى ، أو لغو ى، وقد تعددت المصطلحات السياسية التى تطلق على تلك الجماعات[3] .

---

(١) فندريس : اللغــة ص ٣٠٢ .

(٢) جسبرسن : اللغــة بين الفرد والمجتمع ص ٢ .

(٣) من هذه المصطلحــات : « الشعب » و « الدولة » و « الأمة » فالشعب : جمــاعة من الناس تستقر على أرض واحدة ، أو تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسى وقانونى يشير الى الوحــدة السياســية التى تضم أركانا ثلاثة هى : « شعب واقليم وسلطة سياسية » .

والأمة : جماعة من النــاس يرتبطون بأهــداف مشــتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقــائهم فى عــدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ .

بيد أننا نعنى — هنا — جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هى ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهى : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر الى الكبر ، فهى تبدأ بالاسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة •

ولا يهمنا كثيرا الاختلاف السيسى أو الدينى اذا توفر الاشتراك اللغوى(٤) •

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة الى وحدات صغيرة ، وننظر الى كل وحدة فى اطار اللغة التى تتحدث بها فى القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة ، من المعلمين ، والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والأشقياء وغيرهم •

« وتلعب اللغة دورا ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية ، مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التى تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهى — على الدوام — رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آلة أفعل من اللغة فى توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم الى بعض »(٥) •

= وقد تسمى احدى الجماعات « شعبا ودولة وأمة » ، وقد تسمى « شعبا ودولة » لا « أمة » كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ، ولا يعنى هذا فناء الأمة ، كالأمة البولونية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربى أمة ، وان توزعت السلطة فيه .

أنظر د• أحمد كمال أبو المجد : دراسات فى المجتمع العربى والوحدة العربية ص ٢٤ — ٢٩ •

(٤) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٢ •

(٥) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ •

وبديهى أن اللغة هى الأداة التى يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهى قانون من قوانين هذه الجماعة بعد الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجا ، ومؤديا الى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها[٥] .

« وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الانسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة ... وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة ، كما نلاحظ ذلك فى كل مجتمع معروف »[٦] .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلات بالمجتمع الذى تعيش غيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله التى لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الانسانية ، وادراك حقائق الظواهر الاجتماعية لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن نهتدى على اثر هذا الادراك الى معرفة خصائص الجماعات البشرية ، من دراستنا للغات ، وتاريخها، وتطوراتها[٧] .

---

(٦) د. تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١١٣ نقلا عن ادوارد سابير .

(٧) أنظر ص ١١٣ وما بعدها من هذا الكتاب . .

أثر الفرد فى اللغــة

« اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميـــع الأفراد فى مجموعة واحدة »[٨] .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فالفرد يرتبط بجماعته ، ويقدس ما يقدســون ، ويأتى من الأفعال التقليــدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وان خالف اعتقاده[٩] ، واذا سلمنا بوجود الفرد والمجتمع ، باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فان من الممكن من الجانب اللغوى أيضا أن نتكلم عن اللغة الفردية ، واللغة الجماعية، وكلا هذين النصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر[١٠] .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عن الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتم بالبحث فى الجانب الفردى ، والجانب الجمعى ، وان كان علمـــاء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم أن التعرف على الفــرد يؤدى الى التعــرف على الجمــاعة ، ولذا تدرس لغة الفــرد ، ويتوصــل من خلالها الى معرفة لغــة الجمــاعة ، لأنها مجمــوع الظواهر المشــتركة بين جميـــع الأفراد .

ويقــول أوجست كــونت (ليس من الضرورى أن نعــرف ماهو الانسان حتى نعرف ماهى الانسانية ، ولــكن من الضرورى أن نعرف ماهى الانسانية حتى نعرف ماهو الانسان ؟) فالتعرف على الجمــاعة يؤدى الى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد [١١] .

وقد دار نقــاش ، وجــدل بين البــاحثين حول اللغة والــكلام ، وصلاتهما بالعقل الفردى ، والعقل الجمعى .

---

(٨) فنــدريس : اللغــــة ٣٠٦ .
(٩) جسبرسن : اللغــة بين الفرد والمجتمع ص ١٢ .
(١٠) المصــدر السابق ص ٥ .
(١١) المصــدر السابق ص ٤ .

فيرى دى سوسير (١٢) أن اللغة غير الـكلام ، فاللغــة مجموعة محدودة من المفردات ، والتراكيب توجد فى كتب القواعد والقواميس، وتختزن فى عقل الجمــاعة ، والــكلام نشاط فردى ، يختلف من فرد الى آخر ، من أبناء الجماعة الواحدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ولا يملك التــدخل فى اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الــكلام واللغة فان لــكل منهما علاقــة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الــكلام .

وقد قال بالى (تلميذ دى سوسير) : ان الــكلام نشــاط لغوى فردى يعالج الحيــاة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحده الذى يعبر عن الواقعية ، والعاطفية ، بعكس اللغــة التى ليست سوى امكانيــات تعبيرية .

ومن هنــا فان دى سوسير يرى أن اللغــة من نتــاج المجتمع ، والــكلام من نتــاج الأفراد ، واذا صح أن يكون هنــاك عقل فردى ، فهنــاك كذلك عقل جمعى .

وقد اعترض جسبرسن (١٣) على هذا التفريق ، وقال : ان العقل خاصة توجد للفرد ، لا للجماعة ، والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التى تمر به ، ولا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جمــاعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفــاق فى حكم يصدر عن عــدة عقول فردية ، قــد تأثرت بظروف ، ودوافع متشابهة ، ولســت أدرى لمــاذا يقول دى ســوسير « العقل الجمعى » ولا يقول « البطن الجمعى والرجــل الجمعى والأنف الجمعى » اذ ليست لذلك فائــدة .

فاللغــة ليست القاعدة ، وليست الألفاظ ذاتها ، بل هى شىء آخر يتمثل فى الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، فى نفوس

---

(١٢) عالم لغوى سويسرى .

(١٣) عالم لغوى دانمركى .

أفراد الجماعة ، لا في العقل الجمعي ، ويقرب من ذلك قول دى سوسير في عبارة أخرى « اللغة هي مجموعة من صور الألفاظ مختزنة في نفوس أفراد الجماعة اللغوية » [١٤] .

وينتهي جسبرسن — بعد الرد على دى سوسير — الى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هي الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظرتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الانسان لايستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلا علامات لغوية ، أى كلمات ، فالتفكير بلا كلمات عائم » [١٥] .

« والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها » [١٦] .

وما يسميه النحاة أقسام الكلام ، وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ليس في الواقع الا أقسام اللغة ، فقول صاحب الألفية الكلام وما يتألف منه يجب أن يصير الى اللغة وما تتألف منه [١٧] .

فالكلام الذى هو نشاط انسانى نطقى نتيجة لارادة المتكلم [١٦] يعد الباعث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها في طوايا العقل ، أو المعاجم ، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد في القواميس أو تختزن في عقول الجماعة الانسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم ، ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ، ويراعونها في استعمالهم من ناحية النظام الصوتى ، والصرفى ، والنحوى ، واللغة بهذا الوصف تسمى بـ « اللغة المعينة » [١٨] التى هى نتاج جمعى يستعمله الأفراد .

---

(١٤) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٥ — ٢٣ .
(١٥) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ٢٤٤ .
(١٦) المصدر السابق ص ٣٩ .
(١٧) المصدر السابق ص ٤٠ .
(١٨) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

« وللكلام علاقة باللغة المعينة ، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العملى منها » [١٩] .

ومن المتعارف عليه بين دارسى العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لاتلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية [٢٠] .

والمدرسة اللغوية الانجليزية وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية ، تهتم بالشخص ، والشخصية ، لكن لا تنظر اليه باعتباره « مستقلا » وانما تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة [٢١] .

ولا ريب أن جوانب التأثير فى اللغة كثيرة ، بعضها ينشأ عن الأفراد ، وبعضها يرجع الى المجتمع .

وللتأثير الفردى مظاهر عدة ، فهو يتنال : الأصوات ، والمفردات ، والتراكيب .

١ — أثر الفرد فى الأصوات :

تبدأ الممارسة اللغوية للانسان منذ طفولته ، فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقى اللغة — أية لغة — اذ لا توجد لدى أى طفل فى أى مكان لغة فطرية [٢٢] .

وهو يتعلم لغة المجتمع الذى يعيش فيه فاللغة ليست وراثية ، بل انه يتلقاها ممن يخالطهم ، ولذا فان طفلا عربيا لو نشىء فى بيئة انجليزية تعلم لغة الانجليز ، والعكس صحيح أيضا « بل أكثر من هذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة لأطفال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والدببة ، وحتى الخرفان ، وتعلموا أنواعا من اللغة

---

(١٩) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢ — ٣٥ .
(٢٠) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٠ ، ٢١ .
(٢١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٥ — ٣١ .
(٢٢) كندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩١ .

الحيوانية ، فعووا كالذئاب وثغوا كالخرفان ، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الانسانية » (٢٣) .

فالأطفال يتعلمون لغـة الجماعة التى يولدون ، ويعيشون فيها ، بنفس السرعة التى يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها كما يتكلمها أهلها الأصليون (٢٤) .

وقد توصلت طائفـة من اللغويين الى بعض الملاحظات المهمة التى نتعلق بلغة الطفل ، وأهمها التقسيم الثلاثى الذى ارتضاه جسبرسن ، وهو أن النمو اللغوى للطفل يمر بثلاث مراحل :

١ — مرحلة الصـياح .
٢ — مرحلة البأبأة .
٣ — مرحلة الـكلام .

المرحلة الأولى « الصياح » :

فالطفل يصرخ منذ يولد ، ولـكن هـذا الصراخ الصادر عن جهازه النطقى ليس كلاما ، ولا يتعلم الطفل به أية لغة لجماعتـه أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصـياح مشترك بين جميع الأطفـال ، ولا يؤدى — فى

---

(٢٣) كندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢٤) فاللغة « مكتسبة » ولـكن أثمة دخل للوراثة فى قدرة الأطفال على اكتساب اللغة ؟ وهل للوراثة شأن فى اكتساب طفل لغتـه أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغـة ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ، ونظائره مرهونة بتقـدم بحوث علم الوراثة ، وعلم الأعصاب ، وعلم الحياة العـام « الأحياء : البيولوجيا » اذ البحث فيهـا لمـا يصل الى الغاية المنشودة ، وينتظر أن تؤدى البحوث المقبـلة فيهـا الى أن يزداد فهمنـا لطبيعـة اللغـة ووظيفتهـا .

أنظر : د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٧ ، ٣٤ بتصرف .

أوله — غرضـا ولـكنه يتطور بعد ذلك ، فيستخدمه الطفل فى التعبير العـام عن كل مايهمه وبخاصة عندما يدرك من حوله أثره فيهم •

وهذه الأصوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصـوتى على الـكلام فينتقل الى المرحلة الثانية •

المرحلة الثانية « البأبأة » :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصـوات مثل أ أ — م م — ب ب — ت ت — دد الخ •

وتكون فى أولها نشاطا عقليا خالصا ، ثم تأخذ أعضاء النطق عنده شيئا فشيئا فى التدرب عليهـا ، والتحكم فيها فيسـتطيع الطفل نطق الصوت الذى يريده •

ويأخذ الطفل — بعد ذلك — فى تدرب عضـلاته الصوتيـة على النطق بهذه الأصوات التى يستمتع بها هو ومن حوله •

والشائع أن أول ماينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل « ل — ر — ت الخ » — بفتح اللام وكسر الراء وضم التاء — •

« وتعد الصوامت الشفوية التى يرمز اليها بـ p'b'm (ب ، ب ، م) من الصوامت الأولى التى ينطقها الطفل ، ان لم تـكن أولهـا على الاطـلاق » •

وفى هذه المرحلة ربما صـدرت عن الطفل أصـوات ليست من مجموع الأبجدية التى تستعملها جماعته مثل (P,V) عنـد طفل عربى مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه •

المرحلة الثالثة « الـكلام » :

تبـدأ من حوالى نهاية السنة الأولى ، وتمتد سـنوات طويلة ، ويمر خلالها بمرحلتين :

(أ) فترة اللغـــة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذى يقلده، كأن يقول الطفل المصرى « ممم » بدلا من (الأكل) و (أمبو) بدلا من « ميه » و (ب) بدلا من « عيش » مثلا ، وقـــد سمعت ابنى فى تلك المرحلة يقول : (مكن) بدلا من (مطبخ) .

(ب) فترة اللغـــة المشتركة :

وفيما ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتـــا طويلا حتى يصـــير كلامه مثل الــكبار .

ولا شـــك أن الطفل فى تلك المرحلة يحـــرف كثيرا من الــكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية .

فيقول — مثلا — : (ستينه) مكان (سكينة) و (تتـــاب) مكان (كتاب) .

وقد لاحظت أن ابنى — فى أول هـــذه المرحلة — يميل الى قلب بعض الــكلمات فيقول : (تعبل) مكان « ثعلب » و (لاه أكلب) مكان « الله أكبر » .

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفى على الطفل ، أو يظل صـــعب النطق لايتقنـــه الا فى مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين فى بعض الأحيـــان .

وكثيرا مايكتفى الطفل ببعض مقـــاطع الــكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابنى يقول : (كب) مكان « كلب » و (بايه) مكان «كبايه» ونحوها .

ويستطيع الطفل فى هـــذه المرحلة أن يميز الــكلام الذى يوجه اليه بحب وعطف من ذلك الذى يوجه اليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثانى .

والطفل لايتعلم الأصوات مفردة ، وانما يتعلم الجانب الصوتى للكلمات مرتبطا بالمعانى ٠

وعادة مايدرك معانى الكلمات التى تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات ٠

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد مايلقى عليه من قبل أمه وأبيه ، وأسرته والمحيطين به وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا ٠

وللطفل قياسه اللغوى فى النواحى الصوتية والنحوية ، والمعنوية، ومن ذلك قضية التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب الى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء — كما هو العادة الشائعة ، فيطبق ذلك على بعض الكلمات التى لاتؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ٠ فاذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : « أخضرة » و (أحمر) قال « أحمرة »

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينتمون الى جماعته الكلامية وان كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا (٢٥) ٠

واذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لأخطائه أثر فى أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد — بصفة عامة — صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون فى نسبة التغير الصوتى الى الأفراد ٠

---

(٢٥) د٠ السعران : اللغة والمجتمع ص ٣٤ — ٥٤ و د٠ وافى : علم اللغة ط ٤ ص ١١٠ — ١٥٥ و د٠ تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٦٨ ، ٦٩ وكندراتوف : أصوات وإشارات ص ١٩٠ — ١٩٣ ٠

فينفى جوشات أن يكون للطفل أى أثر فى التطور الصوتى للغـة فهو يقول : « ان كل لغة تتهيأ تهيأ خاصـا بين جيل وجيل يمكن للتطور فى أصواتها ، وبذلك يخضع أبنـاء الجيل اللاحق من الراشدين — دون الأطفال — للتطور الجـديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوى ولا أكثر ، وعندما يخطىء الطفل فى نطق بعض الـكلمات فليس ذلك بدء التطور فى أصوات اللغـة التى يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين ، وذلك لأن طبيعـة اللغـة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضـاء الصوتية لدى الطفل، وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائيـة عند نطق مختلف الأصوات وهذا لايتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أى عندما يتجاوز دور الطفولة » (٢٦) .

وينفى جوشات — كذلك — أن يكون للفرد — صغيرا أو كبيرا — أى أثر فى التطور الصوتى فيقول : « ليس للفرد أى دخل فى التطور الصوتى » وقد اعتمد فى حكمه هذا على النتائج التى توصل اليها فى بحث تتبع فيـه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التى تقيم فى المنطقـة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينـة (بول) Bulle فى مقاطعة فريبورج لبيـان تأثير الفرد فى اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها .

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة فى طريقـة النطق بين أبنـاء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولـما انتقل الى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التى وجدها بين أفراد الجزء الأول ، وكذلك كان الحال فى الجزء الذى يليه ، والذى يليه .

وقـد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانيـة بمعنى أن اللغـة فى جزء ما من الاقليم تختلف عنهـا فى جزء آخر ،

---

(٢٦) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٤٥ . ولفظ « يمكن » فى أول النص ينطق بتشديد الـكاف المـكسورة .

بل انها كانت فروقا زمنية ، أى فروقا بين جيل وجيل ، وأن الاختلاف اللغوى بين أبنـــاء جيلين مختلفين فى جزء واحد أكثر مما بين أبنـــاء جيل واحد ، فى جزءين مختلفين ٠

وبين أن المقـــارنة بين لغتى اثنين من الشيوخ — ينتمى أحدهمـــا لجزء من هذا الاقليم يختلف عن الجزء الذى ينتمى اليه الآخر — تثبت تحقق التشابه فى مخارج الحروف لديهما أكثر مما بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذى ينتمى اليه ٠

ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام :

١ — المعمرون : وهم بين الســتين والتســعين ، وهؤلاء ينطقون الــكلمات بطريقة قديمة كثيرا ماتبدو غريبة لسواهم ٠

٢ — المحدثون : وهم دون الثــلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفــاظهم بطريقة حديثـــة ٠

٣ — المتوسطون : وهم بين الثــلاثين والستين ، وهؤلاء يكونون فى نطقهم حـــدا أوسط بين المعمرين والمحدثين ، ولقد لاحظ جوشـــات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة الى جانب الأصـــوات الحديثـــة دون أن يكون لهم فى اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كما لاحظ أنهم يلتزمون فى بعض الــكلمات طريقة النطق الحديث ، وفى بعضها الآخر طريقة النطق القـــديم ٠

أما النساء فقد كن أكثر ميلا لاتباع طريقة النطق الحديث وقـــد حدا هذا بجوشـــات أن يقرر أن دور المرأة فى التطور الصـــوتى أكبر خطرا من دور الرجل ٠

وقـــد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر فى التطور الصوتى ، بعد دراسة مايبلغ خمسين لغة فردية لأبناء هذه المنطقة لميتبين له من خلالها مثل هـــذا التأثير الفردى فى تطور اللغـــة التى يتكلمها أبنـــاء هذه الجماعة اللغوية ٠

وينسب جوشات التغير الصوتى الى الجماعة لا الى الأفراد فيقول: ان التغير أمر حتمى طبيعى وليس أمرا خاضعا لارادة فرد متميز أو غير متميز ومعنى أنه أمر حتمى طبيعى أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص فى مكان ما ثم يقلد وينطقه فى نفس الوقت شخص ثان فى مكان ثان ، وثالث ورابع فى مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا [٢٧] .

ويتفق فندريس ومييه مع جوشات فى هذه الوجهة التى تمنع أثر الفرد فى الأصوات فيقول : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتى انما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن الا تغيرا فرديا ، ثم عمم وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس فى وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قسر جدير بتعميم تغير صوتى ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لايقدر هنا على شىء ، فان النطق الشاذ لايجلب أتباعا لصاحبه بل لايجلب له بوجه عام الا السخرية منه » [٢٨] .

ويرى جسبرسن أن نفى التأثير الصوتى للأفراد غير مسلم ، وأن البحث الذى أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد فى التطور الصوتى ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لاثبات أثر الفرد فى الأصوات [٢٩] .

ولعل الدافع الى انكار أثر الفرد فى التطور الصوتى هو الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس : « ان العالم اللغوى

---

(٢٧) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٢٨) فندريس : اللغة ص ٦٩ .
(٢٩) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ — ٤٠ .

لا يعرف الى أى مدى يحدد دراسته ، والى أنه يبقى مترددا بين الاعتبار الفردى والاعتبار الجنسى بأسره » [٣٠] .

ويقول الدكتور تمام « بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لايستطيع الانسان أن يقول عند أى حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن نفطن الى التغيرات التى تأخذ مجراها الآن على غير وعى منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما اذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدى تطبيقه أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ولا يستطاع نسبته الى فرد معين منهم » [٣١] .

والحقيقة التى لا يمكن انكارها أن التطور الصوتى يعود فى بعض نواحيه الى الأفراد ، وان لم يتعين الفرد الذى تابعه غيره ، فمن الحق الذى لا ريب فيه — كما يقول فندريس — « أن كل فرد يدخل فى اللغة جزءا من التجديد خاصا به » [٣٢] .

ومن المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لاتفترق ، واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتى [٣٢] وان الفرد — كما يقول الدكتور تمام — حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتى يختلف عنه [٣٣] .

فلا شك أن عملية التغيير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم الى غيرهم حتى تعم ، فالجانب الفردى ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغيير الى الجماعة أن ينفيه مطلقا [٣٤] .

---

(٣٠) فندريس : اللغة ص ٢٩٦ .

(٣١) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٤ .

(٣٢) فندريس : اللغة ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٣٣) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٢ .

(٣٤) ففى العربية الفصحى أصوات تحتاج الى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذى تحول على لسان غير المثقفين بالعربية الى « كاف » والذال تحولت — فى العامية — الى زاى أو دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدى الى التطور الصوتى ، فظاهرة التفخيم أدت — مخالفة للفصحى — الى نطق كلمة « درب » « ضرب » — فى العامية — بتحويل « الدال » الى « ضاد » .

٣ — أثر الفرد فى المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد فى المفردات والتراكيب فهو واقع لغوى يعترف به الباحثون فالطفل يسمع مفردات جـديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الـكلام حديثـة ، ان الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقـة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سنا — كلمات وعبـارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل [٣٥] .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ — كما يحـدث فى المجامع اللغوية — أو أن يرتكب انسان خطأ فى نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردى فى اللغة مغيرا للأمر الواقع الذى هو أن الفرد وليست الجماعة ، هو السبب فى التغير اللغوى [٣٦] .

---

(٣٥) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٥٧ وانظر جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٣ ، وقـد أثبتت التجارب أن الأطفـال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ، ونحن نسمع منهم كثيرا يرتجلون كلمات مركبـة من حروف عدة . انظر د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٨٧ — ٨٩ وأحمد الاسكندرى : فقه اللغة ص ٣٠ .

(٣٦) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال فى اللغـة العربيـة ، فالعربى الفصيح كان يخترع ألفاظـا ويشتق أخرى أو يقتبسها متبعا طرق التجديد فى ذلك ، ويروى عن رؤبة وأبيه أنهمـا كانا يرتجـلان ألفـاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها ، والبـاحث فى العربيـة يعثر فى بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنهـا انهـا مصـنوعة ، وقـد أورد السيوطى فى المزهر عددا من تلك الـكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة ، وقد روى فى بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحـد الشعراء أو الـكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا .

وفى كتب النحاة مايرشدنا الى اعترافهم بالارتجال فى أثنـاء حديثهم عن العلم وتقسيمه الى منقول ومرتجل .

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة الا فى محيط الأسرة •

ومما يبتكره الفرد فى مجال اللغــة نقل الألفاظ الى معان جديدة، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهــذا الانتقـــال هلى ماهو معروف فى أسلوب المجاز •

وقـــد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ الى معـــان خاصـــة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو (الطاغوت) اسما لوالد مستبد ، و (القط) لطفل مدلل فى الأسرة و (شعبه) لطفل بغيـــة أن يعيش ، وغير ذلك مما يستعمل فى نطاق محدود ، وهو نوع من ابتكار المعانى ونقل استعمالات الألفاظ •

والفرد — حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ، مقيـــد بالعرف اللغوى المتعلق بالدلالة ، وقـــد أشرنا فى حديثنـــا عن الدلاة الى أن مخالفة الأساليب العربية يزيد من صعوبة المعنى (٣٧) •

ولو نطقنا — فى العامية « قلم أحمد على معاه » بدل « على معاه قلم أحمد » لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوى •

ولذا يشترط فى ابتكار الفرد عنصر الانفهام لدى الجماعة اللغوية، اللهم الا فى لغـــة الطفل أو (رغائه) فانها تفقد هذا العنصر ، وكذلك محاولة ارسال بعض الأصـــوات لمجرد اللهو والهوى ، وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد فى كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة (٣٨) •

= وفى العامية كثير من الألفاظ التى لا أصل لها فى اللغـــة الفصحى أو اللغات الأجنبيـــة ، وهى ترجع الى اختراع الأفـــراد والجمـــاعات ، وذكر الدكتور ابراهيم أنيس أنهم كانوا يقولون — على ســـبيل الاختراع — وهم طلبـــة مثل :

ومد عشر بالعثلمين تفنطحت سلفا قنــاه كبز فرع القنظل

أنظر : ابن جنى : الخصـــائص ٢/٢١ — ٢٨ ومواضع أخرى منهـــا ٢/٢٩٧ والســـيوطى : المزهر ١/٥٢ — ٥٦ ، ٦٣ — ٦٧ — ٩٠ وغيرها والأصفهانى : الأغانى ٣/٦٢ والمسعودى : مروج الذهب ٤/٤٣ والأشمونى: ١/٣١ و د. أنيس : من أسرار اللغة ٣ ص ٩٠ — ٩٢ •

(٣٧) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣ ، ٤٣ •

(٣٨) المصدر السابق ص٢٣ ، ٤٣ •

آثار المجتمع فى اللغـــة

١ — اللغــة والجنس :

كتبت بعض البحوث فى « علم اللغة العــام » عن العــلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ومجاراتها للحيــاة والأحــداث باختــلاف المتكلمين بهــا من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجنسية ، فلغات مجعدى الشعر تختلف عن لغات ملس الشعر [٣٩] ، ولغات مستطيلى الرءوس غير لغات مستديرى الرءوس [٤٠] .

وقد استغل هذه النظرية أصــحاب المــذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو ، فتحدثوا عن طبيعــة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والحامية ، وادعى الغزاة — وهم من أرباب اللغــات الأولى كالألمان ، والطليان — انهم شعوب راقية ، وأن متحدثى اللغات الأخرى شعوب متخلفة ينبغى أن يخضــعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعــة اللغــات المتخلفة ، فهى تعجز عن التعبير عن المعــانى الــكلية ، ويتعقد فيها النظم ، وتفتقد منهــا الحيوية ، وهى لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقيــة ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها فى أى وقت أن تتطور الى الحد الذى وصلت اليه اللغات الأوربية الراقية .

وقــد سرى الاعتقاد — كذلك — بين بعض الباحثين بأن اللغات

---

(٣٩) فنــدريس : اللغــة ص ٢٩٧ .

(٤٠) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٥ .

ترتبط بعقلية أصاحبها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية، والعكس صحيح •

، فيرى العالم اللغوى الألمانى ف• ن• فنك F.N.finck أنه لايجب علينـا أن ننظر الى اللغـات الا بوصفها آثارا معبرة عن عقل الشعوب، وأن اللغات ليست الا تصويرات لاتقدم أمام عين العالم السيكولوجى أية حقيقة واقعة ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة ، بألا نبدأ من اللغة التى ليست الا نتيجة ، بل من العقل الذى يخلق اللغة [٤١] •

وقالوا : ان وجود الأقسام الاسمية تشير الى عقلية (بدائيـة) كما فى لغات البانتو [٤٢] •

والحقيقة أن ربط اللغـة بالجنس ، وبالعقلية ، تحكم لا مسوغ له ، فليس فى لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أى دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقـابله دماغ خاص ينتج تفكيرا مختلفا عن تفكيرنا [٤٣] •

وعلماء الأنثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جماجم آدمية أن يحددوا أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولـكن لايمكنهم معرفـة لغـات أصحابها [٤٤] لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لايستطيع بحـال أن يعرفنـا شيئا عن أنواع الترابط بين الـكلمات ، والأفـكار ، التى

---

(٤١) فنـدريس : اللغـة ص ٢٩٩ •

(٤٢) د• السعران : اللغـة والمجتمع ص ١٤ •

(٤٣) فندريس : اللغـة ص ٢٩٨ •

(٤٤) د• السعران : اللغـة والمجتمع ص ٦٨ •

كانت تتكون فيهما ، ولا عن الصـــور الـــكلامية التى كانت تنشأ فى مراكزها المخية [٤٥] .

« ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين اذ لا ينبغى الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التى لا يمكن تحصيلها الا بالدم وبين النظم من لغة ودين ، وثقافة التى تعد أعيانا قابلة للنقل، تعار وتتبـــادل » [٤٦] .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كليهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة ، والمدنية [٤٧] .

ومن الصحيح أن نقول : ان للغة صلة بالعقلية ، اذ من الجـــائز أن تكون اللغـــة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة ، وأن تـــكون المميزات التى تميزهمـــا واحدة ، دون أن يترتب على ذلك صـــدور احداهما عن الأخرى [٤٧] .

واللغة — فى بعض الأحيان — تستطيع أن تعـــدل من العقلية ، وتنظمها ، فعادة وضع العقل فى مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدى الى صورة خاصة فى التفكير وأن يكون لها أثر فى طرق الاستدلال ، والتفكير الفرنسى ، أو الألمانى ، أو الانجليزى خاضع للغة الى حد ما ، فان اللغة اذا كانت مرنة خفيفـــة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور فى وضوح تام ، وأتاحت لهـــا حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذى يصيبها من لغة

---

(٤٥) فنـــدريس : اللغـــة ص ٣٧٦ .

(٤٦) المصـــدر السابق ص ٢٩٨ .

(٤٧) المصـــدر السابق ص ٢٩٩ .

جامدة ثقيلة ، ولـكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أى شكل من أشكال اللغـة » [٤٨] •

ومن الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم ، وبحضارتهم المادية [٤٩] •

ولـكن ليس من المؤكد أن الأسباب التى تؤثر على اللغـة تحدث فى العقلية آثارا مماثلة [٥٠] •

والواقع يناقض هـذا الربط ، ويعارضه ، فخريطة أوربا اللغوية فى العصر الحاضر تضم أخلاطا من الأجناس •

ومع هذا فان فردا ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتسب لغته ، واذا أراد تعلم لغـة شعبه الأصلى احتاج الى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه فى ذلك شأن أى أجنبى يريد تعلمها ، فالزنجى أو اليابانى الذى يربى فى فرنسا فى ظروف واحـدة مع الأطفـال الفرنسـيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلا فرنسيا تربى فى بيئـة الزنجى أو اليابانى لتكلم لغة البيئة التى نشأ فيها [٥١] •

وان بعض اللغات التى كتب لها الذيوع والانتشار لتؤكد بطلان هذا الربط ، فالانجليزية قـد انتشرت فى مساحات واسعة من الأرض فى قارات كثيرة أيام سيطر الانجليز على تلك الشعوب ، واستعمروها فتكلم كثير منها اللغـة الانجليزية ، وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربيـة بعد الفتوحات الاسلامية الواسعة قـد فرضت نفسـها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبـار الى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة •

---

(٤٨) فندريس : اللغـة ص ٣٠٢ •

(٤٩) د. السعران : اللغـة والمجتمع ص ٦٥ •

(٥٠) فنـدريس : اللغـة ص ٣٠٠ •

(٥١) أنظر المصـدر السابق ص ٢٩٨ وأيضـا ص ١٢٩ ، ١٣٠ من هـذا الـكتاب •

والحديث عن اللغات المتخلفة والراقيـــة حديث غير موضوعى ، فاللغات التى تتسم بسمات (بدائية) يمكن أن تتحول الى راقيـــة لو انفسح أمامها المجال ، وأتيحت لها ظروف التغـــير تبعــا للتحـــولات الاجتماعية التى تمر بها الشعوب المتكلمة بها .

وقد حكى بعض الباحثين ماحدث لبعض الطلبة الهنود الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليـــا الأفلاطونية ، مع خلو لغـــاتهم من الأسماء العامة التى تستعمل دون « تغير » (٥٢) .

وفى امكان اللغات القاصرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة .

فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ، ولـــكنها لا تقل من حيث تكييف نفسها لـــكافة المجالات (الحياتية) عن لغاتنـــا المتحضرة .

فاللغة الأراندية لا تملك مفـــاهيم مثل (الجبل — التل — النهر) وعلى ذلك تـــكون لهجـــة تدريس الجغرافيـــة أمرا صعبا جدا ، ولـــكن علينا ألا ننسى أن فيها أسماء لـــكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضـــل) و (الأسوأ) ، ان هـــذا شبيه بقولنـــا : أيهما أفضـــل شجرة النخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوربا ؟ .

فالنـــاس كلهم سواســـية بغض النظر عن الجنس والثقافـــة ، والعرق ، وبنفس الطريقـــة تتساوى كافة لغـــات المعمورة فى قيمتهـــا وحقوقها (٥٣) .

---

(٥٢) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٧١ بتصرف .
(٥٣) كنراتوف : أصوات واشارات ص ٨٣ ، ٨٤ .

٢ ـ اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره فى اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول وأراض زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك فى لغة العرب الجاهليين ، فالعربى فى الصحراء يجد أمامه الجو الهائل من الفراغ الطبيعى الذى يحتاج معه الى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل الى مايريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه .

والبيئة التى يعيش فيها تشكل جسمه ، وعضلات نطقه بطريقة تجعلها مستعدة لاخراج تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يميلون الى رقة الألفاظ ، وانخفاض الأصوات ، ويتضح ذلك من تأذى النبى ﷺ من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه فى المدينة، فطالبهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » [٥٤] .

ويكفى أن نسمع ـ مثلا ـ كلمة (افرنقعوا) ـ بمعنى تفرقوا ـ وقول بعض العرب :

خالى عويف وأبو علج   المطعمان اللحم بالعشج [٥٥]

وقول بعضهم (لبيش اللهم لبيش) [٥٦] .

فهى تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات البدوية المتعددة ، وتنافر الأصوات ، الى جانب مافى بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

---

(٥٤) من سورة الحجرات الآية ٢ .
(٥٥) أبو علج : أبو على ـ العشج : العشى .
(٥٦) لبيش : لبيك .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئـــة ، فالوسائل التى يلجأ اليها البدوى لجمال الأسلوب لن تخرج عن مجاله البيئى ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان •

يقول النابغـــة للنعمان بن المنـــذر :

فانك كالليــل الــذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ويقول له كذلك :

كأنــك شمس والملوك كواكب   اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويصف امرؤ القيس فرسه فيقول :

مكر مفــر مقبــل مدبر معــــا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكا فلم ينضح بمــاء فيغسل

ولــكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنـــا تغيرا فى طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلت اللهجـــات ، وبرزت القرشية كلغـــة عامة بين العرب ، وانطمس معهـــا معظم تلك اللهجات ، وسما الخيـــال العربى ، وانطلق مع تقدم الأمة العربيـــة ، على نحو يمكن معرفتـــه من ملاحظـــة سير اللغـــة وآدابها ، فى العصر الاســـلامى وما تلاه ، وبخاصـــة فى العصر العبـــاسى الذى زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضـــارة ، واكتســـاب الأدباء والشـــعراء لـــكثير من ثقافات تلك الشعوب •

ومع ذلك تظهر ملامح البيئـــة فيهـــا •

فابن الرومى الذى يعيش فى الأحيـــاء الشعبية التى يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره فى أبيات هى :

ان أنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ماتنداح دائرة فى الماء يلقى فيه بالحجر

وحينما يسأل : هل يستطيع أن يأتى بمثل ما أتى به ابن المعتز فى وصف القمر من قوله :

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ويحكم ! انما يصف ما عون بيته •• !

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميات — كالآرامية ، والعبرية — بانتظام القواعد ، وعذوبة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنها عاشت فى بيئة أكثر مدنية من أخواتها (٥٧) •

وللزمان تأثيره فى اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا (٥٨) •

وانتقال اللغة من جيل الى جيل يترك أثره فى أصوات اللغة ، ومفرداتها ونظمها ، وتراكيبها •

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل الى جيل آخر ، فهى — عند الأبناء — تختلف عنها عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد ، وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من عصر الى عصر ، وان كان التطور يسير ببطء لكنه يؤثر فى ألفاظ اللغة ، وبخاصة فى أصواتها •

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغير على لسان العرب المعاصرين سواء فى ذلك لسان المثقفين بالعربية أو على المستوى الشعبى ، فالجيم العربية تنطق على لسان بعض المذيعين

---

(٥٧) أنظر : د. وافى : علم اللغة ط ٤ ص ٢٣٣ — ٢٣٦ .
(٥٨) أنظر ص ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

خالية من التعطيش أو بتعطيش قليـــل فى مصر ؛ وأما على المستوى الشعبى فقد خلت نهائيا من التعطيش ، على حين أن السوريين يبالغون فى تعطيشها ؛ وقـــد غدت التـــاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاى على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين بالفصحى ، على حين انقلبت اليها على لسان العوام ، والصاد والســـين والزاى قـــد اختلف نطقها فى الحديث عنه فى القديم ، وناهيـــك بالانحراف الذى يسرى على ألسنة العوام لأصوات القاف والطاء ، والظـــاء والضـــاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقيق •

وماذا نقول عن فقدان الاعراب فى العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ؛ واطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما أنزل الله بها من سلطان ؟•

وانظر مثـــلا الى قول المصريين العوام : جم ـــ جـــه ـــ بكام ؟ معـــاك •

ويمكن أن يضاف الى ذلك مايدخله الأدباء والعلمـــاء من ألفـــاظ وتراكيب كانت قـــديمة فيحيونها ، أو مستحدثة يبتكرونها ، أو منقولة من اللغـــات الأخرى للحاجـــة اليهـــا فى ابراز المعنى ، أو فى تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض •

٣ ـــ اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التى تكون عليها الأمـــة ، فتحمل سمات المجتمع فى النواحى السياسية ، والاقتصادية ، والدين ، فالمجتمع يطبع خواصه فى هذه النواحى على لغته ؛ فالكلمات ، والتغييرات تتمشى مع شـــكل النظام السياسى ، والاقتصادى والدينى ، وغيرها من النظم الاجتماعية •

ففى مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظـــام الديمقراطى أو النظام الاقطاعى ، أو النظام الشيوعى ، ولكل طريقته التى

تظهر فى أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، والمجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذى تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسى تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة فى مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافا واضحا فى كل من الفترتين ، فالنظرة الى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوما جديدا فى الاستعمال .

ونلاحظ فى أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التى تكون عليها تلك الشعوب ، من النواحى السياسية ، فترد عبارات : « العالم الحر » — « عدم الانحياز » — « التحالف » — (الصداقة) — (المودة) وتفسر المفاهيم السياسية التى تراها الدول التى يجرى بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغيير مدلولات كثير من الألفاظ والتراكيب ولو درست معانيها — فى القديم والحديث — لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديما ، وحديثا حسب مصطلحات العصر ، وربما أتاح هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معانى جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع — معا — هذه العبارات « الظلم الاجتماعى » — « سيطرة الاقطاع » — « الخلية الثورية » — « الدفع الثورى » — « الحوافز الثورية للجماهير » — « الدكتاتورية الطبقية » — « دموية الصراع الطبقى » — « نضال الشعب » .. الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التى تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما تشاء فى الأصوات والمفردات .

فالنواحى الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبة ، والتعامل بين الأمم له وسائله ، ودعاياته ، والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعاياته أيضا .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التى يلجأ اليها كل من البـائع والمشترى وطرق عرض السلع ، والاعلان عنها يأخذ أساليب شـتى ، وأسواق البيع والشراء تحوى دهاء البائع والمشترى ، ولذا تبدو فى المجال اللغوى للبيـع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تتميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم •

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التى تتمشى مع وضعهم فى المجتمع ، فأساليب الزراع ، والصناع ، والتجار تجرى حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصـالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التى تعرض لهم •

ويكفى أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين ، وصناعيين ، أصبح لهم — بعد الثورة — شرف الانتساب الى أعمالهم ، وتحولت معـانى الكلمات « العمل — العامل — الفلاح » من الضعة التى كانت تلاحقها فى الماضى بسخرية واستهزاء الى شرف المعنى ، واحترامه[٥٩] •

وللدين كذلك أثره الفعال فى اللغة ، فالمجتمع فى طقوسه الدينية ، ومشاعره يسـلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها وتراكيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولننظر الى ألفاظ الأذان ، والصلاة ، والخطب الدينية ، وطرائق المدائح النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذى يلجأ الى طرق خاصة فى الاقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هـذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية التى تحرك المشاعر ، والوجدان •

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من ايمانهم بخالقهم ، ويحيطونها بهالات الاكبار الذى ينبعث من الأحساس الدينى كأساليب

---

(٥٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٧٤ — ٩٤ بتفصيل أكثر .

القسم ، وتعويذ الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأســاليب الشعبية المستمدة من الدين مثل « اسم الله عليك — باسم النبى حرسك » .

ولو تتبع الباحث اللغوى تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قديما حتى العصر الحديث لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوى الذى ينبعث من مشاعر دينية ، لا سيما ونحن نعلم أثر الدين فى النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآنى دراســة فاحصة لأمكن ادراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التى ينتحيها .

ونلمس فى لغة الأســاليب الدينية ميلا الى الايقاعات الصــوتية كالسجع ، والفواصل وتتابع الأصوات وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الاسلامى الى غيره من الأديان الأخرى لوجــدنا الطقوس الدينية التى تسلك مسالكها ، فلا تزال الكنيسة تستخدم التعابير القبطية التى يرددها بعضهم دون فهم(٦٠) .

ولا شك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأســاليب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التى يلجــأون اليها ، فلهم عرفهم فى الاستعمالات اللغوية ، ويمكن ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضا يغير من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لمــا يريدون .

٤ — اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة تعيش فى المدن ، والقرى ، وفيها الزراع ، والصناع ، والاستقراطيون ، والفقراء ومتوسطو الحال ، وفيها الأميون والعلماء والمثقفون ، كالطبيب ، والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

---

(٦٠) فندريس : اللغة ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، فى نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعى ، ولذا تستخدم اللغة استخداما مستمدا من البيئة والأعمال التى تزاولها .

وتعرف هذه اللهجات ذوات الطوابع المتميزة بـ « اللهجات الطائفية » أو « الطبقية » أو « الاجتماعية » كذا يسميها علماء اللغة[٦١] .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة المستمدة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

ففى « اللتوانية » — وهى لغة شعب زراعى — خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلا منها تقال عن شىء خاص — الأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ماسبق وشعر الانسان — وفيها للدلالة على « المبقع » — بتشديد القاف — أو « الأبلق » عدد من الكلمات بقدر مايوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوما اخصائيين فى تربية الحيوان[٦٢] .

وللزراع — فى مصر — لهجاتهم الخاصة التى تختلف باختلاف المناطق التى يعيشون فيها ، ويبدو ذلك فى مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوى ، ولعل فى هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكد هذه الحقيقة ، ففى بعض المناطق يقولون « أردب ما هو لك ما تحضر كيله تتعفر دقنك ويلزمك شيله » .

ولكل حرفة أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فللحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع وذوى الحرف لهجات متنوعة فى كلماتها ، وعباراتها .

---

(٦١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٦٠ ، د. وافى : اللغة والمجتمع ص ١٤٨ .

(٦٢) فندريس : اللغة ص ٢٨٦ .

وتشتمل لهجات هؤلاء وأولئك على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة ، أو أجنبية .

ففى مجال الزراعة تحتفظ العامية — من اللغة القبطية — بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفى العامية العراقية كثير من الكلمات البابلية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفى مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة بعد التطور الصناعى العالمى ، وقد دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ الانجليزية ، والايطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالهندسة والميكانيكا ، والآلات الصناعية[٦٣] .

وللطبقات الارستقراطة ، والفقيرة ، والوسطى لهجاتها التى تنبىء عن مكانتها الاجتماعية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظامها الاجتماعى .

يقول فندريس — عن اللهجات الأرستقراطية الفرنسية — « فى كل العهود التى كونت فيها الارستقراطية طبقة مغلقة ، تحيا حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة ، أدت هذه الحال الى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وان استووا فى العقل مع غيرهم ظلت لهم على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم ، وجمل أشهى الى النفس »[٦٤] .

وللطبقات الأرستقراطية فى مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم — أحيانا — على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات

---

(٦٣) د. السعران : اللغـــة والمجتمع ص ١٠٥ — ١٠٨ بتصرف ، وانظر : فندريس : اللغة ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٦٤) فندريس : اللغـــة ص ٢٨٧ .

وتراكيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقى، والتمدن[٦٥] .

والطبقات الفقيرة ، والوسطى أكثر استقرارا واعتدالا فى استعمال اللغــة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائى ينقلهم الى مستوى مادى أعلى ، فيحاولون مجاراة الطبقة الراقيــة ، واذا كانوا يستطيعون ذلك فى المسكن والملبس، وغيرهما من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم مجاراة تلك الطبقة فى لهجاتهم ، فان صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم الى طبقتهم الأولى[٦٦] .

وللطبقات الخارجة على نظام المجتمع — كاللصوص ، والمجرمين ، والأشقياء — لهجات تستخدم طرائق معينة فى استعمال كلمات اللغــة العامة ، بنقلها الى معان مجازية أو استعارتها لدلالات بعيدة عن مفهومها الأصلى ، أو خلق وابتكار مفردات ، وعبارات جديدة ، لمفاهيم يصطلحون عليها ، وربما لجأوا اليها لاخفاء جرائهم ، وأوضاعهم الشاذة ، ففى أمريكا — مثلا — يسمى اللصوص « الجواهر » باسم « الجليد » والجــواهر المسروقة « الجليد الساخن »[٦٧] .

ولذا تسـمى لهجتهـم بـ « اللهجـة السرية » أو « الكــلام السرى »[٦٨] .

وقد فطن الجاحظ الى لهجات الطبقات الدنيا فى أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحتالين ، ولا سيما ما جاء فى كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ الى جماعة من هذه الجماعات التى ارتضت لنفسها

---

(٦٥) أنظر الى استعمالهم : أنارب مكان أرانب — زالم مكان ظالم — السبر مكان الصبر — مرسيه مكان شكرا ونحو ذلك .
(٦٦) د. السعران : اللغــة والمجتمع ص ٦٠ .
(٦٧) المصدر السابق ص ٦١ .
(٦٨) فندريس : اللغة ص ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ .

أن تحيا حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب فى الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب فى مظان عدة[٦٩] .

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التى كتبها فى القرن الرابع الهجرى الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي الينبوعى مسعر بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية ، واختار منها أبو منصور الثعالبى قدرا لا بأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسولين[٧٠] .

وللعلماء والمثقفين — على اختلاف طبقاتهم ومناحى تعليمهم — من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافى والعلمى .

وتبين لهجة المتكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافى ، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة ، وحيثياتهم التى يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم[٧١] .

ومثال ذلك حالة (المحضر) وحالة (القاضى) فهذان يستعملان فى تسبيب جيثياتهما أو فى تحريرها لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية ، ولغة المحاكم — بعامة — من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها ، وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئا منها[٧٢] .

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طبية ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

---

(٦٩) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ١١٢ .
(٧٠) الثعالبى : يتيمة الدهر ط ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م جـ ٣ ص ٣٣٢، ٣٣٣ ، د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ١١٢ — ١١٤ .
(٧١) فندريس : اللغة ص ٣١٤ .
(٧٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

ويسمى علماء اللغة هذه اللهجات باسم « اللهجات الفنية » ففى كل فن علمى تستخدم كلمات اللغة العادية فى معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة حين يتكلمون عن « الكتلة » أو « السرعة » أو «القوة» وأحيانا تخترع كلمات خاصة .

« واللغات الفنية تدين بوجودها الى الحاجة للدلالة على أشياء وأفكار لا أسماء لها ، فى الاستعمال الجارى ، ولكنها أيضا ترجع الى الحاجة للدلالة « بصورة علمية » أى بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيرا جيدا » (٧٣) .

ولرجال الأدب من شعراء ، وقصاص لهجة ذات خصائص ، والأديب فى حاجة الى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد فى ذكائه ، واحساسه من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفى الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات (٧٤) .

وللصحافة لهجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية فى فرنسا (لاتكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة الأدبية ان قليلا وان كثيرا) على حين أن الصحف الكبرى تستخدم اللغة التى يستعملها خير الكتاب هناك (٧٥) .

ومعظم الصحف والمجلات المصرية — الآن — وان اصطنعت العربية الفصحى صورة فانها تخالفها مضمونا بادخالها كثيرا من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهى — بذلك — لها لهجتها الخاصة التى تخاطب الجماهير الشعبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة فى المجتمعات التى تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر .

---

(٧٣) فندريس : اللغة ص ٣١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ص ٣٤٠ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

وكلما ازداد البعد والانفصال بين الجنسين أدى ذلك الى وضوح الفروق بين لهجة كل منهما .

أما فى المجتمعـات التى تخف فيها قيود الانفصـال بين الرجل والمرأة فان اللهجة تتقارب بينهما ، ولا يكون لها مظاهر الا فى اختلاف يسير فى بعض الأصوات ، والمفردات ، والتراكيب ، كما يشاهـد فى معظم مناطق مصر الحديثة .

ولهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة تشترك فيها جميعا ، فهى:

١ — تشوه أصوات بعض الـكلمات ، وقوانينها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتى فى نطق الـكلمات .

فقد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات فى النطق تساعد على تمييزها .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقـات الريفيـة ، والمدنيـة للأفعـال (قال — جاء — يقـدر) فينطقهـا بعض الريفيين (جال — ايجه — يغدر) وفى المدن والقرى المتأثرة بها (آل — جه — يأدر) .

وهذا فى الحالين تشويه لأصوات وبنية بعض الـكلمات .

كما أن طريقـة الأداء الصوتى مختلفة بين الريف والحضر بشتى الطبقـات ، ويمكن — من خلال الاتجاه الصوتى — التعرف على طبقة المتكلم الاجتماعية .

« والعامية الخاصة المستعملة فى الأطراف الباريسية تحتوى على بعض الخصـائص الصوتيـة التى تـكفى للتعريف بطبقـة المتكلم الاجتماعية » (٧٦) .

---

(٧٦) فنـدريس : اللغـة ص ٣١٧ .

وفى العامية الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات فى صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا محصورا من المتكلمين كلهم ممهد الذهن لفهمه ، وكلهم متفاهم معه مقدما ، ومن ثم يجىء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التى تجعل العامية الخاصة لا يفهمها الا العارفون (٧٧) .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون فى ندائه (يا ولد — يا ول — يواد) .

وغنى عن البيان أن الاختصار فى استعمال أصوات الكلمات يتم اعتمادا على فهم أرباب الطبقة التى منها المتكلم .

٢ — تستعير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالا مجازيا.

فالكلمات العامة (مشغل — عمل — صنعة — تصنيف — عملية) تتخذ بالضرورة معنى خاصا فى أفواه الذين يستعملونها وفقا لنوع المهنة التى تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوى تلك هى أساس العامية الخاصة (٧٨) .

« والاستعارات ، والنقل فى العامية الخاصة تبلى بسرعة وتحتاج الى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التى تفصل بين للعامية الخاصة واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا اذا أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى » (٧٩) .

---

(٧٧) فندريس : اللغة ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .
(٧٨) المصدر السابق ص ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٧٩) المصدر السابق .

٣ — تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمراد بالأجنبية كل ماليس من اللغـة المشتركة ، فيدخل فى ذلك ماتنقله من اللهجـات الخاصـة الأخرى ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التى تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوى على كلمات أجنبية قليلة العدد عربية وألمانية)(٨٠) وغيرهمـا .

وفى اللهجات الخاصـة المصرية ألفاظ مستمدة من لغات أجنبيـة حسب الطبقة أو الحرفة التى تتطلبها .

٤ — قد تأخذ اللهجات الخاصة من الـكتب ، وهو أمر فردى فى غالب الأحيان ، وهو احدى الوسائل الاصطناعية التى تدخل فى تكوين العامية الخاصة ، ويذكرون أن فرجليوس مارو النحـوى الذى عاش — على ما يظهر — فى القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغـة خاصـة ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المـدارس الأيرلندية ، وكانت تقوم هـذه اللغـة على تشويه الـكلمات الجارية بأنواع من تضعيف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، وبمضى الزمن تحورت ، وتمخضت عن لغـة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهى عاميـة خاصـة اختلطت فيهـا — على غير قاعدة — كلمات مستعارة من اللاتينيـة ، والاغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية أهملها الأستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة (٨١) .

واللهجات الخاصـة لا ينفصل بعضـها عن بعض انفصـالا تاما فللطوائف الاجتماعيـة صـلات تقتضـيها المصـالح التى تجمعهم فـ « تنوع اللغات » (اللهجات) يرجع الى تعقد الروابط الاجتماعية ، ولـما كان من النـادر أن يعيش فرد محصورا فى مجموعة اجتماعيـة

---

(٨٠) فنـدريس : اللغـة ص ٣١٨ .

(٨١) المصـدر السابق ص ٣١٩ — ٣٢١ .

واحدة كان من النـــادر أيضا أن تبقى احدى اللغـــات دون أن تنفذ الى مجموعات مختلفة ، اذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغتـــه على لغة المجموعة المجاورة التى يدخل فيها » (٨٣) .

ولا تتكلم أسرتان متجاورتان لغـــة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فان لقاء الأسر المشترك يؤدى الى الوحدة اللغوية بينهمـــا ، وقـــد يعيش أخوان معا ولأحدهما مهنة تختلف عن مهنة الآخر ، فتميل لغة « لهجة » كل منهما الى طائفتـــه التى ينتمى اليهـــا ، وتدب عوامل الفرقـــة بين لسانيهما الا أنهما يتغلبـــان عليها بلقائهما اليومى ، ولو أن أحدهمـــا انفصل عى الآخر فى حياته ، أو أدى حدث الى التفريق بينهما فقـــد يصبح لـــكل منهما لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى (٨٣) .

فاللهجات الطائفيـــة تتداخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمـــة بين أصـــحابها فاذا قـــدر لاحـــدى اللهجات أن تنفصـــل عن الأخرى — لعوامل تدعو الى ذلك — فان هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها « ولذلك كانت فى فرنسا لهجة الطبقـــات الدنيا من العمال واللهجـــات السرية لجماعات المتصوفين ، والرهبان ، ولهجات المجرمين ، واللصوص ، ومن اليهم من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الأجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن فى انجلترا ، فلهجات اللصوص ، وقطـــاع الطرق ، والمجرمين الانجليز من أشد اللهجات بعدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية » (٨٤) .

---

(٨٢) فنـــدريس : اللغـــة ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٨٣) المصـــدر السابق : ص ١٠٧ .

(٨٤) د. وافى : اللغـــة والمجتمع ص ١٤٨ .

لا يتميز بعضها من بعض الا فى المدن الكبرى حيث تتعدد الوظائف، ويكثر النـاس ، وتتنازع الطبقات ، كنيويورك ولندن ، وبغداد — فى عصر العباسيين — ، والقاهرة فى العصر الحديث ، (ويوجد داخل باريس عدد من اللغات « اللهجات » المختلفة تسير كلها جنبا الى جنب، فلغة الصالونات مثلا ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ، وهناك رطانة المحاكم ، والعامية الخاصة التى تتكلم فى حواشى المدينة ، وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض الى حد أنه قد يعرف الانسان احداها دون أن يفهم الأخرى) [٨٥] .

واللهجات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعى ، ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها [٨٦] .

٥ — العرف واللياقة اللغوية :

فى كل مجتمع أمور يعاب التصريح بها ، أو التحدث عنها أحيانا بين الكبار ، وأخرى بين الصغار ، وما يباح لبعض الكبار فى موقف قد لايباح لهم فى موقف آخر .

ولكل من الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، وجماعة الذكور وجماعة الاناث كلام لايباح للآخر ، ولا يليق به .

وبعض الكلام لا يليق التفوه به فى العرف الاجتماعى كالشتائم وما يكون لدى بعض الناس من عاهات ، وكل ماهو جارح للاحساس ، والآداب العامة ، ويستعاض فى اللغات عن الكلمات الجارحة بأخرى تخفف من حدتها .

ويكره المجتمع التحدث عن بعض الأمور التى يتشاءم منها ،

---

(٨٥) فندريس : اللغة ص ٣٠٦ .
(٨٦) المصدر السابق ص ٣٢٥ .

كالموت والأمراض الخبيثة ، والجن والشياطين ، وجهة اليسار ، والشر فيلجأ عند ذكرها الى التستر والغموض .

ويتحدث النـاس فى الأمور المتصلة بعالم الغيب بعبارات خاصة جرت العادة باستعمالها .

ويلجأ المجتمع فى التعبير عن الأمور الممنوعة أو التى تدعو الى القلق الى استعارة كلمات من الخارج ، أو الى المجاز أو استبدال كلمة مكان أخرى وتشويه بعض الـكلمات أحيانا وتعديل عناصرها صوتيا .

فـكلمة Pissoir (مكان البول) فى الألمانية أقل منها جرحا للأذن فى الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشىء الذى يعبر بها عنه ، فهى تلعب دور الـكناية (٨٧) .

وكلمات (كبانيه — تواليت — دورة المياه) — عنـدنا — حلت محل كلمة (مرحاض) وكأن الاستعارة من اللغـات الأجنبيـة ، أو استبدال كلمة بأخرى تجعلها أكثر مراعاة للياقة .

(وقـد عدل الأطبـاء منذ حين عن اسـتعمال كلمة (عمليـة) Operation التى صيرها الاستعمال قاسية مخـوفة لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات المرعبة والملابس الملوثة بالدماء ، والجسم وقـد طواه الألم طيـا ، فـكلمة (عملية) ضحية الصور التى تثيرها ، لذلك يسود الميل الى الاستعاضة عنها بكلمـة intervention (تدخل) لأنها أنضر جـدة منها وأكثر تحفظا وأشـد غموضـا ، أيضا لا يهلع لسماعها قلب المريض ، والـكناية ليست الا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات) (٨٨) .

---

(٨٧) فنـدريس : اللغـة ص ٢٨٠ .

(٨٨) المصدر السابق ص٢٨١ .

ولمـا كانت أسـماء المثـالب والعـاهات معرضـة للنهى بشكل خاص ، فـلا ينبغى أن ندهش حين نرى الجرمانيـة تشتق من أصل واحد يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة (تدل على الصم ، والبكم ، والحمـاقة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية [٨٩] .

« وترى الشتائم فى كثير من اللغـات تصاب بشىء من التشوه المقصود ، الذى يمكن من ادخالها فى أرقى الأوساط » [٩٠] .

ونحن نقول فى عاميتنا : (يانهار احوس — يا خراشى — يخيشك) بدلا من (يانهار أسود — ياخرابى — يخييك) كل ذلك للتخفيف من حدتهـا .

أما موضـوعات التشاؤم كالموت والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فنلاحظ المجاز ، والـكناية عنها ، واستعمال عبارات تشير الى الخوف أو تقلب معناها الى ما يتمنى من الخير .

فالموت — فى أكثر اللغات — يكنى عنه بالذهاب ، وفى العربيـة تستعمل لفظة « الوفاة » وهى مشتقة من « الوفاء » أى رد مايستحق الآخرون عند الانسان ويعبر عنه بعبـارات كثيرة مثل : أفلت شمسه — صعد الى بارئه[٩١] لبى داعى ربه .

ويكنى عن الحصبة فى العامية المصرية بـ « المبروكة » .

ويعرض النـاس — عادة — عن ذكر الأمراض الخبيثـة كالسل

---

(٨٩) المصـدر السابق ص ٢٨٢ .

(٩٠) المصـدر السابق ص ٢٨٢ .

(٩١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ١٨٤ ، ١٨٥ وانظر: فندريس : اللغة ص ٢٨ و د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٣٠ .

والسرطان ويدخلون فى كلامهم عبـــارات لازالة مفهومها القاسى مثل : ربنا يكفينا شره — والعياذ بالله ••• الخ ويستعيذون بالله من الأرواح الشريرة [٩٢] .

وجهة اليسار جهة يتشاءم منها ، وكأنها جهة القوى الخفية التى لا يراد ايقاظها لذلك كثيرا ما قضى بالتحريم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار الى اســتعمال العبـــارات الملفوفـــة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار [٩٣] .

وهنـــاك الأمور الغيبيـــة ، والعـــالم غير المنظـــور الذى يقتضى عبارات خاصة « فالرقى السحرية التى نعثر عليها فى قبور اليونان ، وايطاليا ، وافريقيا مكتوبة على ألواح من الرصاص تطبق فى غالب الأحيـــان هـــذه الخطط نفسها : استعمال الـــكلمات الأجنبيـــة ، أو تشويه الـــكلمات الأصلية ، ولـــكن الباعث هنا يختلف ، اذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون فى تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة » [٩٤] .

---

(٩٢) د. السعران : اللغـــة والمجتمع ص ١٣١ .

(٩٣) فنـــدريس : اللغـــة ص ٢٨١ .

(٩٤) المصدر السابق ص ٣٢١ وانظر أيضا ص ٣٢٢ — ٢٢٥ .

المنافسة بين اللهجات واللغات

(أ) المنافسة بين اللهجات :

يحتاج الناس الى اتصال بعضهم ببعض أفرادا ، وجماعات ، وأمما .

ولهذا الاتصال آثاره اللغوية ، فلهجات ولغات تلك الجماعات والأمم تتلاقى ، ويستفيد بعضها من بعض .

والتأثر الذى يعترى لهجات اللغة الواحدة قد يبدو عاديا حين لايكون الاختلاط بين الطبقات كبيرا ، كلهجات القرى والمدن ، فى أية دولة ، فلكل منها سمات تمتاز بها من الأخرى وبينها اشتراك فى مظاهر كثيرة تستمدها من اللغة العامة ، ولذا لاتستعصى احداها على الفهم خارج حدودها اللهم الا فى حالات العزلة التى تعيش فيها بعض القرى والأماكن النائية أو الأقاليم التى تفصل بعضها عن بعض أمور جغرافية واجتماعية فانها تؤدى الى ظهور سمات تنفرد بها لهجاتها ، وقد تستعصى على فهم غيرها من البلاد النائية عنها قرية كانت أو مدينة .

وحين تتجاور اللهجات الخاصة فى المدن الكبرى ، والقرى المجاورة لها تزيد درجات التأثر ، ففى داخل المدن يكثر الاختلاط بين الطبقات ويحاول الأدنى تقليد الأرقى ، ومع ذلك تبقى لكل لهجة خصائصها المميزة .

وسكان القرى المجاورة للمدن يحاولون التخلى عن خصائص لهجاتهم وتقليد لهجات المدينة لأن حضارة أهل المدن ، وثقافتهم تجعل الرغبة فى تقليدهم ملحة لدى الريفيين .

وقد أجريت بحوث فى هذا الحقل أوضحت عوامل تفوق لهجة على أخرى وهى تعود — فى معظمها — الى الثقافة والحضارة ، والنفوذ والسلطان ، وعدد الناطقين ونحو ذلك .

فاذا انفردت احداها بمزية بأن كانت أكثر ثقافة أو حضارة أو ذات نفوذ سياسى أو تجارى أو دينى واسع أو كثر عدد الناطقين بها فان ذلك يدعو الى تغلبها على أختها أو أخواتها من اللهجات الأخرى .

وقد حدث هذا كثيرا فى التاريخ اللغوى .

فاللاتينية التى صارت لغة ايطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربى بأسره كانت لغة روما أولا وقبل كل شىء أى لغة المدينة فى مقابلة لغة الريف المجاور ، واللهجات القاصية على السواء [٩٥] .

واللهجة الباريسية أصبحت لغة فرنسا بتغلبها على اللهجات الأخرى (فالفرنسية انما خرجت من العاصمة ، ومن طبقة اجتماعية بعينها من طبقات العاصمة ، وهى البرجوازية .. وقد استقرت فى القرن التاسع عشر ، وسلم بها القصر ، ثم الأقاليم ، والكتاب الكبار باستعمالهم اياها زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائيا ، وعلى استمرارها لذلك لاتكاد تحس فيها أثرا للهجات) [٩٦] .

ولهجة فلورنسا كانت مزاياها الذاتية ترشحها أكثر من غيرها للقيام بدور اللغة المشتركة اذ كانت أقرب من غيرها الى اللاتينية [٩٧].

ولهجة فلورنسا (فى ايطاليا) لهجة المجتمع الراقى بهذه المدينة — هى التى صارت لغة ايطاليا .

ولهجة قريش تغلبت على سائر لهجات الجزيرة العربية قبل الاسلام لتحقيق النفوذ السياسى ، والاقتصادى ، والدينى لها .

ويمكن أن تنشأ على اثر ذلك لغة مشتركة تحمل خصائص اللهجة المتغلبة وما بقى من خصائص اللهجات الأخرى المندحرة .

---

(٩٥) فندريس : اللغة ص ٣٢٩ .
(٩٦) المصدر السابق ص ٣٣٠ .
(٩٧) المصدر السابق ص ٣٣٥ .

وهذا التوحد اللغوى يخضع لعوامل كثيرة أهمها :

١ ـ العامل السياسى :

فخضوع عدة مناطق لنظام سياسى واحد يؤدى الى تقارب لهجاتها ، ثم توحدها فى لغة عامة ، فالساسة والحكام يجردون أحاديثهم العامة فى مختلف المناطق من المظاهر الصوتية ، والصرفية ، والمعجمية وغيرها مما يختص بلهجة قرية أو مدينة معينة ، أو طائفة حرفية ، ولو كان الحاكم من أبنائها ليكون مايوجه الى الشعب مفهوما لدى كل الطبقات الاجتماعية .

ونلاحظ أن عاصمة الدولة تكون محط أنظار قاطنى المناطق الأخرى فيحاولون تقليد لهجتها ، والتخلى عن ماتنفرد به لهجاتهم الأصلية .

ومن هنا تنشأ لغة عامة خالية الى حد كبير من خصائص اللهجات المحلية .

ويمكن أن نمثل لذلك بامتداد نفوذ الفرنسية التى كانت لهجة باريس ، ثم انتشرت فى جميع البلاد الداخلة فى المجال السياسى الفرنسى .

واللاتينية صارت لغة ايطاليا المشتركة ، وأخيرا لغة العالم الغربى بأسره [٩٨] تبعا للنظام السياسى ، وذلك فى الامبراطورية الرومانية القديمة [٩٩] .

وعدم خضوع الدولة لنظام سياسى واحد يضع الصعوبات فى طريق التوحد اللغوى فألمانيا التى ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة) [١٠٠] .

---

(٩٨) فندريس : اللغة ص ٣٢٩ .

(٩٩) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٤ .

(١٠٠) المصدر السابق ص١٧٤ .

وكانت تبـدو آثار اللهجات المحلية فى عامية متعلمى الألمان حتى فى أيامنـا هذه أكثر من غيرهـا من البلاد الأوربيـة[١٠١] (ولـذا قام انتشار اللغة الألمانية المشتركة فيها على أسـباب مستقلة عن كل وحدة سياسية ، فالألمانية المشتركة أولا وقبل كل شيء لغة كتابة تدين بنجاحها الى أسباب دينية ، كما تدين بأصلها الى الرغبة فى الاستعمار ، وكانت هنـاك حركة مارتن لوثر ، وترجمته للـكتاب المقدس ، وهناك لغـة المستشاريات فى المدن والامارات الألمانية ، والألمانية كانت تحتل الأراضى السلافيـة قـدما بقدم ، وتحل محل اللغـات السلافيـة فتكونت الألمانية المشتركة فى مدن الاستعمار فى المانيا الشرقيـة تلك اللغة التى وصلت بفضل الاصلاح الدينى الى أهميتها الأدبية واستقرت بفضـل اكتشاف المطبعة ، وصارت لغـة الكتابة فى ألمـانيا المثقفـة بأسرها) [١٠٢] .

٢ — العامل الاجتماعى والاقتصادى :

تقوم بين جماعات الشعب روابط النسب ، والمصـاهرة ، ويلتقون للتجارة وتبادل المنـافع فى شتى المجالات ، وقد تنشب بينهم المنازعات وهذا يؤدى الى اختلاطهم ، وقوة الاتصال بينهم .

ولذلك أثره فى التقريب بين اللهجات وظهور لغة عامة تتخلص من السمات التى تنفرد بها كل لهجة .

ومن الأمثلة التى توضح أثر هذا العامل ماحدث للهجات الجزيرة العربية من توحد — فى لغـة عامة — قبل الاسلام بحوالى قرن ونصف أو قرنين من الزمان لـا كان بين أهلها العرب من ارتبـاط فى النسب وعلاقات المصاهرة الوثيقة ، والجوار ، والتعـامل التجارى وغيره من الصلات الاجتماعية .

---

(١٠١) فنـدريس : اللغـة ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(١٠٢) المصدر السابق .

٣ ـ العامل الأدبي :

الأدب وسيلة مهمة من وسائل التوحد اللغوى ، فالأدباء من قصاص وشعراء يكتبون أدبهم بلغة يفهمها جميع الشعب ـ بمختلف طبقاته ـ ليروج ويذيع ، وتلك اللغة التى يكتبون بها تتخلص من الخصائص المتعلقة باللهجات المحلية لأى اقليم من أقاليم الدولة ، وهذا يهيىء سبيل التوحد للهجات الجماعات المتعددة .

وقد سادت عند العرب لغة عامة صيغ بها النثر والشعر الذى غصت به الأسواق الأدبية كعكاظ ، والمربد ، وذى المجاز ، وكم جرى التنافس والمبارزة بين الشعراء فى هذه الأسواق ليحكم لهذا بالتفوق على ذاك ، وكانت تلك الأشعار مصدر امتاع للجماهير العربية، وساعد ذلك على ظهور لغة مشتركة بين العرب جميعا قامت على أساس اللهجة القرشية وما استفادته من غيرها من محاسن اللهجات الأخرى .

وفى أوربا (توجد لهجات مشتركة من أصل أدبى محض مثل الايطالية التى استقرت لغة مشتركة ابتداء من القرن الرابع عشر بفضل هيبة الكتاب العظام ، وتأثيرهم مثل ، دانتى ، وبترارك وبوكاشيو ، وذلك فى وقت لم يكن لايطاليا فيه أية وحدة سياسية ، وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب استعملوا اللغة التى كانت تتكلم حولهم ... واللغة التى رفعها دانتى الى مرتبة اللغة الأدبية والتى صارت لغة ايطاليا المشتركة كانت أولا وقبل كل شيء لغة مدينة هى فلورنسا ولغة المجتمع الراقى فى هذه المدينة) (١٠٣) .

٤ ـ وسائل الاعلام :

لوسائل الاعلام كالاذاعة المسموعة والمرئية ، ودور الخيالة « السينما » والمسارح ، والصحافة وغيرها أثرها فى التوحد اللغوى ،

---

(١٠٣) فندريس : اللغة ٣٣٥ .

فهى لسان حال الأمة والمعبر عن أغراضها السياسية والاجتماعية ، وهى تستخدم لغـة أشبه بأن تكون عامة فيما يسمع أو يكتب على سواء ، ففى الأقطار العربية — مثلا — تستخدم الفصحى ، وبعض الأساليب العامية التى يفهمها الجميع .

وتلك الوسائل — بلا شك — لها خطرها فى التأثير على النـاس، وتكوين لغة عامة .

٥ — المـدن الـكبرى :

للمدن الـكبرى أثرها فى نشوء لغـة مشتركة اذ تتطلع اليهـا أنظار سكان الأماكن المجاورة لها ، والبعيدة عنها ، فيكثر القادمون اليها من كل صـوب ، وهم — حين يلتقون داخل تلك المـدن — يحاولون — عادة — التخلى عن سمات لهجاتهم الأصلية ويميلون الى استخدام لغة عامة يفهمونها جميعا ، فاذا أضفنا الى ذلك أنهم يلتقون بالسكان الأصليين لهذه المدن أدركنا الى أى حد يمكن أن تبرز لغة عامة يستعملها الشعب كله .

فالدور الأساسى الذى آل الى أثينا بعـد سـقوط الامبراطورية الفارسية أدى الى ظهور لغة مشتركة مستمدة من اللهجـة الاتيكية ، ولـكن زاد من قوة الاتيكية واشـعاعها شهرة شعرائها وفنانيها ، فكان لأثينـا — بوصفها مركزا سياسيا وأدبيا وفنيا على السواء — شرف تأسيس اللغة المشتركة التى ظلت منذ القرن الرابع قبـل الميلاد حتى القرن التاسع بعد الميلاد أداة للتفكير عند جميع الاغريقيين (١٠٤) .

ولقد تكونت الانجليزية المشتركة فى مدينة لنـدن التى سـاعد موقعها على أن تكون ملتقى لمختلف اللهجات (هذا الى أن تكون اللغـة المشتركة صادف وقوعه فترة نمو لنـدن المفـاجىء حيث أخذت تلتقى

---

(١٠٤) فندريس : اللغة ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

بين أحضـــانها طوائف المهاجرين على اختـــلافهم ، يفـــدون عليها من كل الأقاليم ويمتزجون بالسكان السابقين • هـــذه الهجرات أدت الى شحن اللغـــة المشتركة بآثار اللهجات حتى لنجـــد نطق الانجليزية فى القرن السابع عشر لم يثبت بعد ، وانه يشتمل على عدد كثير من وجوه الخلاف ولا تزال بقايا منه موجودة حتى اليوم ، ولـــكن هذه الهجرة الاقليمية أنعشت تبـــادل السكان بين العاصمة والأقاليم ، ذلك التبادل المفيد الذى أدى أجل خدمة لانتشار اللغـــة المشتركة ، واذا فانجلترا تدين أيضا بتوحيد لغتها توحيدا نسبيا الى أهمية عاصمتها) (١٠٥) •

وفى مدينة القاهرة تتزاحم اللهجات من مختلف أقاليم الجمهورية بلقاءات أصحابها ، ولذا تميل الى التوحد فيما يشبه أن يكون لغة عامة يفهمها الجميع •

٦ — الدين والعلم والثقافة والخدمة العسكرية :

فالدين يجمع النـــاس حول كتاب واحد يقرءونه ، ويتعبدون به ويطبقون أحكامه ويدعوهم الى الاجتماعات العـــامة فى الصـــلوات ، والأعياد والحج وغيرها ولذلك أثره الـــكبير فى التوحد اللغوى •

ولا شك أن العلم والثقافة والخدمة العسكرية تؤدى دورها فى اتخاذ لغة عامة •

فدور العلم والثقافـــة ، وطلابها الذين يفدون من مختلف الأقاليم ويلتقون فى المدارس والجامعات ، وقصور الثقافة ، والمـــكتبات وما شاكلها ولقاءات الثكنات العســـكرية كل ذلك له أثره فى تخلى هـــذه الطوائف عما لايفهم من لهجاتها ، ويتجهون بذلك الى لغة عامة •

وقـــد حاول تيمورلنك أن يصنع لغة لجيشه تسهل مهمـــة قواده

---

(١٠٥) المصـــدر السابق ص ٣٣١ ، ٣٣٢ •

ومع فشل تلك المحاولة فانها تدل على احتياج الجيوش الى نظام لغوى مفهوم لدى أوساطها المتباينة (١٠٦) .

وفى اطار هذه الأسباب الداعية الى توحد النظام اللغوى فان العالم العربى قد توفرت له علاقات كثيرة اجتماعية ، ودينية وسياسية وأدبية وثقافية ، وربطت بين أرجائه الاذاعة المسموعة والمرئية والصحافة وسبل المواصلات فبرزت فيه لغة مشتركة تتمثل فى العربية الفصحى التى تضيق هوة الخلاف بين اللهجات الدارجة المنتشرة فيه .

ولا ننسى أن نشير الى أن اللغة المشتركة التى تنشأ عن الأسباب السابقة ونحوها لا تتخلص نهائيا من خصائص اللهجات المحلية بل تبدو آثارها فيها وتنعكس عليها .

ويتجلى هذا الأثر واضحا فى العربية الفصحى المعاصرة واللهجات العامية المتفرعة منها .

وقد أشرنا من قبل الى ما تحويه اللغات المشتركة فى ألمانيا ، وانجلترا وفرنسا من آثار اللهجات المحلية التى شاركت فيها .

(ب) المنافسة بين اللغات :

يتحقق ذلك فى السلم ، والحرب .

ففى السلم :

تتوطد العلاقات بين الشعوب للحاجات الاجتماعية المتعددة فى نواحى الاقتصاد والثقافة والعلوم ، وغيرها من المجالات فيجرى بينها التعاون الزراعى ، والصناعى ، والعلمى ، ونقل المخترعات والمستحدثات

---

(١٠٦) د. نجا : اللهجات العربية ص٢٤ — ٢٦ وانظر د. السعران: اللغة والمجتمع ص ١٧٢ ، ١٧٥ .

وهذا التعاون المتعدد النواحى يقتضى لقاءات متعددة بين أفـراد وجماعات من تلك الشعوب ، وهذا يؤدى الى احتكاك لغاتهم ، وتبادلها التأثر والتأثـير •

فقـد استفادت العربية من الفارسية بعض المفردات والأساليب المتعلقة بمظاهر الحضارة ، والأشياء التى لم تكن موجودة عند العـرب ومن اليونانية بعض مصطلحات الفلسفة والعلوم •

كما أخذت الفارسية من العربية بعض المصطلحات العلمية والدينية وقـد استمدت الأسبانية من العربية كثيرا من المفردات بسبب اقـامة العرب هناك بعد الفتح الاسلامى للأندلس أحقابا طويلة[١٠٧] •

وكلمة الشاى قد انتقلت الى معظم لغـات العالم من لغـة جزر (ماليزيا) التى كانت المصدر الأول لهذه المـادة ، وكذلك كلمة (الطباق) انتقلت الى معظم لغات العالم من لغة السكان الأصليين لأمريكا[١٠٨] •

وفى اللغات الأوربية كلمات مشتركة أصلها ايطالى أو ألمـانى أو انجليزى منها أسماء وحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل : (أمبير Ampere — فولت Volt — أوم Ohm بل نجـد كثيرا من الكلمات الأوربية تنتشر فى لغات غير أوربية كأسماء بعض المخترعات ، والآلات مثل : راديو — تلغراف — تليفون — تليفزيون — سينما — فيلم — بيانو ••• الخ[١٠٩] •

وقد تأخذ العلاقات الودية صورة أخرى تدخل فيها اللغات فى صراع عنيف ، ويتم ذلك بطرق أهمهـا :

---

(١٠٧) أنظر د• السعران : اللغة والمجتمع ص ١٧٧ •

(١٠٨) د• وافى : علم اللغة ص٢٣٢ ، وما تأخذه لغة عن أخرى يخضع للصقل ، والتهذيب ، حتى يجرى على طريقة اللغات المنقول اليها •

(١٠٩) د• السعران : اللغة والمجتمع ص١٧٨ ، ١٧٩ •

١ — أن تنتقـل طوائف من العلمـاء ، أو الصناع ، أو المثقفين ليشاركوا فى نهضة الحياة لدى شعب شقيق أو صديق .

٢ — أن تهاجر جماعات من شعب زاد نمـوه السكانى الى شعب آخـر مجـاور .

وفى هاتين الحالتين يكون التأثر والتأثير عاديا كما ذكرنا من قبل .

وقد يأخذ هذا الاتصال طابع السيطرة ، والنفوذ اذا كان المنتقلون أقوى سلطانا ، أو حضارة ممن نزحوا اليهم ، أو زاد عددهم بدرجـة كبيرة تجعل وجودهم يزداد قوة ، وثباتا ، وتأثيرا فتطغى لغتهم ، وربما تتغلب على اللغة التى تنافسها (فالألمانية امتدت على رقعة واسعة مما يجاورها من المناطق فى أوربا الوسطى : « سويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ » وقضت على لهجاتها الأولى)[١١٠] .

والفرنسية تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لهـا فى بلجيـكا وسويسرا وهكذا فالمنطقة التى توجد فيها العاصمة تتغلب على البـلاد المجاورة لها ، فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى القسم الذى يتحدث الفرنسية فى مقاطعة (والونيا) ولتميز تلك المقاطعة بالنفوذ والسلطان تغلبت اللغـة الفرنسية على الفلامندية (لغـة القسـم الشمالى من بلجيـكا)[١١١] .

والفرنسية فى مقاطعة بريتانيا تغلبت على اللغـة البريتانية شيئا فشيئا ، اذ شاركت فى كل نواحى الحياة الدينية ، والخدمة العسكرية ، والتعليم فى المدارس ، والنواحى الاقتصادية ، ولا يمكن للبريتانية أن تساوى الفرنسية فى القوة ، والثقافة ، والحضارة ، ولذا يمكن التنبـؤ باندثـار البريتانية ولكن ذلك يتوقف على تمسـك البريتانيين بلغتهم ، وتعصبهم لهـا ، وعلى كثرة عدد المتكلمين بهـا[١١٢] .

---

(١١٠) د. وافى : اللغة والمجتمع ص١١٠

(١١١) المصدر السابق ص١١٢ .

(١١٢) فندريس : اللغة ص٣٥٢ — ٣٥٥ بتصرف .

أما اذا كان الأمر بالعكس بأن تفـوق الشعب المنتقل اليه نفـوذا وسلطانا أدى ذلك الى خضوع المهاجرين وربما تلاشى لسانهم الأصلى فى غمار لغـة هذا الشعب الجديد (ففى مستعمرة الكاب كان المهاجرون الفرنسيون من البروتستانت فى سنة ١٦٨٨ يكونون ربع سكان المستعمرة ولمـا كانت الهولندية وحدها هى اللغة المسموح بهـا فى الأمور العامة والسياسية والدينية فقد اختفت الفرنسية بعد مضى قرن واحد(١١٣) .

ويذكر (بلو مفيلد) أن الأسرات الأوربية التى نزحت الى أمريكا ، وأقامت بها اقامة دائمة لا تلبث طويلا حتى تصنع لغـة البيئة الجديدة مشوبة فى أول الأمر ببعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبها ، ثم لا يكاد يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم أو أحفادهم على اللغة الأمريكية ، ذلك لأنها تمثل — فى نظر معظم المهاجرين — اللغة العليا ولأنها اللغة التى تقضى مصالحهم فى البيئة الجديدة ، وتساعدهم على الاندماج وتحسين أحوالهم اجتماعيا ، واقتصاديا)(١١٤) .

وفى الحـرب :

قد يغزو شعب شعبا آخر غزوا عسكريا فتدخل لغتاهما فى صراع يحتدم بينهما أمدا طويلا ، وهذا واضح فى لغـات الشعوب التى اشتركت فى الحرب العالمية الأولى ، فقد استفاد بعضها من مفردات الأخرى نتيجة لطول الاحتكاك ، والاتصال بينهـا .

ومن الممكن أن تنتصر احداهما اذا تهيأت لهـا أسباب النصر .

١ — فتنتصر لغة الغالبين اذا كانوا كثيرى العدد ، أو كانت حضارتهم وثقافتهم أرقى من المغلوبين .

فنزوح الغازى بأعداد كبيرة يؤدى الى القضاء على طابع الشعب

(١١٣) المصدر السابق ص٣٥٠ .

(١١٤) د. أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص١٠٠ ، ١٠١

المغلوب ، وسماته ، ويصحب ذلك سلطان القوة التى تفرض لغة الغازى فى تصريف شئون الدولة ، والادارة ، والعلوم ، والثقافة ، وهذا يؤدى الى انكماش لغـــة الشعب الأصلى ، وتدهورها .

واذا كانت حضارة الشعب الغازى أقـــوى أدى ذلك الى انصراف الشعب المقهور عن لغته ، وهجرها بتقليد اللغة الأرقى .

ومن ذلك أن اللغة العربية انتشرت اثر الفتوحات الواسعة فى آسيا وافريقية ، وتغلبت على كثير من اللغات الأخرى كالقبطية والبربرية .

ومن ذلك — أيضـــا — سيادة الانجليزية فى أمريـــكا الشمالية ، وسيادة الفرنسية فى أنحاء من كندا وفى جزر الجواد لوب والمرتينيك وغيرها وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث حتى اذا كان الغزاة أقل عددا بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضارى والادارى والاقتصادى ساحقا(١١٥) .

ويذكر بلومفيلد أن قلـــة عدد الغزاة قد يؤدى الى انتصار لغـــة المغلوبين عسكريا وسياسيا ، فهؤلاء القلـــة من الغزاة يهضمون بعد زمن مافى البيئة الجديدة غير أنهـــا بعد انتصارها تصبح مثخنة بآثـــار ذلك الصراع المرير ، فلا تكاد اللغة الغازية تندثر أو تزول حتى تكون قد تركت فى اللغة المغزوة جروحـــا أو ندوبا هى فى الحقيقة بعض الصفات التى استعارتها من لغـــة الغزاة .

ومن ذلك النورمانديون الفرنسيون حين غزوا الجـــزر البريطانية واستطاعت الانجليزية — فى النهاية — أن تقهر الفرنسية وتحـــل محلها بعـــد ما أصاب الفرنسية تشـــوه فى أصواتها ، وتجـــديد فى بعض أساليبها)(١١٦) .

---

(١١٥) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص١٢٨

(١١٦) د. أنيس : من أسرار اللغة ص٩٩ ، ١٠٠

وقد تنكمش لغة المغزوين وتنزوى فى ناحية من بيئتها وتتحصن فيها فتعيش اللغتان الغازية والمغزوة جنبا الى جنب كما حدث للغة الكلتية بعد غزو الانجليز السكسون الجزر البريطانية ، فقد حلت الانجليزية محل الكلتية فى بقاع كثيرة من تلك الجزر ولكن الكلتية ظلت حتى الآن سائدة فى بعض جهات « ويلز »(١١٧) .

وقد يتمسك المغلوب بلغته ، ويقف فى وجه الغالب سدا منيعا لا يتزحزح عنها فلا تتمكن لغة الغالب من السيطرة عليها .

فاتجاه الأيرلنديين الى احياء لغتهم الوطنية يعود — كما يقول فنديس — الى بواعث سياسية ، وهى التخلص من لغة الانجليز أعدائهم التقليديين(١١٨) .

ومثل ذلك ما حدث من تمسك الفرس بلغتهم (اذ كان الفتح العربى قد أدخل اللغة العربية الى بلاد فارس حتى أصبح العلم والأدب والسياسة جميعا لا تعرف تعبيرا غير العربية ، وتقلص ظل الفارسية ، فأصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين ، والرعاة ، وصغار التجار والصناع ، ولكن العصبية الشعوبية استيقظت منذ القرن الثالث الهجرى ، وبدأت مع الدويلات الاسلامية الشعوبية التى قامت فى فارس حركة احياء وبعث للغة الفارسية)(١١٩) .

٢ — أما اذا حدث العكس بأن كان المغزوون أكثر حضارة فان لغتهم تبقى صاحبة السلطان ، وربما قهرت لغة الغزاة ، وصرعتها على ألسنة أهلها .

(فارادة الاغريق فى ألا يضحوا لغتهم أمام فاتح يحتقرونه هى

---

(١١٧) د. أنيس : من أسرار اللغة ص١٠٠
(١١٨) فندريس : اللغة ص٣٥٠
(١١٩) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص١٢٨ ، ١٢٩

التى حفظت الاغريقية خلال العصور فلم تستطع التركية يوما أن تحل محلها ، أو حتى أن تنال منها ... فالتركية وهى لغة الفاتحين ليست بأية حال من لغات الحضارة ، وما كانت تستطيع الكفاح ضد الاغريقية التى تمثل ثقافة من أعرق الثقافات)[١٣٠] .

وكما حدث عندما هاجمت القبائل المتبربرة أوربا اللاتينية التى كانت شعوبها أكثر تقدما فى الحضارة ، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية بل تركوا أديانهم الوثنية ، واصطنعوا اللاتينية واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية ، وكذلك التتار بعد اسقاطهم بغداد اعتنق أكثرهم الاسلام وتعلموا اللغة العربية[١٣١] .

وتظهر آثار المنافسة بين اللغتين المتجاورتين ، أو المتصارعتين — عادة — فى المفردات[١٣٢] وقد يحدث تأثير فى النظام الصوتى والصرفى ونحن نعرف أنه كثيرا ما لوحظ فى لغات مختلفة أصلا ومتجاورة جغرافيا وجود خصائص صوتية مشتركة وكذلك الحال بالنسبة للنظام الصرفى فقد انتشرت بعض النواحى الصرفية من الفنلندية الى اللغات الهندية الأوربية الأخرى « السلافية والبلطية »[١٣٣] .

وقد ينسخ نظام الجمل ، وبذلك ينتقل ترتيب الكلمات أحيانا من بعض اللغات الى لغات مجاورة لها ، فالألمانية النمساوية — مثلا —

---

(١٢٠) فندريس : اللغة ص٣٥١

(١٢١) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص١٢٧

(١٢٢) فندريس : اللغة ص٣٥٨ كبعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمكنة ، ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة كما حدث للرومانية حين قضت على معظم لغات أوربا ، وللعربية حين قضت على القبطية فى مصر .

وقد أشرنا الى بعض ذلك فيما سبق ، أنظر : د. أنيس : من أسرار اللغة ص١٠٠ وص١٧٩ ، ١٨٠ من هذا الكتاب .

(١٢٣) فندريس : اللغة ص٣٦١ ، ٣٦٤

تسير على حرية كبيرة فى ترتيب الكلمات ، وذلك تحت تأثير اللغات السلافية [١٢٤] ، وفقدان النحو نتيجة حتمية لصراع اللغات [١٢٥] .

وعندما يقضى على احدى اللغات فان ألفاظا كثيرة تغزوها من اللغة الغالبة وينالها كثير من التحريف فى ألفاظها الأخرى ، ودلالاتها ، ثم لا تلبث القواعد أن تتغير شيئا فشيئا [١٢٦] .

وتترك اللغة المغلوبة آثارها على اللغة الغالبة وكلما طال أمد الصراع [١٢٧] ، وقوى كانت التشوهات أكثر عمقا ، وظهورا ، فقد ضاع من الانجليزية أكثر من نصف ثروتها اللفظية فى صراعها الذى انتصرت فيه على النورماندية الغازية ، واستعاضت عن هذا المفقود من اللغة الغازية المقهورة وأخذت منها كذلك مفردات جديدة ، ومع طول الصراع بين العربية والقبطية والبربرية لم تؤثر تلك اللغات فى العربية تأثيرا قويا ، لأن الصراع لم يكن شديدا ، ولم تكن هناك مقاومة تذكر من اللغات المغلوبة .

ويميل بعض اللغويين الى القول بأن آثار الاحتكاك والصراع بين اللغات تظهر اذا كانت من فصيلة واحدة ، أو من فصيلتين متقاربتين .

أما اذا كانت غير مشتركة فى الأصل فان الآثار الناجمة عن الاحتكاك

---

(١٢٤) فندريس : اللغة ص٣٥٩

(١٢٥) المصدر السابق ص ٣٦٣ .

(١٢٦) د. وافى : اللغة والمجتمع ص١٠٠ وما بعدها .

(١٢٧) يحتاج الصراع الى وقت طويل قد يبلغ أربعة قرون ، فالرومان تغلبوا على وسط أوربا وشرقيها فى القرن الرابع الميلادى ، والعربية لم تتغلب على القبطية والبربرية الا بعد أحقاب طويلة ، بل انها بقيت مستعملة فى أداء الطقوس الدينية ، وبعض اللغات البربرية لا تزال تستعمل حتى العصر الحاضر .

والصراع آثار محدودة لاسيما فيما يتعلق بالبنية ، ونادرا ما تؤثر لغـــة وتتغلب على أخرى ليست من فصيلتها(١٢٨) .

ونتيجة لتجاور اللغات وصراعها قد لا تبقى اللغة الواحدة على حالها بل تتغير ، وربما انقسمت الى لهجات لاتساع الرقعة التى تعيش عليها ، ولاتصالها بلغات أخرى أو انتصارها عليها ، واختلاف البيئات المكانية ، والزمانية ، والثقافات المتعددة التى تتغلب عليها من الشعوب المتكلمة بها ، وانتقالهم من جيل الى جيل كما حدث للعربية فى نمو المتكلمين بها وتغلبهم على المناطق المجاورة فى مصر والشام ، والعراق ، وكما حدث للألمـــانية فى امتدادها على مساحة واسعة فى أوربا الوسطى ، فكل ذلك أدى الى تغلب تلك اللغات على لغات البلاد الأصلية ، ونجـــم عنه تفرق العربية ، والألمـــانية الى لهجـــات .

ولهـــذا القانون خضعت اللغات الانسانية منذ نشأتها الى العصر الحاضر .

تعقيب :

عرضنا فى كلامنا السابق صورة واقعية لمـــا يعرض للغـــة جماعة انسانية ، ورأينا أنها تنشأ تلبية لحاجاتهم الاجتماعية ، ووفقا لظروفهم ، فهى تمثلهم حضاريا وثقافيا وفكريا ، ثم ان ألفاظها المعبرة عن مقصودهم تأخذ الطابع المميز لتلك الجماعة الانسانية ، وتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعرض لهـــم من أحوال جـــديدة قد تطـــرأ عليهم فى انقساماتهم الاجتماعية داخل المنطقة التى يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصالهم بالشعوب الأخرى للتجارة أو الهجرة أو الحـــرب ، أو غيرها من وسائل الاتصال المتعددة ، ويمكن أن تبدو لذلك آثار بعيدة المـــدى فى سلوك اللغـــة ،

(١٢٨) د. وافى : اللغة والمجتمع ص٩٧ — ١١٠ ، ود. السعران : اللغة والمجتمع ص١٧٩ — ١٨١

واتجاهاتها بين الجماعات الانسانية المختلفة وتبدو ملاحظاتنا فى صـــور تعبر عن الجانب الاجتماعى ، وأثره فى السلوك اللغوى ، وهى كما يلى :

أولا : اللغـــة صورة لحياة الأمـــة :

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقاتها بالمجتمع الذى تعيش فيـــه ، بل هى صورة له نابضة بالحياة ، فاذا كان المجتمع متخلفا ظهرت آثار التخلف فى لغته ، فهى متخلفة معه ، واذا كان مجتمعا راقيا بدا الرقى فى لغته كذلك ، فالشعوب البدائية يتكلمون لغـــة مادية لا تعرف الفكر ، أو المعانى الكلية ، انهـــا لا تعرف أكثر من المحسوس لتعبر عنه فالهندى الأحمر فى أمريكا لا يستطيع — فى تعبير لغوى — أن يجد اسما للشجرة دون أن يعرف لونها الأحمر ، أو الأسود فى شجر معين كالبلوط ، وبعض العشائر البدائية لا تسعفها لغتهـــا على التعبير فيلجأون الى الاشارات بأيديهم ، وأرجلهم ، وأعينهم حتى انهم اذا أرادوا التحدث ليلا أوقدوا النار ، ليرى المخاطب حركاتهم ، فيعرف ما يريدون ، وهـــذا اللون من اللغات يقـــل فيه التفرع اللغوى كالاشتقاق ، وغيره مما يعبر عن المعانى المجـــردة •

أما الشعوب الراقية ذوات الثقافة والفكر فتحمل لغاتهـــا سمات حياتها العامة ، والخاصة كاللغات الهندية الأوربية ، واللغات السامية ، التى تستطيع أن تعبر فى صور متعددة ، وعبارات لا تحتاج الى الاشارات كتلك السابقة لهـــا ، بل ان اللغة العربية تجنح الى العقلية والخيـــال ، والتعبير عن الشىء منظورا اليه من جهات متعددة •

فاللغة سجل يعى حضارة الأمة على مدى تاريخها الطويل ، ويمكن — على هذا الأساس — فهـــم طبيعة حياتها ، ومعرفة الكثير عن وجودها الحضـــارى •

فالعربية — فى أول حياتها — كانت تعيش حياة بدوية خالصة فى

صحراء الجزيرة ، ولذا تحمل ألفاظها سمات تلك المرحلة ، فكلمة (الفصاحة) — أخذت — أساسا — من اللبن الفصيح — وهو الذى زال رغـوه — وكلمة (البلاغة) أخذت من البلوغ الى غاية المسير وكلمة (المجـد) أخذت من امتلاء بطن الدابة بالعلف وكلمة (القطار) كانت تطلق على عدد من الابل تسير فى نسق واحـد •

فـاذا درسنا تلك الألفاظ ، وتطوراتها وجدنا أن اللفظين الأولين (الفصاحة والبلاغة) استعملا فيما بعـد لحسن الكلام ، وجودته ، ثم استعملا مصطلحين لاجادة المنطق فى علم البلاغة الذى ظهر بعد وضع قواعد اللغـة ، وعكوف العلماء على دراستها فى عصر يدل على نضـج تفكير الأمة ، وادراكها لقيمة لغتهـا •

وبعد تحضر العرب نقلوا لفظ (المجـد) من معناه القديم ، فأصبح يطلق على امتلاء حياة الشخص ، أو الجماعة بالمعانى النبيلة ، ولمـا تطورت الحياة عند العرب فى العصور الحديثة ، واستخدموا الآلات الصناعية فى نقل البضائع ، والأحياء من بنى الانسان ، وغيرهم من مكان الى آخـر نقلوا اسم آلـة السفر التى كانت للصحراء — وهى (القطار) من الابل للقطار من العربات المعهود الآن •

فلو تتبع الباحث اللغوى دلالات الألفاظ ، واشتقاقاتها ، وتراكيبها اللغوية لعرف تطور الحياة ، والفنون عند الجماعة الناطقة بهـا •

ثانيا : اللغـة تتغير تبعـا لظواهر الاجتماع :

للظواهر اللغوية وتغيرها أثر فى مفردات اللغة ، وتراكيبها •

(أ) أثرهـا فى المفردات :

١ — معانيهـا :

لاريب أن كل جماعة انسانية تضـع الكلمات للأغراض التى تريد التعبير عنها ، فيوضع لفظ لمعنى ، أو لعـدة معان ، ويوضع غيره كذلك لمعـان أخرى وهـكذا •

وتبدأ اللغة بسيطة ، ثم تتطور ، وتتعمق ، فالمعروف أن الطفل عندما يريد أن يدل على حيوان يخاف منه فانه يسميه (هو هو) أو (عــو) أو نحو ذلك مما يطلقه عليه ، ثم بعد أن يميز شيئا فشيئا يستطيع أن يفصل بعض المعانى عن غيرها ، والمسميات عن نظائرها ، فيطلق اللفظ المحدد على ما يريد بدقــة ، وهكذا فالشعوب تطلق الألفاظ على ما تريد حسب طبيعتها رقيــا ، وانحطاطا ، فالألفاظ البدائية محسوسة المعانى ، والراقية ترقى معهــا الأفكار التى تحملها .

وكلمة (الفرج) كانت لكل شق ، ثم خصصت فى الاسلام بما هو معروف عند الانسان ، واللمس كان معروفا فى اتصال شىء بآخر ثم كنى به الاسلام عن الجماع كقوله تعــالى (أو لامستم النســاء)[١٢٩] .

ومن هنــا نلاحظ تطور المعنى تبعــا لتطور الحياة الاجتماعية ، ومتطلباتهــا .

٢ — أصواتها :

لاريب أن الأصوات التى تتألف منهــا الألفاظ صورة لحياة الأمة ، فهى جافية غليظة فى أمة خشنة ذات وعورة تحيا حياتها الأولى فمثــلا : حياة الصحراء تحتاج الى الأصوات العالية ، لأن الخفوت يضيع وســط هذا الفراغ الهائل ، ولذا كانت خشونة الأصوات داعية لوصولها الى من يريد ، وعلى هذا كان العرب الصحراويون يأتون الى النبى ﷺ ، وينادونه بأصواتهم المرتفعة ، فحاول الاسلام أن يرقق منها فى الحواضر — كمكة والمدينــة — حيث العمران ، والمدنية ، والحضارة التى يناسبها خفض الصوت فنبه القادمين على أن الأصوات العالية لا تليق فى مكان لا يحتاج الى علوها قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم

(١٢٩) المائدة : الآية ٦ .

لا تشعرون ، •••••• ان الذين ينادونك من وراء الحجـرات أكثرهم لا يعقلون)[١٣٠] وقال سبحانه (ان أنكر الأصوات لصوت الحمير)[١٣١] •

ونلاحظ فى الحركات أنهـا تأخذ الشكل المناسب لحيـاة البدويين ، والحضريين ، فالحركات القوية — كالضمة — يميل اليها البدويون لناسبتها لحياتهم على حين أن حياة المدنية الرتيبـة الوادعة داعية الى الأصوات الرقيقة ، والحركات المشاكلة لهـا ، كالكسرة — التى قالوا انهـا علامة المؤنث ، وأمارة الرقـة ، وصغر الحجـم •

وكلما انتقل المجتمع من حـال الى حـال تتطور الأصوات اللغوية ، ففى اللهجات العربية الحديثة وجدنا صوت (القاف) العربية يتطور فى القرى الى صوت (الجيم) مثل : (قال) تنطق (جال) وفى المـدن — كالقاهرة وطنطـا — تنطق (همزة) فتصبح (آل) ووجدنا فى القرى (الضحك) — بضم الضـاد — وفى المـدن (الضحك) بكسرها ، لأن الضمة تناسب مجتمع الصلابة ، والخشونة ، على حين أن الكسرة لمجتمع الرقـة ، والحياة الناعمة •

وقد تحدث تبدلات للأصوات عند بعض الناس تبعـا للبيئة التى تصبغ الألفاظ بصبغاتها ، فمثلا نجد فى الصعيد من ينطقون (جاموسة) : داموسة ، ومن يقول هنـاك (لع) بدلا من (لأ) فى مجتمع المدينة ، و (لا) فى العربية الفصحى •

وتبدلات الأصوات أحدثت ثورة عنيفة فى اللغـة العربية ، واللغات الانسانية — بعـامة — وتحتاج دراستها الى جهـود تكشف عن تطورات الألفاظ ، وعلاقاتها ، ومدى تأثرها بالتقدم الحضارى •

وهنـاك أصوات تخفف حتى تتلاشى كأصوات اللين القصـيرة ، والطويلة فى مثـل (عـل ومحمد حضر امبارح) •

---

(١٣٠) الحجرات • الآيتان ٢ ، ٤

(١٣١) لقمان • الآية ١٩

ونلاحظ فى دراسة اللهجات العربية القديمة ، والحديثة ما يفيدنا فى هذا المجـال ، ويلقى ضوءا قويا على حيـاة البداوة ، والحضارة فى عصورها المختلفة .

٣ — حياتها وموتها :

هناك ألفاظ فى اللغة يكتب لهـا أن تعيش ، ويستمر وجودها للحاجة اليهـا ، ولصلاحيتها للتعبير عن مرادهـا ، وذلك مرهون باستمرار مايراد منها ، وقد ينتقل معناها تبعا للحاجة الاجتماعية الا أنها تستمر لصلاحيتها لذلك أيضا ، وقد يموت معناها تبعا للتغيرات الاجتماعية التى تبطل هذا المعنى أو تؤدى الى تغييره فتموت الألفاظ أيضا ، فأسماء كثير من آلات الحرب وغيرها قد بطـل نتيجة لبطلان استعمالها ، وكذلك بعض الألفاظ الخاصة بأجزاء الغنائم فى الجاهلية التى أبطلها الاسـلام مثل المرباع والصفايا وغير ذلك من الألفـاظ .

وفى بعض الأحيان يحيا اللفظ بعد موته ، فقد أحيا الأدباء ، والعلماء فى العصور الحديثة كثيرا من الألفاظ القديمة للحاجة الى معانيها ، وتبعا للمخترعات الصناعية التى تستلزم بعض المصطلحات .

ومن هنا وجدناهم يعيدون الى اللغات كثيرا من الألفاظ المهجورة ، وهذا يضيف جزءا كبيرا من التراث اللغوى كان مهملا ، فيعيد الى اللغة جزءا مفقودا من ثروتها ، وكثير من الألفاظ التى وجدت فى الغرب تسير على هذا الطريق ، وتشمل مصطلحات متعددة فى الصناعات ، والفلسفات والعـلوم .

ولذا نلاحظ أن اللفظ يحيا فى عصر ، ويموت فى عصر آخـر تبعا للنـظم الاقتصادية ، والحياة الاجتماعية فى أطوارها المختلفة ، فلفظ (الاشتراكية) كان معروفا فى اللغة الا أنه لم يدر استعماله بمثل ما دار به فى هذا العصر ، ولفظ التراشق بالنيران لم يكن يلاحظ قبل اندلاع

حرب السويس ، ولفظ (صاحب المعالى) و (صاحب السعادة) كان شائعا قبل الثورة ثم اختفى كل منهما بقيامها .

٤ ـ اضافة ألفاظ جديدة :

تستحدث اللغة بعض الألفاظ للحاجة اليها ، فقد يكون المجتمع بدائيا ، ثم يتطور ، وتكبر معه المخترعات ، وحاجات الحياة ، وقد لا تنهض ألفاظ اللغة بذلك ، فتخترع ألفاظ تستعمل فى هذه النواحى ، والارتجال ظاهرة لغوية فعالة تحدث عنها العلماء ، وقد قال ابن جنى أن العربى الفصيح يرتجل ، ويكون ذلك باحياء ألفاظ قديمة ، أو بالاشتقاق منها ، ويمكن أن تنشأ بعض الألفاظ دون سابق وجود لها ، وهذا يقع فى اللغات الأجنبية . وفى لغتنا العربية ، وفى لهجاتنا العامية كثير من تلك الألفاظ المخترعة تبعا لحاجات الحياة النامية .

٥ ـ اقتراض الألفاظ :

تبعا للعلاقات التى أشرنا اليها بين لغة قوم وآخرين سلمية كانت ، أو حربية فان ألفاظا من لغات الطرفين تنتقل الى كل منهما ، وتستعمل فى التبادل اللغوى ، ويدخل فى ذلك ما يسمى فى العربية بالتعريب ، فاللغة التى تأخذ بعض الألفاظ تحاول اخضاعها لقوانينها الصوتية ، وموازينها البنائية ، حتى تشاكلها ، وتجرى على لسان أربابها ، فبعض الأصوات لا يوجد فى لغة ما ، ويوجد فى غيرها كصوت (P) فى اللغات الهندية الأوربية ، ففى الفارسية مثلا ـ (بندق) عرب الى (فندق) بالفاء و (برند السيف) الى (فرنده) بالفاء أو (برندة) بباء خفيفة .

وقد يحدث اتصال لغة بأخرى عدوانا على نظمها الصوتية ، وطغيانا على ألفاظها ، فتحل ألفاظ من اللغة الغالبة محل نظائرها من ألفاظ اللغة المغلوبة ، ويكثر ذلك فتمزق مجالاتها الصوتية وتستولى عليها ، وتقضى عليها فى النهاية ، ويترك هذا الصراع آثارا فى اللغة

الغالبة ، فتشوه بعض صوتياتها ومفرداتها ، وهذا يتوقف على حـــدة الصراع ، وامتداد زمانه بحيث يتناسب معـــه تناسبا عكسيا •

(ب) أثرهـــا فى التراكيب والقواعـــد :

الزمن ، والصلات بين المجتمعات ، والحياة بمظاهرها المتعددة كفيلة بتغيير الأوضاع اللغوية ، وتراكيبها ، فالرجل البدائى ــ كالطفل ــ لايملك قوة العبارة ، أو سلامتها وسلاستها بل يركبها حسبما يشـــاء له تفكيره الساذج ، وتبدو عليها الهلهلة ، والسقم ، لأن حياته ليست رتيبة ، ولانظام فيها ، وعندما يسمو تفكيره تسمو لغتـــه ، وتصبح دقيقة التعبير متسقة المســـالك •

وتراكيب اللغات عرضة للتغير ، وقواعدها النحوية والصرفية عرضة لذلك أيضا ، يقول بعض الباحثين : ان الأمم القديمة كانت تصنع الجمل فى الوقت الذى تصنع فيه الفكرة التى تحملها ، وهى لذلك محتاجة الى ملاحقـــة الجزئيات ، وأدوات الفصـــل والوصل وأنواع الزوائد التى (تتجاوب مع حركات عقلية جزئية تختلج فى الفكر فى لحظة التعبير على حين أن المتكلم باللغات الحيـــة المعروفة يكـــاد يفرغ من تكوين فكرته داخليا قبل سبكها فى قالب الكلام فيقل فيها ما يشعر بهذا الجهد الداخلى فى بنـــاء الفكرة نفسها)[١٣٢] •

ومن هنا ضاع الاعراب فى اللهجات العامية العربية وفى معـــظم اللغات البشرية كما هو مشاهد الآن •

ويذكر الباحث السابق أن الانتقال من التركيب المعرب الى التركيب الموقوف يعد ظاهرة حتمية فى تطور اللغـــات[١٣٣] •

---

(١٣٢) د • حسن ظاظا : اللسان والانسان ص١٢١ •

(١٣٣) المصدر السابق ١٢٠ •

كذلك الأوزان التصريفية عرضة لهذا التبدل والتغير ، فمثلا (غــار فهو غائر) — من غار على عرضه بمعنى : تمسك بحمايته — يقــال — فى التعبير العامى : (غيران) — على فعلان — خلافا للوزن العربى ، وصياغة المضارع اختلفت طرائقها فى القديم والحديث كما نشاهد فى عامياتنا ، ولغتنــا الفصحى •

كذلك الغزو اللغوى يمكن أن يترك آثارا فى أساليب اللغات فيغير بعضها مثل ما نسمع فى العامية : (هات واحد شاى) وأصله : (أعطنى كوبا من الشاى) — (قابلنى اتنين من الشبان) والتعبير العربى : (قابلنى شـــابان) •

ومثله تسرب بعض الأساليب والتعبيرات الأجنبية الى العربية مثل (ذر الرماد فى العيون) و (لعب دورا هاما) ونحو ذلك مما يمكن تتبعه فى اللغـــات الانسانية •

وهذا اللون من الدراسة يكشف عن المنهج الصحيح لدراسة اللغات الانسانية بتتبع سيرها التاريخى ، وما يحدث فيها من تغيرات فى معانيها وأصواتها وتراكيبها ، وما يفقد منها ، أو تستفيده بعضها من بعض •

ويمكن للباحث أن يدرك كيف يستطيع المجتمع أن يوجه اللغة الى الطريق الذى يسير فيه ، وأن يخضعها لعوامل المحافظة ، والبقـــاء ، أو الانقسام والمـــوت •

ويمكن — على هذا المنهج — أن تدرس اللغة فى ظــل علم الاجتماع وأن تعرف طرائقها الاجتماعية •

فندرس اللغـــة دراسة وصفية تتناول الانسان من حيث نشأته ، وتدرجه فى جماعة معينة ، وأثره فى اللغــة — بجانب جماعته التى ينتمى اليهـــا — فى ضوء العوامل والظواهر الاجتماعية التى تتصل باللغـــة ،

وبسلوك أفــراد الجماعة ، ويدرس المعنى والألفاظ فى ظــلال التاريخ اللغــوى •

وبتناول اللغــة من هذين الجانبين الوصفى والتاريخى يتبين أن اللغة تعد مميزا فرديا ، ومميزا طبقيا ، فيمكن أن تدرس اللغة ، والسياسة — اللغــة والاقتصاد ، — اللغــة والدين ••• الخ ، وعلى اثــر ذلك نستطيع أن ندرك مراحل التطور اللغوى وصلته بالمجتمع ، وآثار احتكاك اللغــات ، واللهجات •

وقد كان علماؤنا القدامى فى دراستهم للغــة يغفلون هذا الجانب المهم — وهو الجانب الاجتماعى — ومن ثم جاءت تفسيراتهم — فى بعض الأحيان — غير سديدة ، ولكن بعض علماء الغرب تبعا للمدرسة الاجتماعية التى أسسها (اميل دوركيم) أدركوا أن اللغة ظاهرة اجتماعية فحاولوا دراستها على هذا الطريق ، وحــذا حذوهم بعض علماء العرب فى العصر الحــديث •

ثانيـا : دلالـة الألفـاظ وتطورهـا

تقـوم اللغة على عنصرين أساسيين همـا : الألفاظ ، والأفكار (أو المعانى) وبينهما ارتباط وثيق بحيث متى عرف اللفظ أمكن فهم معناه ولـذا نلاحظ ثلاثة أمـور :

(أ) الدال : وهو الألفاظ .

(ب) المدلول : وهو الأفكار (أو المعانى) .

(جـ) النسبة : وهى العـلاقة القائمة بين الألفـاظ والأفـكار ونزيدها بيانا فنقـول :

(أ) الدال : وقوامه ما يتلفظ به ـ كما ذكرنا ـ وهو ـ أحيانا ـ يكون لفظا مفردا وأحيانا مجموعة من الألفاظ ركب بعضها مع بعض فى صورة جمـل وعبارات .

وعلماء العرب قد وضحوا لنـا (الكلمة المفردة) وحددوا معالمها فهى : القول أو اللفظ المفرد الموضوع لمعنى[1] أو قول مفرد مستقل أو منتوى فيه فالمستقل مثل محمد ـ جـاء ، والمنتوى فيه مثل فاعل (قـم) وهو الضمير (أنت)[2] .

وهـم يقصدون بكلمة (قول) أنها (لفظ) ولما كان القول (الذى هو كل لفظ) يشمل المفـرد والمركب والتام والناقص (الكلمة الواحدة وما هو أكثر من كلمة) حددت التعريفات مفهوم الكلمة بقولها (مفـرد).

---

(١) أنظر ابن هشام : شرح شذور الذهب ص١٢ وابن عقيل بحاشية الخضرى ١/٧ والأشمونى بحاشية الصبان ١/٦ .

(٢) السيوطى : همع الهوامع ص٣

وقد عاب الدكتور تمام حسان هذه التعريفات بما يأتى :

١ — أنهـا لا تفـرق بين الصوت والحرف أى بين عملية النطق والنظام الذى أجرى عليـه .

٢ — أنها تخلط بين الوظيفة اللغوية ، والمعانى المنطقية والوضعية .

٣ — أنها لا تفرق بين وجـود الكلمة ، وعدمها فى تعريفها ، هـذا ما يؤدى الى الخلط فى التفكير[٣] .

ولذلك عرفها بقـوله :

صيغة ذات وظيفة لغوية معينة فى تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغير موضعها أو يستبدل بهـا غيرها فى السياق ، وترجع فى مادتها — غالبا — الى أصول ثلاثة وقد تلحق بهـا زوائد[٤] .

ويبدو لى أن تعريف الأقدمين لا عيب فيه ، بل هو دقيق تماما وموجز واف بالمعنى المطلوب منه فهـو :

١ — لا يخلط بين القول والكلمة واللفظ ، بل فيه تحديد لهـا ، ولا عيب أن تلتقى معانى الألفاظ الثلاثة لاشتمال الأصوات عليها ، فكل لفظ يمكن أن يطلق عليه قول ، لأن القول هو كل ما يتلفظ به وكل لفظ بهذا المعنى قول ، والكلمة ليست الا لفظا فلا مانع من اطلاق اسم القول عليها ، وهذا لا يعد خلطا بل يعد اشتراكا فى جنس هو جزء التعريف مثل الانسان حيوان ناطق ، حيث يشترك فى لفظ الحيوان مع الانسان سائر الحيوانات ولم يعب ذلك أحد ، والجزء الآخر من التعريف يمنع ما يراد منعـه ، فكلمة (ناطق) تمنع ماعدا الانسان من الدخول فى التعريف ، وقد أضيف الى تعريف الكلمة ما منع غيرها من الدخول معها وهو (مفـرد) فكلمة (مفـرد) أخرجت المركبات سواء كانت تامة أو ناقصة .

---

(٣) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص٢٢٦

(٤) المصدر السابق ص٢٣٢ .

٢ — فيما يبدو لى أنه لا يصح ادخال الوظيفة اللغوية فى تعريف أجزاء اللغـــة ، وهذا غير موجود فى تعريف الأقدمين ؛ بل هو موجود فى تعريف الدكتور نفسه وبالرجوع اليه يمكن فهم ما أقـــول •

٣ — ليس هناك خلط فى التفكير بالاشارة الى الكلمات المضمرة ، مثل : أنت فى (قـــم) بل هذا مجـــرد تلميح الى أن الكلمة تارة تكون واضحة مرئية ، وأخرى مستترة قياسا على وجودها الخارجى •

وقد عرف مييه(٥) الكلمة بأنها ربط معنى ما بمجموعة ما من الأصوات صالحة لاستعمال جراماطيقى(٦) •

وهذا التعريف صالح للمورفيمات ، وللجمل ، وأجزاء الجمل أيضا •

وعند جاردنر(٧) : « أن الكلمات ذات وجهين فى طبيعتها ؛ فوجه هو المعنى ، ووجه آخـــر هو الصوت ؛ وحيث تكـــون الكلمات فى ملك كل شخص تكون من ناحيته جواهر طبيعية مكونة من منطقة المعنى من جهة ، ومن صورة صوت معين من جهة أخرى ، هذا الصوت صالح لأن يعـــاد نطقه بالارادة ؛ والكلمات فى حقيقتها نفسية ، وهى مواد للمعرفة والتكلم مع أنها فى أحـــد جانبى طبيعتها تشير الى حدث عضوى تمكن اعادته بحسب الارادة » •

والتعريف الأول للكلمة شامل لهـــا ولغيرها والثانى يدخلها فى عالم الفلسفة وعلم النفس « وليس الباحث اللغوى بحاجة الى أن يبنى أفكاره على أسس غريبة عن منهج اللغـــة ••• لاحظ فى تعريف جاردنر استعمال

---

(٥) عالم لغوى فرنسى •

(٦) د• تمام : مناهج البحث فى اللغة ص٢٢٧ ، ٢٢٨ وفندريس : اللغة ص١٢٤ •

(٧) عالم لغوى انجليزى •

كلمات : الحقيقة — الطبيعة — الملك — المعرفة — التكلم — النفس »[٨] .

ويلاحظ الدكتور تمام أن تعريف الكلمة لا يمكن اتحاده فى جميع اللغات ، بل لكل منها تعريف يستمد من طبيعتها ووسائلها الخاصة فى التركيب كما يقول فندريس[٩] .

ولكن يبدو لنا أن الكلمة التى هى وحدة لغوية تدل على معنى من المعانى لا تختلف بهذا التحديد من لغة الى أخرى ، فلا مانع من وضع تعريف شامل لها ، فهذا لا صلة له بطرق البناء الصرفى أو غيره من خصائص اللغات .

وأعتقد أن تعريف الكلمة العربية واف بالغرض المقصود ، وان كان التحديد الصوتى الحديث يتطلب صوغه فى قالب جديد كهذا القالب الذى رآه الدكتور تمام .

وبعض المشتغلين بالدراسات الصوتية من المحدثين يرون أن الكلمة المفردة لا يمكن تصورها ، لأن اللغة كلام تتداخل أصواته فى جمل وتراكيب يتعذر الفصل بين حدود أجزائها بدقة .

ولكن هذا الرأى — كما يبدو — غير دقيق ، لأن اللفظ المفرد يمكن أن يحدد له اطار صوتى واضح منفصل عن غيره ، ولا عبرة بحالة وصل الكلام بعضه ببعض ، فان الحقيقة التى لا يمكن انكارها أن هذا الكلام المتصل مركب من وحدات صوتية تمثل كل منها مجموعة من الأصوات المتناسقة يسهل تحديد اطارها الخاص ، ولذا فان جماعة من الباحثين — أخيرا — استطاعوا — على هذا الأساس — أن يضعوا لها تحديدا

---

(٨) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص٢٢٧ ، ٢٢٨ وأنظر فندريس : اللغة ص١٢٤

(٩) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص٢٢٥ وأنظر فندريس : اللغة ص١٢٤

مناسبا فقالوا : انه « يمكن أن تتبين معالم الكلمة أو حدودها وذلك بأن يمكن افرادها بالنطق وحذفها من الكلام أو اقحامها فيه أو الاستعاضة عنهـا بأخرى »[١٠] .

وهذا يتفق مع ما ذكره علماؤنا القدماء .

أما مجموعة الألفـاظ ، فهى تلك الجمل التى تتألف من الوحدات الصغيرة التى هى الكلمات المفردة ، وتدل على المعانى المرادة منها حسب اصطلاح الأمة صاحبة اللغـة[١١] .

(ب) المدلول : هـو المعنى أو الفكرة التى يحملهـا القالب اللفظى بوضع الواضع ، أو غير ذلك من سياقات الاستعمال اللغوى ، فالألفاظ المختزنة فى أذهان الجماعة قد ارتبطت بمعان خاصة لهـا تعرف — غالبا — بالرجوع الى قواميس اللغـة .

وأحيانا تطرأ على المتكلم أو السامع نواح اجتماعية ، أو أحداث نفسية تجعل الألفاظ تنصرف عن معانيها القاموسية ، وتحمل على معان جديدة باصطلاح المتكلم والسامع وتأثير الملابسات التى تحيط بالموقف الـكلامى .

ولذا فان الاقتصار على معرفة المعانى من القواميس لا يجدى الجدا المعقول فى كل الأحيان بل لابد — مع ذلك — من مراعاة حال المتكلم ، والسامع والحدث موضوع الكلام .

(جـ) النسبة : وهى العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعانى التى تدل عليها ، وتتوقف بمقدار كبير على حالات الكلام ، وأوضاعه اللغوية وعلاقة كل من المتكلم والسامع بموضوع الحديث كما ذكرنا فى بيان المدلول .

---

(١٠) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص٤٣ ، وأنظر ما قاله الدكتور تمام فى تعريف الكلمة .

(١١) هى ما يسمى فى عرف النحويين بالكلام . انظر سيبويه : الكتاب ٦٢/١ وابن جنى : الخصائص ١٧/١ .

وعلاقة اللفظ بالمعنى — على هذه الصورة — تتسم بالتعقيد ، فالمعانى — كما نقلت عن القدماء — لا تستقر على حال بل يمكن لهـا أن تختلف تبعـا للمواقف اللغوية المتعددة وعلاقة المتكلم والسامع وتغير النواحى الاجتماعية من آن لآخر سواء فى ذلك الأفراد والجماعات والأمم مما يقتضى التغيير ، والتبديل ، فقد يموت معنى اللفظ ، ويحل محله معنى جديد ، وقد ينحرف وقد يقتصر على جانب من جوانب المعنى القديم ، أو يتسع فيشمل القديم وزيادة تتطلبها المواقع الجديدة وقد يحدث غير ذلك من أمور لا يمكن التنبؤ بهـا جميعها .

وهناك جوانب أخرى تؤثر فى المعنى كأصوات الكلمات واشتقاق بعضها من بعض بصور معروفة فى علم البنية ، وطرائق التعبير الخاصة بنظـام القواعد .

ومن أجـل ذلك كله خص الباحثون المعنى باهتمام واسـع فى دراساتهم وأفردوه بعـلم خاص سموه (عـلم الدلالة) semantique

واتضح لهـم أن لهذا العـلم صلة بعلوم النفس ، والاجتماع ، والتاريخ ، والجغرافية وغيرها مما يبدو أثره فى التغيرات المعنوية .

وقد أشرنا فى نشأة عـلم الدلالة الى منشئه ومن شاركوا فيه من المتخصصين فى العلوم والفنون المختلفة ، وتفصيل فروعه المتعددة[١٢] .

مكونات الدلالة الأساسـية

تقوم الدلالة على أسس أهمها :

١ — اللفظ المفرد ، وأنواع أصواته ، وارتباطه بمعناه .

٢ — تولد ألفاظ جديدة من الأصل الواحد ، وارتباطها بمعانيها .

---

(١٢) انظر ص١٠٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

٣ ـ صلة الـكلمة بغيرها فى العبارات ، والتراكيب ، اذ لاغنى لها عن نظائرها ، وأخواتها ، ولا يفهم معنى اللفظ بغير جمـلة يسلك فيها فاللغة كلام مترابط قبل أن تكون كلمات متناثرة •

ولذا قسم الباحثون الدلالة أربعة أنواع : معجمية ، وصوتية ، وصرفية ، ونحوية •

١ ـ الدلالة المعجمية :

هى الدلالة التى وضعها الأسلاف للألفاظ المختلفة ، وتكفلت ببيانها قواميس اللغـة حسب ما ارتضته الجماعة واصطلحت عليه ، وتستعمل فى الحيـاة اليومية بعد تعلمها بالتلقين والسماع ، والقراءة والاطلاع على آثار السابقين الأدبيـة شعرا ونثرا ، ويتطلب هذا التعليم زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه [١٣] •

وقـد جمع العرب تراثهم فيما يسمى بالمعـاجم اللغوية ، فى اطار مرحلة لغوية معينة هى عصر قوة اللغة العربية ، وتمثل حياة العرب وعاداتهم وأخلاقهم وآثارهم ، وكل ما مر بهم من أحوال فى ابانها •

وهى تحمل الطابع الأصيل للألفاظ ودلالاتها قبل أن يختلط العرب بغيرهم ، وتمتد يد الاعوجاج الى لسانهم [١٤] •

بيد أنها تفسر الألفاظ دون ملاحظة ما اعتورها من تغير فى الفترة

---

(١٣) د• أنيس : دلالة الألفاظ ص ٤٩ •

(١٤) على أنها لم تنس الاشارة الى بعض الكلمات التى دخلت العربية من اللغـات الأجنبية ، والـكلمات المصنوعة ، والمولدة للاستفادة منهـا أو تحاشيها •

التى سبقت جمعها ، فهى لاتشير الى تطور المعانى ، والاستعمالات(١٥)
كما أنها لا تنسب المعانى — فى كثير من الأحيان — الى الناطقين بها
ففات الباحث كثير من النتائج العلمية فى مجال تطور المعنى ، وانتقاله

وهذه الدلالة عرضة للتغير ، بل انها تغيرت حقا بعد عصر تدوين اللغة نتيجة اختلاف حياة الأجيال المتعاقبة ، وما جد من مستحدثات وأمور تقتضى التغيير ، وقد لاحظنا حدوث ذلك فى العصرين الاسلامى والعباسى .

ومن أمثلته تغير مدلول ألفاظ الصلاة والزكاة ، والخليفة ، والسلطان ، والديوان وغيرها .

ولما زاد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأجنبية امتد التغير امتدادا كبيرا الى المعانى القاموسية كما فى كلمات « شنب » و « طويل اليد » و « بطح » (١٦) .

---

(١٥) هذا مايعرف فى علم اللغة بالايتمولوجيا وهو اللون الدراسى الذى يتناول (توضيح معانى الكلمة فى المراحل التاريخية المتعاقبة بأن يقول : ان هذه الكلمة كانت فى القرن الفلانى كذا وأصبحت فيما بعد كذا ثم آلت الى كذا ... وليس فى اللغة العربية فى الوقت الحاضر أثر لمثل هذه الدراسات على نفعها وقيمتها فى دراسة المفردات وتواريخ النصوص ولعل المستقبل كفيل بسد هذا النقص) (د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٣٥ ، ٢٣٦) .

(١٦) الشنب — فى أصل المعنى القاموسى : البياض والبريق والتحديد فى الأسنان . « اللسان ١/٤٨٨ ، ٤٨٩ » وقد تطور الآن الى مايعرفه للرجال وطويل اليد : فى القاموس من تمتد يده بالعطاء ، وهى صفة كريمة، ولذا قال صلى الله عليه وسلم لأزواجه : « أولكن لحوقا بى أطولكن يدا » أراد : أمدكن يدا بالعطاء « ابن منظور : اللسان ١٣/٤٤٠ » وهو الآن بمعنى اللص وطول اليد بمعنى السرقة .
ويقال : « بطحه » بسطه ممتدا على الأرض . « ابن منظور : اللسان ٣/٢٣٦ » ومعناه الآن : عوره .

ولعل ذلك ناشىء عن نسيان المعـانى الأصلية لبعض الـكلمات ، وتحريف معانى بعضها الآخر ، وتتطور الدلالة المعجمية لأسباب كثيرة نذكرها فيما بعـد .

وما يصدق على العربية يصدق على غيرها من اللغـات ، فالألفاظ فى اللغات المختلفة ترتبط بمعانيها حسب الواضع القديم لها ، ثم تتطور على مر العصور ، لانتقالها بين الأجيال ، واختلاف الأحوال المتعاقبة عليهـا .

٣ — الدلالة الصوتيـة :

هى مايكون بين أصـوات بعض الـكلمات ، وطرائق نطقها وبين معانيها من ارتبـاط .

فقد اكتشف بعض العلماء فى طائفـة من الألفاظ العربية صلة بين ألفاظها ومعانيها فبينوا أن العـربى كان يربط بين الصـوت والمعنى ، فيجعلهما متشابهين فيدل على المعنى الضعيف بأصـوات ضعيفة وعلى المعنى القوى بأصوات قوية ومن ذلك كلمتـا (النضح) و (النضخ) فـكلاهما لسيلان المـاء ونحوه الا أن الأول سيلان ضعيف فناسبته الحاء الرقيقة والثانى سيلان قوى فناسبته الخاء الغليظة .

ومثلهما (سد) و (صد) فكلاهما لمعنى الحاجز الا أن الأول لسد الباب ونحوه وهو ضعيف فاستخدم له السين الضعيفة والثانى لجانب الجبل وهو قوى ، فاستخدم له الصاد القوية .

وهكذا جعل العربى الصوت فى مقابل المعنى المناسب له ، وتمتد المناسبة من الحرف الواحد الى حرفين والى جميع حروف الـكلمة .

وبدت المناسبة — كما رأى بعض البـاحثين — فى بعض الصيغ اللغوية كالمضعف بنوعيه الثلاثى والرباعى مما كان حكاية للأصـوات

مثل صر الجندب وصرصر البازى ؛ وكالمصادر التى تتابعت حركاتهـا كالفعلان مثل الغليان والدوران ونحو ذلك [١٧] .

وللنبر والتنغيم أيضا علاقة بالمعنى وذلك وان لم يتضح فى العربية الفصحى — لعدم اكتمال دراسته فيها — فانه يظهر كثيرا فى العاميات .

ومن أمثلته (محمد جــه) فهذه الجملة تستعمل استفهاما أو اخبارا حسب اختلاف موقع النبر والتنغيم ، وقولك لشخص « رائع جدا » على سبيل التهكم بنغمة خاصة وعلى سبيل المدح بنغمة أخرى .

وتعتمد بعض اللغات على النبر والتنغيم فى بيان المعانى كالصينية والانجليزية فى بعض الأحيان فالكلمة الواحدة قد تكون اسما أو فعــلا تبعا للمقطع المنبور[١٨] .

فالصوت يرتبط بالمعنى ، وطريقة الأداء لها دخل فى التعبير عنه وهذا وان كان خاصا ببعض الألفاظ وطرق أدائها فان له أهمية فى كشف جانب حيوى من جوانب دلالة الألفاظ .

٣ — الدلالة الصرفية :

تلعب طرائق البنية ، واشتقاق الصيغ اللغوية دورا كبيرا فى الدلالة على المعنى .

فصيغ الأفعال — بأنواعها المــاضى والمضارع والأمر — تدل على الحــدث وزمنه ، وما يتصل بهذه الأفعال من حروف الزيادة والتوكيد

---

(١٧) انظر كتابنا « اللغــة العربية خصائصها وسماتها » ص١٠١ وما بعــدها .

(١٨) د. أنيس : الأصـــوات اللغوية ص ١٩٥ وانظر حديثنــا عن النبر فى كتابنا « أبنيــة العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى » ص١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٩ وما بعدها .

واللواحق الأخرى وما يدخلها من التضعيف وغيره كل ذلك له أثر فى توجيه المعنى .

فمثلا : تزاد الهمزة — فى أولها — للتعدية كأكرمت محمدا ، وللدلالة على حلول وقت الشىء كأحصد الزرع[١٩] والدخول فى زمن أو مكان كأمسى وأتهم[٢٠] وللازالة كأشكيته وأعجمته [٢١] الى غير ذلك .

وتضعيف العين — مثلا — يفيد قوة الحدث وكثرته كقولهم : قطع وكسر — بتشديد الطاء والسين — واعشوشب المكان واخضوضر الزرع ونحوهما .

وصيغ الأسماء تحمل العديد من المعانى التى تتنوع بتنوعها كأسماء الفاعلين ، والمفعولين ، وصيغ المبالغة ، وأسماء الزمان والمكان والتصغير والنسب ، والجموع ، فلكل منهـا معنى يؤديه .

وتظهر المعانى بالرجوع الى كتب الصرف والأبنية التى تذكر معانى الصيغ اللغوية التى بلغت حـدا كبيرا نيف — فى صيغ الأسماء وحدها — على الألف كما ذكر ابن القطاع فى كتابه (الأبنية) .

وقد اهتم بهـا علماء اللغة لصلتها الوثيقة بالمعنى ..

٤ — الدلالة النحوية :

تؤثر أنمـاط التركيب النحوى فى أداء المعنى ، فترتيب الكلمات والعبارات محكوم بقواعد ، ونظم تختلف من لغة لأخرى ، ففى العربية طرائق خاصة لتركيب الجمل ، وفيها المواقع الاعرابية المتعددة للألفـاظ ولاسيما الأسماء التى تقع فاعلة ، ومفعولة ومضافة ومضافا اليها وتكثر أغراض المتكلمين بهـا .

---

(١٩) حان وقت حصـاده .
(٢٠) دخل فى المساء وتهامه .
(٢١) أزلت شكواه وعجمته .

فاذا قلنا (دراسة ظاهرة المعنى ذات أهمية قصوى فى البحث اللغوى) فهذه جملة لها معنى خاص ، فاذا تغير ترتيب الكلمات فيها فقلنا (ظاهرة دراسة أهمية فى البحث قصوى اللغوى المعنى) لأدى ذلك الى فساد المعنى (٢٢) .

ولذا يشترط علماء النحو أن يجرى ترتيب الكلمات حسب ما رسموه من قواعد ، فلا يخل المتكلم بشيء منها ، حتى لا يؤدى الى غموض عباراته أو فساد تركيبه ، وقد عولجت صلاحية التراكيب وسقمها فى (علم البلاغة) الذى وضع القوانين الضابطة لذلك ، وعلى أساسها ثبتت ركاكة العبارة وسوء التركيب فى قول الفرزدق يمدح ابراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك .

وما مثله فى الناس الا مملكا ... أبو أمه حى أبوه يقاربه

فأدى تعقيد اللفظ بتغيير مواقع الكلمات الى غموض المعنى وأصل التركيب : وما مثله (أى مثل الممدوح) حى يقاربه فى الناس الا مملكا (أى ملكا) « أبو أمه أبوه » يقصد أنه لا يشبه الممدوح الا ابن أخته الخليفة هشام بن عبد الملك .

والمواقع الاعرابية مهمة لبيان المعنى وتوضيحه : فالجملة (أكرم محمد عليا) لها معنى خاص ، فاذا تغير حكمها النحوى بأن جعل الفاعل مفعولا والمفعول فاعلا فقيل : (أكرم على محمدا) كان المعنى مختلفا تماما .

وان الاعراب هو الذى جعل المعنى يختلف اختلافا كبيرا فى هذه العبارات :

---

(٢٢) وترتيب الكلمات فى العامية له أيضا تأثير فى افادة المعنى فنقول — مثلا — « فين كتاب محمد » أو « كتاب محمد فين » ولا يجوز « فين محمد كتاب » ولا « كتاب فين محمد » فذلك كله يفسد المعنى .

ما أحسن محمدا — بفتح نون أحسن ونصب محمدا ، على سبيل التعجب — وما أحسن محمد ؟ — بضم نون أحسن واضافته الى محمد — وما أحسن محمد — بفتح نون أحسن وجعل محمد فاعــلا .

وكذلك : هذا طالبا أحسن منه عاملا — بضــم نون أحسن ونصب « طالبا » — وهذا طالب أحسن منه عامل — بضم نون أحسن ورفــع « طالب » و « عامل » .

و : كم كتابا قرأت ؟ بنصب « كتابا » — وكم كتاب قرأت — بجــر « كتــاب » .

وهناك القواعد العديدة التى تضمنتها كتب النحو تجب مراعاتها حتى يكون المراد دقيقــا وواضحا .

فمن ذلك نرى أن القــواعد صارمة فى بيان المراد تبعــا لمقاييس الأساليب اللغوية العربية ، فالقاعدة النحوية تؤدى الى توجيه المعنى فى اطارها ، ومخالفتها تؤدى الى فساد المعنى أو غموضه .

وما ثبت للعربية يثبت لسواها من اللغــات .

وهــذه الدلالات — بأنواعها — كانت مألوفة لدى السابقين ، ثم تحولت — بمضى الوقت — الى قوانين يجب تعلمها ، واكتسابها ، بالنسبة للأجيال التى تتابعت بعدهم .

ولم تثبت هذه الدلالات على حــال واحدة ، وتشهد لذلك مظاهر اختلافها فى لهجاتنا الدارجة ففيها تبدلت بعض المعانى المعجمية ، أو انحرفت ، وتلاشى كثير من دلالات الأصوات ، وتغيرت صــيغ صرفية متعددة ، وأهملت خصائص التركيب النحوى ، واعتمدت العاميات على مبادىء أخرى مشوهة فى التعبير عن مراد المتكلمين .

وكثير من تلك التطورات نشأ من اختلاط العرب بغيرهم من الأمم منذ اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وتأثرت العربية بكثير من اللغات التى اتصلت بهـا من جراء ذلك .

وما حدث للعربية حدث لغيرها من اللغات فلم تكد تستقر فيها مظاهر الدلالة ، بل تغيرت وتشعبت ويقال ان الانجليزية تتغير كل قرن تقريبا بحيث تختلف صورتها الحديثة عنها فى صورتها القديمة حتى ليعسر على المحدثين من الأجيال فهم لغـة الانجليز السابقين(٢٣) .

وقد اخترعت ألفاظ عديدة فى اللغات ، وتولدت صيغ واستعمالات لم تكن من قبـل .

واقتضى ذلك من الباحثين دراسـة الدلالة ومظاهر تطورها وكل ما يتعلق بها ، وكان لحديثهم ثلاثة اتجاهات :

الأول : الاتجـاه التعليمى .

الثانى : الاتجـاه التاريخى .

الثالث : الاتجـاه المقـارن :

وقد بينـا ذلك فيما سبق(٢٤) .

---

(٢٣) فاذا ذهبنـا فى الانجليزية الى عهد تشوسر وجدنا أن الانجليزى فى العصر الحديث لايكاد يفهم أو يعى مايقوله هـذا الشـاعر الـكبير . أنظر د. أنيس : طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ص ٩ — ١١ .

(٢٤) أنظر ص١٠٧ — ١٠٩ من هذا الكتاب .

التطـــور الدلالي

المعنى بين الثبات والتغير :

التفكير الانساني ، والألفاظ التي تحمـله ، وتعبر به عن أغراض المجتمع ظاهرة اجتماعية — كما ذكرنا مرارا — فلابد من خضوعها للتطور، والتغير ، وهذه سنة الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

واذا كانت الألفاظ هي المعبرة عن الأفكار ، فلا شك أنهـا تتطور بتطورها ، وتتأثر بعوامل التغيير فيهـا .

ومن هنا حاول العلماء أن يدرسوا الدور الذي تلعبه اللغة ، والرموز في الحياة الانسانية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفكر(٢٥) .

ويهمنا — في هذا المجال — أن نسير مع تطور المعنى لأهميته ، اذ يعطينا صورة من الاجتماع الانساني لشعب من الشعوب ، ويدلنا على تدرج أفكـاره .

وبدراسة تغير المعنى (يمكننا أن نتصور علما لسيكولوجية الشعوب يقوم على اعتبار التغييرات المختلفة التي تشاهد في اللغات التي يتكلمونها خاصة بالمعنى ، وقد تكون هذه الدراسة مضنية ، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عنـاء ، ويمكن أن نصل في النهاية الى أن نكشف عند جميـع الشعوب اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب هي ميول العقل الانساني نفسه ، وقد نصل — أيضـا — الى اقامة الحدود ، وتحديد بعض دقيق الفروق ، فأغلب الظن — مثـلا — أن تكشف لنـا المفردات الانجليزية عن احترام للأشياء الدينية ، وللاشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم ، أكثر مما نجد منها في مفردات الفرنسية ، وقد تطلعنا هـذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانيين ، والفرنسيين)(٢٦) .

(واذا كان في وسـع التغيرات المعنوية أن تعرفنا بالسيكولوجية

---

(٢٥) د. اتمام : مناهج البحث في اللغـة ص ٢٤٧ .

(٢٦) فندريس : اللغـة ص ٢٦٦ .

فانها ليست أقل قدرة على تعريفنا بظروف الشعوب الاجتماعية)[٣٧] •

والألفاظ — فى مبدأ أمرها — ليست الا جثثا هامدة يبعث المتكلم فيها الحياة[٣٨] متأثرا بمجتمعه ، وعوامله النفسية فالكلمات لا تدل بنفسها على شىء ، ولكن المفكر يستعملها فيصبح لهـــا معنى ، اذ يتخذها أدوات، وبجانب الناحية الفكرية يوجد أيضا جانب عاطفى لا يمكن التقليل من شـــأنه)[٣٩] •

وقد أجريت تجارب لايضاح أثر الكلمات فى العقل ، فأسفرت عن أنواع متعددة من الآثار اللغوية ، ودلت — كذلك — على اتجاه الأشخاص فى عقلياتهم •

١ — فكان منهم الحرفيون الذين تسبح اللغة ، وكلماتها فى أذهانهم كما تسبح فى صفحات المعاجم ، فالكلمة تخطـــر ببالهم ، تعريفها ، أو مرادفها أو ضدها ، أو نحـــو ذلك •

وهذا النوع من الأشخاص يميلون الى التدقيق فى تخير الألفاظ ، وفى استخدامها على أساس ما يعرفون من هذه المعانى الحرفية المعجمية،

٢ — ومنهم النوع الحسى فى تفكيره ، وهؤلاء يعتبرون الكلمات كالسلع ، أو كالعملة النقدية تستخدم فى التبادل السريع ، وتتحول الى صور ذهنية ، أو حســية •

٣ — ومنهم نوع تكون الكلمات عنده نبرات لها أصوات ، وأشكال ، وهجـــاء خاص يتكون من حروف •

كل هذا يدل على أن أثر اللغة فى أذهان القارئين ، أو المستمعين

---

(٢٧) المصـــدر السابق ص ٢٦٨ •

(٢٨) المصـــدر الســـابق ص ١٨٥ ، د• أنيس من أسرار اللغـــة ط ١٩٥١ ص ٦ •

(٢٩) د• اتمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٧ •

لا يسير على منهج واحد ، وقد يجيء مخالفا ، مخالفة قليلة ، أو كثيرة لما فى ذهن الكاتب ، أو المتكلم[٣٠] .

وأن الواضع الأول يستعمل اللفظ فى معنى خاص ، وهذا المعنى لا يثبت ، مادام شأن الحياة التغير ، فقد يحتاج — مع مرور الأيام — الى تطور معناه بالاتساع — بحيث يدل على ماهو أشمل — أو الضيق — بحيث ينكمش فى دائرة أقل من الأولى دلالة — وقد ينتقل الى معنى آخر ، وقد تتعدد للفظ الواحد معان كثيرة تتأرجح بين الوجود ، والعدم فيموت معنى ، ويولد معنى آخر ، وقد يحيا القديم ، ويموت الجديد ، وقد يموت اللفظ نفسه ، أو ينحرف ، وهكذا من صنوف التبدلات والتغيرات .

وقد حاول بعض العلماء أن يبين الطريق التى يسلكها المعنى فى تطوره وانتقاله فيقول :

ان المعانى الجديدة لها أربع مراحل :

١ — ورود معنى جديد فى موضع خاص .

٢ — مرحلة انتقالية من تكرر الورود ، والارتباط بين الصيغة والمعنى .

٣ — ظهور معنى جديد مستقل فى مواضع مختلفة .

٤ — امكان قطع الصلة بين المعنيين القديم والجديد ، وهذا لايحدث — بالطبع — الا بقرار من (ملايين) المتكلمين ، وبالانتفاع بعوامل مثبتة للمعنى الجديد هى القوة العاطفية[٣١] .

وقال بعض المحدثين : ان اللفظ الواحد قد تتعدد معانيه ، الا أن أحد المعانى لابد أن يطغى — غالبا — على ماعداه ، وهو الذى يعين معنى

---

(٣٠) عبد الحميد حسن : الأصول الفنية للأدب ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٣١) د. اتمام : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٢ .

الكلمة الأساسى على النحو الذى يسجل عليه فى القاموس[٣٢] .

فاذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان أو أكثر ولم يكن فى الامكان تداخلهما فمعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين [٣٣] .

ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقا ، فهو محوط بمعان ثانوية تتحفز دائما للظهور عليه ، واحتـلال مكانه ، والمعنى الجديد ينمو شيئا فشيئا ، ويحل نفسه محـل القديم كما يمتص فرع الشجرة العصير الى أن يذوى الجذع الأساسى ، وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها[٣٤] .

ويمكن أن نشرح ذلك بما ذكره الدكتور تمام حسان عن كلمة Board فقد كان معناها المركزى — فى الانجليزية القديمة — لوحة خشبية ، وكان لهـا بعض المعانى الخاصة الأخرى ، وكان أحـد المعانى الخاصة لهـا

---

(٣٢) فـكلمة « العين » فى اللغـة العربية لها عدة معان ، أولها « الباصرة » — وهو المعنى الغالب — وباقيها يرجع اليها على طريق التشبيه والمجاز . أنظر السيوطى : المزهر ط الأولى ١/١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٣) مثـال ذلك — فى الفرنسـية — illoueunemaison (يؤجر بيتـا) و illouelavertu (يمتدح الفضيلة) فالفعل المستعمل فى الجملتين فى كلا المعنيين « يؤجر ويمتدح » واحد هو Loue ولكن العالم الاشتقاقى يرى اختلافه فى أصل الاشتقاق ، فالفعل بمعنى « يؤجر » أخذ من الـكلمة اللاتينيـة (Locare « يستأجر » أو « يؤجر ») وبمعنى (يمتدح) من الـكلمة اللاتينية (Laudare « يمتدح ») ثم اجتمعا — على طريق المصادفة فى مجموعة واحدة من الأصوات . (أنظر اللغة لفندريس ص ٢٢٧) .

ومثال ذلك — فى العربية — وجد « يجىء ماضيا من الوجدان » بمعنى العلم بالشىء ، والعثور عليه ، فيقال : وجدت الضالة اذا عثرت عليها ، ووجدت زيدا كريما اذا علمته كذلك ، ومن الموجدة بمعنى الغضب ، فيقال : وجدت عليه : اذا غضبت ، ومن الوجد بمعنى الحب الشديد ، فيقال : وجـد به وجدا اذا هويه ، وتفانى فى حبه » (انظر السيوطى : المزهر ط الأولى ١/١٨٧ ، ود. وافى : فقه اللغة ص ١٨٥) .

(٣٤) فنـدريس : اللغـة ص ٢٥٤ .

« درع » وقد بطـــل هذا بطلانا تاما ، وكان من هذه المعانى — أيضـــا — جانب السفينة ، وقد أدى هذا المعنى الأخير الى بعض الصيغ المنعزلة .

ou board a ship
a board a ship
to board a ship

وقد توسع فى هذه الصيغ ، حتى استعملت مع المركبات الأخرى كعربات السكة الحديد ، والسيارات[٣٥] .

ويلاحظ فى انتقال المعنى وجـــود علاقة — غالبـــا — بين المعنى الأصلى ، والمعنى المنتقل اليـــه ، وقد توضع الكلمة لمصطلح علمى يعتمد على علاقة ما .

(ويمكننا أن نتنبأ بنشوء علم دلالة عـــام وذلك بتركيز المعلومات المنتقاة من كل لغـــة عن تغيرات المعنى فيسمح لنا هذا العلم بارجاع تلك التغيرات الى بضع قواعد لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن بل من وجهة نظر سيكولوجية وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التى تعبر عنهـــا الكلمات لا من الكلمات نفسها)[٣٦] .

أنـــواع التطـــور الدلالى

يعترى اللغات نوعان من التطـــور .

الأول :

التطور العام أو التلقائى : وهو التطور الذى يلحق اللغة دون ارادة أفراد الجماعة اتى تتحدث بهـــا فلا تقصده ، ولا تتعمده ، ولا تستطيع مقاومته ، ويلحقها لأمور تمر بهـــا الجماعة ارتقاء أو انحطاطا (فاللغة ظاهرة اجتماعية وتطورها لا يجرى تبعا للأهواء والمصادفات ، أو وفقـــا لارادة الأفراد وانما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج واضحة المعالم محققة الآثار لا يد لأحد على وقف عملها ، أو تغيير ما تؤدى

---

(٣٥) د. تمام : مناهج البحث فى اللغـــة ص ٢٥٠ .
(٣٦) فنـــدريس : اللغـــة ص ٢٦٢ .

اليه ، فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بهـا فى غير السبيل التى رسمتها لها سنن التطور الطبيعى)(٣٧) .

فلفظ (جيب) فى العامية تطور معناه الأصلى وهـو الدلالة على الفتحة التى يلبس منها القميص(٣٨) اى المعنى المعروف الآن .

وكلمة (بطح) انتقلت من الدلالة على (البسط على الأرض) الى معنى (عـورة) دون قصـد .

وعلى هذا المنوال انتقلت كثير من الألفاظ — فى العربية الفصحى — من معانيها القديمة الى معان أخرى اقتضتها الحضارة العربية دون أن يعرف تدخل أحـد من الأدباء أو العلماء فى ذلك ككلمة (المجد) فى تطورها من دلالتها على (امتلاء بطن الدابة بالعلف) الى دلالة مجردة هى (امتلاء الانسان بالصفات الحميدة)(٣٩) وكذلك اتسـاع دلالة كلمة (الورد) بتحولها من (اتيان المـاء) الى (اتيان كل شىء)(٤٠) .

الثـانى :

التطور الخاص (أو المقصود) : وهو الذى تلجـأ اليه الجماعة للحاجة ، فقد تحتاج الى وضع مصطلحات لغوية لمخترعات حديثة فى مجالات العلوم ، والفنون ، فيلجأ فى ذلك أحيانا الى تغيير دلالات بعض الكلمات ، ونقلها ، وهذا يتم طفرة دون سابق تدرج ، ويكون — عادة — على يد المتخصصين — كعلماء المجامع اللغوية الآن .

وهذا النوع يتوقف انتشاره على مدى استجابة الجمهور لمـا وضع

---

(٣٧) د. وافى : اللغة والمجتمع ص ٧٨ .
(٣٨) ابن منظور : اللسان ١/٢٨٠ .
(٣٩) ابن منظور : اللسان ٤/٤٠٢ .
(٤٠) المصدر السابق ٤/٤٧١ ، ٤٧٢ .

من مصطلحات وتسميات ، وعلى العوامـل المؤثرة فى ذيوعه كوسائل الاعلام وغيرهـا .

ولذا فـان الألفاظ التى تخضع للتطور الخاص لهـا حالات ثلاث :

١ — شـيوع استعمالها فى المعنى الجديد ، فكلمتـا (السيارة) و (القطار) قد نقلتا من القافلة (التى كانت تسير فى الصحراء) الى المركبين المعروفين ، وشاعتا فى المعنى الجديد حتى كـاد المعنى القديم ينسى نسيانا تاما فـلا يكاد يذكره غير اللغوى المتخصص .

وكذلك كلمات (المدفع والدبابة والطائرة والمدمرة والاذاعـة) قد اشتقت من مواد لغوية لهـا دلالة عامة لتفيد معانى خاصة بهذه الآلات المستحدثة ، وقد انتشر المعنى الجديد فـلم تعد ترد على الأذهان المعانى العامة لهـا[41] .

٢ — قلـة استعمالها فى المعنى الجديد ، ومن ذلك كلمة (المذياع) التى وضعت للجهاز المعروف (الراديو) ولكن لم يكتب للكلمة العربية الشيوع فى الاستعمال فهى لا تكاد تذكر الا قليلاً بجوار كلمة (الراديو) الأجنبية التى تقرع آذاننا كل حين من وسائل الاعـلام ، وعلى ألسنة النـاس .

٣ — اختفاء الاستعمال الجديد وتلاشيه ، مثل كلمة (جماز) التى وضعها المجمع اللغوى (للترام) وهى — أصـلا — مشتقة من (جمزى) اسم حمار الوحش أو لمشية سريعة[42] فقد اختفت الكلمات العربية لأنها لم تجد مجـالا لاستعمالها مطلقـا .

على أن من الخطورة بمكان وضع كلمات فى بعض الأقطار العربية

---

(٤١) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٤٢) ابن منظور : اللسان ٧/١٨٨ .

دون بعض ، وعــدم تعميم انتشارها ، لأن ذلك يؤدى الى الاكثار من المصطلحات والأسماء والى التباعد بين أبناء الأمة الواحدة ، فالواجب أن تنتشر الألفاظ التى تضعها المجامع اللغوية فى جميع أقطار الأمة ليكون التطور الدلالى مواكبا لحركة الحيــاة والتقدم فيهــا ، وحفاظا على لغتهــا[٤٣] .

وكــلا التطورين المذكورين ذو أثــر بالغ فى تغير الدلالة وتنوعها .

والتطور — بعامة — لا يسير باللغة دائما نحو الكمال ، فقد يكون انحطاطا بهــا ، وتشويها لمعالمها ، فالعاميات تتجه نحو الانحلال بالمعانى والقواعد والتراكيب ، وبعض الأدباء والعلماء قد يدخل فى اللغة تراكيب مما يقرؤه ويترجمه من اللغات الأجنبية فى عبارات ليس لهــا من عروبتها الا الألفــاظ .

ولعــل كثرة تقديم الفاعل وغيره من الأسماء على الفعل فى العربية الفصحى المعاصرة ، والعاميات ، نشــأ — أساسا — من التأثر باللغات الأجنبية ، فللعربية فى هذا التقديم والتأخير منهج خاص ضاعت معالمه الآن[٤٤] .

ولهذا التطور والتبدل عوامل كثيرة نجملها فيما يلى :

---

(٤٣) انظر — مثلا — الى كلمتى « هاتف » — للتليفون — و « حافلة » — للأتوبيس — فانهما يستعملان فى بعض البلاد العربية ولا يتيسر انتشارهما فى باقيها مع أنهما لفظان جيدان حقــا وأفضــل من الــكلمات الأجنبيــة المستعملة لها .

(٤٤) تقول مثلا « أكرم محمــد عليــا » لمعنى خاص يفيد اهتمامك بالفعل ، وتلقيــه لخالى الذهن ولو قــدمت الفاعل على الفعل فقلت « محمد أكرم عليا » لــكان معنى الجملة موحيا بالاهتمام بــ « محمد » وأن اكرامه لــ « على » كان مثار شك فتأتى العبــارة بتقديم « محمد » نفيا لهذا الشك وقضاء عليه .

أسـباب تطـور الدلالـة

الأسباب التى تؤدى الى تغـير الدلالة كثيرة ، بعضها لغـوى ، وبعضها اجتماعى ، ولكل منهمـا علاقة بالآخر ، فاللغة ظاهرة اجتماعية ونحن نؤثر الفصل بينهما لتتضح جوانب التأثير .

الأسـباب اللغـوية

هذه الأسباب متعددة وأهمهـا :

١ — كثرة استعمال اللفـظ :

فاللفظ اذا كثر استعماله تعرض معناه للتغير ، ونحن نلاحظ أن معنى الكلمة يزيد تعرضا للتغير كلما زاد استعمالها ، وكثر ورودها فى نصوص مختلفـة(٤٥) .

وهذا التغير قد يتم دون شعور الناطقين ، وقد يكون مقصودا تدعو

---

(٤٥) ما ذكره اللغويون منها بعد بعض تلك الأسباب ، فالدوافع كثيرة ولا يمكن حصرها ، بل لا يمكن معرفتها أحيانا ، لأن « أسباب هـذا التحديد معقدة وأحيـانا تند عن كل بحث ، ذلك لأن حالات الـكلمات جد غريبـة تتوقف على عوارض يستحيل أن نتنبأ بهـا قبل وقوعها ، كما يستحيل أن نتخيلها بعد وقوعها اذا لم يمدنا التاريخ بما يدل عليها ، ومع ذلك فهنـاك أسباب عامة لتجديد المفردات تستطيع أن تفسر الجزء الأعظم من حالاتها ، « فندريس اللغة ص٢٧١ » .

وتتبع اللغات قاموسا خاصا فى تدرجها ، ومراحل نموها ، وهى فى قطع هذه المراحل لاتثبت على حالة واحدة ، بل يعتريهـا بعض التغيير فى معانى طائفـة من كلماتها ، وفيما ترمى اليـه بعض عباراتها ولاسيما اذا كان المتكلمون بها قـد بعدت بينهم الشقة ، وترامت أطراف بلادهم ، واختلفت أمزجتهم ونظم حياتهم ، ومظاهر بيئتهم ، وما يمر بهم من أحداث ، واختلفوا فى مدى مايتمتعون به من حرية سياسة واجتماعية « عبد الحميـد حسن : الأصول الفنية للأدب ص ٥٧ » .

اليه أمور اجتماعية ، أو أحـــداث جديدة ، ويقوم به المتخصصون من اللغويين للحاجة الى هـــذا الاستعمال الجديد .

ويأخذ هذا التغير — فى معظـم الأحيان — احدى صور ثلاث :

(أ) تخصيص العــام أو تعميم الخــاص :

ومن أمثلة ذلك ماحدث من تخصيص ألفاظ (المؤمن والمسلم والصلاة والحج) — بعد الاسلام — فقد كانت — من قبـــل — تستخدم فى معان عامة ثم خصصت تبعا لمـــا جـــاء به الاسلام من مبادىء وعبادات .

فالمؤمن — أصـــلا — مأخوذ من الأمان على النفس أو المـــال أو العرض أو نحو ذلك ، والتصديق بكل شيء فخصصه الاسلام بالمصدق بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخـــر .

والمسلم — فى أصل اللغـــة — من الاذعان والتسليم مطلقا ثم خصه الاسلام بالمذعن لأوامر الله المنقاد له وحـــده .

والصلاة كانت بمعنى الدعاء ثم أصبح معناها — فى الاسلام — الأقوال والأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم بشرائط خاصـــة .

والحج : القصد مطلقا ثم خص فى الاسلام بقصد بيت الله الحرام على هيئة خاصة وبشرائط خاصـــة .

وهكذا فان ألفاظا كثيرة خصص معناها فى الشريعة الاسلامية ويمكن الرجوع اليهـــا فى كتب الفقـــه الاسلامى .

ومن أمثلة تعميم الخاص ما حدث لألفاظ (الورد — الرائد — النجعة المنيحة) فهذه الألفاظ كانت تستعمل فى معان خاصة ، ثم تطورت الى الشمول لهـــا ولغيرها ، فالورد كان يستعمل — فى فترة قديمة — لاتيان

المـاء ثم أصبح اتيان كل شيء وردا[٤٦] والرائد كان خاصا بطالب الكلأ ثم عمم ليدل على طالب أى شيء مطلقا[٤٧] والنجعة كان خاصا بطلب الكلأ ، ومساقط الغيث ثم عمم — بعد ذلك — ليصبح معناه : طلب أى شيء كلأ أو غيره[٤٨] • والمنيحة كانت خاصة باعارة الناقة أو الشاة الى شخص ليحصل على لبنها خاصة ، ثم اتسع المعنى ليشمل كل عطاء[٤٩] •

وكانت كلمة saiaire فى الفرنسية بمعنى : ما يصرف للجندى من نقود نظير ما يحتاج اليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى[٥٠] •

وهذه الألفاظ — وأمثالها كثير — قد استعملت فى معانيها الجديدة الخاصة أو العامة ، وكثر استعمالها ، حتى نسى المعنى القديم ، فلم يعد يمر بالأذهان عند ذكرها واستعمالها •

(ب) استعمال اللفظ فى معنى مجازى يصبح لطول العهد به حقيقيا : فـلا يذكر معه المعنى الأصلى الا بالرجوع الى قواميس اللغـة ، أو المتخصصين من علمائها •

ومن أمثلة ذلك كلمات : المجـد — الوغى — الظعينة — العقيقة ، فالمعنى الأصلى — الحقيقى — الذى كانت تستعمل فيه كلمة (المجـد) هـو : (امتلاء بطن الدابة بالعلف) وبعد تقدم العرب استعمل فى معنى مجازى هو السمو والرفعة[٥١] ، وقد كثر استعمال لفظ (المجـد) فى هذا المعنى الجديد حتى نسى معنـاه القديم •

---

(٤٦) ابن منظور : اللسان ٤٧١/٤ ، ٤٧٢ وانظر ص٢٠٩ من هـذا الكتـاب •
(٤٧) المصدر السابق ١٦٩/٤ — ١٧٤ •
(٤٨) المصـدر السابق ٢٢٤/١ — ٢٢٦ •
(٤٩) المصـدر السابق ٢٢٤/٣ — ٢٢٦ •
(٥٠) د• وافى : علم اللغـة ط ٤ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ •
(٥١) بعلاقة المشابهة فى الامتلاء •

و (الوغى) معناه الحقيقى : (اختلاط الأصوات فى الحرب) ثم أطلق على (الحرب) نفسها على سبيل المجـاز[٥٢] وشاع استعماله فيها و (الظعينة) أطلق — قديما — على المرأة فى الهودج ، ثم نقل الى الهودج تارة والى البعـير الذى يحمله تارة أخرى ، وقـد غلب الاستعمال المجـازى[٥٣] .

و (العقيقة) هى — فى الأصل — الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه ثم نقل الى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر على سبيل المجـاز[٥٤] .

(جـ) استعمال اللفظ اسما أو مصطلحا علميا :

فنشأة العلوم وتقدمها يقتضيان نقـل الألفاظ ، واستعمالها أسماء ومصطلحات ، ومن أمثلة ذلك مصطلحات (عـلم النحو) كالمبتدأ والخبر ، والفاعل والمفعول ، وغيرهـا .

فالمبتدأ — فى اللغـة : اسم لكل ما يبتدأ به ثم خصص باستعماله مصطلحا علميا نحويا هو (الاسم المرفوع العارى عن العوامل اللفظية غير الزائدة للاسناد) والخبر : كل ما يلقى ممـا كان مجهولا أو غيره ، لكنه أطلق اصطلاحا نحويا على معنى (الجـزء الذى يتمم الفائدة مع المبتدأ) بمعنـاه النحوى المذكور .

و (الفاعل) : من أوجد الفعل مطلقا ، وقد اصطلح نحويا على أنه (الاسم المرفوع الذى تقدم عليه فعل أو شبهه) .

و (المفعول) : هو الشيء الذى وقع عليه فعل فاعل ، ثم خصص اصطلاحا بالاسم المنصوب الذى له موقع خاص فى الجملة النحوية .

---

(٥٢) من اطلاق الجزء على الـكل .

(٥٣) بعلاقة المجاورة المـكانية .

(٥٤) بعلاقـة المجـاورة الزمانية . أنظر د. وافى : علم اللغـة ط ٤ ص٢٨٩ .

وفى علم النفس — مثلاً — نجد مصطلحات ثلاثة هى (الادراك والوجدان — والنزوع) ولكل منها معنى لغوى عام خصص فى علم النفس بما اصطلح عليه من العمليات النفسية الثلاث التى تترتب احداها على الأخرى للحصول على شىء ما •

فالأول يعنى : الاحساس بالشىء أو رؤيته •

والثانى يعنى : حب الشىء •

والثالث يعنى : الحصول عليه أو محاولته •

وهكذا فان المتخصصين فى العلوم والفنون ينقلون بعض الألفاظ من معانيها الأصلية الى معان اصطلاحية ، ويكثر استعمالها فيما نقلت اليه من دلالة جديدة فتشتهر فيها وتنسى دلالاتها القديمة عند أرباب هذه العلوم والفنون •

٢ — تطور أصوات اللفظ :

اذا تعرضت أصوات اللفظ للتغير فان ذلك أدعى لحدوث مثله فى دلالتها لبعدها عن الأسرة اللغوية التى تنتمى اليها ، وكذلك اذا تغيرت أصوات ألفاظ أخرى ليست لهـا علاقة بهذا اللفظ فان ذلك قد يؤدى الى اتفاق بينها وبينه من حيث الصورة الصوتية ، ويتسبب ذلك فى تغير معناه لاشتباه النطق ، واختلاط المعنى على المتكلم •

فمن الأول ما حدث من تطور لكلمة vivus اللاتينية ، فقد كانت فيها — بهذه الصورة الصوتية — بمعنى (الحى) — ضد الميت — تبعـا لأسرتها اللغوية التى تنتمى اليها فى اللاتينية مثل : vivere (عاش) و vita (حياة) الخ ولكن بعد أن انتقلت الى الفرنسية تغيرت صورتها الصوتية فيهـا الى Vif بأن آل (v) الى (f) وانحرف معناهـا شيئا فشيئا حتى أصبحت الآن تفيد معنى (القوة والحـدة والنشاط)

لبعدها عن أفراد أسرتها اللغوية فى الفرنسية مثـل : vivre (عاش) و vivant (حياة) الخ[٥٥] .

ومن الثانى كلمة (كماش) بمعنى : نسيج من قطن خشن ، فقـد تطور صوت الكاف فيها الى (قاف) فاختلطت بذلك مع كلمة (قماش) العربية التى معناها أرذال الناس ، وما وقع على الأرض من فتات الأشياء ، ومتاع البيت ، فأصبحت هـذه الكلمـة العربية ، ذات دلالـة جـديدة على المنسوجات[٥٦] .

وفى لهجاتنا العامية كثير من هذه الكلمات التى تطورت الأصوات فى بعضها ، فاشتركت مع كلمات أخرى ليست من فصيلتها ، ويمكن أن يؤدى ذلك مع مرور الزمن الى تغير معناها أو انتقاله من مجال استعمالها الى مجال استعمال شريكاتها .

ومن ذلك نطق الفعـل (حضر) — من الحضور بمعنى المجىء — بالظـاء مكان الضاد فى بعض مناطق الجزيرة العربية — كنجد واليمن — فاختلط بذلك — عندهم — بالفعل (حظر) — من الحظر بمعنى المنع — ويمكن أن يؤدى مثل هذا الاختلاط الى تطور المعنى .

وقد جعل الدكتور أنيس ذلك من أسباب نشأة المشترك اللفظى فى اللغـة العربية[٥٧] .

٣ — خفـاء معنى اللفظ أو نسيان مجـال استعماله :

اذا خفى معنى اللفظ على الناطقين باللغة فى جيل معين ، أو فى

---

(٥٥) د. وافى : علم اللغة : ط ٤ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ بتصرف .

(٥٦) من بحث للدكتور رمضان عبد التواب بعنوان : « التطور اللغوى وقوانينه » بمجلة كلية اللغـة العربية بالرياض . العـدد الخامس ، ص ١٧٧ ، و د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٥٧) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٣ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

انتقالها من جيل الى آخــر فلم يفهم معناه ، أو لم يتضح لديهم تعرض للتغير ، فكلمة (منيحة) كان معناها — كما عرفنا — اعارة انسان ناقــة أو شــاة ليشرب لبنها ، فتطور — مع مرور الأجيال — فى بعض عاميات (نجــد) الى معنى شراء ناقــة لهذا الغرض(٥٨) ، فلعل المعنى — مع طــول الزمن — لم يتضح لدى الأجيال أنه خاص بمعنى الاعارة فانتقل الى معنى الشراء .

ومن ذلك كلمة (عنيد) فقــد نسى معناها الأصلى لغموضه وشاعت فى أذهان الناس بمعنى « عتيق أو عنيد » .

وهــكذا فاننا عندما نسمع جملة أو نقرؤهــا نرى الكلمات التى تشتمل عليها يفسر بعضها بعضا ، وقد نفسرها دون رجوع الى القواميس ، وربما أدى ذلك الى الخطأ فى معناها ، ولهذا تأثير على تطور دلالتها(٥٩) .

ويفسر الدكتور أنيس — بنــاء على ذلك — دلالة بعض الألفــاظ المشتركة بين عــدة معان متباينة لا ارتباط بينها ولا وجــه شبه ، فحين تؤكد لنــا المعاجم العربية أن كلمة (الأرض) تعنى الكوكب المعروف ، وتعنى أيضا الزكام ، وحين يقال لنــا : ان كلمة (الليث) هى الأسد ، وهى أيضا العنكبوت لا نكاد نجد تفسيرا معقولا الا بالالتجاء الى تلك الطفرة الدلالية(٦٠) .

فخفاء اللفظ أو نسيان طرائق استعماله له أثر فى تطور المعنى .

---

(٥٨) سمعت ذلك بالمشافهة فى الرياض .

(٥٩) د . رمضان عبد التواب : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السابق ص١٧٥ .

(٦٠) د . أنيس : دلالة الألفــاظ ص ١٣٦ .

٤ — أثـــر بعض القواعد اللغوية :

تؤدى بعض نظم اللغة وقواعدها — أحيانا — الى تغير المعنى فكلمة (سراويل) — المعربة من الفارسية — تدل على المفرد لكنها على وزن (فعاليل) — احدى صيغ الجموع فى اللغـــة العربية — ولذلك توهمها بعض العرب جمعـــا مفرده (سروال) .

يقول الأزهرى : (جـــاء السراويل على لفظ الجماعة وهى واحدة ، وقد سمعت غير واحد من الأعراب يقول : سروال)(٦١) .

وكذلك كلمة (paradeisos) تدل على المفرد فى اللغـــة الاغريقية ، فلمـــا انتقلت الى العربية ووجدها العرب على وزن (فعاليل) توهموها جمعـــا فصاغوا لهـــا مفردا هو « فردوس »(٦٢) .

وكلمة « ولد » وردت فى العربية الفصحى مذكرة اللفظ فأوحى ذلك الى الذهن بأنهـــا مذكرة — مع أنهـــا فى الفصحى تطلق على الذكـــر والأنثى — فكان ذلك من عوامل اختصاصها — فى كثـــير من اللهجات العامية الحديثة بالمذكر دون المؤنث .

ومثلها كلمة Homo اللاتينية ، فمعناها — فى الأصل — (الانسان) رجـــلا كان أو امرأة ، ولكن عنصر التذكير فيهـــا ربطها بنوع الذكور حتى أصبحت فى كثير من اللغات المتشعبة عن اللاتينية لا تطلق الا على الرجـــال(٦٣) .

---

(٦١) الأزهرى : تهـــذيب اللغـــة ١٢/٣٩٠ .

(٦٢) د. رمضان عبد التواب : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السابق ص١٥١ .

(٦٣) د. وافى : علم اللغة ط٤ ص٢٩٥ وفقه اللغة ص١٣٩ .

٥ — انتقال اللفظ من لغــة لأخرى :

تنتقــل بعض الألفاظ من احدى اللغات الى غيرها بسبب انتقال ما تدل عليه ، أو للحاجة اليهــا فى العلوم والفنون أو لغير ذلك[٦٤] .

وربمــا تستعمل بمعنى يختلف عن مدلولها فى اللغــة الأصلية ، فيتعرض للتغير والتبدل ، وقــد يؤثر ذلك على استعمالها فى بيئتها ، أو فى البيئة الجديدة التى دخلت اليهــا بأسرتها اللغوية التى تنتمى اليهــا على وجــه التحديد[٦٥] .

ومن ذلك كلمة : « زركون » الفارسية فهى — فى بيئتها الأصلية — بمعنى : « ذهبى اللون » فلمــا دخلت العربية حولت الكاف الى جيم — بالتعريب — فنطقت (زرجون) واتسع معناها ، فأطلقت على (الخمر — الكرم[٦٦] ، وأشجاره وأغصانه — صبغ أحمر) ومع ذلك فبين المعانى الجديدة والمعنى الأصلى وشائج قــربى .

واذا استأثر اللفظ الأجنبى بالاحترام والتقدير ترك أثرا ظاهرا فى تطور المعنى[٦٧] .

---

(٦٤) أنظر كتابنا « اللغة العربية » ص١٤٠ ، ١٤١ .

(٦٥) لكى ندرك أثر الاستعارة فى تطور الدلالة علينا أن نتذكر أن نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية ، وأن نصف ألفــاظ اللغة التركية مأخوذ اما من الفارسية أو العربية ، وأن ثلث ألفاظ اللغــة الانجليزية فقط هى التى تعد بحق ألفاظا أصيلة سكسونية (د. أنيس : دلالة الألفاظ ص١٥١) .

وقد استعار العرب من الفرس واليونان ألفاظا للتعبير عن أشياء ليست فى بلاد العرب . (المصدر السابق ص١٤٩) .

(٦٦) العنب .

(٦٧) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص١٤٩ ، ١٥٠ .

الأســباب الاجتمــاعية

١ ــ اختلاف طبقات المجتمع وأجياله :

يضم كل مجتمع طبقات مختلفة فى البيئة التى يعيشون فيهــا من مدن وقرى ، وجبال وسهول ، ووسائل حياة متنوعة ، وهذه الطبقات ذوات حرف ومهن كثيرة وبينها تباين فى نظــم الحياة والتفكير ودرجات التعليم والثقافة وغير ذلك ، وينعكس أثــر هذا الاختلاف على اللغــة كمــا ينعكس على غيرها من مظاهر حياتهم •

فلا ريب أن كل فريق منهم يفهم بعض ألفاظ اللغــة على نحــو خاص ، أو يدخل عليها بعض التغيير الذى يناسبه ، وذلك قد يؤدى الى اختلاف دلالتها فكلمات (حقل ــ معمل ــ عملية) لهــا مفاهيم خاصة لدى الطبقات الاجتماعية التى تستعملها •

فالحقل ــ لدى طبقة الفلاحين ــ خاص بالأراضى الزراعية مكان عملهم اليومى على حين أنها تطلق لدى العلماء والباحثين على ميادين اجراء بحوثهم فيقولون : أثبتت التجارب فى هذا الحقل(٦٨) صحة ما نذهب اليه من النتائج العلمية التى تشمل كذا وكذا ، ويقال : حقــل القوى البشرية الخ •

والمعمل ــ لدى طائفة منتجى (الفراريج) يطلق على بناء خــاص يوضع فيه البيض للتفريخ •

وهذا اللفظ عينــه يطلق ــ فى مجال الأبحاث العلمية ــ على مكان الأجهزة الدقيقة التى يجرى بهــا العلماء والباحثون تجاربهم •

ولا تطلقه احدى الطائفتين على غير ما تعرف فى مجالهــا •

---

(٦٨) يقصدون مجالا معينا من مجالات بحوثهم فى مختلف نواحى الحياة زراعية وصناعية وتجارية وفلسفية وغيرها •

والعملية يختلف معناها حسب نوع الطائفة التى تستخدمها ، فهى — عند الأطباء — بمفهوم خاص وعند التجاريين بمفهوم آخر ، وعند العسكريين بمفهوم ثالث ، وهكذا .

وانتقال اللغة من جيل الى آخر يؤثر فى المعنى ، فالأبناء لا يستعملون اللغة كما يستعملها آباؤهم ، فيعتريها التغيير على ألسنتهم ، وربما نقلوا اللفظ من معنى قديم الى آخر جديد ، فتختلف مدلولات بعض الألفاظ .

فالكلمة الفرنسية soaul كان معناها فى الأصل (الشبعان من الطعام) ثم شاع استعمالها — فى أحد العصور — بمعنى (النشوان من الخمر) على المجاز والتهكم ، والتحرج من استعمال الكلمة الصريحة فى هذا المعنى وهى ivre فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، ثم استمر اطلاقها بهذا المعنى بعد ذلك ومات المعنى القديم(٦٩) .

وعن هذا الطريق تطورت معانى كثير من ألفاظ العربية الفصحى ، فانتقلت على لسان الأبناء مما كانت تدل عليه لدى الأجداد الى معان أخرى .

وفى العاميات كثير من مظاهر هذا الانتقال ، فكلمة (الجعالة) فى الفصحى لها عدة معان من بينها الرشوة ، وقد نقلها اليمنيون المعاصرون — من هذا المعنى — الى ما يقدم للطفل من حلوى لاسكاته عند البكاء وذلك بمثابة الرشوة له ليسكت(٧٠) .

وكلمة (سنب) يستعملها اليمنيون بعدة معان منها : (قف) —

---

(٦٩) د. وافى : علم اللغة ط٤ ص٢٩٥ ، ٢٩٦ وفقه اللغة ص ١٣٩ بتصرف .

(٧٠) سمعت ذلك بالمشافهة فى صنعاء .

(أنتظر قليلا)[٧٠] وكأنهم اشتقوها على سبيل المجاز من الكلمة العربية ('لسنبة) التى هى الحقبة من الزمن أو البرهة منه[٧١] ٠

وقـد لاحظنا فيما سبق تطـور معانى بعض الألفاظ فى العامية المصرية مثل (جيب) و (بطح) وغيرهما ٠

وهكذا فان تتبع التطور اللغوى للألفاظ يكشف عن اختلاف الأجيال فى نقـل المعانى عن أسلافهم ٠

٢ — التغيـير الاجتماعى :

اذا شق المجتمع طريق التقدم فى الصناعة أو العمران أو الثقافة أو غيرها من مظاهر حياته ، تغيرت مدلولات بعض الألفاظ تبعـا لذلك ٠

فالريشة التى يكتب بها كانت تطلق — قديما — على ريشة الطيور التى تصنع منها آلـة الكتابة — آنذاك — ثم لـما تطورت صناعتها ، فأصبحت قطعة من المعدن فى صورة خاصة انتقلت الى هـذا المعنى الجديد ٠

والقطـار انتقل معناه من الابل المقطورة الى المخترع الحديث المعروف ومثله البريد وغير ذلك ٠

وعبارة (بنى الرجل بأهله) كان لهـا مفهوم عربى قديم هو أن المعرس اذا أراد أن يتزوج بنى لأهله خباء جديدا ليعيشا فيه مستقلين عن أبويه واخوته ، ثم لـما تغيرت التقاليد ، وتقدم العمران أطلقت هذه العبارة على (الزفاف) أو الدخول بالمرأة دون نظر الى بنـاء المسكن ، ونلاحظ أن اعداد المسكن المستقل أصبح أمرا لازما لمن يريد الزواج فى مجتمعنا الحديث بطريقة تشبه ما كان يحدث قديمـا ٠

---

(٧١) ابن منظور : اللسان ٤٥٧/١ ٠

وتغير النظـام الاجتماعى الذى تعيش فيـه الأمة يعرض بعض الألفاظ ومفاهيمها للتحول المعنوى .

فحين جـاء الاسلام بنظامه الاجتماعى السليم غير بعض جوانب الحياة العربية بل قلبها رأسا على عقب ، وكان لذلك أثره فى انتقال دلالة بعض الألفاظ كالمؤمن والمنافق والصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها .

كمـا تغيرت فى ظـلال الدولة الاسلامية ونظم حياتها السياسية والاقتصادية ألفاظ أخرى كالخليفة والديوان والخراج والحسبة وغيرها .

كما غيرت النظم الاجتماعية المعاصرة مفاهيم بعض الألفاظ لتتناسب معها فألفاظ (الأمير — صاحب السمو — جلالة الملك — صاحب الفخامة — صاحب السعادة — صاحب المعالى) ارتبطت بمعان معينة تبعا للنظام السائد سياسيا واجتماعيا .

وكلمات (مجلس الأمة — مجلس الشورى — مجلس الشعب — الاتحاد القومى — الاتحاد الاشتراكى) اكتسبت معانى جديدة لم تكن لهـا من قبـل .

وفى ظلال النظم الاجتماعية المختلفة نظر المجتمع الى دلالة بعض الألفاظ نظرة اشمئزاز ومقت كاقطاعى ، ورجعى ، ومتخلف ، وانطوائى ، وانعزالى ... الخ .

وقد ابتذلت بعض الألفاظ فى مجتمعنا الحديث لسقوط النظـام الذى كانت ترتكز عليه فى اكتسابها شهرة ورواجا مثل كلمات (باشا — بك — أفندى) وغيرها من ألقاب تركية « فقد مرت بهـا تطورات فى دلالتها وانحط قدرها على توالى الأيام »(٧٢) .

---

(٧٢) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٤٠ .

٣ — الحـالة النفسـية :

للحالة النفسية أثر فى استعمال بعض الألفاظ ، فقد يلجأ المتكلم نتيجةلتفاؤله أو لتشاؤمه الى استخدام اللفظ فى ضـد معناه ، كمـا سميت (الصحراء) (مفازة) تفاؤلا بالنجاة من المخاطر التى تعترض سالكها ، وكما سمى (الأعمى) (بصيرا) عزاء لحالته التى تؤلم النفس، وأملا فى أن يعوضه الله نورا فى بصيرته .

ومن ذلك ترك الألفاظ التى تدل على شيء يقلق النفس ، ويخلق فيهـا نزعة التشاؤم كمرض السرطان فبدلا من التصريح باسمه يقـال عنه (المرض الخبيث) ، ويكنى عن (الموت) بالذهاب والوفـاة وفيضان الروح ، كما يكنى عن (الحمى) فى الأرياف بـ (المبروكة)[٧٣] .

وقد يخاف على شيء حسن من الحسـد ، فيوصف بوصف قبيح خشية أن تصيبه العين ، كما يقال للفرس الحسنة (شوهاء) والبعـير الصحيح (قرحان) كأنما أصاب الفرس تشوه ، والبعير جرب مع أن شيئا من ذلك لم يحدث ، فالقصد صرف عيون الحاسدين عنهمـا .

وربما تدعو الحالة النفسية الى ترك لفظ واستعمال آخـر فى موضعه احترازا من اللفظ الأول ، ودلالته التى تؤثر فى النفس تأثيرا سيئا ، ويؤدى ذلك الى تطور دلالة اللفظ الثـانى .

ومن أمثلته ترك الألفاظ التى كانت تستعمل للتبول والتبرز الى استعمال كلمات كنائية كـ (قضاء الحاجة) و (بيت الأدب) و (دورة المياه) ونحو ذلك وقد تستعمل فى هذا الصدد كلمات أجنبية مثل — كبانية ... الخ .

---

(٧٣) د . أنيس : دلالة الألفاظ ص١٤٣

وهكذا الكلمات التى تعبر عن أفعال يستهجنها الذوق الاجتماعى ، وأسماء الأشياء التى ينفر من ذكرها الطبع السليم — كأسماء أعضاء التناسل ، أو يرى عدم التصريح بها مراعاة للياقة والأدب ، فيستعاض عنها بألفاظ كنائية — كالتعبير عن ثديى المرأة بالصدر ، « وقد كنى القرآن الكريم عن العملية الجنسية بألفاظ كريمة هى السر — الحرث — الافضاء — المباشرة — الملامسة — الدخول — الرفث »[٧٤] .

ومن هنا فاننا نرى أن بعض الألفاظ تكتسب معانى جديدة تنجم عن آثار نفسية تسيطر على المتكلمين .

---

(٧٤) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص١٤١ ، ١٤٢ . وانظر د. رمضان عبد التواب : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السابق — ص١٨٢ وانظر ص١٦١ — ١٦٤ من هذا الكتاب .

اتجاهـات التطـور الدلالى

نلخص هذه الاتجاهات فى أمور ثلاثة :

١ — المقارنة بين المعنى القديم والجديد :

ترينا النظرة العقلية لتطور المعنى أن المعنى الجديد اما أن يكون أضيق من المعنى القديم ، أو أوسع منه أو أجنبيا عنه ، ونبدأ فى بيان هذه النواحى .

أولا : تعميم المعنى الخـاص :

وذلك عند الخروج من معنى خاص الى معنى عام(٧٥) ، ويتمثل فى كثير من الكلمات العربية الفصحى التى تطور معناها فكلمات (الورد) و (المنيحة) و (الرائد) كانت مستعملة قديما فى معـان خاصة ثم انتقلت الى معان أوسع مما عرف لها من قبل ، وقد أوضحنا ذلك فيما سـبق(٧٦) .

والكلمة الانجليزية arfrve منحدرة عن اللاتينية adripare وهى بمعنى : يصل الى الشاطىء — ثم اتسع استعمالها حتى أصبحت تشمل عـددا ضخما من أنواع الانتقال(٧٧) .

ثانيا : تخصيص المعنى العـام :

وذلك عند الخروج من معنى عام الى معنى خـاص ، وقد ذكرنا أمثلة لهذا الاتجاه من الألفاظ الاسلامية كالصلاة والصيام والحج ، فقد استعملت قبل ظهور الاسلام لمعـان عامة ثم خصصها الاسلام بمجالات معينة أشرنا اليها آنفـا(٧٨) .

---

(٧٥) فندريس : اللغة ص٢٥٦ .

(٧٦) أنظر ص٢١٣ ، ٢١٤ من هذا الكتاب .

(٧٧) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص١٦٥ .

(٧٨) أنظر ص٢١٣ من هذا الكتاب ، والسيوطى : المزهر ٤٢٧/١—٤٣٣

والكلمة الانجليزية poison معناها — فى الأصل — الجرعة من أى سائل ثم اقتصرت على الجرعة من السم فقط(٧٩) .

ثالثا : انتقال اللفظ من معنى الى آخـــر أجنبى عنـــه :

ينتقل اللفظ — أحيانا — الى معنى مغاير لمعنـــاه القديم فيعـــد أجنبيا ويتم هذا فى اطـــار علاقة تسوغ الانتقال فليس معنى أنه أجنبى عـــدم وجود مناسبة بين المعنيين ، ولكن اعتباره أجنبيا مبنى على عدم اشتراكهما فى الفكرة الأساسية التى تتحول من العموم الى الخصوص أو العكس كالصورتين السابقتين .

فالنافقاء احدى جحور اليربوع التى يستطيع بهـــا هذا الحيوان أن يفلت من صائده ، وقـــد اشتقت منها — بعد الاسلام — كلمـــة « المنافق » — لمن يظهر خلاف ما يبطن والعلاقة متحققة فى التشابه بين المعنى القديم والمعنى الجديد .

وكلمة (الغيث) تستعمل — فى الأصـــل — للمطر وقد استعملت للنبات الذى ينشأ عن المطر مجازا فيقال : رعينا الغيث والعلاقة السببية ومن ذلك ألفاظ عربية كثيرة تحولت دلالتها وذكرت بعضها فيما مضى(٨٠) .

والكلمة الانجليزية Styie معناها (أسلوب) ترجع الى كلمة لاتينية معناها (آلـــة مستدقة الرأس) تستعمل فى الكتابة وتظهر صورتها المصغرة فى الكلمة الايطالية stiletto ثم حدث أن خلعت الآلـــة اسمها على نوع من الوظائف التى تقوم بهـــا .

وللانتقال المعنوى صورتان :

الأولى : الانتقال من المحسوس الى المعقول كما فى كلمة (المنافق) العربية و Styie الانجليزية .

---

(٧٩) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص١٦٥ .

(٨٠) أنظر ص٢١٤ ، ٢١٥ من هذا الكتاب .

الثانية : الانتقال من المحسوس الى نظيره المحسوس أيضا كما فى استعمال كلمة (الغيث) للنبـــات •

ولسنا فى حـــاجة الى القول بأن الاتساع والتضييق ينشآن من الانتقال فى أغلب الأحيان[٨١] •

وحالات الاتساع والتضييق اجتماعية فى طبيعتها فالاسم العام قد يستعمل — لدى بعض المتكلمين — مرادا به الخـــاص فى حـــالات اجتماعية معينة فعند استعمال الفلاح والراعى والحوذى لكلمة «البهائم» يختلف المعنى المراد منها عند كل منهم فالفلاح قد يقصد بها «البقر» لأنه هو الموجود عنده ، والراعى يقصد منها الأغنام والحوذى يريد الخيل الخاصة به •

وهذا التخصيص كثيرا ما يترك آثاره فى اللغة[٨٢] فاسم «الطائر» فى الاغريقية القديمة أخذ معنى «دجاجة» واليوم يطلق على«الدجاجة» فى الاغريقية الحديثة وبنفس الطريقة صار اسم الطائر على العموم يطلق فى الفرنسية على الاوزة » •

والكلمات العامة لا تكاد تستخدم فى الاستعمال بقيمتها العـــامة اللهم الا اذا كان ذلك عند الفلاسفة ، فكل واحد من المتكلمين يطلقها على نوع خاص من أنواع النشاط[٨٣] فكلمة «عملية» تختلف حسب ماتستعمل فيه من طب أو مال ، أو فن حربى أو شئون الغابات أو الرياضة •

وكلمة «موسم» تختلف عند مدير الفندق وصاحب «الفـــلا» وتاجر الفاكهة والزارع والخياطة ، بل وعند كل تاجر أو صانع •

والاسم الخاص الذى يسمى به نوع من أنواع الجنس قد يطلق

---

(٨١) فندريس : اللغة ص٢٥٦ •
(٨٢) المصدر السابق ص٢٥٧ •
(٨٣) المصدر السابق ص٢٥٧ •

على الجنس كله « وهذه هى حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذى يروى البلدة التى يعيشون فيها »[٨٤] .

فقد يرى الطفل القاهرى أى نهر ويسميه « نيلا » والطفل الباريسى — كما يقول فندريس — قد يرى أى نهر فيسميه « سينا » .

« وتلك غلطة طفل لا يدوم لهـا أثر ، ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها ، ففى السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهرة عموما »[٨٥] .

وقد حدث تبادل بين اللفظين « الوردة والزهرة » نتيجة لذلك فى بعض اللغات ، فاستعملت الألمانية كلمة «الوردة» للتعبير عنهما ، واختفت كلمة الزهرة منها ، وصارت اللهجات الايطالية — بالعدوى — تطلق اسم الوردة على كل زهـرة .

«وهكذا تختلط بسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع[٨٦]» .

« ولـما كانت فكرة العموم تطغى على المعانى الخاصة فقد يحدث للعقل أن ينتقل من أحـد المعانى الى الآخر ، وهذه الظواهر تقع بصورة خاصـة فى النبـات والحيوان وأسماء أجزاء الجسـم ، والأمراض والألوان »[٨٧] .

٣ — ارتباط المعنى الجديد بالقديم :

يلاحظ — فى تطور المعنى — وجود علاقة — غالبا — بين المعنى الأصلى والمعنى المنتقل اليه وقد توضع الكلمة لمصطلح علمى يعتمد على علاقة ما ، وأهـم هذه العلاقات :

---

(٨٤) المصدر السابق ص٢٥٨ .
(٨٥) المصدر السابق ص٢٥٨ .
(٨٦) فندريس : اللغة ص ٢٥٩ وانظر للموضوع بأسره ص٢٥٦—٢٦١
(٨٧) المصدر السابق ص٢٥٦ — ٢٦١ .

(أ) علاقة الاستعارة وهى المشابهة :

فقد يكون الارتباط بين المعنيين — القديم والجديد — قائما على أساس المشابهة بينهما ولذلك أمثلة كثيرة نكتفى منهـا بما أوردناه فيما سبق مثل (المجـد) فقد كان فى الأصل — كما عرفنا — يدل على امتلاء بطن الدابة بالعلف ، ثم انتقل الى معنى السمو والرفعة الذى يعبر عن امتلاء الانسان بالخصال الحميدة ، فالعلاقة — كما هو واضح — المشابهة فى الامتلاء وان كان الأول حسيا والثانى معنويا •

وكذلك « الأفن » فهى — بالمعنى القديم — قلـة لبن الناقة ثم انتقلت الى « نقص العقل » والعلاقة المشابهة — فى النقص — وان كان فى الأول حسيا ، وفى الثانى معنويا •

(ب) علاقات المجـاز المرسل :

للمجاز المرسل علاقات كثيرة ، نذكر منهـا السببية كما فى قولك « رعينا الغيث » والمراد النبات ، والمسببية كما فى قوله تعالى « وينزل لـكم من السماء رزقـا » والمراد المطر والظرفية كما فى قولك « شربت كأسـا » والمراد ما فيـه •

وقـد انتقلت — بعلاقة المجاورة المكانية — كلمـة الظعينة من الدلالة على المرأة فى الهودج الى الهودج تارة والى البعير الذى يحمل الهودج تارة أخـرى •

وانتقلت — بعلاقة المجاورة الزمانية — كلمة (العقيقة) من الدلالة على الشعر الذى يخرج على الولد عند خروجه من بطن أمه الى الدلالة على الذبيحة التى تنحـر عند حلق ذلك الشعر[٨٨] •

وكلمـة bureau (مكتب) قد يكون معناها اليوم : المكتب الذى يجلس عليه الانسان ، ويكتب عليه ، أو المصلحة الحكومية ، أو المكان

---

(٨٨) د. وافى : علم اللغة ط٤ ص٢٨٩ •

الذى تدار منه الأعمال ، فليست هنـــا علاقة المشابهة ، بل لعلاقة أخرى هى ارتباطهما فى ذهن المتكلم ، فهما تنتميان الى مجال عقلى واحد[٨٩] .

وهذا ماعناه فندريس حين قال : ان انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية metaphore (الاستعارة) و synecdoque[٩٠] . (اطلاق البعض على الكل) أو metonymie (المجاز المرسل بوجه عام) أو catachrese (المجاز المرسل بعلاقة المشابهة أو غـيره عند عـدم وجود اسم للشىء المنقول اليـه)[٩١]

وفى المصطلحات العلمية يعتمد عادة على علاقة كمـا هو الشأن فى نقل الألفاظ وقد تلتمس التماسا لصحة النقل ووضع الاصطلاح[٩٢] .

---

(٨٩) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص١٧٣ .

(٩٠) فندريس : اللغة ص٢٥٦ .

(٩١) المصدر السابق ص٢٥٦ .

(٩٢) هنـــاك وسائل أخرى للارتباط كالمشابهة الزائفة أى الافتراض الخاطىء بأن هناك نوعا من العلاقة بين كلمتين ليست بينهما صلة أو قرابة فى الواقع .

ويمكن توضيح هذا بالصفة الانجليزية القديمة salld-blind (أى كليل البصر أو أعلى) فالصيغة الأصلية لهذه الكلمة هى sam-blind و sam هى هى الكلمة semi (بمعنى نصف أو شبه) ومن ثم كان التشابه الشكلى الصرف بين sam و sand دافعا الى الربط بينهما ربطا زائفا .

وقد يؤدى وقوع الكلمتين جنبا الى جنب فى عبارة تقليدية كثيرة الورود الى نوع من الاختصار والايجاز بحيث تقوم احدى الكلمتين مقام العبارة كلها ، وهذا الضرب من الاختصار يقـــع كثيرا فى لغـــات المجموعات الاجتماعية المتخصصة حيث يساعد سياق الكلام على توضيح العلاقة بين أجزاء العبارة، ومثال ذلك : (الصاحبان) — والمقصود أبو يوسف ومحمد — و (الشيخان) — والمراد أبو حنيفة وأبو يوسف .

ولو عبرنا عن هذه الحالة تعبيرا مجازيا أمكن القول بأن الجزء المحذوف قد أصاب الجزء أو الأجزاء الأخرى التى تجاوره بـ (العدوى) فى معناه ، وهذا يفسر اطلاق مصطلح (العدوى) — أحيانا — على هذه الأمثلة ونحوها .

وتعتبر هذه العلاقات أساسا نفسيا تقوم عليه الاستعارة والمجـــاز المرسل وغيرهما من وسائل الارتباط بين المعنيين القديم والجديد .

أنظر ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ص١٦٨ ، ١٧٣ — ١٧٦ .

٣ — العلاقة الاجتماعية بالمعانى واستعمالها :

تظهر ملامح الميول والرغبات الاجتماعية فى صور التحول الدلالى كمـا أنّ أحوال المجتمع السياسـية والاجتماعية تبدو واضـحة فى تلك التغيرات ، فالمجتمع قد يرفع بعض المعـانى ، ويضع غيرها ، وقد يؤدى عصر ما الى شيوع بعض المعانى وندرة بعضها الآخر ، فالدلالة تسمو أحيانا وتنحط أحيانا أخرى باعتبار نظرة المجتمع اليهـا ، ونوضح ذلك فيما يلى :

(أ) سمو الدلالـة :

قد تكون معانى بعض الألفاظ هينة وضيعة ، فتتحول الى معـان أخرى تعـد فى نظـر الجماعة أشرف أو أقـوى •

ومن ذلك كلمة (المجـد) — التى أشرنا اليهـا — فقد انتقلت من معنى هين الى معنى أشرف وأحسن •

وكلمة (امتاز) كانت تدل على مجرد الفصل كما فى قوله تعالى « وامتازوا اليوم أيهـا المجرمون »[٩٣] ثم أصبحت فيما بعـد تطلق على الفصل لمزية ، وهو معنى أرفع شأنا من سابقه •

ومن هـذا القبيل انتقال كلمـة (بيت) من الدلالة على المسكن المصنوع من الشعر الى البيت الضخم الكبير المتعدد الذى نعهـده فى المـدن •

ومما يتمثل به لذلك فى الانجليزية كلمة Marshal فقد كانت تعنى — فى وقت من الأوقات — « الذى يتعهد الأفراس » (Mares) أى صبى الاصطبل •

---

(٩٣) يس : الآية ٥٩ •

وقد اكتسب لفظـا (الفلاح والعامل) معانى طريفة بعد أن كان ينظر اليهما فى العصور الماضية نظرة احتقار ومهانة .

وأشهر الأمثلة الموضحة لهذا النوع يتعلق بالمستويات والفوارق الطبقيـة .

(ب) انحطـاط الدلالـة :

بعض الكلمات التى تدل على معان شريفة أو قوية أو معان عادية قد تكتسب — فى نظـر الجماعة معانى تتحاشاها ، وتنفر منهـا .

كمـا فى كلمة « الأفن » السابقة فقـد انتقلت الى معنى نقص العقل ، وهو أمر معيب عند الجماعة .

وكلمة (الاحتيال) كان معناها البحث وبذل الجهد للوصول الى هدف ما ثم تحولت — فى عصرنا — الى معنى الخداع للوصول الى مآرب شخصية ، وهـذا مستقبح فى عرف الجمـاعة .

ومن ذلك ما شاع بين الناس من احتقـار بعض الألفاظ نتيجـة التصور الحديث لهـا كاقطاعى ورجعى ومتخلف ونحوهـا .

وقد اختفت ألفاظ كثيرة من الاستعمال لارتباطها بما يتنافى مع التأدب وحسن اللياقة كالألفاظ الخاصة بالملابس الداخلية ، وألفـاظ التبول والتبـرز .

وقد ضعفت — بعد الثورة المباركة — كلمات مثل (الباشا — البك) ونحوهما(٩٤) .

---

(٩٤) د. السعران : علم اللغة ص٣٠٥ — ٣٠٨ .

الدلالة عند علماء العرب

١ ـ علم الدلالة اللغوى :

اهتم علماؤنا العرب ـ قبل الغربيين ـ بالدلالة لأن لغتهم تمتاز بالثراء الواسع ، والتصرف المعنوى العريض ، فكل لفظ ـ فى اللغة العربية ـ له ايحاءات كثيرة ويستعمل فى التراكيب المختلفة بمعان تتفاوت بتفاوت العبارات ، أضف الى ذلك ما تحويه من الكلمات التى تؤدى عدة معان ، تبعا لتعدد القبائل الناطقة بها .

وقد مرت الألفاظ العربية بتطورات عديدة باختلاف المناطق التى يقطنها أهلها ، وتتابع الأجيال عليها ، وقد سلكت الطريق الطبيعى لتطور اللغات والدلالات ، فانتقلت من المحسوس الى المعقول ، وعبرت عن مظاهر الحياة العربية فى شتى صورها[١] .

فالمجتمع العربى ـ فى قوامه الأصيل ـ كان مجتمع رحلة ومرعى ، والكلمات التى تدل على معنى الجماعة فى لسان العرب قلما تخلو من الاشارة الى الرحلة والرعاية .

---

(١) فالباحثون فى نشأة الدلالة « يجمعون على أنها بدأت بالمحسوسات ثم تطورت الى الدلالات المجردة بتطور العقل الانسانى ورقيه » (دلالة الألفاظ د. أنيس ص١٥٧ ،) فالدلالة الحسية هى الأصل ، والمعنوية هى الفرع ففى أول استعمال (العربى) (قطع) لم يكن يريد بها الا القطع الحسى لكنه بعد أن ارتقى فى الحضارة ، وارتقت تصوراته حدثت له معان جديدة بينها وبين القطع مشابهة ذهنية كقولنا : (قطع فى الأمر) أى جزم و (قطع الحوض) أى ملأه ثم (قطع الماء) فحمل عليها مجازا (جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص١٠٩) « وليس تطور اللغة الا مظهرا من مظاهر تطور الجماعة لا تسير فيه فى طريق متصل نحو غاية محدودة » (د. مراد كامل : دلالة الألفاظ ص١٩ ، ٢٠) وتطور اللغات يسير جنبا الى جنب مع التطور الذى يعترى الشعوب الناطقة بها ، ولذلك فاللغات تدل على مظاهر الحياة التى مرت بها تلك الشعوب تقدما وتأخرا ، وحضارة وثقافة ، وتشير الى عاداتهم ، وتقاليدهم ، وجميع آثارهم .

فالأمة هى الجماعة التى تؤم مكانا واحدا ، أو تأتم بقيادة واحدة ، والشعب هو الجماعة التى تتخذ لهـا شعبة واحدة من الطريق ، والفئة هى الجماعة التى تفىء الى ظـل واحد ، والنفر من القوم : من ينفرون معـا للقتال أو لغيره ، والقوم فى جملتهم : هـم الذين (يقومون) قومة واحدة للقتال خاصة ، ولهذا أطلقت أولا على الرجال ، ثم شملت الرجال والنساء ، ومن هذا قوله تعالى « ولا نساء من نساء » بعد قوله « لا يسخر قـوم من قـوم »[٢] .

« والجيش » من جيشان الحركة فى الأمكنة المتعددة ، أو المكان الواحد ، و « الجند » — على الراجح — يرجع الى « الجند » — بفتح الجيم والنون — وهى الأرض الغليظة التى لا يسـهل طروقها كأنهم استعاروه لمنـاعة المكان الذى يحميه المقاتلون المسلحون أو المستعدون للقتـال[٣] .

ولفظ « عقل » — فى العربية — مأخوذ من « العقل » بمعنى الربط والتقييد ويدل ذلك على أن فى معنى العقل عند العرب مفهوما خلقيـا بالاضافة الى العنصر الفكرى فهو يعقل عن المنكر والشر ، ولا يدل لفظ raison « ريزو » الفرنسى على مثل ذلك فان أصـل معناه العـدو والاحصـاء[٤] .

وكثير من تلك التغيرات الدلالية خضع لأسلوب المجـاز والنقل[٥] .

ولمـا ظهر الاسلام تغير مدلول كثير من الألفاظ للتغييرات ، الدينية والاجتماعية التى جاء بهـا ، فكلمة « فرج » كانت فى الجاهلية تدل على كل انفتاح كما فى قول لبيـد :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه   مولى المخـافة خلفها وأمامها

---

(٢) الحجرات الآية ١١ .

(٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص٦٥ — ٦٨ بتصرف .

(٤) د. محمد المبارك : فقه اللغة ص١٣٨ .

(٥) أنظر ما ذكرناه آنفا عن علاقات انتقال المعانى ص ٢٣٠ وما بعدها من هذا الكتاب .

ثم جاء الاسلام فخصص عموم هذا المعنى بالمدلول الفقهى للكلمة الذى يوضحه أن الصيام هو الامساك عن شهوتى البطن والفرج ، وعلى مر التاريخ والمعانى تتغير ، فالعلق كان يدل على الشيء النفيس ، والخول كانت تدل على الخدم فى اللغة افصحى ، ولكن معنى الكلمتين تغير على مر العصور تغيرا مخجلا الى مفهومها العامى .... كل أولئك تغير فى الدلالة من عصر الى عصر والعلماء يعتبرون ذلك نموا أو انحلالا[٦] .

ومن معرفة هذا التغير الدلالى يمكن للباحث تتبع تاريخ اللغة ، والكشف عن أصالة الكمات العربية (فاذا التبس علينا أمر كلمة من الكلمات فلم نعلم فى ظاهر الأمر أهى من ألفاظ العرب الأصيلة أم من الدخيل عليها فلدينا هذا المقياس الحاضر نقيس به دلالة الكلمة ، ونردها الى حياة العرب والى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة ، فلا يطول بنا العناء فى الرجوع الى أصل معقول نطمئن اليه ، وقد رد الأستاذ العقاد — بناء على ذلك — كلمة القانون الى اللغة العربية ، فالقانون Canon تصغير للقناة Cane ... ونحن نجزم بأن القناة كلمة لم يأخذها العرب عن اليونان لأن الأقنية من النخل ومن عيدان الشجر ، ومن مسايل الماء ، ومن أسنة الرماح أصول عريقة فى حياة العرب لا تستعار[٧] .

وللصيغ والحركات فى اللغة العربية أثر فى تعدد المعانى ، وكذلك قواعد النحو العربى ، قد بنيت على اتجاه المعنى (فليست قواعد النحو العربى بهذه المقاييس فى علم الألسنة ، فالمزية البينة فى هذه القواعد أنها تابعة لأغراض التعبير والدلالة ، وليست هذه الأغراض تابعة لها فى أصولها أو فروعها وقد وضعت فيها الفروق بين صيغ الأسماء والصفات على حسب معانيها وعلاقاتها ، وأغراض المتكلم والسامع ، فانما يجرى فيها الاختلاف بين الأوزان والصيغ لبيان الاختلاف فى

---

(٦) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص٢٤١ .

(٧) العقاد : اللغة الشاعرة ص٦٨ ، ٧٠ .

مدلول الكلمة ، ودرجتها ، وقـد تشاركها اللغات الأخرى فى بعض هذه المزايا ولكنها لا تجمعها كمـا جمعتها فى واحدة منهـا)[٨] .

ومن هنا تعرف أن لغـة العرب تقف على رأس اللغات التى تمتاز بالدلالة وأثرها فيها ، لهذا لم يكن الأستاذ العقاد مبالغا حين قال (ان هذا البحث يجمـع بين أغراض التاريخ وأغراض البيـان ، وأغراض الدراسة النفسية والاجتماعية[٩] .

والدلالة هى قوام اللغة ، ووظيفتها ، ومقياس كفايتها ، وارتقائها عند المقارنة بين اللغات[١٠] .

وتاريخ الدراسة اللغوية يثبت أن علماء العرب تناولوا موضوع الدلالة التى (بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علمـاء اللغات الأخرى فى العصور الحديثة)[١١] .

وراودهم الأوائل الذين جمعوا اللغة فى رسائل خاصة ، استمرت فى التدرج حتى وصلت الى صورتها المثلى فى المعاجم هم الذين أرسوا دعـائم هذا الفن فى اللغة العربية ، فالمعاجم تبحث الكلمات ، وتذكر معانيها غـير أنه يؤخذ على جامعيها أنهـم لم يبينوا تاريخ التغيرات المعنوية ، وسابقها ولاحقها اللهم الا كتاب مقاييس اللغة لابن فارس فهو (مثل رائع للمعاجم التى تعنى بمعانى الألفاظ ، ومحاولة الربط بينها ، واعادتها الى أصول قليلة تفرعت عنهـا ، وقد وفق فى ذلك الى حـد بعيـد)[١٢] .

ويذكر الأستاذ العقاد : أننا لا نحتاج كثيرا الى التسلسل التاريخى فى وضع معجماتنا الحديثة ، لأن هذا التسلسل ضرورى فى اللغات التى

---

(٨) العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص١٢ .
(٩) العقاد : اللغة الشاعرة ص٧٢ .
(١٠) العقاد : مجلة الأزهر — عدد شعبان ١٣٨١ ص٩٢٢ .
(١١) د . المبارك : فقه اللغة ص ١٣١ .
(١٢) المصدر السابق ص ١٣١ .

يكثر فيها اهمال الكلمة فى معنى ، وسيرورتها فى معنى آخر ، ولكنه لا يبلغ هذا المبلغ من الضرورة حين توجد الكلمة مستعملة فى جميع معانيها على السواء أو على درجات متقاربة(١٣) .

كما تناول العرب فى دراساتهم بحوثا تعد من هذا الفن ، كالاشتقاق ، والحقيقة والمجاز ، والتضمين ، ودلالة اللفظ على عدة معان ، ودلالة عدة ألفاظ على معنى واحد ، والتى يدخل تحتها ، المشترك والمتضاد والمترادف ، وغير ذلك من بحوث علم الدلالة .

وقد ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى كتابه المسمى (الزينة فى الكلمات الاسلامية والعربية) وهو مؤلف بارع فى هذه الناحية ، فقد عالج فيه مؤلفه عددا من الألفاظ الاسلامية ودرسها دراسة تطورية تاريخيه ، وتتبع معانيها من العصر الجاهلى حتى العصر الاسلامى(١٤) .

وعقد ابن فارس فى كتابه (الصاحبى) فصلا بعنوان (باب القول فى حاجة أهل العلم الى معرفة اللغة العربية) أوجب فيه العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا حتى لا يخطىء فى الأحكام ، فلقد غلط أبو بكر بن داود أبا عبد الله محمد بن ادريس الشافعى فى كلمات ذكر أنه أخطأ فيها طريق اللغة(١٥) .

وعقد ابن جنى فى كتابه (الخصائص) فصلا بعنوان (باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية) طلب فيه من علماء الشريعة أن يتفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها وأن يعرفوا مجازاتها ، لأن الجهل بها يؤدى الى ضلال بعيد ، وضرب أمثلة للجهل باللغة الذى أوقع بعض المفسرين فى الخطأ فى تأويل بعض الآيات ، والأحاديث الشريفة(١٦) .

---

(١٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص٤٧ .

(١٤) أنظر كتاب الزينة نفسه ط٢ سنة ١٩٠٧ م وانظر د. المبارك : فقه اللغة ص١٣١ .

(١٥) ص٦٣ — ٦٥ .

(١٦) ج٣ ص٢٤٥ — ٢٥٥ .

ولعلماء أصول الفقه — الى جانب علماء اللغـة — بحوث تتعلق بالدلالة لاتصالها بكثير من المسائل الفقهية ، يقول أستاذنا الدكتور نجـا (ان الباحثين الأصوليين اضطروا الى التعرض لمباحث لغوية وان لم تكن من صميم علم الأصول ليكون الباحث على ذكر منها كالمشترك والمتضاد والمترادف ومعانى الحروف ، والأسماء الشرعية ، وقد ذكرت فى كتب الأصول فى قسم خاص بهـا عرف بالمبادىء اللغوية) .

ومن أمثلة استخدام علماء أصول الفقه هذه المباحث أن المشترك — وهـو اللفظ الدال على معنيين فأكثر دلالة مستوية كالعين لمعـانيها المختلفة — قد اختلف العلماء فى استعماله مرادا به معنياه أو معانيه دفعة واحدة فقد جوز ذلك مالك والشافعى مستدلين بما ورد فى قوله جـل ثناؤه : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمـر والنجوم والجبـال والشجر والدواب وكثـير من الناس) [١٧] قائلين : ان السجود قـد استعمل فى معنييه مرة واحدة ، اذ السجود من الآدمى يكون بوضع الجبهة على الأرض ، ومن غـيره بالانقياد والخضوع ، فقصد المعنيان دفعة واحدة ، ومنع ذلك الحنفية مفسرين السجود فى الآية بمطلق الخضوع وهو يتحقق فى الانسان وغيره ، وان كانت صورة الخضوع متفاوتة ... ووجهة الحنفية أولى بالقبول فى هذا المقـام لأن استعمال المشترك فى معنييه مرة واحـدة يؤدى الى الابهام الذى استند اليه المانعون فى وجود هذا الصنف من الألفـاظ[١٨] .

ومن هنا وللحاجة الى مباحث الدلالة لتعلقها بالشريعة والقوانين الدينية ، اعتنى علماء أصول الفقه بكثير من مسائل الألفاظ ودلالتها[١٩] .

وبعد فلا جدال فى أن علماء العرب قد ضربوا بسهم وافـر فى بحـوث الدلالة ، وشـاركوا فى نشأة علم الدلالة اللغوى التى ثبتت أهميته فى اللغـة العربية .

---

(١٧) الحج الآية ١٨ .

(١٨) أنظر د. نجا : فقه اللغة العربية ٤/٥ ، ٦ .

(١٩) د. المبارك : فقه اللغة ص١٣٤ .

٢ — عناية العرب بالألفاظ والمعـانى :

أردت أن أثبت بهذا البحث أصالة العربية ، وعمق دلالتها ، وأن اللفظ والمعنى فيهـا صنوان ، يرتبط أحدهما بالآخر ، وأن العربى لم يفصل أحدهما عن صاحبه ، بل اهتم بهما معا ، وذلك ليبطل زعم الزاعمين الذين يشككون فى جدارة العربية بالتفوق • ويتهمونها بأنها لغة الألفاظ•

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده يعد من أسس البحث فى دلالة الألفاظ فى اللغـة العربية •

فنقول : « الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتـاج صاحب البلاغة الى اصـابة المعنى كحاجته الى تحسـين اللفـظ »[١] •

والعربية — كما وصلنا من آثار أهلها الناطقين بها شعرا ونثرا تصل بين اللفظ والمعنى بوشائج القربى ، وتهتم بهما ، بل ربما كان المعنى هو الأشرف فيها ، واللفظ موضوع على سمته ، وشاهد بصحته ، وخادم له (فالعرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخـرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها ، وتتكلف استمرارها فان المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا فى نفوسها فأول ذلك عنايتها بألفاظها فانها لـما كانت عنوان معانيها ، وطريقا الى اظهـار أغراضها ومراميها ، أصلحوها ورتبوها ، وبالغوا فى تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لهـا فى السمع ، وأذهب بهـا فى الدلالة على القصد ، ألا ترى أن المثل اذا كان مسجوعا لذ لسامعه ، فحفظه ، فـاذا هو حفظه كان جديرا باستعماله ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفس به ولا أنقت بمستودعه)[٢] •

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص٦٦ •

(٢) ابن جنى : الخصائص ج١ ص٢١٥ ، ٢١٦ •

ويبدو من هذا النص أن العرب اهتمت بموسيقى الألفاظ لتؤثر فى السامع ، وللدلالة على المعنى .

ويؤكد ابن جنى أن المعنى السامى يحتاج الى لفظ جيد للتعبير عنه « فقد نجد من المعانى الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنـــه[٣] .

وهو بذلك يؤكد أن العربى الذى اعتاد الفصاحة والبلاغة رســـم الغتـــه طريق قوة آدابها من الناحيتين اللفظية والمعنوية ، فهذب لفظها لتهذيب معنـــاها .

ويعقد الامام عبد القاهر الجرجانى فى كتابه (دلائل الاعجاز) فصلا يؤكد فيه بالشواهد بطلان كون الفصاحة فى اللفظ وينسبها الى المعنى[٤] .

ويقول : ان سبب الفساد هو ظنهم فى اللفظ ، وجعلهم الأوصاف التى تجرى عليه كلها أوصافا له فى نفسه ، ومن حيث هو لفظ وتركهم أن يميزوا بين ماكان وصفا له فى نفسه ، وبين ما كانوا قد أكسبوه اياه من أجـــل أمر عرض فى معناه[٥] ثم يقرر أنه « اذا كان الأمر كذلك وجب أن تعلم قطعا وضرورة أن تلك المزية فى المعنى دون اللفظ »[٦] .

ويقول الجاحظ « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجـــزل ، والافصاح للافصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال ، وقد قال : لكل مقام مقال[٧] .

---

(٣) المصدر السابق ج١ ص٢١٧ .

(٤) ص٣٢٩ — ٣٣٢ .

(٥) المصدر السابق ص٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٦) المصدر السابق ص٢٥٥ .

(٧) الجاحظ : الحيوان ج١ ص٤٣٣ .

وبهذا يندفع الاعتراض على الأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

بأن الشاعر قد دبج اللفظ فى حين أن المعنى بسيط هو : لما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا ابلنا الأنضاء ، لا ينظر الغادى الرائح ابتدأنا الحديث ، وسارت الابل فى الأبطح[٨] .

وقد أوضح الامام عبد القاهر الناحية البلاغية فى الأبيات فقال : (ان استحسانها يرجع الى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها أو حسن تركيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع فقوله (كل حاجة) تعبير عن قضاء المناسك بأجمعها بطريق العموم ، وكلمة (أطراف الحديث) تشير الى التصرف الذى يكون بين الرفاق فى فنون القول وشجون الحديث وفنه من الاشارة ، والتلويح والرمز ، والايحاء ، وأنبأ ذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط بين الأصحاب والأحباب ، وكذلك أشار الى الاستعارة فى أعناق المطى ، ودلالتها التعبيرية [٩] بل قال : انها فى غاية الحسن واللطف ، وعلو الطبقة[١٠] .

---

(٨) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٥٦ ، ٥٧ وقد نقل الاعتراض وأجاب عليه ابن جنى فى الخصائص ج١ ص٢٠٨ — ٢٢١ والامام عبد القاهر فى أسرار البلاغة ص٢٧ وابن الأثير فى المثل السائر ص١٤٠ والأستاذ العقاد فى المراجعات ص٩٦ والأستاذ عنبر فى قضية الأدب ص٤٢ وتوسط أبو هلال العسكرى فعدها رائعة الألفاظ معجبة وليس تحتها كبير معنى (الصناعتين) ص٥٥ ، ٥٦ .

(٩) عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ص١٥ — ١٨ .

(١٠) عبد القاهر : دلائل الاعجاز ص٤٩ ، ٥٠ .

وقد أفـــاض عبد القاهر فى رجوع بلاغة الأبيات الى المعانى لا الألفاظ فحسن الكلام يرجع الى الأولى لا الى الثانية .

وأكد الأستاذ العقاد أن تلك القطعة حافلة بتلك الصور التى تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين فى الصور المتحركة ، فيكاد القارىء ينسى كلماتها وحروفها وهو ينشدها لما يستشفه فيها من الأخيلة المتلاحقة وما يصاحبها من الخواطر الحية المتساوقة ، ولو أن تلك الأبيات نقلت الى اللوحة لملأت فراغا من الشريط المصور لا يملؤه أضعافها من قصائد المعانى وقصص الوقائع من صور الحجيج التى رسمها ، وصورة القائل ، وما فى نفسه من الشجن واللوعة ، والى جانب هذه المناظر والخواطر حواش يضيفها الخيال وتمليها البديهة ، فاذا أنت من الأبيات فى واد يمـــوج بالمشاهد ، ويتتابع بدواعى الشعور [11] .

وينتقص بعض النقـــاد العرب والمستشرقين من عناية العرب بالمعانى ويدعى أنهم يهتمون بالصناعة اللفظية .

فالدكتور ابراهيم أنيس يرى أن العرب عنيت باللفظ أكثر من المعنى أو بعبارة أخرى عنيت بموسيقى الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه ، ويعلل لتلك العناية اللفظية بقوله (انا فى ندائنا بهذا الرأى نعزوه الى الظروف الاجتماعية التى نشأت فيها تلك الآداب من شيوع الأمية بين العرب ، واعتمادهم على السمع ، والمشافهة فى تلقى النصوص وتداولها)[12] .

ويقول — أيضا — « وفى رأيى أن ظاهرة الموسيقية فى اللغة العربية تعزى فى أغلب عناصرها الى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على مسامعهم فى الحكم على النص اللغوى ، فاكتسبت تلك الآذان المـــران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ،

---

(١١) العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ص٩٦ .

(١٢) د. أنيس : دلالة الألفاظ ص١٩٦ .

وأصبحت مرهفة تستريح الى كلام لحسن وقعه أو ايقاعه ، وتأبى آخـــر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهــل الموسيقى نشـــاز)[١٣] .

ومن المستشرقين جارسيا جرميز فقد قال : ان الصناعة اللفظية هى موضع العناية الكبرى فى الأدب العربى بين نثر مقيد بالأسجاع وبين ألوان من المجازات ، والأشباه والطلاوات ، واللوازم تعوزها الحرارة والشعور وكأنما هى كلهـــا عرض من العروض المقنعـــة بالبراقع حيث البسمات لآلىء والعيون أزهار بنفسجيات ، والرياض والجداول سيوف ، أو شاعر يشبه نفسه بالطير الذى أثقل ندى الممدوح جناحيه ، فأعيـــاه أن يطير ، أو برق يومض بين الغمام كأنه ضرام العشق فى قلب الشاعر يتوهج من خلال دموعه (وغير ذلك من) قوالب منقولة يحكيها النظامون من وحى الذاكرة[١٤] .

ودعوى أن اللغة العربية تهتم باللفظ ، ولا تنظر الى المعنى الا قليلا دعوى زائفة قـــام الدليل على نقضها ، وقد ذكرنا من كلام ابن جنى ما يؤكد اهتمام العرب بموسيقى اللفظ من أجــل خدمة المعنى .

وقد انحى الأستاذ العقاد باللائمة على المستشرقين الذين قالوا : أن اللغة العربية تؤمن باللفظ أكثر من المعنى أمثال جارسيا جرميز وعـــد حكمهم هذا خطأ ذريعـــا ، كيف لا وهم لا يحسنون الحكم على شاعرين من بنى جلدتهم فأحرى بهم ألا يحسنوا الحكم على الشعراء من أبناء اللغات التى تخالف لغاتهم فى تراكيبها ومصطلحاتها ، ومن أبناء الأمم التى تخالف أممهم فى أمزجتها وعاداتها ، والسبب فى هذا الخطأ أنهم يقومون مقـــام الحفاظ دون ادراك محاسن الشعر العربى فى ظـــاهره وخفاياه ، والا ألفاظه ومعانيه[١٥] .

---

(١٣) المصدر السابق ص١٩١ .
(١٤) العقاد : اللغة الشاعرة ص٥١ .
(١٥) العقاد : اللغة الشاعرة ص٥٢ ، ٥٣ بتصرف .

فاللغة العربية لغة معنى ، والصور المحسوسة فيها ترتفع الى حدود المعانى المجردة ، فيستمع العربى الى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة الا ريثما ينتقل فيها الى المقصود من معناه ، فالقمر — عنده بهاء ، والزهرة نضارة ، والغصن اعتدال ورشاقة ، والطود وقار وسكينة[16] .

وقد كتب الدكتور عثمان أمين فصلا كاملا من كتابه (فلسفة اللغة العربية) يؤكد فيه أن العربية تؤمن بالمعنى ، وتختار له اللفظ المناسب وعلى حد تعبيره : تؤثر الجوانية على البرانية ، والتفكير الواعى يتصوره العرب صادرا عن هذه الجوانية ، ألسنا نراهم يعبرون عنه بألفاظ القلب واللب والحجى والنهى أكثر مما يعبرون عنه بأفاظ المخ ، والدماغ ، والرأس ، ويفرقون بين القرابة والقربى ، واحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح[17] .

وتلك خصيصة لها تفضل بها اللغات الأخرى ، يقول المستشرق الفرنسى لوى ماسنيون : انه فى حين أن اللغات الهندو أوربية جعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجى نجد اللغة العربية وكأنها هى لغة التأمل الداخلى ففيها — بفضل تركيبها الداخلى وطراز الخلوة الذى توحى به — قدرة خاصة على التجريد والنزوع الى الكلية والشمول ، ومن هنا كان للعرب الفضل فى استكشاف رموز الجبر ، وصبغ الكيمياء ، والمسلسلات الحسابية[18] .

ومما ذكره المستشرق الفرنسى كارادوفو : تفرقة العربية بين الكبر الداخلى ، والكبر الخارجى ، فالداخلى هو استعداد فى النفس ، والخارجى ناتج عن أفعال الجوارح ، واللفظ الفرنسى الذى يدل على معنى الكبر هو

---

(١٦) المصدر السابق ص٤٠ .
(١٧) ص٣٧ .
(١٨) د. أمين : فلسفة اللغة العربية ص٨ .

orqueil (أورجى) أما التكبر فأولى أن يكون مرادفه الفرنسى superbe (سوبيرب) ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحـد الى اللغات الأخرى ، وخلص من هذه الملاحظة الى التنويه بمـا تنطوى عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق (مادام أن احداث تغيير طفيف فى بنيـة اللفظ العربى يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحـالة النفسية وبين العادة البدنية التى تطابقها) (١٩) .

وبهذا قد اعترف الأجانب بما للغـة العربية من سبق على اللغات الأخرى فى المعانى والألفاظ جميعـا .

ويبدو لنا صواب هذا الرأى ، فصيغ العربية ، والمعانى التى تؤديها والتى تنتقل اليها عن طريق المجـاز وغيره ، وعلاقات الكلمات بعضـها ببعض وطرائق الشعراء فى التعبـير عن أغراضهم ذلك وأشباهه — بالملاحظة — يرينا قيمة المعنى فى لغتنا ، وان الأديب العربى لم يكن ليأخذ صنعة الألفاظ مجردة من النظر الى المعانى ؛ بل يضع ما يختاره من اللفظ الجزل والرقيق أو الخشن ، والمفرح أو المحزن ، والأسلوب المملوء بالأنفة والتصميم أو اللين والضعف فى مكانه وزمانه المناسبين ، فاللغة لم تكن الا للتعبير عن الأفكار والمعانى ، والعرب أرباب البلاغة وهى معجزتهم الخالدة التى نزل بهـا القرآن الكريم أعلى مثل بلاغى .

---

(١٩) المصدر السابق ص٤٦ ، ٤٧ .

٣ — من بحوث الدلالة عند العرب :

نتناول هنـــا بالبحث بعض قضايا الدلالة ودراسة العرب لها لنبرهن على عمق الدراسة العربية وأصالتها فى هذا الجانب المهـــم من الدراسة اللغوية ، ونعرض قضيتين اثنتين همـــا (الاعـــراب) و (الاشتراك والتضاد والترادف) .

قضـــية الاعـــراب

وجود الاعراب فى الساميات :

النظـــر فى الساميات[1] يؤكد أن الاعراب كان موجودا فى هذه الفصيلة اللغوية (الفصيلة السامية) الا أنه فقد من معظمها على مـــر العصور ، وقد بقيت منه بقايا فى بعض فروعها .

يقول المستشرق برجستراسر (ان الأعراب سامى الأصل تشترك فيه اللغة الأكدية ، وفى بعضه اللغة الجبشية ، ونجد آثارا منه فى غيرها).

ففى الأكدية[2] — كالعربية — تستخدم علامات الاعراب .

فالمفرد : يرفع بالضمة ، وينصب بالفتحة ويجـــر بالكسرة .

والمثنى : تقع فى آخره ألف ونون — فى حالة الرفع — وفى حالتى النصب والجـــر ينتهى فى البابلية بياء ونون ، وفى الأشورية بحـــركة امالة متطورة عن اليـــاء المفتوح ما قبلها ، والنون .

---

(١) حظى بالاعراب بعض اللغـــات الأوربية كاليونانية ، واللاتينية ، والألمانية ، بيد أن معظم لغات أوربا الحديثة تخلو منه الآن فلا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر وانما يقوم مقامها الحاق أدوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها على نحو ما يحدث فى عاميتنا الآن . جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص١٣٢ وانظر العقاد : اللغـــة الشاعرة ص٢٢ وابن خلدون . المقدمة ص٥٠٦ .

(٢) البابلية والأشورية ، وتبدأ نصوصها فى القرن الثلاثين ق.م.

وجمع المذكر السالم : يقع فى آخره واو مـد (ضمة طويلة) رفعا ، أما فى حالتى النصب والجر فتستعمله البابلية بياء مـد (كسرة طويلة) ، وتستعمله الأشورية بحركة امالة طويلة كالسابقة .

وجمع المؤنث السالم : يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة كالعربية

وفى الحبشية[٣] ينصب المفعول به ونظائره بالفتحة ، ويحـرك المضاف بالفتحة كذلك ، وهى حالة غريبة لا توجد فى غيرها من اللغـات السامية .

وتظهر بقايا الاعراب — كذلك — فى الأوجاريتية[٤] وهى تتبـع نظاما أبجديا لا تظهر فيـه الحركات الا مع الهمزة ؛ فاذا وقعت آخـرا ظهرت فى صورة الضمة حـال الرفع ؛وفى صورة الفتحة حـال النصب، وفى صورة الكسرة حـال الجـر .

وفى النبطية — التى عرفت العلاقة بينها وبين العربية — وجـدت بعض مظاهر الاعراب ، وبدا ذلك من النقوش التى عثـر عليها ، ويذكر المستشرق الألمـانى (نولدكه) أن النبط كانوا يستعملون الضمة فى حالة الرفع ، والفتحة فى حالة النصب ؛ والكسرة فى حالة الجـر ، ويؤكد ليتمان أن النبطية كانت تختلف فيها أواخـر الكلمات بحسـب مواقعها الاعرابية .

وفى العبرية بقايا اعرابية تظهر فى مواضع منهـا المفعول به ، ويبدو أن علامة النصب فى العبرية القديمة كانت (الفتحة الطويلة) التى

---

(٣) هى لغة الموجة السامية التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية ، وأقامت لها مملكة فى شمال الحبشة كانت عاصمتها (أكسوم) فى القرن الأول الميلادى .

(٤) من الفرع الكنعانى ، وهى لغة مدينة أوجاريت شمال اللاذقية وتعرف الآن برأس شمرة ، وكانت تقوم فيها مظاهر العمران البشرى فى القرن التاسع عشر ق.م وانتهت حياتها فى القرن الثالث عشر ق.م.

نشأت عنها هـــاء متطرفة تذكر فى أواخر الكلمات ، وتشبه الألف اللينة ، ويظهر ذلك واضحا فى الاسم المنصوب بنزع الخافض ، وفى أواخـــر الظروف المنصوبة مثل Laila بمعنى (ليـــل) و Atta بمعنى (حتى) وكذلك فى المصدر الذى يناظر المفعول المطلق فى العربية ، الا أنه وفق القواعد العبرية تأتى بعد (الفتحة الطويلة) ميـــم زائدة (ما يسمونه التمييم ويقابله التنوين فى العربية) فيقال مثـــلا : Uomam بمعنى (يومـــا) و Hattam وتعنى (مجـــانا) ونلمح آثارا فى العبرية ترشد الى أن الضمة ، والكسرة كانتـــا علامتين اعرابيتين فيهـــا •

وجـــوده فى العربية :

أما العربية فيكاد يجمع العلماء على أن الاعراب ظاهرة لغوية اتسمت بهـــا من قديم الزمان ومنذ نشأتها •

ويقول المستشرق يوهان فك : ان العربية الفصحى قد احتفظت فى ظاهرة التصرف الاعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغـــات السامية باستثناء البابلية القديمة قبـــل عصر نموها ، وازدهارها الأدبى[٥] •

ويقول الدكتور السامرائى : وقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الاعراب ، وهى من صفات العربية الموغلة فى القـــدم •

وبعض الباحثين اللغويين كانوا يخضعون البحث اللغوى — منـــذ زمن غير قصير للنظرية القائلة بأن اللغات تمر بحالات ثلاث على التتابع •

---

(٥) العربية ص٣ وجاء فى التاريخ القديم أن اللغة التى انتشرت فى المملكة البابلية قبـــل زمن حمورابى بعشرين قرنا أو أكثر كانت ذات حركات للاعراب ، وأنها قضت أكثر من ألفى عام وهى ذات حياة فى سجلات الحكومة ودواوينها وعلى السنة العلية من القوم • أنظر : أحمد رضا العاملى : مولد اللغة ص٧٨ •

١ — حـالة العـزل .

٢ — حـالة الالصاق .

٣ — حـالة الاعراب .

وكان من المسلم به أن كل لغـة من اللغات المعروفة كانت على احدى هذه الحالات الثلاث وفقـا لمرحلة التطور التى عرفناها فيهـا(٦) .

ونقل ابن جنى رأيا عن أبى الحسن أجـاز فيه أن تكون الكلمات المبنية قد كانت قديما معربة ، فلما كثرت غيرت ، وأجـاز مع ذلك أنهم ابتدأوا بناءها لأنهم علموا أنه لابد من كثرة استعمالها على حـد قـول الشاعر :

رأى الأمر يفضى الى آخـر   فصـير آخـره أولا

وقد رجـح ابن جنى أنهم ابتدأوا بناءها لأنه أدل على حكمتها ، وأشهد لهـا بعلمها بمصاير أمرها(٧) .

والنظرة التطورية الى اللغة لا تقبل بحال أن نعد ظاهرة الاعراب فى العربية وجدت هكذا دفعة واحدة ، فالطبيعى أن الاعراب لم يصل الى هذه الدرجة الدقيقة المنظمة فى العربية الا على مراحل ودرجات لابد أنه بسيطا ، كما هو الحـال عند أخواتها .

---

(٦) فندريس : اللغة ص٤٢٣ .

(٧) ابن جنى : الخصائص ٣١/٢ ، ٣٢ وقد ذكر أبو القاسم الزجاجى أن الخلاف واقع قديما فى الاعراب هـل نطقت به العرب فى أول تبلبـل ألسنتها ؟

فقيل : هكذا نطقت به فى أول وهلة ، ولم تنطق به زمانا غير معرب ثم أعربته ، وقد أجاز بعض الناس أن تكون العرب نطقت به أولا غير معرب ، ثم رأت اشتباه المعانى فأعربته ، فتتكلم به . أنظر الايضاح : ص٦٧ — ٦٩ .

ولعـل كثيرا من الألفاظ التى تعربها العربية الآن كانت فى وقت ما مبنية ، ثابتة أواخرها على حركة واحدة ، أو على سكون ، أقصـد أن الاعراب لم يكن مطردا على أواخر الألفاظ المعربة ، وعلى النحو الذى نراه الآن[٨] .

وهذا الرأى ربما استمده قائله مما ذكره فندريس وما رواه ابن جنى فى خصائصه فيما تقـدم .

وقد يصح هذا القول فى عصور نشأة العربية أما بعد اكتمالها على ألسنة أهلها فقد اتصفت بالاعراب الكامل سليقة ، وطبعـا .

ويرى بعض الباحثين المحدثين — كالدكتور ابراهيم أنيس — أن الاعراب كان من خصائص اللغـة النموذجية ، فظاهرة الاعراب لم تكن ظاهرة سليقة فى متناول العرب جميعا — كما يقول النحـاة — بل كانت صفة من صفات اللغـة النموذجية الأدبية ، ولم تكن من معالم الكلام العربى فى أحاديث الناس ، وخطابهم[٩] .

ويوافقه الأستاذ عبد المجيد عابدين بعض الموافقة حين يقول : ان العربى كان اذا عـاد الى بيئته أو بيته عـاد الى لهجته الدارجة هذه اللهجات الدارجة لم تكن فى أغلب الظن معربة اعراب لغـة قريش ، وكان الاعراب فى هذه اللهجات بسيطا ، وهى تذكرنا على كل حـال باللهجات العربية الحديثة[١٠] .

ويتفق د. أنيس وعابدين فى القول بأن النحويين اخترعوا بعض قواعد الاعراب ، فالدكتور أنيس يجعل الاعراب قصة يقول عنهـا : ما أروعها قصة ! لقد استمدت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل

---

(٨) عبد المجيد عابدين : المدخل الى دراسة النحو العربى ص٣٤ — ٣٧
(٩) د. أنيس : من أسرار اللغة ط٣ ص١٨٩ ، ١٩٠ .
(١٠) عبد المجيد عابدين : المدخل ص٤٣ .

الجزيرة العربية ، ثم حيكت وتم نسجها حياكة محكمة فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أو أوائل الثانى على يد قوم من صناع الكلام[١١] .

ثم يقول : والنحويون ابتكروا فى اللغـة أصولا ، وقواعد رغبة منهم فى اطراد الاعراب ، وانطباقه على كل أسلوب[١٢] .

وقد نمـا نفوذ النحاة على مرور الأيام ، وأصبح الكتاب والقراء يعرضون عليهم بضاعتهم ، فمـا أجازوه منها تقبله الناس قبولا حسنا ، وأصبح النحوى يشرع لهـم ، ويقنن ، ويحـل ، ويحرم ، لا يتورع عن تخطيىء أفصح الفصحاء ، أو تجريح أبلغ البلغاء متى انحـرف عن أصول النحو ، وقوانينه الاعرابية[١٣] .

نرى من كل هذا أن النحاة حين استقرت لهم قواعدهم الاعرابية فرضوها على الفصحاء من العرب ، وفرضوها على الفحول من الشعراء ، ثم فرضوها فى آخـر الأمر على أصحاب القراءات[١٤] .

والأستاذ عابدين لا ينكر كذلك أثر النحاة فى ابتكار بعض ظواهر الاعراب ، وفى اجراء القياس على بعض نماذجها رغبة منهم فى الوصول الى قواعد مطـردة منسجمة[١٥] .

وقد ادعى الدكتور أنيس أن النحـاة العرب قد اخترعوا قواعد الاعراب على نظام النحو فى اللغات الأخرى « كاليونانية ـ مثـلا ـ ففيها يفرق بين حالات الأسماء التى تسمى Cases ويرمز لهـا فى نهاية الأسماء برموز معينة ، وكأنما قد عـز على النحـاة ألا يكون فى

(١١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص١٨٣ .
(١٢) المصدر السابق ص١٨٤ .
(١٣) المصدر السابق ص١٩٤ .
(١٤) المصدر السابق ص١٩٦ .
(١٥) عبد المجيد عابدين : المدخل ص٣٩ .

العربية أيضا مثل هذه ال Cases فحين وافقت الحركة ما استنبطوه من أصول اعرابية قالوا عنهـا : انهـا حركة اعراب • وفى غير ذلك سموها حركة أتى بهـا للتخلص من التقـاء الساكنين »[١٦] •

ومن هذا يتلخص أن الدكتور (أنيس) ومن تابعه يدعون أن الاعراب لم يكن فى لهجات التخاطب عند العرب القدماء ، وأن بعضه اخترع لطرد القواعد ، وانسجامها •

وربمـا كان هذا القائل تابعـا فى رأيه — بأن الأعراب لم يـكن مراعى فى اللهجات الدارجة — للأستاذ (Marcel Cohen) الذى يقول : أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الاعراب لم تكن مراعاة الا فى اللغـة الفصيحة الأدبية لصعوبتها على اللهجة الدارجة[١٧] •

وقد بنى هؤلاء رأيهم على اللهجات العامية فى العصر الحاضر فى خلوها من الاعراب ، وعلى أن الاعراب صـعب[١٨] •

---

(١٦) د• أنيس : من أسرار اللغة ص٢٩ •

(١٧) د• السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٦ ود• الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص١٢٧ •

(١٨) ظهرت — منذ مطلع هذا القرن — بناء على ذلك — دعوات هدامة تحبذ استعمال العاميات فى الأقطار العربية ، ونبذ الفصحى ، وتعدت ذلك الى ترك الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية ، وقد قادها المستشرقون ومن سار على دربهم من العرب •

يقول المستشرق الفرنسى ماسنيون : (ان اهمال الاعراب ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب ، ويكون فى الوقت نفسه تجديدا يليق بمؤسسة المجمع) • (يقصد المجمع العلمى العربى بدمشق ، وكان عضوا فيه) • ويقول بعض المتشبهين بهم : (على أن فى مراعاة قواعد النحو من الحاق علامات الاعراب بالجمل التى تتألف منهـا أحاديثنا ، ومحاوراتنا تفريطا فى الوقت ، وتضييعا له ، وفى عدم مراعاتها توفيرا للوقت وحرصا عليه) •

ومع ذلك فشلت هذه الدعوة الهدامة كما فشل ما انبنى عليها من الدعوة =

ورد عليهم الدكتور وافى فى كتابه (فقه اللغة) ، وتنحصر أدلته فيما يأتى :

١ — اللهجات العامية الحديثة خضعت لقوانين التطور ، فى مفرداتها ، وأوزانها ، ودلالاتها ، فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها ، فلا تقوم دليلا ، وقد خضعت لقانون التطور الصوتى — وهو ضعف الأصوات الأخيرة فى الكلمة ، وانقراضها — وهو قانون عام خضعت له جميع اللغات الانسانية فى تطورها ، وفى اللهجات العامية الحديثة بقايا من الاعراب مثل (أبوك — أخوك) فى عامية مصر .

وفى معظم لهجات العراق[19] تثبت النون فى الأفعال الخمسة مثل : يمشون — تمشون — تمشين .

٢ — روى بعض الباحثين أن آثار الاعراب بالحركات لا تزال باقية فى لهجات بعض القبائل الحجازية فى العصر الحاضر ، ويستفاد ذلك من كثير من كتب التاريخ ، ففى كتب أبى الفدا أن العربية بقيت فى بعض لهجات المحادثة حتى أواخر العصور الوسطى .

ونضيف الى هذا أن الزبيدى فى تاج العروس (مادة عكد) ذكر أن قرية قرب جبل عكادا كانت لا تزال فصيحة حتى عصره (وقد توفى الزبيدى سنة ١٢٠٥ هـ) .

٣ — صعوبة قواعد الاعراب لا تدل على اختراعها ، فاليونانية ، واللاتينية — مع صعوبة ودقة الاعراب فيهما — كالعربية — لا تزال تستعمل حتى الآن فى المحادثة ، وخلق القواعد خلقا لا يتصوره العقل ،

= الى العامية ، فقد تبين للجماهير العربية ، وعلمائها خبث هذه الدعوات ، فوقفوا لها بالمرصاد ، كما ذللت الصعوبات التى كان يتذرع بها فى هذا الصدد بتأليف الكتب السهلة التى تضم خلاصة القواعد الاعرابية والصرفية والتى تناسب مدارك المتعلمين .

أنظر : سعيد الأفغانى : حاضر اللغة العربية فى الشام ص١٥٦ — ٢١١

(١٩) والسعودية كما خبرت ذلك بالسماع منهم .

اذ اللغـــة هى التى تفرض نفسها ، ولم يكن هناك صلة بين علماء النحـــو العـــربى والاغريق ، حتى يقتبسوا منهم ، لأنهـــم لم يكونوا يعرفون اليونانية مع أن قواعد العربية تختلف اختلافا جوهريا عن اللغة اليونانية.

٤ — كان علماء البصرة والكوفة يأخذون فى وضع القواعد من لغة المحادثة عند القبائل العربية ، متحرين الدقة فى ذلك ، وليس بمعقول أن يتواطأ جميع العلماء مع علماء النحو على هذا الاختلاق ، والاختراع .

٥ — اكتشفت نقوش فى شمال الحجاز تدل دلالة قاطعة على وجود الاعراب فى العربية البائدة نفسها .

٦ — أوزان الشعر العربى تقوم على الموسيقى ، ولابد لهـــا من الاعراب .

٧ — تواتر القرآن بالاعراب[٢٠] . دليل قاطع على وصول الكلمات الينـــا معربة وكذلك رسم المصحف العثمانى ، مع تجرده من الاعجام ، والشكل ، وذلك أن المصحف يرمز الى كثير من علامات الاعراب بالحروف المؤمنون — رسولا — شهيدا ... الخ .

ولاشك أن المصحف العثمانى قد دون فى عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة ، والكوفة الذين تنسب اليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الاعراب[٢١] .

وقـــد أثبت المستشرق يوهان فك أن الاعراب من سمات العربية القديمة ، فأشعار عرب البادية من قبل العهد الاسلامى ، ومن بعـــده ، ترينا علامة الاعراب مطردة كاملة السلطان ، كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الاسلاميين كانوا حتى القرن الرابع الهجرى ، والعاشر الميلادى — على الأقل — يختلفون الى عرب البادية لدرس لغتهم .

---

(٢٠) وكذلك نقلت الينا الأحاديث النبوية معربة ، وطريقة نقلها موثوق فى صحتها ومقاييسها . أنظر د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢١) أنظر د. وافى : فقه اللغة ص٢٠٤ — ٢١٠ .

تدل على أن التصرف الاعرابى كان بالغـا أشده لذلك العهد ، بل لانزال حتى اليوم نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الاعراب ، كما استدل — أيضا — بالقرآن الكريم ، واعرابه ، اذ أنه أقدم أثر من آثار النثر الأدبى[٢٢] .

ودقة الاعراب ، وتنوعه ليست مانعـا من التخاطب بلغة معربة ، ولهذا نظائر فى تاريخ اللغات الأوربية كالألمانية التى لا تزال لغة تخاطب بين الألمـان[٢٣] .

وعـد الدكتور مهدى المخزومى هذا الرأى — أيضـا — زعمـا يستند الى تجاهل تلك القرائن القاطعة[٢٤] .

ووصف الدكتور صبحى الصالح جعل الاعراب قصة بأنه غلو لاريب فيـه[٢٥] .

وكذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعى اذ يقـول :

نقطع بأن اللحن لم يكن فى الجاهلية البتـة ، وكل ما كان فى بعض القبائل من خـور الطباع ، وانحراف الألسنة فانما هو لغـات لا أكثر ، ولا عبرة بما يهجس به بعض أولئك الذين تراهم فى مجازفتهم ، وتخرصهم كأنما يشرحون للناس عـلم الغيب[٢٦] .

وقد ذكـر ابن جنى أن العرب أشـد استنكارا لزيغ الاعراب منهم، لخلاف اللغـة[٢٧] .

---

(٢٢) يوهان فك : العربية ص٣ ، ٤ .
(٢٣) عبد المجيد عابدين : المدخل ص٤٢ ، ٤٣ .
(٢٤) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو ص٢٤٧ .

(٢٥) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص١٢٩ .
(٢٦) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص٢٣٩ ، ٢٥٤ .
(٢٧) ابن جنى : الخصائص ٢/٢٦ .

وهذه الردود القاطعة تنفى أن لهجات التخاطب الأولى كانت خالية من الاعراب ، كما تنفى أن يكون النحـاة قد اخترعوا شيئا من القواعد .

فالحقيقة الناصعة أن الاعراب ثابت فى العربية ، وقديم قدم العربى نفسـه .

لم دخـل الاعراب الكـلام ؟

١ — رأى معظم الباحثين القدامى والمحدثين :

دار حوار طويل بين علماء اللغـة حول علامات الاعراب — التى هى الحركات — وما تدل عليـه .

وجمهرة الباحثين قديما وحديثا يقولون : ان الاعراب دخل الكلام لافـادة المعانى المختلفة .

يقول أحمد بن فارس : فأما الاعراب فبه تميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلا لو قـال : (ما أحسن زيد) — غير معرب — أو (ضرب عمرو زيد) — غير معرب — لم يوقف على مراده ، فاذا قال : ماأحسن زيدا — بفتح نون أحسن ونصب زيدا — أو : ماأحسن زيد — بضم نون أحسن واضافة زيد اليه — أو : ما أحسن زيد — بضم نون أحسن وجعل زيد فاعلا — أبان بالاعراب عن المعنى الذى أراده ، ثم يقولون : هذا غلاما أحسن منه رجـلا — يريدون الحال فى شخص واحد ، ويقولون : هذا غلام أحسن منه رجـل — فهما اذا شخصان ، وتقول : كم رجـلا رأيت ؟ فى الاستخبار ، وكم رجـل رأيت . فى الخبر يراد به التكثير ، ومن حواج بيت الله — بضم الجيم المشددة واضافة حواج الى بيت — اذا كن قد حججن ، وحواج بيت الله — بنصب بيت — اذا أردن الحج ، ومن ذلك جـاء الشتاء والحطب — بنصب الحطب —

لم يرد أن الحطب جـــاء ، انما أراد الحاجة اليه ، فان أراد مجيئهما قال : والحطب — بالرفع — وهذا دليل يدل على ما وراءه[٢٨] ٠

ويقول فى موضع آخــر : ان الاعراب هو الفارق بين المعانى ، ألا ترى أن القائل اذا قــال : (ما أحسن زيد) لم يفــرق بين التعجب ، والاستفهام والذم الا بالاعراب ، وكذلك (ضرب أخوك أخانا) و (وجهك وجه حر) — باضافة وجه الى حــر — و (وجهك وجه حــر) — برفعهما منونين على الصفة — وما أشبه ذلك من الكلام[٢٩] ٠

ويقول فى موضع ثالث : من العلوم الجليلة التى خصت بها العرب الاعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد[٣٠] ٠

ويقول ابن جنى : الاعراب : هو الابانة عن المعانى بالألفاظ ، ألا ترى أنك اذا سمعت : أكرم سعيد أباه ، وشكر سعيدا أبوه علمت برفع أحدهما ، ونصب الآخر الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه ٠

وهو يشرح معانى الاعراب فيقــول :

ان لفظه مصدر أعربت عن الشىء : اذا أوضحت عنه ، وفلان معرب عمــا فى نفسه : أى مبين له ، وموضح عنه ، ثم يقــول :

---

(٢٨) ابن فارس : الصاحبى ٠ « باب الخطاب الذى يقع به الافهام من القائل والفهم من السامع » ص١٦١ ، ١٦٢ ٠

(٢٩) ابن فارس : الصاحبى « باب القول فى حاجة أهل الفقه والفتيا الى معرفة اللغة العربية » ص٣١ ٠

(٣٠) المصدر السابق « باب ذكر ما اختصت به العرب » ص٤٢ ٠

وأصل هذا كله قولهم العرب ، وذلك لمـا يعزى اليها من الفصاحة والاعراب ، والبيان ثم يقـول :

ولمـا كانت معانى المسمين مختلفة كان الاعراب الدال عليها مختلفا أيضا ، وكأنه من قولهم : (عربت معدته) أى فسدت كأنها استحالت من حـال الى حـال كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة .

وقد ألمـح ابن جنى الى جواز التقديم والتأخير للفاعل ، والمفعول لدلالة الحركات الاعرابية عند حديثه عن مثل (ضرب يحيى بشرى) متى يجوز تقديم الفاعل وتأخير المفعول ، فالعبرة عند خفـاء الاعراب على قرائن أخرى ، والا لم يجـز تقديم المفعول على الفاعل(٣١) .

ويقول أبو القاسم الزجاجى : ان الأسماء لمـا كانت تعتورها المعانى فتكون فاعلة ، ومفعولة ، ومضافة ، ومضافا اليهـا ، ولم تكن فى صورتها وأبنيتها أدلة على هذه المعانى ، بل كانت مشتركة جعلت حركات الاعراب فيهـا تنبىء عن هذه المعـانى .

ثم قال : وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم ، ويقدموا الفاعل ان أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه ، وتكون الحركات دالـة على المعانى هذا قول جميع النحويين الا قطربا(٣٢) .

ومعظم الباحثين المحدثين يؤيد هذا الرأى .

فالأستاذ العقاد يقول : ان الاعراب فى اللغة العربية أثر من آثـار استخدام الحركة فى التعبير عن المعنى(٣٣) ، ثم يذكر أن ذلك مفيد فى

---

(٣١) ابن جنى : الخصائص : (باب القول على الاعراب) ١/٣٥ — ٣٧

(٣٢) الزجاجى : الايضاح ص٦٩ ، ٧٠ وانظر العاملى : مولد اللغـة ص٧٦ .

(٣٣) العقاد : اللغة الشاعرة ص١٩ .

التراكيب العربية ، فهو آية السليقة الفنية فيهـا توافرت لهـا جمـلا مفهومة بعد أن توافرت لهـا حروفا تجمع مخارج النطق الانسانى على أفصحها ، وأوفاهـا •

ومزية أخرى وهى أنه يجوز مع الاعراب — كما ذكر السابقون — التقديم والتأخير ، وذلك يحتاج اليه فى كل وزن من أوزان البحـور •

ولم تكن قواعد الاعراب لتسعد الشعر هذا الاسعاد فى تطويع أوزانه لمعانيه لو أنه نظـم قصائده بلغـة أجنبية لأنه لا يظفر فى تلك اللغـة بالكلمات التى تتساوق فيها أوزان الصرف ، وأوزان الشعر ، ولكن اللغـة العربية تنفرد بسمة الشاعرية لأنها جمعت على هذا المثـال البديع بين أبواب الاشتقاق ، وحركات الاعراب(٣٤) •

ويقول الدكتور عثمان أمين :

« لمـا كانت العربية لغـة تتوخى الايضاح ، والابانة كان الاعراب احدى وسائلها ، فكان افصاحا عن صلات الكلمات العربية ، بعضها ببعض وعن نظـم تكوين الجمل ، بالحالات المختلفة لهـا »(٣٥) •

ويقول الأستاذ عابدين : ان « حركات الاعراب تبين وظيفة الكلمة المعربة فى العبارة ، وعلاقتها بما عداها من أجزاء الكلام »(٣٦) •

والأستاذ جرجى زيدان : يثبت أن الاعراب أرقى ما وصلت اليـه اللغات حتى الآن •• فـان تقديم الألفاظ ، وتأخيرها قلمـا يؤثران فى المقصود من العبارة اذا حفظت حركات الاعراب ، ففى العربية الفصحى

---

(٣٤) المصدر السابق ص٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ •

(٣٥) د• أمين : فلسفة اللغة العربية ص٥٢ ، وفى اللغات الأخرى غير المعربة يميـز بين الكلمات بمواقعها ، وبأدوات خاصـة •• المصدر السابق ص٥٢ — ٥٤ •

(٣٦) عابدين : المدخل ص٣٣ •

تقول : قتل الأسد النمر ، وقتل النمر الأسد والأسد قتل النمر ، والأسد النمر قتل (قتله) والنمر قتل الأسد — برفع الأسد ونصب النمر فيها — وجميعها ، تفيد أن الأسد القاتل ، والنمر المقتول ، واذا أردنا العكس لا نحتاج الا الى تغيير حركات الاعراب »[٣٧] .

ونحن نميل الى هذا الرأى الذى يثبت أن الحركات الاعرابية دوال على المعانى ، فلولاها ما عرفنا الفاعل من المفعول ، ويكفى أن نذكر أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئا يقرأ : «أن الله برىء من المشركين ورسوله» — بالجر — فقال : معاذ الله أن يكون بريئا من رسوله اقرأ : « أن الله برىء من المشركين ورسوله » — بالرفع — فالكلام واحد ، ولم يتغير فيه الا حركة اللام ، فاذا حركت بالكسر ، أدى الى كفر ، واذا حركت بالرفع أدى الى معنى مستقيم لا كفر فيه »[٣٨] .

وقد روى أن ابنة أبى الأسود سألته : ما أحسن السماء يا أبت ؟ — برفع (أحسن) وجر (السماء) — فقال : نجومها ، فقالت : لا أريد هذا انما أتعجب من حسنها ، فقال : ما هكذا تقولين قولى : ما أحسن السماء — بالنصب[٣٩] وفى رواية أخرى وافتحى فاك .

فدلالة حركات الاعراب على المعانى — فى نظم الكلام وتراكيبه — هو الصواب الذى لا معدل عنه .

٣ — رأى ابن مضاء :

يجعل ابن مضاء الاعراب جزءا من بنية الكلمة فلا يسأل عنه كما لا يسأل عن أية حركة فى بنية الكلمة .

---

(٣٧) جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية ص١٣٢ .
(٣٨) محمد عرفة : النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ص ١١٧ .
(٣٩) المصدر السابق ص١١٧ .

يقول : « وكما أنا لا نسأل عن عين «عظلم»[٤٠] وجيم (جعفر) ، وباء (برثن) لم فتحت هذه ، وضمت هذه ، وكسرت هذه ، فكذلك أيضا لا نسأل عن رفع (زيد) ، فان قيل : (زيد) متغير الآخر . قيل : كذلك (عظلم) يقال — فى تصغيره — بالضم ، وفى جمعه — على فعائل — بالفتح ، فان قيل : للاسم أحوال يرفع فيها ، وأحوال ينصب فيها ، وأحوال يخفض فيها قيل : اذا كانت تلك الأحوال معلومة بالعلل الأول ، الرفع — بكونه فاعلا ، أو مبتدأ ، أو خبرا ، أو مفعولا لم يسم فاعله — والنصب — بكونه مفعولا — والخفض — بكونه مضافا اليه — صار الآخر كالحرف الأول الذى يضم فى حـال ، ويفتح فى حـال ويكسر فى حـال ، يكسر فى حـال الافراد ، ويفتح فى حـال الجمع ، ويضم فى حـال التصغير »[٤١] .

وقد عـد ذلك الدكتور أنيس مذهبا جديدا ، فهو « يشبه حركات الاعراب بالحركات التى هى جـزء من بنية الكلمة ، أو الصيغة والتى هى شرط فى التعرف على هذه الكلمة ، أو تلك الصيغة ، فى حين أن فقدان الكلمة لحركات اعرابها لا يفقدها شيئا من معالمها ، ولا يؤثر فى فهمنا لمعناها ، فـكم من كلمات نقف عليها بما يسمى السكون ، ومع ذلك ندرك بسهولة المراد منهـا ، ولا يلتبس علينا الأمر فى التعرف على مركزها من الجملة »[٤٢] .

ويقول : ان « قياس حركات الاعراب على تلك الحركات التى هى جـزء أساسى من بنية الصيغ قياس مع الفارق لأن تغير حركات الاعراب لا يؤثر فى الصيغة ولا يغير معنى الكلمات »[٤٣] .

ولكننا نرى أن ابن مضاء يتفق مع العلماء السابقين — أصحاب الرأى

---

(٤٠) العظلم : كزبرج الليل المظلم ، وعصارة شجر ، أو نبت يصبغ به .
(٤١) ابن مضاء : الردعلى النحاة ص١٦٠ ، ١٦١ .
(٤٢) د. أنيس : من أسرار اللغة ص٢٢٦ .
(٤٣) المصدر السابق ص٢٢٧ .

الأول في دلالة حركات الاعراب على المعاني[٤٤] ، غاية ما هنالك أنه يمنع التعليلات المعقدة التي تجعل من الاعراب مشكلة عويصة ، فهو يكتفي بأن يقال : ان هذا الاسم مرفوع ، لأنه فاعل ، وهذا منصوب لأنه مفعول ، ولا ينبغي أن يكون هناك سؤال بعد ذلك ، وتلك هي العلل الأولى التي يدعو اليها .

وأما الدكتور أنيس فقد هاجمه في دلالة الحركات على المعاني فهو يؤمن بأنها ليست كذلك[٤٥] . وسنناقشه بعد قليل عند عرضنا لرأيه .

٣ — رأى قطرب ومن تابعه :

يرى قطرب (محمد بن المستنير تلميذ سيبويه)[٤٦] أن العرب « انما أعربت كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الاسكان في الوقف ، والوصل ، وكانوا يبطئون عند الادراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للاسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ، ولا في حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة في كلامهم فجعلوا الحركة عقب الاسكان »[٤٧] .

---

(٤٤) يقول الدكتور الصالح : ان ابن مضاء لم يبلغ بآرائه الجديدة في النحو حد انكار ما للحركة الاعرابية من مدلول ، بل كان على العكس من ذلك يرى : أن فقدان هذه الحركة في كلمة ما لابد أن يؤثر في توجيه فهمها حتى ليوشك أن يعتبر الحركات الاعرابية جزءا من بنية الكلمة . أنظر : دراسات في فقه اللغة ص١٤٢ .

(٤٥) د. أنيس : من أسرار اللغة ، ص ٢٢٨ .

(٤٦) ت سنة ٢٠٦ هـ ، أنظر : الزبيدي في طبقاته ص١٠٦ ، والسيوطي بغية الوعاة ص١٠٤ والقفطي : انباه الرواة ٣/٢١٩ .

(٤٧) الزجاجي : الايضاح ص٧٠ ، ٧١ .

فالاعراب — فى رأيه — ليس للدلالة على المعانى ، بل لا يعدو أن يكون مجرد حركات لوصل الكلام ، وهو يعاقب السكون ، فالكلام اما موقوف عليه أو موصول ، فاذا وقف عليه يلزمه السكون ، واذا وصل حرك ، « ولم يلتزموا حركة واحدة لئلا يضيقوا على أنفسهم ، فأرادوا الاتساع فى الحركات ، وألا يحظروا على المتكلم الكلام الا بحركة واحدة »(٤٨) .

وقد تابع قطربا فى رأيه الدكتور ابراهيم أنيس من المحدثين ، فهو يقول : يظهر — والله أعلم — أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعرا أو نثرا ، فاذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج الى تلك الحركات ، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون كما يظهر أن الأصل فى كل الكلمات أن تنتهى بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ الى تحريك الكلمات الا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل » .

« ولهذا كله نرجح أن حركات أواخر الكلمات لم تكن تفيد تلك المعانى التى أشار اليها النحاة ، من الفاعلية ، والمفعولية ، ونحو ذلك ، وانما هى حركات دعا اليها نظام المقاطع ، وتواليها فى الكلام الموصول ، ثم انها لم تكن ملتزمة فى كل الحالات ، بل قد رأينا ألا ضرورة لها الا فى القليل من الأحيان ، وقد كانت تلك الحركات التى تطلبها نظام المقاطع تتذبذب بين الفتح أو الضم أو الكسر ، وكان الذى يعين الحركة أحد عاملين طبيعة الصوت المحرك ، أو انسجام الحركة مع ما يكتنفها من حركات أخرى(٤٩) .

ففى مثل : (الشجر مورق) لم يكن العربى يحتاج الى تحريك الراء ، ولكنه فى مثل : (شجر التفاح) يحتاج الى تحريك الراء ، وقد نقل عن

---

(٤٨) د. أنيس : من أسرار اللغة ص٢٠٨ .
(٤٩) المصدر السابق ص٢٥٣ .

العرب أنهم كانوا يتخلصون من التقاء الساكنين باحدى الحركات الثلاث ، — الكسرة — الضمة — الفتحة — ثم خصه النحاة بالكسرة ، وجعلوا الحالات الأخرى اعرابا ، ثم طردوا الظاهرة التى اخترعوها .

وللدكتور أنيس رأى فى الاعراب بالحروف كالمثنى ، وجمع المذكر، والأسماء الخمسة .

فقد جعل حالات الاعراب — رفعا ونصبا وجرا — منسوبة لقبائل متعددة ، كانت كل منها تلتزم صيغة واحدة لها ، ثم جمعها النحاة ، وفرقوها على حالات الاعراب ، فالمثنى كان يستعمل بالألف — مطلقا — عند بعض القبائل ، وبالياء — مطلقا — عند آخرين ، وقد عد الدكتور أنيس الصيغة بالياء أصلا ، وبالألف فرعا ، وجمع المذكر كان يستعمل بالواو عند قبائل معينة ، وبالياء عند غيرهم ، وخص الأولى بحالة الرفع ، والثانية بحالى النصب والجر ، وكذلك الأسماء الخمسة كانت تستعمل بالواو عند جماعة ، وبالألف عند فريق ثان ، وبالياء عند فريق ثالث ، ثم خص النحاة كل صورة بحالة اعرابية .

وقد أجرى الدكتور أنيس شرحا واسعا لطرق الوقف فى العربية محاولا أن يستنبط منها أدلة لهذا الرأى الذى « حلاله أن يلتزم به مفصلا فيه ، وكأنه أول من قال به »[٥٠] وبعد أن أجرى دراسات مستفيضة للوصل ، والوقف وبعض الاستنتاجات العربية الأخرى يقول :

فاذا عرفنا أن أصول الاعراب كانت محل الزلل ، والخطأ ، بين أصحاب اللغة ، بل الفصحاء منهم ، واذا كانت هذه الأصول الاعرابية لا تتفق فى بعض الأحيان مع ما صح سنده من قراءات قرآنية ، ولا مع بعض الفواصل القرآنية ، وما تتطلبه من نظام موسيقى ، واذا كان سقوط تلك الحركات الاعرابية فى حالات الوقف لا يغير من المعنى ، ولا يؤثر

---

(٥٠) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٣ .

فيه ، واذا كانت آراء النُحاة بصدد الأصول الاعرابية على تلك الصورة من الاضطراب ، والاختلاف الشائع فى كتبهم فهل بعد كل هذا يطمئن الباحث المنصف الى قواعده ، ويعتقد أن النحاة قد نجحوا فى تفسير ظاهرة لغوية سمعوها ، فاستقرأوا شواهدها ، واستنبطوا طرقها[٥١] .

وهذا الرأى — مع ما ذهب اليه قطرب من القدامى — لا يخرج عن اعتبار حركات الاعراب لا معنى لهـا ، فى الدلالة على فاعلية ، أو مفعولية ولا تفيد فى تركيب الجمل ، ونحوها من نظم التراكيب اللغوية ، بل هى مجرد حركات للوصل ، والانسجام الموسيقى فى الكلام .

وقد رد الأقدمون على قطرب بأنه لو كان كما زعم لجـاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ، ونصبه ثالثة وجـاز نصب المضاف اليه ، لأن القصد انما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخير فى ذلك ، وفى هذا فساد للكلام ، وخروج عن أوضاع العرب ، وحكمة نظام كلامهم »[٥٢] .

وهذا الرد يهـدم مذهب قطرب ، لأنه لا يجعل للغـة اطرادها وانسجامها ، كمـا أراد .

ولم ترتض جمهرة الباحثين انسياق الدكتور أنيس وراء هذا الرأى — بتفصيلاته التى ذكرناها — فقد وصفه الأستاذ عضيمة بأنه أسرف فى زعماته ودعاويه[٥٣] وأنه خلط وتخبط[٥٤] .

---

(٥١) د . أنيس : من أسرار اللغة ص٢٣٣ .

(٥٢) الزجاجى : الايضاح ص٧١ .

(٥٣) الشيخ عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السادس ص٧٧ .

(٥٤) المصدر السابق ص٨٠ . وأنظر أيضا ص٦٩ .

وعـــد الدكتور السامرائى رأيه فى الاعراب افتراضا لا يقوم على أساس علمى تاريخى[٥٥] .

وكذلك الأستاذ عابدين حين قال : لسنا نرى ما رآه الدكتور ابراهيم أنيس من أن تحريك أواخر الكلمات كان لعوامل صوتية[٥٦] .

ولأستاذنا الشيخ عضيمة وقفات معه بين فيها خطل رأيه .

فالدكتور أنيس جعل حركات أواخر الكلمات للانسجام دون أن يبين ضوابط هذا الانسجام وحدوده ، واذا سئل عن ذلك لم تسمع منه الا همهمة لا تبين وغمغمة لا تتضح ، تارة يكون الانسجام عنده بأن تحرك الحرف الأخير بحركة ما قبله ، وتارة يكون بأن يحرك الحرف الأخير بحركة ما بعده ، ومن حق هذا الانسجام أن يرفع وينصب ، ويجر ويسكن الأسماء والأفعـــال[٥٧] .

وقد جعل لنفسه امتياز الكشف عن ماهية هذا الانسجام فهو خاضع لهواه ومزاجه .. ولو جعل هذا الانسجام من حق المتكلم أو القارىء لكان سمحا كريما[٥٨] .

لقد تعرض النحويون لحملات ظالمة فى عصور مختلفة ، وما جرؤ أحـــد على أن يرميهم بما رماهم به الدكتور أنيس .

وقد ناقشه فى نظريته وبين فسادها .

فالدكتور أنيس يذكر قول أبى ذؤيب .

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعـــا ... الا أقض عليك ذاك المضجـــع

---

(٥٥) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٣ .

(٥٦) عابدين : المدخل ص٣٧ .

(٥٧) د. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، العدد السابق ص٦٩ .

(٥٨) المصدر السابق ص٦٧ .

ويهرب من الحديث عن كلمة (مضجع) لم جاءت مرفوعة مع أن الانسجام يقتضى خـلاف ذلك ؟

ثم انه يدعى أن قول أبى ذؤيب •

« أمن المنون وريبها تتوجع »

قد أخطـأ النحويون فى ضبطه فهو يخالف النحويين فى أن تكون حركتها الكسرة ، ويرجح أن الشاعر قد نطق نون « المنون » مفتوحة لانسجام هذا مع طبيعة النون ، ومع ما يكتنفها من حركات ، ولا شك أن الانسجام بين الحركات يأبى توالى الضم ثم الكسر ثم الفتح كما يزعم النحـاة •

ويقول الأستاذ عضيمة معلقـا :

يزعم الدكتور أن الانسجام بين الحركات يأبى توالى الضـم ، والكسر ، ثم الفتح ، من أين أتى بهذا القانون ؟ وكيف وقع عليه ؟ ان توالى الضم والكسر ثم الفتح جـاء فى الكلمة الواحدة (عـلم) — (سمع) — بالبناء للمجهول — أفـلا يأتى فى كلمتين ؟

ونجد توالى الضم ، والكسر والفتح كثيرا جدا فى القرآن الكريم •

ومن أمثلته قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) (٢٠ : ١٢٨) الى غير ذلك مما ذكره الشيخ عضيمة من آيات وجـاء ذلك فى قول الأعشى :

أأن رأت رجـلا أعشى أضر به   ريب المنون ودهر متبل خبل

(المنـون ودهـر) •

ويقول الأستاذ عضيمة : ولست أعرف معنى لقوله (ان الشاعر نطق بالنون مفتوحة لانسجام هذا مع طبيعة النون ، هل يرى أن الكلمات

المختومة بالنون لا ينبغى أن تكون مجرورة أو يرى أن كلمة (المنون) وحدهـــا لا تكون مجرورة •

جـــاء لفظ (المنون) مجرورا فى قوله تعالى « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (٢٢ : ٣٠) •

ويقول الدكتور أنيس :

— وفى كلمة « ريب » ترى أنه يترتب على وصلها بما بعدها أن يتوالى ثلاثة حروف تواليا مباشرا هى : الياء + الباء + الهـــاء ، ولا يتأتى هذا فى نظام توالى الحروف العربية فى وصل الكلام ، ولذلك وجب تحريك الباء فى كلمة (ريب) غير أننا نخالف النحويين فى أن حركتها الكسرة كما يزعمون ونرجـــح أن حركتها هنـــا الفتحة لتنسجم مع ما يجاورها من حركات •

ويذكر الدكتور عضيمة أن هذا الموقف تتجلى فيه ثلاثة أمور :

١ — يختلق الدكتور أنيس قوانين لا أصل لهـــا وليست ثمرة اجتهاد ودراسة ولكنها وحى التخبيط والتخليط •

٢ — يصر الدكتور على أن النحويين عبثوا بكلام العرب ، وغيروا حركات أواخره ، يتهم النحويين هذا الاتهام الخطير من غير أن يقـــدم دليلا وحجة لمـــا يدعيه •

٣ — « من » الجـــارة لا يسمح لهـــا الانسجام عند الدكتور أن يقع الاسم بعدها مجرورا[٥٩] •

وقد ناقشه فى غير ذلك مما لا يتسع المقـــام لذكره •

---

(٥٩) د• عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص٧١ — ٧٥ •

وأشار الى أن الحركات الاعرابية لهـا أثر فى ايضاح المعانى المرادة وطبق ذلك فى كثير من الأمثلة[٦٠] .

وقد ناقش الدكتور مهدى المخزومى — أيضا — رأى الدكتور أنيس فى رسالته « مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو » مناقشة دقيقة وتتبع كلامه نقطة بعد الأخرى .

فاذا كانت حركات الاعراب — تبعـا لهذا الرأى — حركات لوصل الكلام فقد رجح الدكتور أنيس أن تكون كلمة « شاحبا » — فى قول الشـاعر :

قالت أميمة ما لجسمك شاحبـا   منذ ابتذلت ومثل مالك ينفـع

وقد نطقها الشاعر مكسورة ، ولكن النحاة أبدلوا الكسرة فتحـة لتنسجم مع قواعدهم[٦١] فهل يرى — مثلا — أن قوله تعالى من سورة الجن : (وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا) انما قرأها النبى ﷺ (كذب) بكسر الباء لتنسجم مع كسرة الذال كما زعم أن أبا ذؤيب كان قد نطق كلمة « شاحب » — فى البيت السابق — بكسر الباء ؟

وقد وقع كثير من الأمثلة المعربة بما يخالف رأى الدكتور مثـل : « لواقع » فى القرآن الكريم ، فوقوع الضمة فى العين بعد الكسرة فى القاف مما لا ينطبق عليه القانون الصوتى الذى استند اليه الدكتور لأن العرب — كما صرح الفراء وغيره — يستثقلون كسرة بعدها ضمة كمـا يستثقلون ضمة بعدها كسرة[٦٢] .

---

(٦٠) المصدر السابق ص٦٧ ، ٦٨ .

(٦١) د. أنيس : من أسرار اللغة ص١٤٩ ، ٢٥١ .

(٦٢) وكثير من هذه المواقع الاعرابية المشكلة فى فواصل القرآن قـد خضع لتنوع القراءات وترجحها بين صورتين متضادتين ، وحركتين متقابلتين كالضم ، والكسر مثلا كما يقول الدكتور الصالح . أنظر كتابه : دراسات فى فقه اللغة ص١٢٣ .

فعقلية الجماعة — كما يقول الدكتور المخزومى — قد تناسب هذا العامل الصوتى الذى يلح عليها بالانسجام بين الحركات فيما يتصل بحركة آخـــر الكلمة وهى الحركة الاعرابية تناسته مضطرة للتمييز بين أحوال الكلمات فى ثنايا التأليف والا فاتها الغرض وهو الافهـــام •

كيف يفسر الدكتور حالات الوقف عند من ينتظر ، ففى الرفع ينطقون بالضمة ، ويطيلونها فكأنما هى واو ، واذا وقفوا على المكسور أطـــالوا كسرته فكأنما هى ياء ، فيقولون : خالدو — خالدى ، وهناك من لا ينتظر ، وقريش كانوا وسطا بين هذا وذاك ، فيبقون الفتحة ، ويسقطون ماعداها: جـــاء خالد — مررت بخالد — رأيت خالدا •

« فاذا لم تكن الحركات أعلاما لمعـــان قصد اليها المتكلم بل لم تعد أن تكون حركات يحتاج اليهـــا — فى كثير من الأحيان — لوصل الكلمات بعضها مع بعض ، فكيف يفسرون الوقف على « خالد » فى لغـــة من ينتظر ؟ ولمـــاذا كانت الدال مرفوعة ، ومنصوبة ، ومخفوضة فى الجمل الثلاث ؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها ؟[٦٣] •

فالقول بأن الحركات ســـد للحاجة الى وصل الكلمات بعضها ببعض وأنهـــا ليست أعلاما للمعانى قول لم يحالفه التوفيق[٦٤] اذ تعترضه مشكلات كثيرة لا يستطيع حلهـــا ، والاجابة عنها ، فحالات الوقف التى استدل بها لا تعضده ، ومبدأ المناسبة الذى اعتمد عليه تخالفه النصوص الصريحة •

٤ — رأى الأستاذ ابراهيم مصطفى :

يدعى الأستاذ ابراهيم مصطفى أن النحاة العرب جعلوا الاعراب حكما لفظيا خالصا يتبع لفظ العامل وأثره ، ولم يروا فى علاماته اشارة

---

(٦٣) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ص٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٦٤) المصدر السابق ص٢٥٠ — ٢٥٢ .

الى معنى ولا أثرا فى تصوير مفهوم ، أو القاء ظـل على صورته[٦٥] .

ثم يخلص من ذلك ليقرر أن الضمة علم الاسناد ، ودليل أن الكلمة المرفوعة يراد أن يسند اليها ، ويتحدث عنها ، وأن الكسرة علم الاضافة ، واشارة الى ارتباط الكلمة بما قبلها ، سواء كان هذا الارتباط بأداة ، أم بغير أداة ؛ كما فى « كتاب محمد » و « كتاب لمحمد » .

أما الفتحة فليست علامة اعراب ، ولا دالة على شىء ، بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى بهـا الكلمة كلما أمكن ذلك ، فهى بمثابة السكون فى لغـة العامة .

فللاعراب الضمة ، والكسرة فقط ، وليستا بقية من مقطع ولا أثرا لعامل من اللفظ بل همـا من عمل المتكلم ليدل بهما على معنى فى تأليف الجملة ؛ ونظـم الكلام[٦٦] .

ودعوى أن انحاة لم يروا حركات الاعراب دالة على المعانى منقوضة فهـم قد نصوا على أن الضمة علم الفاعلية ، والفتحة علم المفعولية ، والكسرة علم الاضافة ؛ وقد سبق ذكـر النصوص المؤيدة لذلك .

ويمكن أن نفهم هذه الدلالة — أيضا من قول ابن مالك :

ورفـع مفعول به لا يلتبـس ونصب فضلة أجـز ولا تقس

فمعنى البيت : أن الرفع علامة الفاعلية ، والنصب علامة المفعولية ؛ فأن كان هناك موضع تميز فيه الفاعل من المفعول بغير العلامة فأعط كل

---

(٦٥) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٤١ وانظر د. مهدى المخزومى فى النحو العربى من تقديم الكتاب للأستاذ مصطفى السقا ص٥ وص١٨٦ من كلام الدكتور المخزومى .

(٦٦) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٥٠ .

واحد منهما علامة الآخر ، مادام الأمر لا يلتبس ككسر الزجاج الحجر ، فانه معلوم هنــا الكاسر من المكسور[٦٧] .

فقول الأستاذ ابراهيم ان النحاة لم يجعلوا الحركات الاعرابية دلائل على المعانى قول يخالفه واقع الكلام العربى ، ودراسة النحاة له ، فكتبهم مليئة بالدلالة على ذلك .

وقوله ان الضمة علم الاسناد ، والكسرة علم الاضافة ليس جديدا وانما استمده من كلام السابقين .

ففى شرح الكافية للرضى أن الرفع علم كون الكلمة عمدة فى الكلام والعمدة هو ما كان أحــد ركنى الاسناد ، فقول الرضى (علم كون الكلمة عمدة) مساو لقول القائل (علم الاسناد) الا أنه أراد بعض ما تدل عليه عليه الكلمة — وهو كون الكلمة مسندا اليها — ولم يرد الشق الآخر — وهو كون الكلمة مسندة — مع أن كلمة الاسناد شاملة للمعنيين .

والخلاف بين هذا القائل وبين ما ذهب اليه الرضى وغيره من النحويين المتقدمين منحصر فى التعليل لمــا خرج عن هذا الحكم ، أى ما كان مسندا أليه ونصب ، أو ما كان مسندا ونصب[٦٨] .

وقوله : ان الكسرة علم الاضافة منقول عن العلامة ابن الحاجب وشارحه المحقق الرضى[٦٩] .

فالأستاذ ابراهيم يرى أن الكسرة تدل على معنى فى الكلام — وهو الاضافة — ويرى — أيضا — أن الأضافة باب كثير الدوران فى الكلام ، وأسلوب واسع الاستعمال ، بل هى أداة تستعمل بيانا للأغراض المختلفة

---

(٦٧) وان كنا نرى أن هذا المثال ونحوه — كخرق الثوب المسمار — من صنع النحويين ، والاجابة عليها تكلف ظاهر .

(٦٨) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٢٨ ، ١٢٩ .

(٦٩) الرضى : شرح الكافية ١/٢١ .

وأن على النحاة أن يدرسوها درسا واسعا عميقا لا ليتبينوا أثرها فى اللفظ ، وحكمها فى الاعراب بل ليعرفوا سبيلها فى البيان ، وأثرها فى تصوير المعانى ، ومدى تصرف العرب فيهـا .

ونحن نجيبه بأن النحاة قد فعلوا ذلك ، فكما درسوا حكمها فى الاعراب درسوا سبيلها فى البيان ، وأثرها فى تصوير المعانى ، وعقدوا بابا لبيان معانى حروف الاضافة (حروف الجـر) وأطالوا ما شاءت لهم القدرة على استقصاء كلام العرب وبينوا متصرف هذه الحروف[٧٠] .

فلم يأت الناقد بجديد بل أتى برأى القدماء فى عبارة أخرى ، والذى ابتكره على وجـه الخصوص وهو ابتكار غير مقبول قوله : ان الفتحة ليست علامة اعراب ولا دالة على شىء بل هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب ، فهى بمثابة السكون فى لغـة العامة .

ودلل على استقامة رأيه فى أن الفتحة أخف من السكون بلزوم قطع النفس عند النطق ببعض الحروف ساكنا ، وارسال النفس فى البعض لضوا فى التخفيف ، وساووا مفتوح العين بالمضموم ، والمكسور .

والعـرب يميلون الى التخفيف فيسكنون عين الثلاثى اذا كانت مضمومة ، أو مكسورة — كرسل وفخذ — فاذا كانت مفتوحة — مثل جمل استبقوها مفتوحة ، فأخذ من ذلك أن السكون لو كان أخف من الفتحة لضوا فى التخفيف ، وساووا مفتوح العين بالمضموم ، والمكسور .

كذلك استدل بقول العرب فى جمـع (حسرة) ، (حسرات) و (دعـد) (دعدات) — بفتح العين — وقال : ان العرب تأبى أن تبدأ بساكن ، وترفض أن يجتمع فى نطقها ساكنان حتى تفـر من أحدهما بكسر أو فتح .

ثم ساق بعد ذلك أدلة على أن الفتحة ليست علم اعراب .

(٧٠) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٦٠ ، ١٦١ .

ولكن الأدلة التى ساقها لتأييد رأيه فى أن الفتحة أخف من السكون يتجه اليها النقد ، فقطع النفس فى السكون ، وترديده عند النطق ببعض الحروف لا يدل على ثقل السكون ، بل ان ذلك ناشىء من أن مخرج الحرف واحد ، وهذا بمثابة التأكيد فيه ، أما الفتحة ففيها خروج الى مخــرج حرف آخــر .

وتخفيف عين الثلاثى — فى مثل رسل — وفخذ وجمل — ان دل على أن الفتحة أخف من الضمة والكسرة ولذلك تخففوا منهما بالاسكان — لا يدل على أنهــا أخف من السكون .

وربما أخذ الباحث مما ذكره صاحب الرأى المذكور أن السكون أخف من الفتحة — فى مثل هذه المواقع — اذ لو كانت الفتحة أخف من السكون لتخففوا فى الأمثلة المذكورة بهــا دون السكون فكانوا يقولون ، رسل وفخــذ بفتح السين والخــاء .

والتخفيف فى حسرات ودعدات ونحوهما ليس فيه دلالة ، لأن التخفيف الحاصل جــاء من تماثل الحرفين (الحاء ، والسين ، والدال والعين) فى الحركة بدليل أنهم أجازوا فى المضموم والمكسور الاتباع مثل ، حنطة وخطوة فيقولون حنطات — بكسر الحاء والنون — وخطوات — بضم الخاء والطاء —[٧١] .

والاتفاق بيننا وبين الأستاذ ابراهيم أن الضمة والكسرة أثقل من

---

(٧١) عد الأستاذ العقاد هذا الاستدلال خاطئا قال : وهذا — أيضا — من خطأ القياس عند المعترضين على طرائق النحاة فى التقدير لأن السكون هنا لا يستثقل ، وانما يستثقل الانتقال من التحريك الى التسكين ، ثم من التسكين الى التحريك ولا فرق فى ذلك بين الفتحة والضمة لأنهم يقولون : الحجرات والغرفات والقبلات والظلمات — بدلا من تسكين الجيم أو الراء أو الباء أو اللام — وكذلك يقولون : القطن والغصن والعمر والكتب والأسد — بضم الأول والثانى — الى كثير من أمثالها ، لأن الاستمرار فى حركة واحدة أيسر من الانتقال منها الى تسكين ثم العودة بعد التسكين الى التحريك . أنظر : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص٣٢ ، ٣٣ .

السكون ، أما الابتداء فلا يجوز بالساكن لأن الساكن قطع فيتنافى البدء والقطع ، كذلك طبيعة النطق لا تسمح بالساكنين[٧٢] .

وقد استدل على أن الفتحة ليست علامة اعراب ببعض أحكام الوقف، وأحكام أخرى نحوية وعروضية[٧٣] .

١ — ومما استدل به أنه يجوز الوقف بالنقل على مضموم الآخر أو مكسوره ، أما مفتوح الآخر فلا يوقف عليه بالنقل ، فعدم نقل الفتحة يدل على أنها ليست علامة اعراب[٧٤] .

والأستاذ عرفة يقول : ان العكس صحيح ، فعدم نقل الفتحة يدل على أنها علامة اعراب ، وأن الضمة والكسرة — لعدم الاحتفاظ بهما — أولى ألا يكونا علم اعراب ، وهذا دليل مساو لدليل المؤلف[٧٥] .

ويمكن أن يقال : انهم لم ينقلوا الفتحة ، لأن الوقف على المنون المنصوب بالألف وابقاء الفتحة فلا حاجة الى النقل ، وحمل عليه الوقف على المنصوب غير المنون[٧٦] .

كذلك أستدل الأستاذ ابراهيم بأن الوقف بالروم لا يكون على ساكن ،ولا على متحرك بالفتح ، وانما يكون فى الضمة والكسرة ، فيستدل بذلك على أن الفتحة لا تدل على معنى .

والأولى العكس وهو ألا يدل اشمام الضمة والكسرة على أن لهما معنى[٧٧] .

---

(٧٢) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٦٤ — ١٦٦ .

(٧٣) من المفيد أن يرجع فيها وفى الرد عليها الى كتاب النحو والنحاة للأستاذ محمد عرفة .

(٧٤) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٨٧ .

(٧٥) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٦٧ .

(٧٦) المصدر السابق ص١٦٨ .

(٧٧) المصدر السابق ص٨٩ .

٣ — ومن علـم القافية استدل بالاقواء ، والاصراف ، فالاقواء — وهو اختلاف المجرى بكسر وضم — اباحة العلماء ، ولم يعدوه عيبا فى حين عدوا الاصراف — وهو الاختلاف بفتح وغيره — من العيوب ، وأنكره قوم ، وقال بندرته آخرون[٧٨] .

والذين أثبتوا الاصراف لم يذكروا من أمثلته الا ما كان النصب فيه سابقا ، وكان الصرف عنه الى الرفع أو الخفض دون العكس .

فاذا كانت القافية مقتضية للرفع أو الجر ثم دعا داع الى النصب لا يستجيب له الشاعر ، بل يمضى فى قافيته ملتزما ما ينبغى لهـا من تماثل وانسجام كمـا فى قول الفرزدق .

وعض زمان يا ابن مروان لم يـدع
من المـال الا مسـحتا أو مجـلف

فالقافية فى القصيدة كلها مرفوعة ، وقد اقتضى عامل الاعراب نصبه (مجلف) ولكنه لم يبال به لتماثل القافية .

أما الضمة والكسرة فان العرب تلتزمها ، وتهجر من أجلهما تماثل القافية ، وما فيه انسجام .

واذا بدأ الشاعر قصيدته بالفتحة وبنى عليها قافيته ، ثم جاء داعى الضمة أو الكسرة استجلب له ، ولم يبال بالقافية .

والأعشى بنى على الفتح قصيدته التى مطلعها :

رحلت سمية غدوة اجمالهـا   غضبى عليك فمـا تقول بدالهـا

ثم قـال :

هذا النهار بدا لها من همسهـا   ما بالها بالليـل زال زوالهـا

---

(٧٨) المصدر السابق ص٩٠ .

فهذه التفرقة بين الضمة والكسرة ، وبين الفتحة ، ينبغى ألا نغفل وجـــه دلالتها ، وما تشير اليه من معنى[٧٩] .

وبوجه الى الأستاذ ابراهيم مثل ما ذهب اليه ، فان استنبط من ذلك مستنبط أن الفتحـــة والكسرة يدلان على معنى ، لذلك حوفظ عليهما ، والفتحة لا تدل على معنى لذلك لم يحافظ عليها كان حريا أن يستنبط أن الضمة لا تدل على معنى لأنها لو كانت تدل على معنى لمـــا ألبسها ماليس له ذلك المعنى ، لأن شارة ما اذا كانت تدل على رتبة فى الجيش مثـــلا فكما يحرص على أن يلبسها من هو من أهلها كذلك يحرص على ألا يلبسها من ليس من أهلها ، و (مجلف) كان حقها النصب ، ولكن الشاعر ألبسها الضـــمة[٨٠] .

واذا كنا نحن وصاحب هذا الرأى لا نؤمن بنتيجة هذا الدليل فأحرى أن نرفضه ، ونرفض الدليل الآخر الذى هو فى وزانه ، ويجب تعليل الاصراف تعليـــلا آخـــر بأنه : لو كان الروى مضموما أو مكسورا ثم استجاب الشاعر الى داعى الفتح لظهر ظهورا بينا عدم الانسجام بين القوافى بالمخالفة بينها ، وليس ذلك فى المخالفة فى الروى بطريق الاقواء ، لذا أجازوا الاقواء ، ومنعوا الاصراف[٨١] .

٣ — ومما استدل به النصب على نزع الخافض يتحول اليه من الرفع أو الكسر مثل : تمرون الديار[٨٢] .

ويرد عليه بأن النصب علم الفضلة — كما نص على ذلك الرضى — فاذا كان مجرورا ثم نزع الخافض عاد الى الأصل ، وهو النصب ، وهذا يؤكد أن الفتحة عـــلم الفضلة أو عـــلم المفعولية[٨٣] .

---

(٧٩) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٩٠ وما بعدها بتصرف .
(٨٠) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٧٢ ، ١٧٣ .
(٨١) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٧٣ ، ١٧٤ .
(٨٢) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٩٦ .
(٨٣) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٧٦ .

٤ — وقد استدل بنحو : النصب فى (كلمته فـاه الى فى) — (اياك والأسد) — (عمرك الله) — الخ مما يمتد فيه التقدير والاضمار فانها كلمات لا يتحدث عنها فترفع ، ولا هى مضافة اليها فتجر ، فليس لهـا الا أن تلتزم الأصل ، وهو النصب(٨٤) .

ويرد عليه بأن هناك منصوبات كثيرة غير هذه الأشياء كالمفعول به ، والحـال ، والتمييز ، والمستثنى ، والمفعول المطلق ، وظرف الزمان ، والمكان ، والمفعول معـه ، ولأجله ، فمن أى الأشياء هى ؟

انها ليست مسندا اليها فترفع ، ولا مضافا اليها فتجـر ، فهى منصوبة ، ولاريب أن كل ذلك مما له معان اذ الحـال فى معنى (فى حـال كذا) والتمييز (لرفع الابهام) والمفعول لأجله (للتعليل) والمفعول فيـه (لبيان زمان الفعل ، أو مكانه) .

وهب اللغة العربية لا اعراب فيهـا فبقى بعد علينا أن نبحث هذا المبحث لنعرف علاقة الكلمة بالكلمة على النحو السابق(٨٥) .

وبعد هذه الجولات لتفسير رأى الأستاذ ابراهيم مصطفى ، والرد عليه يبدو لنـا أن قوله : ان الفتحة ليست علم اعراب لا تؤيده الشواهد اللغوية ، بل ان الدراسة المقارنة للغات السامية تثبت ضد ما ادعاه ، يقول الدكتور ابراهيم السامرائى :

ورأى الأستاذ ابراهيم مصطفى فى دلالة الفتحة غريب ، فقـد دلت المقارنات على أن الفتحة وجدت فى حـالة النصب فى كثير من اللغات السامية ، ولم يكن هناك سبب للفتحـة « المستحبة » كمـا أسماها(٨٦) .

* * *

---

(٨٤) ابراهيم مصطفى : احياء النحو ص٩٨ .
(٨٥) محمد عرفة : النحو والنحاة ص١٧٩ — ١٨١ .
(٨٦) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٥ ، ١٦ .

٥ — رأى بعض الباحثين :

يرى ابن خلدون أن الاعراب ليس ذا قيمة جوهرية فى افـادة المعانى ، وأنه يمكن بدونه تحقيق المعانى البليغة ، فاللغة فى عصره — وان خلت من الاعراب — تحقق للمتكلم ما يقصده من روائع المعانى .

فبيان المقاصد والوفاء بالدلالة — بعد فقد دلالة الحركات فى لغـة أهل عصره — يكون بالتقديم ، والتأخير ، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ، وكل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه ، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود ، لأنهـا صفاته .

ثم عاب على النحاة تمسكهم بالاعراب باعتباره خاصية لا تتحقق البلاغة بوجودها .

يقول : ومازالت هذه البلاغة ، والبيان ديدن العرب ، ومذهبهم لهذا العهد ، ولا تلتفتن فى ذلك الى خرفشة النحاة أهـل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهـد ذهبت ، وأن اللسان العربى فسد اعتبارا بما وقـع أواخر الكلم من فساد الاعراب الذى يتدارسون قوانينه وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم وألقاها القصور فى أفئدتهم[٨٧] .

وذكر أن عربية عصره لم تفقد من أحوال اللسان المدون (لسـان مضر) الا حركات الاعراب فى أواخر الكلم فقط ، وأنه يمكن أن يعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخـرى .

وهذا يعنى أن حركات الاعراب ليست مهمة فى التركيب ، ودلالته على المعانى ، وأنه يمكن الاستغناء عنها كما هو حادث فى لغة عصره وغيرها من العاميات .

---

(٨٧) ابن خلدون : المقدمة ط ١٣٢٧ ص٦٥٠ .

وقد بين ابن خلدون أن الحفاظ على الاعراب فى لسان مضر انما كان للحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف •

يقـــول :

انما وقعت العناية بلسان مضر لـــا فسد بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا على ممالك العراق ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، وصـــارت ملكته على غير الصورة التى كانت أولا ، فانقلب لغـــة أخرى ، وكان القرآن متنزلا به ، والحديث النبوى منقولا بلغته ، وهما أصلا الدين ، والملة ، فخشى تناسيهما ، وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذى تنزلا به ، فاحتيج الى تدوين أحكامه ، ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه ، وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية[٨٨] •

ولكن هذا الرأى الذى يقصر الحاجة الى الاعراب على فهم كتاب الله وسنة رسوله فقط تنكر لخاصية الاعراب فى الأساليب العربية كلها ، شعرا ونثرا ، فأمر البلاغة وايضاح المعانى ليس مقصورا على ما قصره عليه ابن خلدون ، بل يتعداه الى أساليب البلغاء والعظماء فى كل عصر وزمـــان •

وقد اتفق على ذلك أئمة العلم والباحثون فى العربية ، وخصائصها وقد نبه البلاغيون على أهمية سلامة التركيب النحوى لصحة العبـــارة وبلاغتها •

ويذهب جبـــر ضومط الى اعتبـــار الاعراب وحركاته أمرا ثانويا لا جوهريا فى الابانة عن الأغراض •

يقول : « العاقل يعلم أن علامات الاعراب فى اللغة انما هى من

---

(٨٨) ابن خلدون المقدمة : ص٦٥١ •

قبيل الأناقة ، والمواضعة ، لا من قبيل الجوهر ، والحقيقة ، فمن ثم قد لا يعد الاخلال بهـا اخلالا يقضى على المخـل بالجهل ، وعلى الناقد بالفضل ، بل كثيرا ما يكون الأمر على عكس ذلك .. ، ولو كان الاعراب أمرا جوهريا فى الخطاب ، والكتاب لما سقط من العبرانية والسريانية خطابا وكتابة وهما أختا العربية ، ولمـا سقط من على ألسنتا فى كل البلاد العربية حتى من على ألسنة المشتغلين بالنحو »(٨٩) .

ويدلل لمـا رآه من عدم أهمية الاعراب بحالات الوقف فهى تعطيل للاعراب ، ومع ذلك تبقى الدلالة واضحة .

يقـول : ودليلنا الوقف فانه جائز كثير الاستعمال شائعه قديما وحديثا ، ولم ينقل عن نحوى قط أنه منع جوازه ، والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمه بتاتا ... وما يتعطل أو يجوز أن يتعطل وتزول أحكامه عن شىء لا يجوز أصلا أن يكون من مقومات ذلك الشىء ، أو جوهرياته(٩٠) .

كما يدلل على عرضيته — كذلك — بوجوده فى غير العربية من اللغات الأجنبية كاليونانية ، واللاتينية(٩١) .

ولكنه لا ينسى أن يشير الى قيمة الاعراب فى الافصاح والابانة عن المعانى فيقول : وهو فى كثير من المواقف زينة فى اللغة لا غير الا أنه قد يكون أحيانا مساعدا على الفهم ، ومنع الالتباس ، وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التى تساعد على سهولة الفهم ، وصرف المعنى الى مايراد ، ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائمـا(٩٢) .

---

(٨٩) جبر ضومط : فلسفة اللغة العربية وتطورها ص٢٥ وانظر أيضا ص١١٣ .

(٩٠) المصدر السابق ص١١٣ .

(٩١) المصدر السابق ص١١٣ ، ١١٤ .

(٩٢) المصدر السابق ص١١٤ .

وهذا اعتراف بأثر الاعراب وحركاته فى المعنى ، ولعل الحديث الملتوى الذى سلكه هذا القائل يكشف عن خداعه وتزييفه ، فكيف يعده أصلا تارة ، وعرضا تارة أخرى ويتلاعب بالألفاظ التى تكشف عن هدفه الخبيث[٩٣] .

وبعد أن ناقشنا هذه الآراء — حول الاعراب وعلاماته — فلم تثبت أمام البحث نرتضى رأى جمهرة الباحثين — من القدامى : والمحدثين — وهو أن الحركات دوال على المعانى .

ويكفى أن نشير الى ما ذكره المستشرق يوهان فك من أدلة قاطعة استمدها من القرآن الكريم تفيد أن الاعراب دليل على المعانى بحركاته المختلفة ، كقوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) . (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) فمثل مواقع الكلمات فى هاتين الآيتين (كالاستعمال اللاتينى Mairem amat الأم تحب البنت) لا يمكن أن يكون الا فى لغة لا يزال الاعراب فيها حيا صحيحا[٩٤] .

ولابد أن الضمة فى (العلماء) و (ربه) علم الفاعلية ، والفتحة فى (لفظ الجلالة) و (ابراهيم) علم المفعولية كما نص على ذلك القدماء .

ومثل ذلك قول البوصيرى فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

انما مثلوا صفاتك للنا … س كما مثل النجوم الماء

فكلمة (النجوم) منصوبة — مفعولا به — وكلمة (الماء) مرفوعة — فاعلا — وعليها يتضح المعنى .

ولو عكس الأمر فرفعت الكلمة الأولى ، ونصبت الثانية لفسد المعنى .

وقد ثبت — كما يقول العقاد — أن المزية الشعرية فى قواعد

---

(٩٣) أنظر : سعيد الأفغانى : حاضر اللغة العربية فى الشام ص١٦٧

(٩٤) يوهان فك : العربية ص٣ ، ٤

الاعراب — في لغتنا — أسبق من المصطلحات التي يتقيد بهـا النحاة ، والصرفيون .

فالشاعر العربي يستطيع أن يضع لفظة بعينها حيث صح له وضعها ، بلفظها ووزنها ، ومعناها ، ومن ذلك :

قطعــوا بأيديهم خيــوط ســـيادة

كانت كخيــط العنــكبوت ضئيـــلا

ان (ضئيلا) في هذا البيت الذي وصف به (شوقي) سيادة بني عثمان لتحمد للاعراب العربي تلك الطمأنينة التي تستقر بها في موضعها فلا تضطرها الخيوط الى الجمع ، ولا تضطرها السيادة الى التأنيث ، وليس عليه أن يقول : (كانت ضئيلة) ولا أن يقول (قطعوا خيوطـا ضئالا) ؛ لأن لسان (الحــال) هنا أصدق من لسان المقــال[٩٥] .

فالاعراب ليس مخترعا ، وحركاته ذات أثر بعيد في معاني الجمل والعبارات .

---

(٩٥) العقاد : اللغة الشاعرة ص٢٣ ، ٥٤

الاشــتراك والتضــاد والترادف

للألفاظ والمعانى علاقات ، وارتباطات ، سنحاول بيانها والافصاح عن أقسامها .

وقد قسم العلماء الألفاظ — بحسب ارتباطها بالمعانى — أقســاما أهمها ما ذكره سيبويه من أنهــا على الوجه التــالى :

١ — اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين نحو جلس وذهب .

٢ — اختلاف اللفظين واتفاق المعنيين نحو ذهب وانطلق .

٣ — اتفاق اللفظين مع اختلاف المعنى[١] نحــو وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت اذا أردت وجدان الضــالة .

والقسمان الأخيران يعدان من وسائل نمو اللغة وسعة التعبير فيها عن طريق دلالة الألفاظ بما يسمى بالاشتراك والتضاد والترادف .

الاشــتراك

هــو : دلالة اللفظ على معنيين أو أكثر على التساوى .

ومن أمثلته : (العين) فان لهــا معانى كثيرة منها الباصرة ، وعين الجيش الذى ينظر لهــم ، وعين النفس ، وهو أن يعين الرجل بمعنى أن ينظر اليه فيصيبه بعين ، والجاسوس ، ومطر أيام لا يقلع ، وغير ذلك من معانيها الكثيرة .

---

(١) سيبويه : الكتاب ١/٧ ط ١٩١٦م ، ٢/ ٢٤ ط دار القلم ، وأبو على الفارسى : المسائل البغداديات لوحة ٤٦ ، ٤٧ ، وابن جنى : الخصائص ٢/٩٣ ، وابن سيدة : المخصص ١٣/٢٥٨ .

ومثلها : (الخال) لأخى الأم ، وللشامة فى الوجه ، وللبعير الضخم وللسحاب[٢] .

فـائدته :

ان تعدد المعانى للفظ الواحد يفتح مجالات متعددة أمام الناطقين باللغة ليعبروا عمـا يحتاجون اليه بألفاظ مرنة تطاوعهم على ما يشاءون ، وتجرى حسب ما يريدون ، ولاشك أن لذلك أثرا كبيرا فى ثراء اللغـة ، ونموها يفيد منـه ، بخاصة — الأدباء والشعراء ، وأرباب البيـان .

أسـبابه :

لوقوع الاشتراك فى ألفاظ اللغـة العربية أسباب كثيرة أهمهـا :

١ — أختلاف اللغات واللهجات :

فاللغة قد تستمد ألفاظا من لغـات أجنبية عنهـا ، وذلك قد يسبب بجانب ألفاظ أخرى فيها — قد تتحد معها فى الصيغة — وجود الاشتراك ، وقد أشار صاحب شفاء الغليل الى امكان ذلك ككلمة (سكر) فانها معربة وان كانت فى العربية مادة (سكر) بمعنى أغلق وفى القرآن الكريم (سكرت أبصارنا) .

وفى العربية مادة (برج) ، وقد استعير (البرج) بمعنى الحصن من اليونانية ، فاذا اشتقت كلمة من المـادة العربية توافق الكلمة المنقولة عن اليونانية فى الصيغة ، وتختلف عنها فى المعنى نشأ الاشتراك[٣] .

أما اختلاف اللهجات فهو أمر ملموس فى لغتنا العربية بأن يضع اللفظ لأحـد المعانى حى من أحياء العرب ، وللمعنى الآخر حى آخـر ، ويعلم كل فريق بوضع الآخر ، ويشيع الاستعمالان[٤] .

---

(٢) السيوطى : المزهر ١٧٩/١ ، ١٨٠ .
(٣) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٣ ص١٩٦ .
(٤) السيوطى : المزهر ١٧٧/١ .

وقد تجمعت المعانى المختلفة للفظ الواحد فى اللغـة النموذجية ، فنشـأ الاشتراك .

٢ — المجـاز :

ذكر أبو على الفارسى أن اختلاف اللفظين — والمعانى بعد واحدة — يكون للحاجة الى التوسع فى الألفاظ ، وأنه قد تستعمل اللفظة بمعنى ثم تستعار لشىء ، فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الأصل(٥) .

ومن ذلك الحوت فهو فى الأصل للسمك ، ثم أطلق على أحد أبراج السماء ، وشاع ذلك حتى صار حقيقة فيـه .

وقد أرجع السيوطى بعض المعانى التى تدل عليها كلمة (العين) الى التشبيه وهى (ستة معان العين : الجاسوس — تشبيها بالعين ، لأنه يطلع على الأمور الغائبة ، وعين الشىء : خياره ، والعين : الربيئة وهو الذى يرقب القوم ، وعين القوم : سيدهم ، والعين : واحد الأعيان ، وهم الأخوة الأشقاء ، والعين : الحر ، كل هذه مشبهة بالعين لشرفها)(٦) .

٣ — تطـور المعنى :

فاذا تطور معنى اللفظ ، وبقيت أصواته دون تغير أدى ذلك الى حدوث الاشتراك .

فقد يكون للفظ معنى واحد فى اللهجات العربية ثم يحدث أن يتغير معناه فى بعض اللهجات ويبقى المعنى الأصلى فى بعضها الآخر فيصبح لذلك اللفظ معنيان فينشأ الاشتراك .

وقد مثل بعض الباحثين لذلك بكلمة « الهجرس » فهى تعنى القرد

---

(٥) أبو على الفارسى : البغداديات لوحة ٤٦ والمخصص نقـلا عنه ٢٥٨/١٣ ، ٢٥٩ .

(٦) السيوطى : المزهر ١٨٠/١ .

فى لهجة الحجاز ، وتعبر عن الثعلب عند تميم على أساس أنهـا كانت — فى الأصل تدل عند الفريقين على أحد الحيوانين ، ثم تغير هذا المعنى عند احدى القبائل لأمر طـارىء على حياتها اللغوية(٧) .

ولكن ادراك تطـور المعانى أمر غامض لا يكاد التاريخ اللغـوى يسعفنا به .

وكيفما كان الأمر فان المعنى قد مرت به تطورات مختلفة ، وتعاورت على اللفظ الواحد تغيرات متعددة كانت سببا — فما يبدو — فى نشـأة بعض الألفاظ التى تعد الآن من المشترك اللفظى .

٤ — اختلاف الاشتقاق :

كأن تؤدى القواعد الصرفية الى أن تتفق لفظتان متقاربتان فى صيغة واحدة ، فينشأ عن ذلك تعدد فى معنى هذه الصيغة يؤدى الى جعلها من المشترك مثل وجـد (يجىء ماضيا من الوجدان بمعنى العلم بالشىء ، أو العثور عليه ، فيقال : وجدت الضالة اذا عثرت عليها ، ووجدت زيدا كريما اذا علمته كذلك ومن الموجدة بمعنى الغضب فيقال : وجدت عليه اذا غضبت ومن الوجد بمعنى الحب الشديد فيقال : وجد به وجدا اذا هويه وتفانى فى حبـه)(٨) .

٥ — التطور الصوتى :

فقد تتغير بعض أصوات اللفظ ، أو تحذف أو يزاد بعضها عليه ، فيتفق فى صورته مع لفظ آخـر يختلف عنه فى المعنى فينشأ الاشتراك .

وذلك وان كان متصورا فان الدلائل اللغوية لا تشير اليه ، ولا تكشف

---

(٧) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٣ ص١٩٧ .

(٨) السيوطى : المزهر ١/١٨٤ ، ١٨٥ وابن جنى الخصائص ٣/١١١ ود. وافى : فقه اللغة ص١٨٥ .

لنـــا عنه لغموض الأحوال اللغوية وتطور أحداثها ، وتوغلها فى أزمـــان سحيقة فى التاريخ[٩] .

٦ — حدوث الاشتراك من الواضع الواحد :

هذا عند قصد المتكلم الابهام والتعمية على السامع ، حيث يكون التصريح سببا فى المفسدة كما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد سأله رجل عن النبى ﷺ وقت ذهابهما الى الغـــار : من هذا ؟ قال : هذا رجل يهدينى السبيل[١٠] .

آراء العلمـــاء فيـــه

اختلف العلماء فيه بين منكرين ومؤيدين ، ونحن نعرض لآرائهم ونبين موقفنا منهـــا .

١ — رأى المنكرين :

أنكر فريق من العلماء القدامى وجود الاشتراك فى اللغة ، ومنهم ابن درستويه[١١] « فاللغة موضوعة للأبانة عن المعانى ، فلو جـــاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، أو أحدهما ضد الآخر لمـــا كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية »[١٣] ولكن هذا الرأى معيب لأن الابهام يزول بالقرآن الصارفة .

---

(٩) ومن ذلك فى اللهجات الحديثة حضر « من الحضور بمعنى المجىء » بنطق الضاد ظاء عند أهل اليمن ونجد ، وحظر « من الحظر بمعنى المنع » فقد تطور صوت الضاد العربى المعروف الى صوت الظاء عندهم فاتفق اللفظ الأول مع الثانى فى الصورة الصوتية التى أصبح لها معنيان « المجىء » و « المنع » ويفهم المراد منهما بالسياق ، وقد أشرنا الى ذلك فى حديثنا عن أسباب تطور الدلالة .

(١٠) السيوطى : المزهر ١/١٧٧.

(١١) المصدر السابق ١/١٨٤ .

(١٢) المصدر السابق ص١٨٥ .

٣ — رأى المثبتين :

قـال بوقوعه طائفة كبيرة من العلماء ، منهـم الخليل وسيبويه والأصمعى وأبو عبيدة ، وأبو زيد ، وابن فارس ، وأبو على الفارسى وابن جنى ولكنهم اختلفوا فيما بينهم على صفة الوقوع : هل ذلك يكون من جهـة الوجوب ، أو الأغلب أو امكان الوقوع مطلقـا ؟

والأكثرون على أنه ممكن الوقـوع من واضعين أو من واضـع واحد(١٣) على ما سبق بيانه فى ذكـر الأسباب .

ودليلهم على ذلك وجود الألفاظ التى وقع فيها الاشتراك فى لغـة العرب وأساليبهم ولا يمكن انكارها .

ويبدو لنـا أن كلا من الفريقين مبالغ فيما ذهب اليه فلا يمكن انكار الاشتراك لوقوعه فى ألفاظ العربية ، وعدم التمكن من تأويل كل ما ورد منها بأن أحـد المعانى حقيقة والآخر مجـاز أو غير ذلك من وجوه التأويل حسب الأسباب المشار اليها آنفـا كما أن من التعسف التوسع فى اثباته بحيث يشمل العديد من ألفاظ اللغة لأن بعض ما يتصور من المشترك يمكن تأويله واخراجه من هذا النطـاق .

فالرأى الأجدر بالقبول هو ما ذهب اليه أكثر المحدثين من اللغويين وهو التسليم بوجوده فى اللغة مع عدم التوسع والمبالغة .

التضـــاد

هو : دلالة اللفظ ، على معنيين متقابلين بمساواة بينهما .

ومن أمثلته : (الجون) للأبيض ، والأسود و (الجلل) للصـغير

---

(١٣) السيوطى : المزهر ١/١٧٧ .

والعظيم و (الصارخ) للمغيث والمستغيث[١٤] وقد عده علماء اللغة نوعا من المشترك لدلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى ، ولذلك قالوا : المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضدين كالجون وجلل ، وما يقع على غير ضدين كالعين[١٥] واذا جاز وقوع اللفظة الواحدة للشيء وخلافه جاز وقوعها للشيء وضده اذ الضد ضرب من الخلاف[١٦] وصرح السيوطى بأن المتضاد نوع من المشترك[١٧] ووافقه على ذلك بعض الباحثين المحدثين[١٨] .

فـائدته :

لاريب أن للتضاد أثرا كبيرا فى نمو اللغة ، وسعتها (بالتنقل بين السلب والايجاب ، والتعكيس ، والتنظير ، وهو ماليس له فى اللغات الحية نظير)[١٩] .

أسـبابه :

للتضاد أسباب كثيرة أهمها :

١ — أختلاف اللهجات :

ولذلك يقولون اذا وقع الحرف على معنيين متضادين فمحال أن يكون العربى أوقعه بمساواة بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن

---

(١٤) السيوطى : ١/١٩٠ .

(١٥) السيوطى : المزهر ١/١٨٦ .

(١٦) وان لم يكن كل خلاف ضدا . البغداديات لوحة ٤٦ والمخصص — نقلا عنه — ١٣/٢٥٩ .

(١٧) السيوطى : المزهر ١/١٨٦ .

(١٨) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص ٣٣٠ وعبد الله العلايلى مقدمة لدرس لغة العرب ص٢٣٥ .

(١٩) د. الصالح : دراسات فى فقه اللغة ص٣٦٥ .

هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء قالوا : فالجون : الأبيض — فى لغــة حى من العرب — والجون : الأسود — فى لغــة حى آخــر — ثم أخذ أحــد الفريقين من الآخر[٢٠] .

٢ — المجــاز :

فنقل اللفظ من معناه الأصلى الى غيره قد يؤدى الى التضاد ، مثل (الكأس) يطلق على الظرف والمظروف .

وهذا حين ينسى المجــاز فيصبح المعنى المجازى كالحقيقى .

٣ — التطور الصوتى :

فــاذا تغيرت بعض الأصوات فى اللفظ ، أو حذفت أو زيد عليه بعضها فاتفقت صورته مع لفظ آخــر ذى معنى مقابل لمعناه نشأ التضاد .

٤ — اتفاق بعض الأبنية اللغوية لفظا مع اختلافها تقديرا :

وذلك نتيجة لمــا تؤدى اليه قواعد التصريف ، من ذلك اسما الفاعل والمفعول فى (افتعل) مما عينه معتلة أو مافيه تضعيف ، فالفعل (اختار) معتل ، واسم الفاعل والمفعول منه (مختار) تقول : العبد مختار فى أفعاله والنبى مختار لهداية الأمة ، فهما متفقان لفظــا مختلفان تقديرا ، فأصل اسم الفاعل (مختير) بكسر الياء ، وأصل اسم المفعول (مختير) بفتحهــا .

والفعل (اعتد) مضعف واسما الفاعل والمفعول منه (معتد) تقول : أنا معتد لك بكذا وكذا ، وهذا أمر معتد به ، فأصل اسم الفاعل (معتدد) بكسر الدال الأولى ، وأصل اسم المفعول (معتدد) بفتحها ، فهما متفقان لفظــا ، مختلفان تقدير[٢١] .

---

(٢٠) ابن الأنبارى : الأضداد ١/١٢٢ والسيوطى : المزهر — نقــلا عنه — ١/١٩٤ .

(٢١) د. وافى : فقه اللغة ص١٩٢ .

٥ ــ رجوع الكلمة الى أصلين :

فتكون دلالتها على أحــد الضدين منحدرة من أصل ، ودلالتها على مقابله منحدرة من أصل آخــر ، ويرجح هذا التأويل أو يحتمل الصدق فى طائفة كبيرة من الأضداد مثل (هجــد) بمعنى نام ، وسهر ، فمن المحتمل أن تكون فى معنى النوم منحدرة من (هــدأ) اذا سكن ، وفى معنى السهر من (جــد) اذا جهد لمــا فى السهر من الاجتهاد فى منع النــوم[٢٢] .

وقد حاول الأب : مرمرجى الدومنكى أن يرجع الى هذا العامل عددا كبيرا من الأضداد وهو يبحث عن الأصول الثنائية للكلمات .

آراء العلمــاء فيــه

يختلف العلماء فيه بين منكرين ومؤيدين لوجوده ، وتلكم الآراء بالتفصيل :

١ ــ رأى المنكرين :

ينكر فريق من العلماء وجود المتضاد فى اللغة ، ومنهم ابن درستويه، قال فى شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ومنه قيل للكوكب : قد نــاء اذا طلــع وزعــم قوم من اللغويين أن النــوء الســقوط أيضا ، وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم فى ذلك فى كتابنا فى ابطال الأضداد .

قال السيوطى فى المزهر : فاستفدنا من هذا أن ابن درستويه ممن ذهب الى انكار الأضداد[٢٣] .

---

(٢٢) الأب مرمرجى الدومنكى : أبحاث ثنائية الألسنية صفحات ١٣٥ ــ ١٤٤ والمعجمية العربية ص٢٢٩ .

(٢٣) ١/١٩١ .

وشبهة المنكرين فى رأيهم هذا أن التضاد اذا ثبت وجوده فى اللغة فانه يؤدى الى الابهام واللبس وذلك بكون دلالة على « نقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس فى محاوراتهم عند اتصال مخاطباتهم ..

فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب[٢٤] ولا يكون ذلك ابانة بل تعمية وتغطية واللغة موضوعة للابانة عن المعـانى[٢٥] .

وهذا مردود ، لأن سياق الكلام كفيل ببيان المعنى المراد .

٢ — رأى المؤيدين :

اختلف هؤلاء فيما بينهم فى طريقة اثبات التضـاد ولكل فريق وجهـة خاصة .

(أ) فذهب فريق ، الى أن التضاد موجود فى اللغـة ، سواء كان من واضع واحد أم أكثر مع ملاحظة أن اللفظ موضوع فى الأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل المعنى الآخر على جهـة الاتساع ، وهذا مبنى على رجوع المعنيين الضدين لأصل اشتقاقى واحد ، فمن ذلك الصريم لليل والنهار ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع ، وكذلك الصارخ : المغيث ، والمستغيث سـميا بذلك لأن المغيث يصرخ بالاغاثة والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد[٢٦] .

(ب) وذهب ابن دريد ، الى أن التضاد موجود بشرط أن يكون من

---

(٢٤) أبو على الفارسى : البغداديات ٤٦ ، وابن الأنبارى : ٢ ، ٣ والسيوطى : المزهر ١/١٩٢ .

(٢٥) السيوطى : المزهر ١/١٨٥ .

(٢٦) ابن الأنبارى : الأضداد ص٨ والسيوطى : المزهر ١/١٩٣ ، ١٩٤

واضع واحد[٢٧] قال فى الجمهرة : الشعب : الافتراق ، والشعب : الاجتماع وليس من الأضداد ، وانما هى لغـــة لقوم ، فأفـــاد بهذا أن شرط الأضداد أن يكون استعمال اللفظ فى المعنيين فى لغـــة واحدة[٢٨] .

(جـ) وترى جمهرة العلماء ، ومنهم أبو زيد والأصمعى ، وأبو عبيدة وقطرب ، والصغانى ، وابن السكيت ، وابن فارس ، وأبو على الفارسى وابن جنى ، وغيرهم أن التضاد واقع فى اللغة من أكثر من واضع واحد ، « فاذا وقع الحرف على معنيين ضدين ، فمحال أن يكون العربى أوقعه عليهما بمساواة بينهما ولكن أحـــد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ، ثم سمع بعضهم لغـــة بعض ، فأخذ هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء ، فالجون الأبيض فى لغـــة حى من العرب ، والجون الأسود فى لغـــة حى آخـــر[٢٩] .

وقد بدا لعلماء اللغة أن وجهـــة القائلين بأن التضاد موجود على طريق الاتساع غير سديدة لأن هذا أمر عقلى بحت لا يمس الواقع اللغوى ، ولا يوجد ما يؤيده من الدلائل ، أو الشواهد العلمية أو المعجمية .

كذلك فان رأى ابن دريد غير مقبول ، لأن الناطق الواحد يهمـــه التعبير عما يحتاجه ، وذلك يكفى فيه لفظ واحد ومعنى واحد حتى يكون الأمر واضحا للسامعين .

والقائلون بوجود التضاد — مطلقا — قد بالغوا فيه ، فالرأى الأكثر انصافا والجدير بالقبول هو القول بثبوته لكنه ليس كثيرا بالصورة التى ذهب اليها هؤلاء ، وهو أقـــل من المشترك ورودا فى اللغـــة .

---

(٢٧) السيوطى : المزهر ١/١٩١ .
(٢٨) ابن الأنبارى : الأضداد ص١١ ، ١٢ والسيوطى : المزهر ١/١٩٤ .
(٢٩) المصدر السابق .

التـــرادف

هو : دلالة لفظين ، أو أكثر على معنى واحـــد ٠

ومن أمثلته : (أسد وليث وضرغام) للحيوان المفترس ، و (عقار وصهباء وقهوة) للخمر ، و (بر وقمح وحنطة) للحبة المعروفة ٠

أثــره اللغــوى :

١ — التوسع بما يفيد الشاعر والناثر ، وكثرة الوسائل الى الاخبار عمـــا فى النفس ، وقـــد كان بعض الأذكياء فى الزمن السالف ألثـــغ لا يستطيع نطق الراء[٣٠] فكان يتخلص من ورودها فى حديثه عن طريق الترادف ٠

٢ — من المترادفات ألفاظ تبدو فيهـــا خاصة لغوية رائعة هى اظهار ألوان المعانى ، وظلالها ، وهذه ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية ، وتعد من خصائصها التى تتجلى فى ألفاظ مترادفة — أحيانا — ويسميها الدكتور عثمان أمين : « خاصية التلوين الداخلى » الذى كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطياف والظلال صورا ذهنية متعددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة نحدد بهـــا المعنى المقصود[٣١] ٠

وتظهر تلك الميزة فى كثير من الألفاظ الدالة على الشيء منظـــورا اليه فى مختلف درجاته ، وأحواله ومتفاوت صوره ، وألوانه ، فالظمأ ، والصدى ، والأوام ، والهيام كلمات تدل على العطش الا أن كلا منهـــا يصور درجة من درجاته ، فأنت تعطش ، اذا أحسست بحاجة الى المـــاء ، ثم يشتد بك العطش فتظمأ ، ويشتد بك الظمأ فتصدى ، ويشتد بك الصدى فتئوم ، ويشتد بك الأوام فتهيم ، واذا قلت : ان فلانا عطشان ، فقـــد

---

(٣٠) السيوطى : المزهر ١/١٩٦ بتصرف ٠

(٣١) د٠ أمين : فلسفة اللغة العربية ٥٨ ٠

أردت أنه بحاجة الى جرعات من المـــاء ، لا يضيره أن تبطىء عليه ، أما اذا قلت : انه هائم فقد علم السامع أن الظمأ برح به حتى كاد يقتله ... وهذا على حين أن الفرنسى لا يستطيع أن يؤدى هذا المعنى الا فى ثلاث كلمات اذ يقـــول :

« مائت من الظمأ Mourant de sof » أو فى سبع كلمات ليكون المعنى أوضح فيقول : « على وشك أن يموت من الظمأ » .

Sur le point de mourirbe soif

ففى كلمات العربية ايجاز يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة(٣٢) .

وبهذا تخلص لنـــا قيمة الترادف ، وأثره اللغوى .

أسـبابه :

للترادف أسباب كثيرة أهمهـــا :

١ — اختلاف اللغات واللهجات :

فقد دخـــل اللغة العربية — بعـــد الاسلام — كثير من الكلمات الأجنبية ، اما للحاجة اليه فى العلوم ، والفنون ، والحضارة ، أو للاعجاب به ، أو لسهوته وغير ذلك من الدواعى التى من أجلها انتقل الى العربية كثير من الألفاظ الفارسية ، والرومية وغيرهـــا .

ومن ذلك النرجس ، والمسك مع وجود نظيريهما العربيين وهمـــا : العبهر والمشموم ، ومن هنـــا ينشأ الترادف .

كذلك تلاقى اللهجات يجعل الألفاظ التى تستعملها تتلاقى وقد يكون بينها أكثر من لفظ يدل على معنى واحد فينشأ الترادف مثل : وثب بمعنى قعد عند حمير ، فهمـــا مترادفان .

وهذا كثير فى اللهجات العربية ، التى اجتمعت فى لغـــة واحدة عند العرب جميعـــا .

---

(٣٢) المصدر السابق ص٥٨ ، ٥٩ .

٢ ــ المجــاز :

فقد تستعمل بعض الألفاظ فى معان مجازية ، فتتفق مع بعض الألفاظ فى معانيها الحقيقية ، ثم ينسى المجــاز ، حتى يظن أنها حقائق ، فتصبح تلك الألفاظ مترادفة ، كاطلاق (اللسان) على اللغــة (والعين) على الجاسوس ، فقد شاع ذلك حتى عد ترادفا بين اللسان واللغة ، والعين والجاسوس .

٣ ــ تناسى الصفات والفروق :

فكثير من المترادفات كانت فى الأصل نعوتا لأحوال المسمى الواحد ، ثم غلبت عليها الاسمية ، فالخطار والخطام والباسل والأصيد ، من أسماء الأسد ، وكانت أوصافا فى الأصل[٣٣] .

ومن أسماء السيف : الصمصام ، والحسام ، والصارم ، والرداء ، والصقيل ، والمشرفى ، وكلها تشتمل على فروق معنوية[٣٤] مع كونها أوصافا فى الأصــل .

وقد أورد الأستاذ محمد عبد الجواد فى كتابه (التذكرة فى فقه اللغــة) مجموعة كبيرة لأسماء مختلفة فى الزراعة ، وأسماء الأشجار والطيور واللحوم والمعادن وكلها تؤكد فروقا بين المترادفات ، وترجع المشتق الى أصله وتبين معنــاه[٣٥] .

٤ ــ التغــير الصوتى :

للعوامل الصوتية أثر فى اختلاف اللفظ ، وتحوله من حال الى آخر ، بحيث يصبح نتيجة للتغير الصوتى لفظين بعد أن كان واحدا ، ومن ذلك

---

(٣٣) على الجارم : مجلة المجمع اللغوى ١/٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٤٢٧ .

(٣٤) السيوطى : المزهر ١/٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٣٥) كل ذلك بالكتاب المذكور من أوله الى آخره ويقع فى ١١٢ صحيفة .

قولهم : بغداد وبغدان وقالوا أيضا : مغدان ، وقالوا للحية : أيم ، وأين ، وأعصر ويعصر أبو باهلة[٣٦] .

كذلك ما يكون عن طريق القلب المكانى للأصوات ، وحلول بعضها محـل بعض كما فى جذب وجبذ .

وقد تتغير الكلمة حروفا ، نقصا ، وزيادة ، بحيث تصبح على صور مختلفة « كأن تتحرف الصيغة واللفظ الواحد ، نحو قولهم هى : رغوة اللبن ورغوته ورغوته — بفتح الراء وضمها وكسرها — ورغاوته ورغاوته ، — بفتح الراء وضمها وكسرها — وكقولهم : جئته من عل ، ومن عل — بكسر اللام وضمها دون تنوين — ومن علا ، ومن علو — بسكون اللام وضم الواو — ومن علو — بضم اللام وتشديد الواو — ومن عال ومن معال — بكسر اللام والتنوين — ونحوه أشياء كثيرة »[٣٧] .

ولكن بعض المحدثين[٣٨] لا يعترفون بذلك سببا للترادف « فاختلاف الصورة بين تلك الألفاظ ، ليس الا ظاهريا ، وأنهـا كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات[٣٩] ، بيد أن الدكتور كمال بشر يرد على هؤلاء بأنه قد يكون هذا صحيحا ، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الفروق الصوتية راجعة الى اختلاف اللهجات[٤٠] .

آراء العلمـاء فيـه

تعددت وجهات النظر اللغوية حول اثبات الترادف ونفيه تبعـا لفكرة معينة ذهب أصحابها اليهـا ، وتلكم هى الآراء :

---

(٣٦) ابن جنى : الخصائص ١/٣٧٢ .
(٣٧) المصدر السابق ١/٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٣٨) كالأستاذ الجارم والدكتور أنيس .
(٣٩) د. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٢ ص١٧٢ .
(٤٠) ستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة . التعليق للدكتور كمال بشر ص ١٠٨ — ١١٠ .

١ — رأى المنكرين :

اتفق جماعة من علماء اللغة على انكار وجود الترادف غير أنهـم اختلفوا فيما بينهم فى طريقة الانكار ذاتهـا .

(أ) فيرى فريق أن كل ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات ، اما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة أو صفة الصفة(٤١) .

وقد حكى الشيخ القاضى أبو بكر بن العربى بسنده عن أبى على الفارسى ، قال : كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهـل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : احفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له الا اسما واحدا ، وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا وكذا ؟ فقال أبو على : هذه صفات وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة .

وهذا الفريق يرى عدم وجود الترادف فى اللغـة .

ودليله على رأيه ، أن المعنى المراد يؤديه لفظ واحد ، فلا حاجة الى أن تتعدد الألفاظ ، لأن ذلك عبث لا يقع فيه الواضع الحكيم .

(ب) وذهب فريق آخـر منهم ابن درستويه ، وثعلب ، وابن فارس ، الى انكار الترادف بالمعنى الشائع من تساوى لفظين ، أو ألفاظ ، فى معنى واحد ، لأن كلا من تلك الألفاظ يوجد فيه فرق معنوى لا يوجد فى الأخرى .

---

(٤١) السيوطى : المزهر ١/١٩٥ ويبدو أن أبا على الفارسى كان ممن يقول بالترادف مع الفروق بين الألفاظ ، ففى البغداديات ما يناقض هذه القصة ، فقد اعترف « باختلاف اللفظين والمعانى بعد واحدة للحاجة الى التوسع فى الألفاظ .. وافادة الشاعر والناثر » وبعد شرح الأقسام الثلاثة يقول : فثبت بصحة ذلك صحة الأقسام التى ذكرها سيبويه ، وذهب اليهـا ، أبو على الفارسى : البغداديات لوحة ٤٦ ، ٤٧ .

ودليلهم على ذلك أن تساوى عـدة ألفاظ فى معنى واحد عبث لا يليق بلغـة العرب الحكيمة .

قال ابن درستويه « محال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كمـا يظن كثير من اللغويين والنحويين وانما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ومافى نفوسها من معانيها المختلفة ، وعلى ما جرت به عاداتها ، وتعارفها ، ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنهـا بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم »[٤٢] .

وبهذا يعيب ابن درستويه على القائلين بالترادف ذاكرا أنهم جهلوا حقيقة الأمر وأنهم تأولوا على العرب مالا يجوز ، فهو يرى أن الفروق فى الدلالات كان يعرفها العرب الأوائل ، ولكن القائلين بالترادف لم يستطيعوا فهم هذه الفروق وادراكها فقالوا بالترادف على خلاف الواقع اللغوى[٤٣] .

وهذا يوافق ما رواه المزهر عن أبى العباس عن ابن الأعرابى قال : كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب حكمة العـلم بما لحقنا من غموض العلة ، وصعوبة الاستخراج علينـا[٤٤] .

ويقول بذلك ابن فارس — كشيخه أبى العباس فيما سبق — ونصه « يسمى الشىء الواحد بالأسماء المختلفة نحو السيف والمهند ، والحسام ، والذى نقوله فى هذا أن الاسم واحد وهو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منهـا فمعناها غير معنى الأخرى »[٤٥] .

---

(٤٢) السيوطى : المزهر ١/١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٣ — ١٩٦ .
(٤٣) ستيفن أولمـان : دور الكلمة فى اللغة . التعليق للدكتور بشر ص١٠٦ .
(٤٤) السيوطى : المزهر فيما سبق بالمرجع (٤٢) .
(٤٥) المصدر السابق ١/١٩٥ .

وقد وجه اليه : أنه لو كان لكل لفظة معنى غير معنى الأخرى لما أمكن أن نعبر عن شيء بغير عبارة ، فلا يصح فى (لاريب فيه) : لاشك فيه بل تكون الثانية خطأ .

فأجاب على ذلك بأنه « جاز أن يعبر عن الشيء بالشيء من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول : ان اللفظين مختلفان ، فيلزمنا ما قالوه ، وانما نقول : ان فى كل واحدة منها معنى ليس فى الأخرى[٤٦] .

وهذان العالمان — ابن فارس وأستاذه ثعلب — يريان أن الفروق المعنوية كما توجد بين الاسم والآخر ، أو بين الاسم والصفة توجد بين الأفعال من حيث معانيها التى تدل عليها ، نحو مضى وذهب وانطلق وقعد ، وجلس ، ورقد ونام ، وهجع ، ففى قعد معنى ليس فى جلس ألا ترى أنا نقول ، قام ثم قعد ، وأخذه المقيم والمقعد ، ثم نقول : كان مضطجعا فجلس ، فيكون القعود عن قيام ، والجلوس ارتفاع عما هو دونه ، وعلى هذا يجرى الباب كله .

وقد رد المثبتون للترادف على هؤلاء المنكرين من الفريقين بأن الترادف لا سبيل الى انكاره ، لأن وقوعه معلوم بالضرورة[٤٧] .

وقولهم : ان وضع عدة ألفاظ لمعنى واحد عبث لا يتأتى الا اذا كان ذلك من واضع واحد لكن المعروف أن ذلك يكون من واضعين مختلفين، فانتفى العبث الذى يقولون به .

كما توجد بعض المترادفات التى لا فروق بينها ، وبخاصة فى الأسماء الجامدة كالعير ، والحمار ، والبر ، والقمح ، والحنطة فلا فروق بين تلك المترادفات ، فاللفظان الأولان موضوعان للحيوان الناهق ، والألفاظ الأخيرة موضوعة للحبة المعروفة دون ملاحظة لفروق معنوية .

---

(٤٦) المصدر السابق ١/١٩٥ ، ١٩٦ .
(٤٧) المصدر السابق ١/١٩٥ .

ووجود مترادفات بينها فروق لا يؤدى الى انكار المترادفات كلهـا بل الى انكار طائفة منها فحسب ، على أن المشتقات التى اتضحت فيها تلك الفروق كالحسام ، والصارم ونحوهما قـد كثر استعمالها مكان موصوفاتها حتى استغنى بهـا عنها ، فجرت مجرى الجوامد فى اهمال الفروق ، وعدم النظر اليهـا .

ونحن نسلم بأن بعض الألفاظ لا تزال تحمل فروقا معنوية ، لكن القائلين بهذا الرأى بالغوا فيه ، لأنهم كانوا من الباحثين فى الاشتقاق والمتشبثين بارجاع كل كلمة الى أصل ، ولو كانت جامدة ، أو غير عربية ، كابليس وجهنم حيث زعموا أن لهمـا اشتقاقا .

ولذا يقول السيوطى « وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لهـا شبهة فضلا عن حجـة »(٤٨) .

هذا الى أن بعض هؤلاء المنكرين للترادف كانوا من الأدباء النقاد الذين يشتفون فى الكلمات أمورا سحرية(٤٩) .

(ج) يرى بعضهم أن الترادف غير موجود فى العربية ، ولكن أرباب المعاجم هـم الذين اختلقوه ، ودليلهم : أن اللفظ الواحد يؤدى المعنى المراد ، وهذا واضح فى اللغات العامية ، فليس بنـا حاجة الى دلالة أكثر من لفظ على هذا المعنى .

وهذا الرأى فاسد ، لأنه يتهم علماء اللغة ، ورواتها بالاختلاق ، والكذب ، وهـم من تلك التهمة براء ، لأنهم قد جمعوا اللغة عن العرب الخلص ومن القرآن والحديث وقد كانوا على درجة من الورع تمنعهم من التورط فى الكذب الى جانب دقتهم الفائقة فى الأخذ وقد أخذنا عنهم أمور اللغة كلها ، فكيف نقبل منهم بعضها ونتهمهم فى الباقى ؟.

---

(٤٨) السيوطى : المزهر ١/١٩٥ .

(٤٩) د. إنيس : فى اللهجات العربية ص١٦٩ .

على أن اللهجات العامية ليس فيها ذلك الترف اللغوى لأنها تقتصر على ما يحتاج اليه الاستعمال فى الحيـــاة اليومية ، على حين تختلف الفصحى عنها فى ذلك ، وهذا موجود فى كل اللغـــات .

ولا تسلم بعض العاميات من وجود الترادف فيها وبخاصة اذا اتصلت بلغات أخـــرى .

وهذا يوضح لنـــا أن « ما يذهب اليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ليس صحيحا[٥٠] وفساد هذا الرأى الذى نحن بصدده لا يحتاج الى بيان » [٥١] .

٢ — رأى المثبتين :

أثبت فريق من العلماء — منهم ابن خالويه — الترادف مطلقا كأسماء السيف، والعسل، والعسجد ، والذهب[٥٢] ، فهذه الأمثلة « وان اختلفت ألفاظها ، فانها ترجع الى معنى واحد »[٥٣] .

ويرى أصحاب هذا الرأى أن الترادف « يكون من واضعين ، وهو الأكثر بأن تضع احدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الواحد من غير أن تشعر احداهما بالأخرى ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر ... ويكون من واضع واحد وهو الأقل »[٥٤] .

---

(٥٠) د. وافى : علم اللغة ص٢٦٠ .

(٥١) د. وافى : فقه اللغة ص ١٦٣ .

(٥٢) السيوطى : المزهر ١٩٦/١ .

(٥٣) المصـــدر السابق ١٩٦/١ .

(٥٤) المصـــدر السابق : المزهر ١٩٦/١ .

منشأ خلاف العلماء فيه

تفرقت الأقوال فى الترادف ، ووقوعه ، فمن منكر لوجوده ، فى اللغة ومن مثبت له ، والمثبتون على درجات متفاوتة ، فمنهم المبالغ فى وجوده ، والمقتصد فيه •

وكل وجهة من تلك الوجهات لها ما يسوغها من طرائق البحث اللغوى فالواقع أن هناك منهجين لدراسة دلالة الألفاظ :

الأول :

هو المنهج التاريخى الذى يتناول الكلمة منذ نشأتها ، وتطورها الدلالى ، فالدلالة لا يمكن أن تثبت على حال واحدة ، بل هى فى تطور ، وتغيير مستمر ، فالباحث التاريخى اذا كشف عن معانى مجموعة من الألفاظ يراها متحدة المعنى أمامه ، ولكن وقائع التاريخ تبين له اختلاف العصر ، أو البيئة اللغوية ، أو التطور الصوتى الذى نجم عنه اختلاف اللفظين صورة ، واتحادهما معنى ، وعندئذ لا يعترف بوجود ترادف بينهما •

الثانى :

هو المنهج الوصفى ، وذلك لون آخر من ألوان البحث اللغوى ، يدرس طائفة من الألفاظ فى عصر ما من العصور ، ويحدد مفاهيمها ودلالتها فى ذلك العصر دون النظر الى سواه من عصر أو بيئات ، أو تطورات •

وعلى هذا فيمكن للباحث أن يرى طائفة من الألفاظ اختلفت صورها، واتحد معناها ، فيحكم بوجود الترادف بينها •

ومن ذلك التفصيل نستطيع أن نتصور أساس الخلاف الدائر بين علماء اللغة حول وجود الترادف •

فالمنكرون : قد نظروا اليه من الناحية التاريخية ، حيث كانت هذه الـكلمات لها معان مختلفة ، ومن ثم لا ترادف بالمعنى الحقيقى .

وعلى هذا نظـر المحدثون من علماء اللغـة الى قضية الترادف فى أية لغـة من اللغات ، فقد اتجهوا الوجهة التاريخية ووضعوا شروطا لابد من تحققها حتى يتأتى الحكم بالترادف على مجموعة من الألفاظ اتحد معناها واختلفت صورها ، فهـم يشترطون ما يأتى :

١ — أن يكون اللفظان ، أو الألفاظ التى يراد الحكم عليها بالترادف متفقة فى المعنى من جميع الوجوه وذلك كالقمح والحنطة والبر للحبـة المعروفة ولكن اذا اختلف المعنى لم يعـد ذلك ترادفا كما قيل من الفرق بين جلس وقعـد .

٢ — أن تكون الألفاظ المتحدة فى المعنى متحدة فى البيئة اللغوية أيضا بأن يكون ذلك فى لهجـة طائفة من العرب ، أو لهجات طوائف عربية قوية الصلات ، أما اذا كان بعضها فى بيئـة ، وبعضها فى بيئـة أخرى فـلا ترادف .

٣ — أن تكون تلك الألفاظ فى عصر واحد ، فاذا تصادف أن اتفق لفظ فى أحد النقوش القديمة مع لفظ آخـر فى عربية العصر الجاهلى من حيث المعنى ، فلا يعد ذلك ترادفا لاختلاف العصر .

٤ — أن تكون صورة كل من تلك الألفاظ لم تتطـور من الناحية الصوتية عن الأخرى .

فـاذا وقع فى الحسبان أن أحـد اللفظين المتفقين فى المعنى قد تطور عن الآخر تطورا صوتيا لم يعدا من الترادف مثل : الجثل ، والجفل بمعنى النمل ، فالاقتراب فى مخرجى الثاء والفاء يدعو الى تغيير صورة أحد الحرفين وتطورها عن الأخرى[٥٥] .

---

(٥٥) د. نجـا : اللهجات العربية ص٩١ ، ود. أنيس : فى اللهجات العربية ط ٢ ص١٦٧ .

هذه هى شروط المحدثين للحكم بالترادف ، وعليها لا يوجد الترادف فى لهجات العربية القديمة وانما يمكن وجوده فى العربية النموذجية التى سادت بين العرب فيما بعد وصارت لغتهم الأدبية .

وبذلك يمكن فهـم السر الذى بنى عليـه رأى المنكرين للترادف فالكلمات أمامهم وان اتحد معناها ، واختلفت صورها فان تتبعها من الناحية التاريخية يرجعها الى لهجتين مختلفتين أو الى أن احداهما متطورة عن الأخرى ، أو كانت مختلفة فى المعنى — قبل ذلك — ثم اتحدت مع أختها ، تبعـا لعوامل التطور ومن ذلك يدركون وقوع تفاوت بين معانى تلك الألفاظ ووجود فروق لغوية هى — وان تنوسيت الآن — موجودة فعلا وواقعا تاريخيا ، وعلى هذا فـلا ترادف .

أما القائلون به فقد انتهجوا المنهج الوصفى المعتمد على دراسة الكلمات فى عصر معين دون نظـر الى أية اعتبارات أخرى من لهجات أو تطورات .

وعلى هذا كانت اللهجات العربية على اختلافها — واحدة — عندهم وبيئتها — وهى جزيرة العرب — واحدة وابن خالويه حين عـد للسيف خمسين اسما لم يكن ينظر الى الناحية التاريخية مع أن الألفاظ التى وقع بينها ترادف قد وجدت فى عصور كثيرة ، ومختلفة .

وقد تنوسيت الفروق بين دلالات الألفاظ ، وأهملت مع ما يعتورها من التغير ، والتطور ، فنجم عن ذلك اجتماع عدة ألفاظ على معنى واحد .

فالحسام والصقيل ، والصمصام ، ونحوها ، قد ترددت فى الشعر دون قصد الى زوائدها المعنوية ودلالاتها الفرعية ، بل قصد منها هـذه الآلة بغض النظر عن صفاتها التى كانت — أصلا — من خصائص هذه الألفـاظ(٥٦) .

---

(٥٦) انظر فى ذلك تفصيلات كثيرة فى : د. نجا : اللهجات العربية ص١١٦ — ١١٩ ود. أنيس : فىاللهجـات العربية ط ٢ ص١٦٦ — ١٦٩ وستيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة . تعليق الدكتور بشر ص١٠٩ .

ويتبين من النظر الى آراء المنكرين : والمثبتين — على سواء — أنهم مبالغون ، ومتطرفون ؛ فليس من المعقول انكار تلك الثروة اللغوية وجهل مزاياها ؛ كما أنه ليس من اللائق اثبات وجود الترادف بين كل لفظين يظهر اتحادهما فى المعنى .

والأمثل : القول بالوجود مع البحث والتأنى .

ويبدو لنـا — كما يدعو اليه معظم الباحثين المحدثين — أن الدراسة الواعية للألفاظ التى أوردتها كتب اللغة للانواع الثلاثة « الاشتراك — التضاد — الترادف » — على ضوء الأسباب التى ذكرناها لكل منها — هى الطريق السليم للوصول الى نتائج حاسمة فى شأن هذه العوامل اللغوية والثروة اللفظية التى تنتمى اليهـا .

وتحرى الألفاظ على هذا الطريق سوف يفتح المجال لدراسة جديدة دقيقة توقفنا على تلك الأنواع من الألفاظ فى صورها الحقيقية ، وبذلك يمكن اخراج كثير من الألفاظ التى يحكمون عليها بأنهـا من المشترك ، أو المتضاد أو المترادف ، من هذه المباحث ، وفيما مضى ذكرنا كلمات نشأ الاتفاق بينها وبين دلالاتها من اختلاف اللهجات ، أو المجـاز ، أو التطور الصـوتى .

وقد أجرى الأستاذ على الجارم فحصا شاملا للأسماء الثمانين التى ذكروها للعسل ، وخلص من ذلك الفحص الى أن الكثير منها ليس من المترادف على سبيل الحقيقة والواقع اللغوى ونورد منها بعض الكلمات ، وكيفية اخراجها من المترادف على طريقة ذلك البحث الواعى .

الضرب : العسل الأبيض ؛ واستضرب العسـل : أبيض ، وغلظ ، فالضرب العسل مقيدا بصفة خاصة .

الضريب : من معانيه : المثل ، والرأس ، والموكل بالقداح ؛ أو الذى يضرب بهـا ، والقدح الثالث ؛ واللبن يحلب من عدة لقاح فى اناء فليس من معانيه العسل ، وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يحلب من عـدة لقاح وقد أطلق على العسل مجـازا ، لعلاقة المشابهة ؛ لأن العسل يجمع من عـدة خلايا .

الورس : نبات كالسمسم ليس الا باليمن ، فاطلاقه على العسل مجاز علاقته المشابهة فى اللون •

الذواب : العســـل ، وصفة الذوبان ملحوظة ، ومثله : النسيلة العسل أيضـــا •

الماذية : اخمرة السهلة فى الحلق : واطلاقها على العسل من قبيل المجـــاز •

لعاب النحل — رضاب النحل — جنى النحل — ريق النحل — قىء الزنابير : هذه أشبه شيء بالكنايات •

الصموت : الشهدة الممتلئة حتى ليس فيها ثقبة فارغة، ففى اطلاقه على العسل مجـــاز مرسل علاقته المحلية •

الختم : العسل ، وأفواه خلايا النحل ، وختم النحل : جمع شيئا من الشمع رقيقا أرق من شمع القرص ، فطلاه به ، فهى تسمية بالمجاورة •

السعابيب : ما يمتد منه الخيوط من العسل ، والخطمى ، فتسمية العسل بهـــا تسمية باللازم •

ثم بعد نهاية تلك الدراسة للأسماء الثمانين للعسل يقول الجارم : وجلى مما قدمناه من الشرح أن قليلا جدا من الأسماء السابقة للعسل أطلقت عليه اطلاقا غير مقيد ، أو منظور فيه الى ناحية خاصة ، أما جمهرة الأسماء فهى اما مقيدة بوصف ، أو نسبة ، واما مجـــاز ، أو كناية(٥٧) •

ولاشك أن دراسة الألفـــاظ المترادفة على تلك الصورة ستخرج ألفاظا كثيرة من دائرة الترادف •

وهكذا يمكن من الملاحظات العلمية الدقيقة التفريق بين ماهو منه على الحقيقة ، وماهو بعيد عنـــه •

ولكن ذلك لا يدعونا الى المغالاة فى تتبع الفروق ، والدقائق التى تخرجنا عن حدود البحث المنهجى •

---

(٥٧) على الجارم : مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣١٤ — ٣٢٠ •

الدلالة عنـد علمـاء العـرب

يعد هذا الفرع من أهـم وأخطر الدراسات اللغوية ، ولذا اتجهت اليه الدراسة الحديثة فى الغرب عند المتخصصين وغير المتخصصين فى اللغة والمهتمين بهـا ، لأن علاقته بالحياة والمجتمع كبيرة ، واحتياج الناس اليه شديد ، فهو مفيد لكل طبقات الأمة ومتطلباتها ، وعلاقتها مع غيرها فى ميادين الحقوق ، والواجبات والأخلاق والمعاملات ، وغيرها ، وتبدو آثار تغير المعنى فى كل المجالات ، سياسية ، واجتماعية ، وقضائية ، ودوليـة .

ولهذه الأهمية تناوله اللغويون وغيرهم بالدراسة والبحث .

وقـد اختلف الباحثون حـول دراسة المعنى فى عـلم الدلالة (السيمانتيك) فبعضهم يرى دراسته فى المفردات ، وبعضهم يدرسه فى التراكيب (السيمانتيك المعجمى والسيمانتيك النحوى) وبعضهم يدرسه فيهما معـا فى اطـار اجتماعى معين ، كما اختلف الدارسون فى تعريف المعنى وتحديده اختلافا واسعا ، وذلك يرجع الى سببين :

(أ) تعدد الدارسين واختلاف ميادين دراستهم ، فمنهم المناطقة ، والفلاسفة ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجى ، وعلماء اللغـة .

(ب) كثرة مصطلحاتهم بهذا الصدد ، وعدم اتفاقهم على تحديد المراد منها بدقـة .

وقد أدى ذلك الى أن بعض الباحثين أهمل مشكلة المعنى وأخرجها من دائرة الدرس اللغوى [1] .

---

(١) د. بشر : علم اللغة العام — القسم الثانى — ص ١٥٣—١٥٦ .

أولا : دراسة المتخصصين :

أول من تكلم فى موضوع المعنى ، وتناوله بالدراسة التى توحى بنشأة (علم الدلالة) هو (ميشيل بريال) ، فقد درس مجموعة من اللغات القديمة هى : « اليونانية — اللاتينية — السنسكريتية » على طريقة « الاشتقاق التاريخى » وخلص من دراسته الى أن تغير المعنى يخضع لخصائص عقلية (٢) .

وجاءت بعده طائفة من العلماء تبعته فى هذا المسلك ، دون ملاحظة — منه أو منهم — لأحداث تغير المعنى من الجانب الاجتماعى أو غيره .

ولكن من أتى بعدهم من الباحثين رأوا أن المعانى اللغوية تسير وفق الظواهر الاجتماعية ، والانسانية — بعامة — وتتبع تقاليد الأمة ، وعاداتها وهى مختلفة من شعب الى آخر ، ومن طائفة لأخرى ، ومن عصر لغيره ، والقيم المثالية مختلفة حسب هذه الحالات ، ومن أجل ذلك تختلف المعانى وتتغير .

فدرسوا المعانى — فى ضوء الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب — بجمع الألفاظ التى تدور حول موضوع واحد — فى اللغة موضوع الدرس كالأخلاق ، أو الزراعة ، أو الصناعة ، وتحليلها . وابداء ملاحظات عليها ، كما فعل الأستاذ « جوست ترابر » بجمعه الألفاظ الخاصة بالذكاء فى نصوص اللغة الألمانية العليا القديمة والوسطى .

---

(٢) كالحاجة الى الوضوح .

وقد ثبت لهؤلاء الدارسين أن معانى الألفاظ المدروسة تتسع — فى بعضها — وتضيق — فى بعضها الآخر — ويختفى سواهما [٣] .

ثم تعمقت الدراسة الدلالية فى الغرب ، واتسع نطاقها ، فبرزت الاتجاهات الآتيـــة :

١ — الاتجـــاه الاجتماعى :

وهو الذى يربط اللغـــة ودلالتها بالمجتمع ، وظواهره ، ولهم فيه رأيان .

(أ) رأى دى سوسير والمدرسة الاجتماعية السويسرية الفرنسية :

هذا الرأى مبنى على ما قرره علمـــاء الاجتماع — وعلى رأسهم دور كيم — من أن الظواهر الاجتماعية لهـــا وجود خاص مستقل عن وجود الأفراد ، والسلوك الاجتماعى العـــام له وجود خاص — كذلك — واللغـــة ظاهرة اجتماعية .

فقدر دى سوسير أنها تخضع لمـــا لتلك الظواهر من أحكام ، ولذا فرق بين ثلاثة مصطلحات :

١ — اللغة : فى اطارها الانسانى العام وهى من هـــذا الجانب مقدرة أو استعداد أو ملكة أو طاقـــة .

٢ — اللغة المعينة : وهى مجموع العادات اللغوية المختزن فى عقل الجماعة المعينة ، والذى يعـــد نتيجة للملكة اللغوية العامة ، ويمكن للفرد أن يعبر عنها فى صورة الكلام المنطوق ، وهى — بهذا — تجمع النظـــام الصوتى ، والنحوى — كما يعبر عنه المتكلم بتلك اللغـــة فى أى عصر من عصور تاريخها كالعربية أو الانجليزية — مثـــلا — وكأن تلك العقول

---

(٣) د. السعران : علم اللغة ص ٣١٧ — ٣١٩ .

بمنزلة القواميس التى تجمع الألفـــاظ صامتة مع صـــلاحيتها للنطق ، والاستعمال .

واللغـــة ، واللغـــة المعينة ـــ اذا ـــ مستقلان عن الفـــرد .

٣ ـــ الكلام : هو الجانب العملى للغـــة المعينة ، لأنه تعبير عنهـــا بالأصوات المنطوقة بالفعل ، وهذا خاضع لاستعمال الفرد ، وسيطرته .

وقد فرق دى سوسير بين (القيمة اللغوية للكلمة) و (المقصود) منهـــا على ضوء الفكرة ، والصورة السمعية الناشئة عنها فى صـــورة علامة لغوية هى الكلمة ، وتدرك قيمة العلامة مع وجود سائر العلامات فى اللغـــة المدروسة .

كما فرق أيضـــا بين الدراسة الوصفية ، والدراسة التاريخية فى اللغـــة ، واتخذ منهجا علميا لدراسة المعنى على طريق الوصف فى عصر معين ، أو بيئة معينة ، وعلى طريق التاريخ دراسة تحليلية تطورية [٤] .

وقد أثر دى سوسير ـــ الذى يعد رائد الدراسة اللغوية الاجتماعية بهذا الرأى وغيره فى المدارس اللغوية ، وبخاصة المدرسة الفرنسية التى يعـــد من أعضائها فندريس ومييـــه .

(ب) رأى مالينوفسكى البولندى [٥] وأتباعه فى المدرسة الاجتماعية الانجليزية :

عد مالينوفسكى اللغـــة أداة تخدم أغراض الجماعة ، فلا تقتصر وظيفتها على نقـــل الأفكار ، والانفعالات فقط ، بل لهـــا وظائف كثيرة غير ذلك ، ثم انهـــا تؤدى وظائفها فى نطاق ما عرف ـــ عنده ـــ باسم (سياق الحـــال) (الماجريات) .

---

(٤) انظر فى هذا الموضوع د. السعران : علم اللغة ص٣٢٧ـــ١٣٣١ ود. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص٣٧ ـــ ٣٩ ، ٢٤٤ .

(٥) كان لمالينوفسكى أثر على علماء الأنثروبولوجيا واللغة من الانجليز .

وجـــاء فيرث الانجليزى فطور من هذا السياق ، بحيث جعله يشمل النشاط اللغوى كله كلاما وكتابة •

وهذا السياق له عناصر منهـــا :

١ — المتكلم والسامع والحاضرون معهما ، سواء اشترك بعضهم معهما فى الحديث والمناقشة ، أو اكتفوا بالاستماع والمشاهدة ، ومبلغ صلتهم بموضوع الحديث ، ودرجة ثقافتهم ، وغير ذلك مما له علاقة بهذا الموقف •

٢ — ما يتركه الكلام من انطباعات على السامعين من تصديق أو عدمه ، وتقدير أو سخرية ، وغير ذلك مما يثيره الموضوع ، الكلامى •

والمعنى — عند فيرث — يحتاج لبيانه الى دراسة النواحى الصوتية، والصرفية ، والنحوية ، والقاموسية ، والوظيفة الدلالية لسياق الحـــال ثم تستخلص نتائج تلك الدراسات ويضم بعضها الى بعض للتوصل الى المعنى المطلوب

وعلى هذا فتحليل نص لغوى عنده يلزم لـــه :

(أ) تحليل النص على المستويات اللغوية المذكورة •

(ب) بيـــان سياق الحـــال •

فالمعنى عنده مجموعة من الخصائص والارتباطات والميزات اللغوية التى تستطيع التعرف عليها فى الموقف المعين •

فاذا أردنا البحث عن معنى كلمة يجب أن نأخذ فى تقديرنا الأسس المشار اليهـــا فيما سبق ، والنظر الى المتكلم فى الموقف الخاص بجعله كلا متكاملا ، فمثلا كلمة (ولد) لهـــا معنى مركب هو مجموع عـــدة وظائف وخصائص تتبين من التحليل الآتى :

١ — (ولد) لهـا وظيفة صوتية ، أو معنى صوتى يختلف عن كلمة (بلد) (أو وجد) مع اشتراكها فى بعض الأصوات ، لكن الاختلاف فى البعض الآخر غير المعنى صوتيا وغير صوتى .

ب — (ولد) معناها القاموسى يختلف عن معانى الكلمات التى قورنت بهـا ، ولذا يختلف استعمالها فتقول (ولد نحيل) ولا تقول (بلد نحيل) وتقول (ولد بنتـا) ولا تقول مثل ذلك فى بلد .

٣ — (ولد) لهـا معنى صرفى فتتصرف على هيئة أفعال (ولد — ولدت) — (ولدن — ولدوا) وعلى هيئة أسماء (ولد — ولدان — أولاد — ولد بضم الواو وسكون اللام —) .

٤ — (ولد) لهـا معنى نحوى يتضح من بيان وظائفه فى الجمل مثل (ولدت المرأة — ولدت — ولد كبير — ذلك ولد الخ) .

٥ — (ولد) لهـا معنى اجتماعى حسب اختلاف المقام والأحوال والملابسات الخارجية ، وشخصية المتكلم والسامع ، والناحية الصوتية من تنغيم وموسيقى ، وما يصحب الكلام من حركات جسمية .

فاذا قلت (يا ولد) كانت له عـدة معان فى سياقات متعددة ، فتكون مدحا وتعظيما أو تحقيرا أو زجرا ، وقـد يخـاطب به ذكر أو أنثى ، أو طفل أو رجـل فى مناسبات متعددة .

وهذا التحليل يؤكد أن المعنى اللغـوى مجموعة من الخصائص والميزات اللغوية للكلمة ، وعلى هذا فطبيعة المعنى اللغوى تختلف من لغـة الى أخرى ، حسب اختلاف طبائع المتكلمين من عرب وانجليز وغيرهم ، فاستعمال الأصوات الانسانية وارتباطها بالمعنى يختلفان من مجتمع لآخـر [٦] .

---

(٦) د. بشر : دراسات فى علم اللغة: القسم الثانى ص ١٧٥—١٧٨ .

وهكذا نرى الربط بين اللغة والمجتمع ، وفهم المعنى على أســاس السلوك الاجتماعى ، والأمور التى تحيط بالكلام والآثار المترتبة عليه •

٢ — الاتجـــاه السلوكى :

برز هذا الاتجـــاه لدى المدرسة الأمريكية التى أخـــذت بالمذهب السلوكى فى علم النفس ، وظهر — بوجه خاص — عند (بلو مفيلد) اللغوى الأمريكى المشهور •

تفسر النظرية السلوكية سلوك الانسان بطريقة فسيولوجية ، أو فيزيقية ، وعند السلوكيين أن مصطلحات (الارادة — الشعور — الفكرة — الانفعال) ينبغى أن تفسر على الأساس الســابق •

وقد لاحظ (بلو مفيلد) وجود صعوبات جمـــة تجعل مشكلة المعنى ضعيفة وليست من شأن اللغويين ، يقول « ان تقديم تعريف علمى لمعنى كل صيغة فى لغـــة ما يوجب علينا أن نكون عارفين تماما لكل شىء فى عالم المتكلم بهذه اللغـــة ، ولكن القدر الحقيقى لمعرفة الانسان بهذا العالم قدر ضئيل جدا ، قد تكون لدينا المقدرة على تحديد معنى كلمة من الكلمات تحديدا علميـــا ، وذلك عندما يكون هذا المعنى مختصا بأشياء لنـــا معرفة علمية بهـــا ، انه من الممكن مثلا تعريف أسماء المعادن عن طريق الالتجاء الى أساليب الكيمياء ، أو علم المعادن كأن تقول مثلا ان المعنى العادى للكلمة (ملح) هو (كلوريد الصوديوم) ، وكذلك يمكننا أن نعرف أسماء النبات والحيوان عن طريق الاصطلاحات المستعملة فى علم النبات وعلم الحيوان ، ولكن ليست لدينا طرق دقيقة لتحديد معانى كلمات كثيرة أخرى ، ككلمة حب أو كراهية التى تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، وهـــذه المواقف وأمثالها تشـــكل الغالبية العظمى من مواقف الكـــلام الانسانى [٧] •

---

(٧) ومن الصعوبات التى تعترض طريق المعنى : وجهة النظر الخاصة =

ولكنه يعرف المعنى مشيرا الى مواقف المتكلم والسامع محاولا أن يطبق نظرية السلوكية على اللغـة فوجدت عنده مصطلحات ثلاثة هى : (الاستجابة — الاستجابة البدلية — المثير البدلى) .

فالكلمات — والنطق عامة — تفسر على أساس الأحداث الفسيولوجية والفيزيقية ، وقد ضرب مثلا لذلك ملخصه أن : جاك وجيل — زوجته أو أخته — كانا يسيران ، وكانت جيل جائعة ، فشاهدت تفاحة على شجرة فى حديقة فقالت : (أنا جائعة) فوثب جاك وأحضر لهـا التفاحة فأخذتها وأكلتهـا .

وهنا يتصور (بلومفيلد) ثلاثة أشياء :

١ — الأحداث العملية التى سبقت الـكلام :

وهى أن (جيل) حدث لهـا تقلص عضلى نتيجة الجوع ، وقد وقع نظرها على التفاحة نتيجة الموجات الضوئية المنعكسة على عينيها وهى ترى جـاك بجوارها .

فهذه أحداث تعد بمنزلة (المثير أو المنبه) لجيل .

٢ — الكـلام :

أصدرت (جيل) بعض الأصوات بحركات عضلية معينة تمثل رد فعل لغوى لأنهـا لا يمكنها أن تقوم برد فعل عملى بأن تقفز من فوق سور الحديقة لتأتى بالتفاحة ، فاستبدلت من الحدث العملى الحدث اللغوى ، فيسمى كلامها (رد فعل لغوى) لأنه كان بدل الحدث العملى الذى كان

=

للمتكلمين — فى استعمال اللفظ للمعنى المراد — واختلافهم فى شرح معناه ، وتعدد الأشخاص المستعملين له ، ومزاج المتكلم ، وحالته النفسية والثقافية ، واستعمال اللفظ فى غير ما وضع له ، أو ما اعتاد الناس استعماله فيه ، كالحديث عن تفاحة حيث لا تفاحة بعيدا عن المعانى القاموسية ، ويبدو ذلك فى لغة الكذب والتهكم والشعر والقصص الخيالى .

أنظر د. بشر : دراسات فى علم اللغة ص١٦٣ ، ١٦٤ .

يتوقع أن تقوم هى به بمجرد رؤيتها التفاحة لو أنهـا تستطيع وعـد كلامها (مثيرا) بالنسبة لجـاك بجانب رؤيته (التفاحة) .

فهناك مثيران أحدهما (لغوى) أو (بدلى) — وهو الموجات الصوتية المتتابعة على أذن جاك — والثانى (عملى) — وهو رؤيته التفاحة وجوع زوجته أو أخته جيل .

٣ — الأحداث العملية التى تلت الكلام :

هى قفز جاك من فوق السور ، واحضاره التفاحة ، واعطاؤه اياها لجيل لتأكلها ، وتسمى تلك الأحداث (استجابة) السامع .

فالمعنى اللغوى يتكون من هذه الأشياء المهمـة التى يرتبط بهـا الكلام ، أو بعبارة أخرى المعنى هو مجموع الحوادث السابقة للكلام والتالية له المعبر عنها فى الكلام السابق بالجزءين (١) ، (٢) .

فالكلام — بنـاء على هذا المثل — علاقة قوية بالأحداث العملية التى توجد على هيئة مثيرات ، أو ردود أفعال للكلام ، فيفسر على هذا الأساس الفسيولوجى ، وما يتصل به من الظواهر المادية ، فالجوع يعرف بالتقلص العضلى ، وما يصحبه من افرازات معدية أو عطش أو نحو ذلك ، ويعرف (الملح) بتحليل عناصره الكيماوية التى يتركب منها ، ويمكن تطبيق ذلك على الأفكار والتصورات المختلفة ، فيفسر الحب والكره وغيرهما عن طريق الألفاظ الفيزيقية ، وهكذا كل ما يتعلق باللغـة ودلالتها .

ويرى الدكتور (بشر) أن قول (بلو مفيلد) بضعف مشكلة المعنى فى الدراسات اللغوية قول مرفوض ، لأن دراسة المعنى أساس الدراسات اللغوية وهدف مهـم للغويين ، ويصف مذهبه فى شرح مشكلة المعنى بأنه ميكانيكى عقلى ، فهو يحلل سلوك الانسان وفقـا لنظريات المدرسة الميكانيكية فى علم النفس ، ولا يمكن اخراج العقل والفكر من الدراسة ،

أذ لا يمكن أن نخرج الدوافع الأساسية كالبواعث ، والحاجات والرغبات للانسان والطبيعة الاجتماعية (٨) .

ومع ذلك فالمدرسة السلوكية — كمـا يقول الدكتور السعران — (لا تتجاهل العناصر الاجتماعية ولكنها تعبر عنها بمصطلحات خاصة بها فهى لا تتجاهل شخصـية المتكلم ، وشخصية السامع ، وبعض الأمور المحيطة بالكلام ، وهى بذلك وجهت عناية اللغويين الى ربط المعنى بمجالات غير الكلام مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة) (٩) .

ثانيا : دراسة غير المتخصصين :

لـما لمشكلة المعنى من تعقيد ، وغموض ، وأهمية ، تناولها غـير اللغويين بالدراسة والبحث .

فقد ألف (أوجدن ، وريتشاردز) كتابا سمياه (معنى المعنى) أوضحا فيه طبيعة — المشكلة وتعقدها ولكن تركاها دون عـلاج .

وتقـوم فكرتهم الأساسية على القـاعدة المشهورة التى سمياها (المثلث الأساسى) فأية علاقة رمزية لهـا ثلاثة جوانب أساسية :

(أ) الرمز نفسه : وهو فى دراسة اللغـة (الكلمة المنطوقة) مثل (منضـدة) .

(ب) المحتوى العقلى : الذى يحضر فى ذهن السامع حين يسمع الكلمة (منضـدة) .

---

(٨) د. بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

(٩) د. السعران : علم اللغـة ص ٣٣١ — ٣٣٦ وانظر د. بشر ، دراسات فى علم اللغة ص١٦٦ — ١٦٨ .

(جـ) الشيء نفسه : وهو (المنضدة) وقد يطلق عليه (المقصود) أو (المعنى) •

وكان لرأيهما أثر فيمن أتى بعدهما من المهتمين بدراسة المعنى فقد بنى (ستيفن أولمان) نظريته فى المعنى على ماقام به العالمان السابقان الا أنه أدخل شيئا من التعديل على نظريتهما فقد أهمل (الشيء) من حسبانه ونظر الى الفكرة والرمز ، وارتباط أحدهما بالآخر ، وأطلق على الأول — الفكرة — اسم (المدلول) وعلى الثانى — الرمز — اسم (اللفظ) ، وقال : ان المعنى هو العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول فاللفظ يستدعى المدلول ، كما أن المدلول يستدعى اللفظ ، فحين يفكر الانسان فى (منضدة) ينطق الكلمة (منضدة) وسماعه هذه الكلمة سوف يجعله يفكر فى (المنضدة) ، وهذه القوة التى تربط بين اللفظ والمدلول هى أساس العملية الرمزية وتميز أو تعرف بكلمة (المعنى) •

ويمثل ماذهب اليه هؤلاء النظرية العقلية فى دراسة المعنى •

ويرى الدكتور (بشر) أن هذه النظرية تلجأ الى الفلسفة ، أو علم النفس أو ما شابه ذلك من العلوم ، وهى تنظر الى الثنائية (أى العقل والجسم) • وفى هذا خلط للمناهج ، ولا يتفق مع مبادىء علم اللغة التى تجعل الانسان كلا متكاملا دون تفريق بين عناصره المادية والروحية [١٠] كذلك ألف (بردجمان) كتابين • همـا « منطق الفيزياء الحديثة — والفرد الذكى والمجتمع » بين فيهما أن استعمال الألفاظ فى المصطلحات العلمية

---

(١٠) د• بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الثانى ص١٥٥ — ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ •

يختلف من عالم الى آخـــر ، فكلمتا « الزمان والمكان » لهمـــا معنى شائع متداول ، لكن الفيلسوف أو عالم الفيزياء يتخذ لكل منهما فى تعبيره دلالة خاصـــة .

وقد حـــاول أن يفسر اللغـــة بطريقة « العمليات الفيزيائية أو الاجراءات » فـــاذا عجز عن تصور معنى كلمة مثل : الديمقراطية أو الواجب أو الأخلاق ، فانه يطلب اطراحها ، والاعراض عنهـــا ، والاتجاه الى السلوك الفردى .

وهو تفسير غير سديد ، لأن اللغـــة ظاهرة اجتماعية ينبغى أن تفسر فى ضوء السلوك الاجتماعى لا الفردى كما عرفنا من دراسات اللغويين .

وقد حـــاول « ثورمان أرنولد » — وهو من رجال الادارة الحكومية المشتغلين بالقانون — أن يبين فى كتابه « فولكلور الرأسمالية » مالبعض الكلمات والعبارات فى الانجليزية الأمريكية من قـــوة سحرية يستخدمها بعض من يسيئون استعمال اللغة ، ورموزها فى التأثير على الناس [١١] ولكنه لا يقدم علاجـــا مفيدا لهذه الاســـاءة .

أما « الفرد كور تسبسكى » ومن تبعـــه مثل « ســـتيوارت تشيز وهايا كاوا » فقد طلبوا فى مؤلفاتهم وكتاباتهم تحديد المصطلحات ، والرموز ، بمعانيها الدالة عليها ، حتى لا ينحرف بهـــا أصحاب الأهواء الذين يضللون الناس باستعمالهم الكلمات بعيدة عن أغراضها الأساسية ، وهذا يؤدى الى انحراف الشخصية ، والقومية العالمية .

وتنبأ الثلاثة وأتباعهم فى مدرسة كورتسبسكى بأن دراسة الدلالة تحل كل المشكلات، وهى الدواء العالمى للأمراض الانسانية ، ومعنى ذلك

---

(١١) مثل : The Cousititution (الدستور) .

The founders of This Contry (مؤسسو هذا البلد) .

أن تلك الدراسة اللغوية — فى أصلها — ستحل جميع مشكلات البشر حتى الفقر ، والجهل والحرب ، وأسرفوا فى الوعود والبشارات [١٢].

ونحن نؤمن بأن انحراف بعض مسيئى الاستعمال فى اللغة ، يؤدى الى كوارث ، ويخلق مشكلات فى مجالات السياسة والصحافة ، والخيالة (السينما) والاذاعة المرئية ، وبخاصة اذا كان بطريق مقصود ، وهو يحدث كثيرا فى مجتمعاتنا المعاصرة .

وهذا يوجب على عالم اللغة أن يقدم المساعدات الممكنة فى هذا السبيل لرجال السياسة والصحافة ، والاقتصاد والاجتماع ، وعلماء النفس وغيرهم .

ولكن لا نستطيع أن نتفاءل الى حد بعيد ، فنجعل تلك الدراسة — التى تتصل باللغة — حلالة جميع العقد ، فتحل جميع المشكلات الاجتماعية ، والأخلاقية — كما ادعى أصحاب تلك المدرسة — لأنه ليس فى طاقة اللغوى أن يفعل ذلك [١٣] .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسات صدرت عن غير المتخصصين فى اللغة ، فانها أثارت الاهتمام بمشكلة المعنى فى الدراسات اللغوية — عند المتخصصين — وبخاصة فى الدراسات الأمريكية ، ويرجع ذلك الى ما تتسم به طبيعة المشكلة من تعقيد ، وما كان لهؤلاء الكتاب من مهارة فى الكتابة باتجاهاتهم التى شرحناها ، وما أثر عن بعضهم من شغف الناس بكتاباته كثورد أرنولد ، ومن براعة الصياغة اللفظية وطريقة التأثير التى تستولى على القراء كما شاع عن الفرد كورتسبسكى [١٤] .

---

(١٢) د. السعران : علم اللغة ص ٢٢٣ .

(١٣) المصدر السابق ٣٢٦ .

(١٤) وانظر فى تفصيل هذه الدراسة د. السعران : علم اللغة ص ٣١٧ — ٤٣١ ، وكتابات متفرقة فى د. تمام : مناهج البحث فى اللغة .

فكان نتيجة لذلك ، ولمـا أولاه المتخصصون من عناية فى المدارس اللغوية التى أشرنا اليهـا أن تقدمت دراسة المعنى فى ثباته ، وتغيره ، وعوامل ذلك مستمدة من الواقع الاجتماعى واللغوى الذى صحب تلك الأحوال الدلالية ، واستطاع علماء اللغـة أن يصلوا — بالدراسة المتأنية والمتفحصة — الى القوانين التى تحكم هذه الظواهر ، وانتقالها من حال الى حـال ، كما تنوعت عندهم الدلالة الى صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، ومعجمية ، وعلمت مظاهرها المتعددة ، لأن دراسة المعنى كانت أثرا من آثـار الدراسات المتعددة فى الأصوات ، واللهجات ، والقواعد والأساليب وعلم النفس ، وعلم الاجتماع اللغويين — كما ذكرنا سابقا — فأخذت صفة المنهج العلمى ، وحققت كثيرا من النتائج المرجوة منهـا .

ثالثاً : اللغة العربية والفلسفة

(أ) تأثر الدراسات اللغوية بالفلسفة والمنطق

اللغـة — كمـا قدمنا — ظاهرة اجتماعية ، واذا كانت الظاهرة الاجتماعية تمتاز بخواص معينة فان هذه الخواص تصدق على اللغـة كذلك ، والظواهر الاجتماعية هى التى يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La sociologie وهى تمتاز بصفات كثيرة من أهمهـا الخواص الثلاث الآتيـة :

١ — أنهـا تتمثل فى نظم عامة يشترك فى اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجماعية •

٢ — أنهـا ليست من صنع الأفراد ، وانمـا تخلقها طبيعة الاجتماع (من نتـاج العقـل الجمعى) •

٣ — أن خروج الفـرد على نظـام منها يلقى من المجتمع مقاومة •

وهذه الخواص تتوفر فى اللغـة ، اذ يشترك فيهـا المجتمع ، ويتخذ منهـا أساسا للتعبير عمـا يجول بخواطر أفراده ، وفى تفـاهم بعضهم مع بعض •

واللغـة من الأمور التى يرى فيهـا كل انسان نفسه مضطرا الى الخضوع لمـا ترسمه[1] •

فاللغة أداة اجتماعية لا عقلية بحتـة ، ولهذا فطريقها غير طريق المنطق العقـلى •

ويحدثنا التاريخ أن اليونان نبغـوا فى العصور القديمة نبوغـا عظيما ، وبخاصة فى الفلسفة والمنطق •

---

(١) د. وافى : اللغة والمجتمع ص٣ ، ٤ •

ولا ريب أن ذلك الاتجاه الفلسفى كان له أثره فى دراسة لغتهم ، فكان الاغريق اللغويون يعدون الجملة حكما منطقيا ، وينظرون الى طرفى الاسناد النحوى نظرتهم الى الموضوع والمحمول فى المنطق ، ومن يقرأ ما كتبه أرسطو فى المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الأولى ، والثانية يجدها مليئة بالنظرات التى تخلط بين التفكير اللغوى ، والفلسفة .

ومن ذلك قوله عن الاسم انه اللفظ الذى لا يدخل الزمن فى مدلوله ولا يدل جزء منه مستقلا عن الأجزاء الأخرى .

ويقول : ان الاسم لا يوصف بالصدق ، أو الكذب الا اذا أسند ، والوصف بالصدق أو الكذب ليس من الدراسات اللغوية ، وانما هو من الدراسات المنطقية[٢] .

وقد استطاع أرسطو أن يقرب بين منطقه ، واللغة اليونانية ، ان لم يكن قد جعلهما منطبقين تمام الانطباق متآلفين تمام التآلف ، وأعجب المفكرون فى الأمم الأخرى بمنطق أرسطو ، وحاولوا صب لغاتهم فى تلك القوالب[٣] .

وتبعا لهذا ادعى بعض الباحثين أن دراسة اللغة اليونانية فى تراكيبها ، وطرقها ، صادقة على كل لغات العالم اذ أن هذه اللغات تجرى على مقياس اليونانية[٤] :

ونحن نميل الى القول بفساد هذا الرأى لعدم صدق منهج اليونانية على كل اللغات .

ويهمنا الآن البحث فى تأثر الدراسات اللغوية العربية بالفلسفة اليونانية ، أو غيرها فنقول :

---

(٢) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص١٤ ، ١٥ .
(٣) د. أنيس : من أسرار اللغة ص١١٨ .
(٤) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص١٤ .

لقد وجدت بذور الدراسة اللغوية منذ عهد أبى الأسود الدؤلى ، ثم أخذت تتسع شيئا فشيئا ، وقويت بقيام مدرستى البصرة ، والكوفة ، والمدرسة البغدادية ووصلت تلك الدراسات أوجهـا فى القرن الرابع الهجـرى •

فالمعروف أن هذا القـرن كان عصر ازدهار فكرى ، ولغوى ، وأدبى وعصر ازدهار الترجمة ، ظهرت فيـه حركة علمية واسعة النطاق ، وظهر فيه علماء أفذاذ قادوا ركب النهضة ، وبخاصة فى بغـداد مدينة العـلم الزاهـرة •

وكان بعض المشتغلين بالدراسـة اللغوية من المعتـزلة ، وأرباب الثقافات الأجنبية فلابد أن يكون لذلك أثره فى الدراسة اللغوية ، وكانت القواعد التى استنبطها علماء البصرة والكوفة سببا فى كثير من التعليلات ، والفلسفـات التى أدخلت على قواعـد اللغـة لتسـويغ موقف أو شذوذ مثال •

ولكن هل تأثرت بعض هذه الاتجاهات اللغوية بمنطق اليونان ، وفلسفتهم ؟

يرى الدكتور ابراهيم سلامة مدكور أن القواعد العربية متأثرة بمنطق أرسطو ، وبنى رأيه هذا على أمور أهمهـا :

١ — اعتبار القياس أصلا من أصول النحو ، وتحديده ، ووضعه على نحو ما حـدد القياس المنطقى ، ثم التشابه بين ما جـاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه ، وعند أرسطو الى اسم وفعـل وأداة •

٢ — ظهـور — النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القـرن السادس الميلادى على مقربة من النحـاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبد الله بن المقفع لمنطق أرسطو التى تعد — كما يقول — ثروة جديدة نقلت الى العـالم الاسلامى ، ثم تملذة بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق الطبيب السريانى المعروف الذى كان له أثر فى نقـل علوم اليونان •

وقـــرر الدكتور أن حنينا عاصر الخليل ، وسيبويه .

ويقول الدكتور مدكور فى هذا البحث : ولم يقف الأمر — فيمـا نعتقد عند الفقه والكلام ، والفلسفة ، بل امتد الى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطى من جانبين :

أحدهما موضوعى — كطريقة تقسيم الكلمة .

والآخر منهجى — كمسلك القياس والعلـــة .

وتأثر النحو العربى عن قرب ، أو بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحـــدد ، ويوضع على نحـــو ما حدده القياس المنطقى[٥] .

ويرى هذا أيضا بعض الباحثين ، كالدكتور عبد الرحمن أيوب الذى يقـــول :

وقد تأثرت قواعد اللغة العربية بهذه القواعد (أى قواعد اللغـــة الاغريقية) بل لعلنـــا لا نكون مجاوزين للصواب اذا قلنـــا بأن قواعد اللغة العربية التى نراها فى كتب النحاة ليست سوى مزيج من تقليد قواعد اللغـــة الاغريقية ، ومنطق أرسطو[٦] .

ولكننا نرى — كما يقول الدكتور السامرائى أن اليونانية تختلف نحوا ، وطبيعة عن العربية[٧] .

---

(٥) د. مدكور من بحث بعنوان (منطق أرســـطو والنحو العربى) نوقش فى جلسة مؤتمر مجمع اللغـــة العربيـــة ، الدورة الخامسة عشرة (١٩٤٨ — ١٩٤٩) فى الجلسة السابعة (٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٩) ونشر بمجلة المجمع الجزء السابع ص٣٣٨ — ٣٤٦ ومجلة الأزهر عددى رمضان وشوال سنة ١٣٧١ هـ — مايو ويونية سنة ١٩٥١ وانظر تفرعات القياس والعلة بصورة خاصة فى العدد الأخير ص٤١ — ٤٥ .

(٦) د. عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ص١٤ .

(٧) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٣ .

فليس من المعقول أن يكون العرب قد وضعوا قواعدهم اللغوية على نظام القواعد اليونانية ، ومجرد التشابه في تقسيم أو أكثر أو في بعض المصطلحات لا ينهض دليلا لاثبات مثل هذه الدعوى العريضة ، ولاشك أن أقسام الكلمة موجودة عند شعوب أخرى — كالهنود مثلا — والأمر بعد هذا يحتاج الى دراسة تحليلية مقارنة بين النحوين اليونانى والعربى وهو مالا يزعم أحد ممن أثبت التأثير اليونانى أنه قام به حتى الآن[٨] .

وقد ارتكب الدكتور مدكور خطأ تاريخيا فحنين بن اسحاق لم يعاصر الخليل ، فوفاة الخليل سنة ١٨٠ هـ أو قبل ذلك أو بعده بقليل ، وولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ هـ فالزعم باطل من أساسه[٩] .

فطبيعة العرب وحياتهم الاجتماعية ، وطبيعة لغتهم لا تسمح لنظام أجنبى أن يأخذ طريقه اليها .

ولم تكن الدراسة اللغوية العربية دراسة فلسفية ، وانما كانت تخضع لتناول اللغة من خلال النصوص .

وعلماء العربية الذين درسوا القواعد لم يتأثروا بلغات أجنبية يونانية أو غيرها .

فالخليل أستاذ سيبويه كان عربيا اعتمد على مشافهة العرب فى جمع اللغة ، ودراستها ، ولم يستعن بلغات أجنبية فى صوغ قواعد النحو ، ويثبت التاريخ أنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية[١٠] .

وسيبويه — عى الرغم من أنه فارسى الأصل — لم يتأثر فى دراسته اللغوية بالفلسفة ، وانما تأثر بالنقل عن العرب الخلص ، وبأستاذه الخليل .

---

(٨) د. أحمد مختار : البحث اللغوى عند العرب ص٢٣٩ .
(٩) د. السامرائى : دراسات فى اللغة ص١٤ .
(١٠) د. نجا : المعاجم اللغوية ص٢٠ .

فالمطالع لكتابه يلاحظ اعتماده على النصوص المنقولة عن العرب الخلص ، فيقول فيه ، حدثنى من أثق بعربيته ، أو حدثنى الخليل ، ونحو ذلك[11] .

وقد بدأت الفلسفة فى الدخول الى الدراسة النحوية منذ القرن الرابع الهجرى الذى كثرت فيه المناظرات ، والجدل ، وعلم الكلام ، ومن هنا ظهرت سمات المنطق ، والبحوث اللاهوتية .

ومع ذلك فان كثيرا من الباحثين — فى هذا العصر — يؤمن بأن للغة منهجها الخاص الذى يجب ألا يتأثر بالمنطق الا فى حدود ضيقة .

فأبو سعيد السيرافى شارح كتاب سيبويه لا ينكر فضل المنطق اليونانى ولكنه يرى تشكيله وتكييفه حسب طبيعة اللغة العربية مع الاعتزاز بتلك الخصائص اللغوية التى لا تمت لمنطق اليونان بصلة .

يقول السيرافى[12] : والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة ، وانما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعى ، والمعنى عقلى[13] .

وللسيرافى حديث آخر يؤكد فيه أن منطق اللغة يبتعد عن منطق

---

(١١) أنظر مثلا : سيبويه : الكتاب ١/١٨٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٧٤ وغيرها .

(١٢) فى المناظرة التى كانت بينه وبين متى بن يونس ، وكان يمثل الفريق المغالى فى الاعتزاز بثقافة اليونان ، وكانت تلك المناظرة فى حضرة الوزير ابن الفرات ، المتوفى سنة ٣٢٠هـ ، ويكنى متى بن يونس — فى كتاب الامتاع والمؤانسة — بأبى بشر ، وأبو بشر هو ابن يونس القنائى من أهل دير قنى — بضم القاف — كان نصرانيا ، عالما بالمنطق ، واليه انتهت دراسة المنطقيين فى زمنه ، نزل بغداد بعد سنة عشرين وثلاثمائة ، وكانت وفاته فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة . أنظر : أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ١/١٠٧ والتعليق ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٣) أبو حيان الامتاع والمؤانسة ١/١١٥ .

الفلسفة ، فقد كان يرى أن لكل لغــة خصائصها التى لا يمكن أن تخضع لمنطق اليونان ، الا مع التكلف ، والتعسف ؛ فيقول : على أن ههنا سرا ما علق بك ؛ ولا أسفر لعقلك ، وهو أن تعلم أن لغــة من اللغات لا تطابق لغــة أخرى من جميع جهاتها ، بحدود صفاتها ، فى أسمائها ، وأفعالها ؛ وحروفها ، وتأليفها ؛ وتقديمها ، وتأخيرها ، واستعارتها ، وتحقيقها ؛ وتشديدها ، وتخفيفها ؛ وسعتها وضيقها ، ونظمها ، ونثرها ، وسجعها ، ووزنها ، وميلها ؛ وغير ذلك ممــا يطول ذكــره[١٤] .

ثم يضرب السيرافى أمثلة من الأساليب اللغوية لبيان هذه ما اختصت به اللغة العربية سائلا مناظره عن الفرق بين هذه الأساليب الثلاثة : بكم الثوبان المصبوغان ؟ . بكم ثوبان مصبوغان ؟ . بكم ثوبان مصبوغين[١٥] .

كما يسائله : أى الأسلوبين أصح : زيد أفضل اخوته وزيد أفضل الاخوة ؟ ويقرر أن الأسلوب الأول خطــأ ، لأن (زيدا) فيه خارج عن جملة (اخوته) ولا يصح مثل هذا التفضيل حينئذ[١٦] .

وكذلك أبو القاسم الزجاجى ، يود أن يكون للنحو أسلوبه ، ومنهجه ، وألا يضيق عليه ، أو يفرض عليه منهج دخيل آخــر ، ولذلك نراه يفرق بين ماهو من أوضاع النحو ، وماهو من غيرهــا .

فيقول — بعد أن يذكر بعض حدود الفلسفة — وانما نذكر هذه الألفاظ فى تحديد الفلسفة ههنا ، وليس من أوضاع النحو ، لأن هذه

---

(١٤) أبو حيان : الامتاع والمؤانسة ١/١١٥ ، ١١٦ .

(١٥) المصدر السابق ١/١٢٢ .

(١٦) أبو حيــان الامتاع والمؤانسة ١/١٢٠ والمناظرة كلهــا بهــذا الكتاب (الليلة الثامنة جـ ١ من ص١٠٤ — ١٤٣) وانظر فى تخريج المثال (زيد أفضل اخوته وأفضل الاخوة) ابن جنى : الخصائص ٣/٣٣٣ ، ٣٣٤ .

المسألة نجيب عنهـا من يتعاطى المنطق ، وينظر فيه ، فلم نجد بدا من مخاطبتهم من حيث يفعلون ، وتفهيمهم من حيث يفهمون[١٧] .

وكما يقول الدكتور أنيس ، ليس من الهين أن يقال : لم اتخذت هذه اللغة ذلك النظام المعين الذى قد يخالف ما جرت عليه لغـة أخرى شقيقة لهـا ؟ وذلك لأن ترتيب الكمات فى كل لغـة ليس الا احدى تلك العادات اللغوية التى تتميز بهـا هذه اللغة ، وهو بعد أن يستقر على صور معينة ، ليس الا وليد تطور طويل المدى ، ونتيجة مرور قرون كثيرة على هذه اللغة ، ومن الصعب الوقوف على كل الأحوال اللغوية ، أو الاجتماعية التى أسهمت فى مثل هذا التطور ، حتى صار على ما نألفه ، ونعهده ، فى كل لغة[١٨] .

واللغويون الأجانب عـدوا دخول الفلسفة فى النحو مفسدة له .

يقول فندريس : « وقد قـام بناء النحو — عندنا — (أى عند الفرنسيين) فى القرن السابع عشر والثامن عشر على كتب النحو فى الاغريقية القديمة ، أو اللاتينية ، وقد خرج من ذلك زائفا ، وبقى زائفا ، فنحن لا نزال نعضده بمسميات لا تتفق مع الحقـائق ، ونعطى عن بنية لغتنا فكرة غير صحيحة ، فلو أن المبادىء التى نتخذها مقياسا لنا كانت قد وضعها قوم من غير أتباع أرسطو اذا لتغيرت معالم النحو الفرنسى على وجـه التأكيد »[١٩] .

فطبيعة الفلسفة — اذا — تختلف عن طبيعة اللغـة .

بيد أن بعض الدارسين أغفلوا استغلال المـادة اللغوية التى هى أصل الدراسة ، لأن الذين جاءوا بعد الطبقة الأولى كانت المسافة بينهم وبين مادة العربية بعيدة ، وشغلتهم أعمال السلف عن أن يرجعوا اليهـا .

---

(١٧) من كلام الأستاذ مازن المبارك فى تحقيقه لكتاب : الايضاح للزجاجى ص١٧ ونص كلام الزجاجى بالكتاب المذكور ص٤٧ .

(١٨) من أسرار اللغـة ط ١٩٥١ ص ٢١٠ .

(١٩) فندريس : اللغة ص١٢٦ .

أو يبحثوا عنهـا فيما حفظته لهـم هذه المدونات من نصوص ، وأصبح كل همهم أن يلموا بمـا وصل اليه أسلافهم من قوانين ، وأن يفلسفوا ما انتهى اليهم من علل ، حتى أصبح للقوانين قوانين ، وللعلل علل ثوان ، وعلل ثوالث [٢٠] .

ومن هؤلاء على بن عيسى الرمانى الذى كان نحـويا متكلما من أصحاب الاعتزال [٢١] وقال أبو على الفارسى عن نحوه :

ان كان النحو ما يقوله أبو الحسن فليس معنا منه شىء ، وان كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء ، وكان الرمانى من ايغاله فى الحيل والمنطق بحيث كان المتصلون به لا يفهمون شيئا من كلامه [٢٢] .

وكان يقال : النحويون فى زماننا ثلاثة : واحد لا يفهم كلامه — وهو الرمانى — وواحد يفهم بعض كلامه — وهو أبو على الفارسى — وواحد يفهم جميع كلامه وهو السيرافى [٢٣] .

وهذه النصوص المتقدمة شكوى من قائليها لطغيان الفلسفة على الدراسة النحوية .

وقد وضع ابن جنى خصائصه لبيان أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه [٢٤] وجعل علل النحويين أقرب الى علل المتكلمين [٢٥] .

ويجعل الدكتور تمام حسان ابن جنى فى (باب فى قلب اللفظ الى

---

(٢٠) د. مهدى المخزومى : مدرسة الكوفة ص٢٠١ .

(٢١) السيوطى : بغية الوعاة ص٤١١ ، وابن الأنبارى : نزهة الألبا ص٣٩٠ وانظر على النجدى ناصف : سيبويه امام النحاة ص٢٩ .

(٢٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٤/٧٤ ، ٧٥ .

(٢٣) المصدر السابق ١٤/٧٥ .

(٢٤) ابن جنى : الخصائص ١/٢ من المقدمة .

(٢٥) المصدر السابق ١/٤٨ .

لفظ آخر بالصنعة والتلطف لا بالاقدام والتعجرف) فيلسوفا نظريا وان ادعى أن فى ذلك لطفا ، ويقول ، انه متعجرف تماما [٣٦] .

ولما طغت الفلسفة ظهر للنحو أصول كأصول الفقه ، فيذكر ابن الأنبارى حين يعد علوم الأدب أنه ألحق بها « علم أصول النحو » فيعرف به القياس، وتركيبه، وأقسامه ، من قياس العلة ، وقياس الشبه ، وقياس الطرد ، الى غير ذلك على حد أصول الفقه ، والمناسبة بينهما ظاهرة ؛ لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول[٣٧] .

والاقتراح فى أصول النحو رتبه السيوطى على نظام أصول الفقه ، وهو يقول : هذا معلوم من أصول الشريعة ؛ وأصول اللغة محمولة على أصول الشريعة[٣٨] .

وهذه الفلسفة نشأت بعد أن وضعت القواعد ، واستقرت ، ثم حافظ المتأخرون عليها ، وحاولوا الانتصار لها ؛ مع أن اللغة ظاهرة اجتماعية ولا تخضع — كما قلنا — للتعليل والفلسفة ، ولذا نجد أن ابن جنى يحاول أن ينسب العلل التى جاء بها النحاة الى العرب ، فيعقد بابا (فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه اليها وحملناه عليها)[٣٩] .

ومن هنا ندرك مدى تأثر الدراسات اللغوية بالفلسفة ، وأن وقت ظهور الفلسفة اللغوية وتغلغلها هو القرن الرابع وما بعده أما قبل ذلك فلم يكن للفلسفة مكان قوى .

والدراسة الفلسفية بعيدة عن المنهج اللغوى ؛ وقد أحس بذلك بعض

---

(٢٦) د. تمام : مناهج البحث فى اللغة ص١٨ .
(٢٧) نزهة الألباص ص١١٧ .
(٢٨) السيوطى : الاقتراح ص٣ .
(٢٩) ابن جنى : الخصائص ١/٢٣٧ — ٢٥١ .

المشتغلين بالدراسة اللغوية أمثال السيرافى ، والزجاجى ، ولاحظ ذلك أيضا علماء اللغة المحدثون كما لاحظوا خطـر المنطق على علوم اللغـة .

يقول الدكتور المخزومى :

واذا أفلح القدماء أن ينظموا دراستهم فى أصول مطردة فقد فاتهم ما يتوخاه الدارس من نتـائج ، وأصبحت تلك الأصول تحفظ وتطبق تطبيقا لفظيا[٣٠] .

ويقول الدكتور أنيس : المنطق اللغوى بعيد كل البعد عن المنطق العقلى العـام الذى يهدى التفكير الانسانى فى كل البيئات ، فهو نظام للناس عامة ، فى حين أن المنطق اللغوى نظام خاص ، لا ينتظم الا طائفة خاصة من الناس هـم الذين يطلق عليهم (أبنـاء البيئة اللغوية) فاللغة منطق ، لأن لهـا نظاما تخضع له ، ويرتبط هذا النظام بعقول أصحاب اللغـة ، وتفكيرهم ، الى حـد كبير ، ولكنه النظام الذى يختلف من لغة لأخرى ، ويتصف فى كل بيئة بخصائص معينة تجعل لكل لغـة استقلالها ، وتمييزها من اللغـات الأخرى[٣١] .

وهذه الفلسفة لا نعتقد أنها تناولت القواعد — فى أساسها الأول — بحيث وضعت — كما يدعى بعض المحدثين — على أسس القواعد اليونانية ، بل ان القـواعد وضعت بالاستنباط من النصوص العربية ، ثم دخلت الفلسفة فيما بعد للتعليل لهـا ، وهذا أمر لا داعى اليه لأن العربى لم يكن يربط لغته بالفلسفة ، بل كان ينطق بما توحيه له طبيعة العربية ، وسيلقتة التى خلقه الله عليهـا .

---

(٣٠) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ص٢٨٩ .

(٣١) د . انيس : من أسرار اللغة . ط ٣ ص ١٢٣ .

(ب) فلسفة العلــة وموقف العلماء منهــا

نقلنا فيما سبق نصوصا تؤكد أن بعض المشتغلين بالدراسة اللغوية مزجها بالفلسفة ، الى حــد أن حديث بعضهم أصبح غير مفهوم لاثقاله بالعلل ، والتفسيرات المنطقية الغامضة كالرمانى ، والفارسى .

وقد ورد عن علماء المدارس النحوية (البصرية والكوفية والبغدادية) كثير من العلل ، فكل حكم نحوى يعلل ، وكل ظاهرة نحوية ــ كلية أو جزئية ، لابد لهــا من علة عقلية ، ولم يكتفوا بالعلل القريبة ، فقد ذهبوا يغوصون على كوامن العلل ، وخفياتها ، ودقائقها ، وكل نحو ــ بصرى أو كوفى ، أو بغدادى ــ يجرب ملكاته الذهنية ، ويستنبط عللا جديدة بحسب ما استخزن عقله من قــوة البرهان ، وحشى من عمق الدلالة[٣٢] .

وقد بدأت العلل منذ الخليل بن أحمد الا أن عللــه كانت واقعية لا تتعدى النصوص على ما نعتقد .

وهو أول من بسط القــول فى العــلل ، بسطا لفت نظــر بعض معاصريه[٣٢] .

يقول أبو اسحاق الزجاجى :

وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد ــ رحمه الله ــ سئل عن العلل التى يعتل بهــا فى النحو ، فقيل له : عن العــرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : ان العــرب نطقت على سجيتها ، وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقــام فى عقولها عللــه ، وان لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لمــا عللته منــه ، فان أكن أصبت العلة فهو الذى التمســت ، وان تكن هنــاك علة له ، فمثلى فى ذلــك مثل رجــل حكيم دخــل دارا محكمة البنــاء ، عجيبة النظــم والأقسام ،

---

(٣٢) الزجاجى : الايضاح (من المقدمة) للدكتور شوقى ضيف ص ب .

وقد صحت عنده حكمة بأنيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل فى الدار على شىء منها قال : انما فعل هذا هكذا لعلة كذا ، وكذا ، والسبب كذا ، وكذا ، سنحت له وخطرت ببـاله ، محتملة لذلك ، فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك ، للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة الا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك .

فان سنح لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها[٣٣] .

فهذا النص يؤكد لنا أن الخليل من أوائل الرواد الذين تكلموا فى توجيه القواعد اللغوية ، وأنه كان يراعى أحوال العرب ، واتجاهاتهم اللغوية : وتلك هى الطريقة المثلى فى التعليل ، والاستنتاج .

ثم تدرجت العلل على أيدى علماء اللغة فأبدى كل منهم — سابقا ولاحقا توجيه ما وضع من قواعد .

ولما دخلت الفلسفة بدأت تتصل بالدراسة النحوية ، وأخذت العلل تتشعب ، وتتفرع فمن علة ، وعلة علة ، فيقال فى نحو (قام زيد) لم رفع (زيد) ؟ فيقال : لأنه فاعل ، فيوجه سؤال آخر :

ولم كان الفاعل مرفوعا ؟ وهكذا تتنوع الأسئلة .

وكالسؤال عن سبب الاعراب فى الاسم ، ولم كان يظهر فى آخره ، ولا يظهر فى وسطه ، أو أوله ؟ ولكل سؤال من هذه الأسئلة جواب ، وفى يد كل جواب علته ، ودليله ، وتتقابل العلل ، والأدلة ، ويتجادل فيها النحاة جدالا عنيفا لا يفيد اللسان ، ولا اللغة أى فائدة ،

---

(٣٣) الزجاجى : الايضاح ص٦٥ ، ٦٦ .

انما يفيد العقل من حيث هو ، وكأنما وجد فيها النحويون تمارين هندسية يشغلون بها أوقاتهم(٣٤) .

وقد نقل لنا هذه الصورة المتدرجة فى العلل كتاب يعد من أوائل كتب أصول النحو(٣٥) اذ لم يصل الينا قبله كتاب أو بحث خصه صاحبه بالعلة ، وهو كتاب الايضاح لأبى القاسم الزجاجى .

وهو ينقل لنا تطور كثير من العلل ، فقد بدأ بأطراف منها منذ الخليل وسيبويه ، وسار بها مع الزمن لا يغادر علة لمعتل ، وهو جانب مهم فى الكتاب لأنه يرينا تطور العلل النحوية ، وكيف أخذت تنمو ، وتتعقد بمضى الوقت على ضوء ما ثقف النحاة من المنطق أو من الفلسفة ، أو من الفقه ، أو من علم الكلام(٣٦) .

والزجاجى لم يتناول فى كتابه القواعد النحوية لأنه خصه بموضوع العلل هذا الموضوع الذى نزل به الضيم حتى غدا بحثا مهملا أو ثانويا يؤتى به بعد الأصول ، ولا يغفل الزجاجى الاشارة فى كتابه الى حديث من سبقوه عن العلل ، فيذكر أنه استنبط من كتب غيره من العلماء ، وأنه أخذ الكثير عن الشيوخ تلقينا ، ومشافهة(٣٧) .

قال الزجاجى فى مقدمة كتابه :

وهذا كتاب أنشأناه فى علل النحو خاصة ، والاحتجاج له ، وذكر أسراره ، وكشف المستغلق من لطائفه ، وغوامضه ، دون الأصول ، لأن الكتب المصنفة فى الأصول كثيرة جدا ، ولم أر كتابا الى هذه الغاية مفردا فى علل النحو ، مستوعبا فيه جميعها ، وانما يذكر فى الكتب بعقب

---

(٣٤) الزجاجى : الايضاح (من المقدمة) للدكتور شوقى ضيف ص د .
(٣٥) من كلام الأستاذ مازن المبارك محقق الكتاب السابق ص١٦ .
(٣٦) من المقدمة للدكتور شوقى ضيف ص (ج) .
(٣٧) من كلام الأستاذ مازن المبارك ص٩ .

الأصول الشيء اليسير منها ، مع خلو أكثرها منهـا وتضم الى العلل بعد تقديمها مسائل مجموعة، منثورة من سائر الحدود منها ماستخرجناه من كتب العلمـاء ، وبسطناه وهذبنا ألفاظه وقربناه ، ومنهـا ما تلقيناه من علمائنا رضى الله عنهم تلقينا ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ، ولا يوجد فيهـا البتـة[٣٨] .

وقد جمع الزجاجي في هذا الكتاب العلل النحوية التى عرفت حتى عصره سواء ما اتصل منها بالحدود ، وأحكام الاعراب ، وما اتصل منهـا بالفروض والظنون الجدلية ، ونثر فى تضاعيف ذلك بعض آرائه ، وقد يتدخل فيؤثر رأيا على رأى ، أو علة على علة ، وقد يترك ذلك للقارىء، مادامت لم تستبن الحجـة الصحيحة التى يحكم على أساسها بين الطرفين المتعارضين[٣٩] .

ولحديث الزجاجي عن العلة حدود رسمها في كتـابه .

فهو يقـول :

انهـا ليست عللا موجبة ، وانما هى مستنبطة أوضاعا ، ومقاييس .

ثم يقسمها الى ثلاثة أضرب :

تعليمية — قياسية — جدلية نظرية .

فالأولى : هى التى يتوصل بهـا الى تعلم كلام العرب ، وهـو ما يتناول أمر القياس على ماورد عن العرب كمـا عرفنا من مجيء اسم الفاعل (قائم) سمعنا ذلك منهم فقسنا عليه آكل وضارب ... الخ .

وكذلك علة نصب (زيد) فى (ان زيدا قائم) فيقال : لم نصبتم (زيدا) نقول : لأنـا كذلك علمناه ، ونعلمـه .

---

(٣٨) الزجاجي : الايضاح ص٣٨ .

(٣٩) من المقدمة للدكتور شوقى ضيف ص (ج) .

وأما النوع الثانى فيقــال : لم وجب أن تنصب (ان) الاسم فيقــال : لأنهــا وأخواتها ضارعت الفعــل المتعدى الى مفعول ، فهى تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله .

وأما الجدلية النظرية ، فكل ما يعتل به فى باب (ان) بعد هــذا مثل أن يقــال : فمن أى جهــة شابهت هذه الحروف الأفعال ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى ملأت صحيفة كاملة من الكتاب .

ثم يعلق على ذلك فيقول :

وكل شىء اعتل به المسئول جوابا عن هذه المسائل فهو داخل فى الجدل والنظــر[٤٠] .

واذا كان الزجاجى يعــد من السابقين فى هذا الباب ، فان ابن جنى الذى عاش بعــده أكثر من نصف قرن[٤١] قد تناول هذا الموضوع أيضا فى كتابه (الخصائص) ووضع للعلل قواعد ، وأصولا فى اطــار يتفق أو يختلف عمــا ذهب اليــه الزجاجى .

فقد حــاول ابن جنى أن يفرق بين العلة ، والسبب ، وجعل مناط التفريق اللزوم وعدمه ، فالعلة من شأنهــا اللزوم بخلاف السبب وقــد أوضح ذلك فى (باب ذكــر الفرق بين العلة الموجبة والعلة المجوزة) وضرب أمثلة للعلــة الأولى منهــا :

نصب الفضلة أو ما شابه فى اللفظ الفضلة — كخبر كان ومفعول ظن — « فعلل هذه الداعية اليهــا موجبة لهــا ، غير مقتصر بهــا على تجويزها وعلى هذا مفــاد كلام العــرب » .

ومثل للأسباب كذلك — وهى النوع الثانى من العلل — بأمثلة كثيرة منهــا :

---

(٤٠) الزجاجى : الايضاح ص٦٤ ، ٦٥ .
(٤١) توفى الزجاجى سنة ٣٣٧ وابن جنى سنة ٣٩٢ هـ .

الأسباب الداعية للامالة فهى علة الجــواز لا علة الوجوب ، ألا ترى أنه ليس فى الدنيــا أمر يوجب الامالة لابد منهــا ، وأن كل ممال لعلة من تلك الأسباب الستة لك أن تترك امالته ، مع وجودها فيــه ، فهــذه اذا علة الجــواز لا علة الوجوب .

وكذلك كل ماجــاز لك فيه من المسائل الجوابان والثلاثة وأكثر من ذلك على هذا الحــد فوقوعه عليه علة لجــواز ماجــاز منه لا علــة لوجوبه ، فــلا تستنكر هذا الموضع[٤٢] .

فالموجب هو العلة ، والمجــوز هو السبب ، كمــا فى الاقتراح للسيوطى ، وشرحه لابن عــلان[٤٣] .

وقــارن ابن جنى — أيضــا — بين الدليل ، والنظير ، ومتى يؤخذ بأيهمــا ؟ وعلى أى وجــه يتحــدد ذلك .

وفى البــاب الذى عقده بعنوان (باب فى عــدم النظير) ساق أمثلة شتى عــزز بهــا ما رآه ، مع براعة فى العرض والتحليل[٤٤] .

ويقسم ابن جنى العلل بما يقرب من تقسيم الزجاجى غير أن لــه مذهبا يخالفه على النحو التــالى :

١ — العــلل الأوائل :

قسمها ابن جنى الى نوعين فقــال :

ان علل النحويين على ضربين :

أحدهما : واجب لابد منه ، لأن النفس لا تطيق فى معناه غيره .

والآخر : ما يمكن تحمله على تجشم ، واستكراه .

---

(٤٢) ابن جنى : الخصائص ١/١٦٤ ، ١٦٥ .
(٤٣) حيث قسم العلة الى أنواع كثيرة . أنظر ص١٩٣ — ٢١٤ .
(٤٤) ابن جنى : الخصائص ١/١٩٧ ، ١٩٨ .

فمن الأول : قلب الألف واوا أو ياء للضمة أو الياء قبلها فهذا ونحوه مما لابد منـــه من قبل أنه ليس فى القـــوة ، ولا احتمال الطبيعة وقوع الألف المـــدة الساكنة بعد الكسرة ، ولا الضمة ، فقلب الألف على هـــذا الحـــد علته الكسرة والضمة قبلهـــا .

فهذه علة برهانية ، ولا لبس فيهـــا ، ولا توقف للنفس عنهـــا .

ومن الثـــانى : قلب واو عصـــفور — ونحوه — ياء اذا انكسر ما قبلها ، نحـــو عصيفير أو عصافير ، ألا ترى أنه قد يمكنك تحمل المشقة فى تصحيح هذه الواو بعد الكسرة ، وذلك بأن تقـــول : عصيفور ، وعصافور — بكسر الفـــاء وسكون الواو — .

وكذلك نحـــو : موسر ، وموقن ، وميزان ، وميعاد ، لو أكرهت نفسك على تصحيح أصلها لأطاعنك عليه ، وأمكننك منـــه ، وذلك قولك : موزان وموعاد — بكسر الميم وسكون الواو — وميسر وميقن — بضـــم الميم وسكون الياء — [٤٥] .

ومن هذا النوع قوى يأخذ مجرى القيـــاس ، وضعيف يجرى على منهج الاستحسان كما فى علم أصول الفقه [٤٦] .

٢ — العـــلل الثـــوانى :

أشار اليهـــا فى « باب فى العلة وعلة العلة » فقـــال :

ذكر أبو بكر فى أول أصوله هذا ، ومثل منـــه : برفع الفاعل ، قـــال : فـــاذا سئلنا عن علة رفعـــه قلنا : ارتفع بفعله ، فـــاذا قيل : ولم صـــار الفاعل مرفوعا ؟ فهذا سؤال عن علة العـــلة[٤٧] .

---

(٤٥) ابن جنى : الخصائص ٨٨/١ .

(٤٦) أنظر باب الاستحسان فى الخصائص ١٢٣/١ — ١٤٤ .

(٤٧) ابن جنى : الخصائص ١٧٣/١ .

وابن جنى يفسر هذا النوع بأنه ليس أصــلا قائما بنفسه ، بل تابع للعلل الأوائل قـــال :

وهذا موضع ينبغى أن تعلم منه أن هذا الذى سماه علة العلة انما هو تجوز فى اللفظ ، فأما فى الحقيقة فانه شرح وتفسير ، وتتميم للعلة ؛ ألا ترى أنه اذا قيل له : فـــلم ارتفع الفاعل ؟ قـــال لاسناد الفعل اليه ، ولو شـــاء لابتدأ هذافقال فى جواب رفـــع « زيد » من قولنا : « قـــام زيد » انما ارتفع لاسناد الفعل اليه ، فكان مغنيـــا عن قوله : انما ارتفع بفعله ، حتى تسأله فيما بعـــد عن العلة التى ارتفع لهـــا الفاعل ، وهذا هو الذى أراد المجيب بقوله : ارتفع بفعله ، أى باسناد الفعل اليه[٤٨] .

ومعنى حديث ابن جنى هذا أنه يقبل النوع الثانى من العلل ، ويراه مفيدا لشرح المسائل ، ومتمما لمعناها ، وهو يسلك فى تعليلاته اللغوية هذا المسلك كثـــيرا .

٣ — العـــلل الثوالث وما يليها :

أشار اليهـــا بقوله — بعد ذلك — نعـــم ، ولو شـــاء لماطله فقال له : ولم صـــار المسند اليه الفعل مرفوعا ؟ فكان جوابه أن يقـــول : انه صاحب أقـــوى الأسماء ، والضمة أقوى الحركات ، فجعل الأقوى للأقوى ... وأيضـــا فقد كان له أن يتجاوز هذا الموضع الى ما وراءه فيقول : وهـــلا عكسوا الأمر ، فأعطوا الاسم الأقوى الحركة الضعيفة ، لئـــلا يجمعوا بين ثقيلين ، فـــان تكلف متكلف جوابا عن هذا تصاعدت عدة العلل ، وأدى ذلك الى هجنة القول ، وضعفة القائل به [٤٩] .

وهـــذا النوع الثـــالث ينفر ابن جنى منه ، ويعـــد السؤال فيـــه نوعـــا من المماطلة ، كمـــا يعد الاجابة عليه خارجة عن نطـــاق اللغـــة ، وذاهبة الى التكلف ومؤدية الى هجنـــة القول ، وضعفة القائل به .

---

(٤٨) ابن جنى : الخصائص ١/١٧٣ .
(٤٩) المصـــدر السابق .

ومعنى هذا أنه غير راض عن العلل الثوالث ، لأنها مضيعة للوقت ، بعيدة عن نصوص االلغــة ، وأهدافها .

وتبدو الأقسام الثلاثة واضحة من قوله :

« انه كان يجب على مارتبه أبو بكر أن تكون علة وعلة العلة ، وعلة علة العلــة » .

وبهذا يعــلم الفرق بين موقف ابن جنى وموقــف الزجــاجى ، فالزجاجى يورد كــلا منها مع قبوله لهــا وابن جنى يقبل الأولى والثانية أساسا صحيحا للتعليل ، ولا يقبل النوع الأخير لتكفله [٥٠] .

وقد تناول ابن جنى العلل النحوية فى أبواب متعددة من كتــابه الخصائص [٥١] وبالنظر فى هذه الأبواب المتعددة نجد أن بعضها مكرر يفيد ما يفيده صاحبه مثل : « باب فى تخصيص العلل »[٥٢] — « باب فى أن العلة اذا لم تتعــد لا تصح »[٥٣] — « باب فى ادراج العلة واختصارها »[٥٤] — باب فى الزيادة فى صــفة العلــة لضرب من الاحتياط »[٥٥] .

---

(٥٠) قسم أرسطو العلل الى أربعة أنواع يهمنا منها اثنان : الصورية أو الفاعلة effecient والغائية final فالأولى نسميها العلة ببساطة والثانية الغائية تشبه القسم الثانى للزجاجى .

وكلام ابن جنى « لم رفع الفاعل ولم نصب المفعول ؟ » وجوابه بقوله : يثقل فى كلامهم ما يستثقلون » من هذا النوع ويمكن ربط هذا النوع بعــلم التوحيد عند الكلام عن القضاء والقدر والارادة الخ . د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٤٣ .

(٥١) انظر على سبيل المثال ١/٤٨ — ٩٦ ، ١٤٤ — ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥ .

(٥٢) ١٤٤ — ١٦٤ .

(٥٣) ١٦٩ — ١٧٣ .

(٥٤) ١٨١ — ١٨٣ .

(٥٥) ١٩٤ — ١٩٧ .

فهذه الأبواب جميعها تحكى معنى واحدا ، هو أن النحاة وضعوا عللهم قاصرة ، ولو أنهم احتاطوا لها ، وأحاطوا بجوانبها لتفادوا حدوث أى اعتراض عليهم ، وقد ضرب لنا ابن جنى فى كل منها أمثلة عديدة للصورة النهائية التى يصح وضع القاعدة عليها حتى تخلو من النقص •

والواقع أن مناقشته لهذا الموضوع ليست جديدة كل الجدة ، فقد جمع العلل المبعثرة فى كتب النحو ، وجعل منها سطورا متماسكة ، وقد اعترف بذلك فى آخر الفصل الذى عقده بعنوان « باب فى تخصيص العلل » يقول :

واعلم أن هذه المواضع التى ضممتها ، وعقدت العلة على مجموعها ، قد أرادها أصحابنا ، وعنوها ، وان لم يكونوا جاءوا بها مقدمة محروسة ، فانهم لها أرادوا ، وإياها نووا •

ويعرض أمثلة توضح ارادتهم لها ، ورجوعهم اليها •

ثم يقول : فهذا الذى يرجعون اليه فيما بعد متفرقا قدمناه نحن مجتمعا ، وكذلك كتب محمد بن الحسن رحمه الله انما ينتزع أصحابنا منها العلل ، لأنهم يجدونها منثورة فى أثناء كلامه ، فيجمع بعضها الى بعض بالملاحظة ، والرفق ، ولا تجد له علة فى شىء من كلامه مستوفاة محررة ، وهذا معروف من هذا الحديث عند الجماعة غير منكور[٥٦] •

ونضرب مثلا لذلك ليتضح ما نقول :

يعترض ابن جنى على القاعدة الصرفية التى تنص على قلب الواو والياء ألفا ، اذا تحركتا ، وانفتح ما قبلهما ، ويقول : انها علة قاصرة لصحة الواو فى (اعتونوا) و (اهتوشوا) و (رميا وغزوا)

---

(٥٦) ابن جنى : الخصائص ١/١٦٢ ، ١٦٣ •

وذلك القصور دعـا السابقين الى الاعتذار عنـه ، بما هـو معروف هنـاك .

وهنـا يبدى رأيه قـائلا :

لو احتاط السابقون فى وضـع هذه القـاعدة لمـا توجه اليهم سؤال ، ولمـا كانوا بحـاجة الى الاعتذار .

ثم وضع نبراسا ، وألقى الينـا مثلا لهذا الاحتياط فقـال : كان الواجب أن تتخذ القاعدة الصورة التاليـة :

الواو والياء متى تحركتا حركة لازمة وانفتح ما قبلهما ، وعرى الموضع من اللبس ، أو أن يكون فى معنى ما لابد من صحة الواو واليـاء فيـه ، أو أن يخرج على الصحة منبهـة على أصل بابه فانهما يقلبان ألفـا(٥٧) .

وقد أتى بأمثلة شتى فى هذا المجال ، تخرجها محترزات التعريف ، والقاعدة الشاملة(٥٨) .

وفى آخر هذا الاحتياط وشرحه يقول : الآن قد أريتك بما مثلته لك من الاحتياط فى وضع العلـة كيف حـاله والطريق الى استعمال مثله فيمـا عـدا ما أوردته ، وأن تستشف ذلك الموضع ، فتنظر الى آخـر ما يلزمك اياه الخصم ، فتدخل الاستظهار بذكره فى اضعاف ما تنصبه من علتـه لتسقط عنك فيما بعـد الأسولة ، والالزامات التى يروم مراسلك الاعتراض بهـا عليك ، والافساد لمـا قررته من عقـد علتـك(٥٩) .

---

(٥٧) المصدر السابق ١٤٧/١ .
(٥٨) المصـدر السابق ١٤٤/١ — ١٦٣ .
(٥٩) المصدر السابق ١٦٣/١ .

ونلاحظ على (باب فى علل العربية أكلامية هى أم فقهية) أنه وضع الخطوط العريضة ، والمبـــادىء الأولى للتعليل ، وارتباطه بالفلسفة ، فقد تحدث فيه عن علل النحـــو ، وصلاتها بعـــلم الكلام الذى يقوم على الجـــدل والفلسفة[٦٠] ، وفيه يذكر قيمة كتابه ، ونزوعه الى النواحى الكلامية والفقهية ، والفلسفية ، والنحوية ، والأدبية ، وأنه يتساهم فيـــه أرباب ذلك كلـــه[٦١] .

بيد أنه يذكر أنه يعلل بما أراده العرب ، وأن من يعترض على ذلك ليست له دراية بأحوالهم .

وقد عقـــد بابا خاصا لارهاف حس العـــرب ، وكونهم أرادوا تلك العـــلل التى قـــال بهـــا وهو (باب فى أن العـــرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه اليهـــا ، وحملناه عليهـــا)[٦٢] .

ومما رواه فى هذا البـــاب قول العربى اليمنى لأبى عمرو — فيما حكاه الأصمعى — فلان لغوب جاءته كتـــابى فاحتقرها ، فقلت لـــه أتقول جاءته كتـــابى ؟ فقال :نعـــم ، أليس بصحيفة ، وهذا مثل قولنا : فعلوا كـــذا لـــكذا[٦٣] .

وقد أطـــال الحديث عن العربية ، وشرفها ، وشغف أهلها وغيرهم بهـــا على عادته فى ذلك .

ويكرر القـــول عنهم فى (باب فى الاعتلال لهـــم بأفعالهم) فقد حمـــل بعض الأمور اللغوية على أمور أخرى لتناسبها معهـــا ، ولأنها من أفعالهم ، ولهـــا علة قد أرادوها ، كما قال فى وجوب ابراز الضمير

---

(٦٠) المصدر السابق ٤٨/١ .
(٦١) المصدر السابق ٦٧/١ .
(٦٢) المصدر السابق ٢٣٧/١ — ٢٥١ .
(٦٣) المصـــدر السابق ٢٤٩/١ .

مع الصـــفة المشبهة ، لأنهم يوجبون ابرازه مع اسم الفاعل ، مع قوة تحمله الضمير ، وذلك اذا جرى كل منهما على غير من هو له (٦٤) .

وفى (باب فى تعارض العـــلل) تحدث عن خلاف العلمـــاء فى مسائل اللغـــة ، وأن كلا منهم يستدل بوجهة نظر خاصـــة ، وهـــذا الخلاف قـــائم — أحيانا — على ما ورد مختلفـــا فيه من أقوال العرب ، ولهجاتهم ، وأحيانا يقوم على فهـــم خـــاص للنصوص وتفسيرها .

وفى (باب فى تقـــاود السماع وتقـــارع الانتزاع) يبين كيف يمكن أن يستنبط من النصوص اللغوية الواردة عن العرب أدلـــة متعددة الجوانب ، تفسر بهـــا قواعد ، ومبادىء لغوية أخرى .

فنحـــو : ضربتك ، وأكرمتك مما ورد عن العرب يمكن أن يستدل به على تصحيح شىء ، أو افساد غيره ، ويستدل به من وجـــه آخـــر على شىء غير الأول .

وقد حـــاول ابن جنى ببراعته الفائقة أن يوضح لنـــا كيفية ذلك، فاستدل به على شـــدة اتصال الفاعل بفاعله ، واستدل به أيضـــا على فساد رأى القائلين بأن العامل فى المفعول هو الفاعل *

وفى بابين من الجزء الثالث من خصائصه لمس بعض جوانب العلة وطرافة أمرها فى العربية ، فقد تأخذ مظهرا من التناقض الشكلى وتنتقل العلـــة بين أمرين قد يبدو بينهمـــا بعد كبير ، وهمـــا عند التأمل على وفاق تام ، فقد تستعمل العلـــة الواحدة فى الحـــكم وضده ، فالتصحيح فى « القود والحوكة » مع مافيهما من مقتضى الاعلال وهـــو التحرك وفتح ما قبـــل حـــرف العلة كان لحركة العين ، وهى السبب فيه ، لأنها شبهت بحرف اللين ، فكأن « فعلا » بفتح العين « فعال » وكأن (فعلا)

---

(٦٤) المصـــدر السابق ١/١٨٦ ، ١٨٧ .

* المصدر السابق ١/١٠١ — ١٠٤ .

بكسر العين — مثل « شول » — « فعيل » ، فحركة العين كانت سببا للاعلال ، وهى الآن سبب للتصحيح ، وقد عادوا فشبهوا حرف اللين بالفتحة ، روى ذلك عن العرب مثل :

في ليلة من جمادى ذات أنديـــة
لا يبصر الكلب في ظلمائها الطنبـــا

فجمع « ندى » على « أندية » مثـــل : « غداء وأغدية »[٦٥] .

وقد سفه — فهى فصل خـــاص — أحـــلام ذوى العقول القاصرة عن ادراك العلل ، وأرجع ذلك الى ضعفهم العقلى ، وعـــدم ممارستهم للغـــة[٦٦] .

وكان واضحا أن ابن جنى استخدم الفلسفة ، وبراعة المنطق فى التعليل ، ولا غرو فهو معتزلى الاعتقاد ، وفقيـــه حنفى ، مع ما عرفنا من اشتغال المفكرين من المعتزلة ، والفقهاء الأحناف بالفلسفة ، وسيرهم فى مسالكها .

وقد ثار بعض العلماء على تلك الفلسفات ، وناهضها .

وابن مضاء الأندلسى من أشهر هؤلاء الذين وقفوا فى وجه النحاة فقد ألف كتابه (الرد على النحـــاة) ليعارضهم فيما ذهبوا اليـــه من تأويلات ، وعلل ، وأقيســـة .

يقول عن العـــلل :

ومما يجب أن يسقط من النحو العـــلل الثوانى والثوالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا : (قـــام زيد) لم رفع ؟ فيقال

---

(٦٥) المصدر السابق ٣/٥١ — ٥٣ وانظر أيضا (باب فى بقاء الحكم مع زوال العلة) ٣/١٥٧ — ١٦٤ .
(٦٦) المصدر السابق ١/١٨٤ — ١٨٦ .

لأنه فاعل ، وكل فاعل مرفوع ؛ يقول : ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقـال له : كذا نطقت العرب به ؛ ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر مثل الشيء الحـرام الذى لا يحتاج الى استنباط علة لينقل حكمه الى غيره ، فيسأل : لم حرم ؟ فان الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه.

ثم أورد أمثلة للفرق بينه وبين المفعول مثل أن يسـأل ولم لم يعكس ؟ فيقال ليقـل فى كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر ما يستخفون فلا يزيدنا ذلك علمـا بأن الفاعل مرفوع ، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، اذ قد صح عندنا رفـع الفاعل الذى هو مطلوبنا ، باستقراء المتواتر الذى يوقع العـلم(٦٧) .

ويدعو ابن مضاء — فى نهاية الكتاب — الى الغـاء كل مالا يفيد مطلقـا كاختلافهم فى علة رفـع الفاعل ، ونصب المفعول ، وسـائر ما اختلفوا فيـه من العلل الثوانى ، وغيرها كاختلافهم فى رافع المبتدأ ، وناصب المفعول فنصبه بعضهم بالفعل ، وبعضهم بالفاعل ، وبعضهم بالفعل والفاعل معـا(٦٨) .

---

(٦٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ص١٥١ .

(٦٨) ابن مضاء : الرد على النحاة ص١٦٤ ، وقد قسم العلل الثوانى الى ثلاثة أقسام :

قسم مقطوع به ، وقسم فيه اقناع ، وقسم مقطوع بفساده .

والفرق بين العلل الأول والعلل الثوانى أن العلل الأول بمعرفتها تحصل لنـا المعرفة بالنطق بكلام العرب المدرك منا بالنظر ، والعلل الثوانى هى المستغنى عنها فى ذلك ، ولا تفيدنا الا أن العرب أمة حكيمة ، وذلك فى بعض المواضع كأن يقال فى (أكرم القوم) : لم حركت الميم من (أكرم) وهو أمر ؟ فيقال : لأنه لقى ساكنا آخر وهو لام التعريف وكل سـاكنين التقيا بهـذه الحال فان أحدهما يحرك ، فان قيل : ولم لم يتحركا ساكنين ؟ فالجواب : لأن النطق بهما ساكنين لا يمكن الناطق فهذه قاطعة ، وهى ثانية واضحة ، ولكن يستغنى عنها .

ومثال غير البين من العلل الثوانى : السؤال عن علة اعراب الفعـل المضارع لشبهه بالاسم واعراب الاسم لشبهه بالفعل . انظر الرد على النحاة من ص١٥٢ — ١٥٦ بتصرف .

وابن مضاء ظاهرى المذهب ، فكان يقرن النحـــو بالفقه فى عـــدم العلل ، وهذا مذهب الظاهرية الذى كان يجله ابن مضـــاء ، كما كان يجله مولاه يعقوب بن يوسف الذى أمر بحرق كتب المذاهب التى تعتمد على العلل ، ولا تعتمد على الأصول من القرآن والحديث ، وقد تبعـــه قاضى قضاته ابن مضـــاء[٦٩] .

لذلك كان الخوض فى العلل ، والاجتهاد فيهـــا عند ابن مضـــاء حراما .. لأن رسول الله ﷺ قـــال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطـــأ .. ومقتضى هذا الخبر النهى ، وما نهى عنه فهو حرام ، الا أن يدل دليل عليه[٧٠] والرأى مالم يستند الى دليـــل فهو حرام ، ومن بنى الزيادة فى القرآن بلفظ أو معنى على ظن باطـــل فقد تبين بطلانه ، فقد قال فى القرآن بغير علم ، وتوجه الوعيد اليه .

ومما يدل على أنه حرام الاجماع على أنه لايزاد فى القرآن لفظ غير المجمع على اثبـــاته ، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ ، بل هى أحرى لأن المعانى هى المقصودة ، والألفاظ دلالات عليها ، ومن أجلها [٧١] .

كذلك ابن سنان الخفـــاجى نظر فى هذه العلل وقال انه لايثبت منها الا القليل ، « فان النظر اذا ســـلط على مايعلل النحويون به لم يثبت الا الفذ الفرد بل ولا يثبت شىء البتة ، ولذلك كان العيب منهم المحصل من يقول : هكذا قالت العرب من غير زيادة على ذلك ، وربما اعتذر المعتـــذر لهم بأن عللهم انما ذكروها ، وأوردوها لتصير صناعة، ورياضة يتدرب بها المتعلم ، ويقوى بتأملها المبتدىء ، فأما أن يكون ذلك جاريا على قانون التعليل الصحيح والقيـــاس المستقيم فـــذلك بعيـــد لايكاد يذهب اليه محصل » [٧٢] .

---

(٦٩) ابن مضاء : الرد على النحاة من المقدمة للدكتور شوقى ضيف ص٣٥ وانظر د. محمد عضيمة . مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السادس ص١٩ ، ٢٠ .

(٧٠) يعنى من الكتاب أو السنة .

(٧١) ابن مضاء : الرد على النحاة ص٩٢ ، ٩٣ .

(٧٢) ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ص٣٣ .

كـذلك الجاحظ قـد برم بعلل النحـاة فيقول — فى أول كتابه الحيوان — لايصل أحد من علم النحو الى مايحتاج اليه حتى يتعلم مالا يحتاج اليه ، وقـد نقل هذا القول عن الخليل بن أحمد (٧٣) .

ومعنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة يرغبون فى الغـاء العلل النحوية ، وأن يقال فى التعليل : هكذا نطقت العرب .

وقد مال كثير من الباحثين المحدثين الى هذا الرأى ، فتابعوا ابن مضاء ، وغيره فى طلب الغاء هذه العلل .

---

(٧٣) الجاحظ : الحيوان ١/٣٧ ، ٣٨ فى فصل بعنوان (شرح الهزل بالجد) ط الأولى ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ م بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، وقد عقد ابن جنى فى الخصائص بابا بعنوان (باب فى الرد على من اعتقد فساد علل النحويين لضعفه هو فى نفسه عن أحكام العلة ، ذكر فيه بعض أسئلة ، واعتراضات للجاحظ على علل النحاة .

ومن ذلك ما يحكى عن الجاحظ أنه قـال :

قـال النحويون : (أفعـل) الذى مؤنثه (فعلى) لا يجتمع فيـه (الألف واللام) و (من) انما هو بـ « من » أو بـ « الألف واللام » نحو قولك : الأفضل وأفضل منك ، والأحسن ، وأحسن من جعفر ، ثم قال : وقد قـال الأعشى :

فلست بالأكثر منهـم حـصى وانمـا العـزة للـكاثر

ورحم الله أبا عثمان ، أما انه لو علم أن (من) فى هذا البيت ليست التى تصحب (أفعل) للمبالغة نحو : أحسن منك ، وأكرم منك ، لضرب عن هذا القول الى غيره مما يعلو فيه قوله ، ويعنو لسداده ، وصحته خصمه ، وذلك أن (من) فى بيت الأعشى انما هى كالتى فى قولنا : أنت من الناس حر ، وهذا الفرس من الخيل كريم ، فكأنه قال : لست من بينهم بالكثير الحصى ، ولست فيهم بالأكثر حصى ، فاعرف ذلك .

وأجاب ابن جنى عن مثل هذه الاعتراضات بأنها شـاقة على العلماء « فمثل هذا يتعب مع هذه الطائفة لاسيما اذا كان السائل عنه من يلزم الصبر عليه ، ولو بدأ الأمر باحكام الأصل لسقط عنه هذا الهوس ، وذا اللغو .. وسقط صراع هذا المضعوف السؤال . أنظر : ابن جنى : الخصائص ١/١٨٥

فالدكتور ضيف يقول — كما سبق ذكره — ان تلك العلل لا تفيد اللسان ولا اللغة أى فائدة (٧٤) .

وان العلل القياسية ، والجدلية ، أو العلل الثوانى والثوالث تزيد لاجدوى فيه الا شغل العقل بالتأمل ، والنظر ، ويؤيد ابن مضاء فى دعواه بالغائها ويقول انه وجـدها لاتفيـد النـاطقين شيئا فى نطقهم بالعربية الصحيحة ، سوى البعد بهم فى التخيل ، والفرض ، والوهم .

الا أن الدكتور — (ضيف) لايرى مانعا من أن يدرس المتخصصون فى اللغـة هذه العلل ، فيقول : مع أننـا نؤمن — فى عصرنا — بأن النحو ينبغى أن ييسر على الناشئة ، وأن تخرج منه هذه العلل المعقدة، نرى من الواجب أن يعنى المتخصصون فيـه بدراسـته فى صـورته القديمة ، وكل ماداخلها من فلسفة العلة حتى يتبينوا تطوره ، وما شفع به هـذا التطور من جهود عقلية خصبة جعلت بعض المستشرقين يشيد بما تم لهذا العلم على أيدى أسـلافنا من نضج واكتمال يحق للعرب أن يفخروا به (٧٥) .

كذلك يدعو الأستاذ عباس حسن الى تنقية النحو من العلل الثوانى والثوالث وما يليها ، فلا نستبقى من العلل الا الأوائل ، وما يشابهها مما لايدعو الى تأويل ، أو تمحل ، أو تعدد فى الوجوه الاعرابيـة .. مهملين ما عداها من العلل التى أعلت النحو ، والمشتغلين بها ، وأضاعت الجهد والوقت فى عبث لفظى لا غنـاء فيه ، بل فيه كل العناء ، وكان الواجب توجيهها الى اصلاح نحوى مفيد ، وعمل مثمر (٧٦) .

ويقول : ان النظرة العجلى الصائبة لتحكم من غير تردد بأن جميع

---

(٧٤) أنظر ص ٣٣٧ من هذا الـكتاب .

(٧٥) مقدمة الايضاح ص ٥ .

(٧٦) عباس حسن : رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية ص٧٤

هــذه العــلل والتعليــلات زائفـــة ، لا تمت الى العقــل ، والواقع بصلة ما [٧٧] •

وبعض المحدثين يشير الى ضعف العلل النحوية ويقول : ان القدماء أنفسهم كانوا يشعرون بضعفها ، فابن جنى شعر بضعف العلل النحوية عندما تكلف نقضها « ألا ترى أنه قــد يمكنك تحمل المشقة فى تصحيح هذه الواو — واو عصفور — بعد الــكسرة الخ » [٧٨] •

ومعنى ذلك أن المحدثين — بعامة — يميلون الى الغاء هذه العلل بل ان الأستاذ العلايلى يصف القــدماء بأنهم قــد بعدوا عن التماس التعليل الصحيح ، وأنهم قــد أصابتهم الحيرة فى فهم مخلفات العربية على الوجه الواقعى [٧٩] •

والباحثون المحدثون ينظرون فى العلل الأولية ، والثانوية ، ولكن على ضوء الدراسة التقارنية ، والتطورية [٨٠] •

وبعد استعراضنا لهذه الآراء حول فلسفة العلة ، والتى اتفق فيها النقاد قدامى ومحدثين على الغاء هذه العلل الثوانى ، والثوالث ، والابقاء على العلل الأوائل فحسب ، نرى أنفسنا مدفوعين الى القول بأن هذه الآراء لا تعــدو أن تكون وسيلة لتسهيل الدراسة النحوية على المبتدئين •

واعتقد أن هذه العلل التى طالبوا بالغائها يعتريها الضعف والتكلف فى كثير من الأحوال ، ولا تطابق مقصود العرب على الرغم مما أشار اليــه ابن جنى فى هذا الصـــدد •

---

(٧٧) عباس حسن : اللغة والنحو ص١٤٨ •

(٧٨) د• تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص٤٧ ، ٤٨ وانظــر الخصائص ١/٨٨ وص ٣٤٢ من هذا الــكتاب •

(٧٩) عبد الله العلايلى : مقدمة لدرس لغة العرب ص٦٤ ، ٦٥ •

(٨٠) عبد المجيد عابدين : المدخل ص٩٢ •

وقد تعلمنا فى دراستنا النحوية أن علل النحو كالوردة تشم ولا تدعك ، وللشيخ الخضرى تعليق يدل لذلك ، فعند تناوله مسألة اعراب الفعل المضارع ، وعلة ذلك وهى مشابهة الاسم الخ يقول : فالعمدة فى هذه الأحكام السماع ، وهذه حكم تلتمس بعد الوقوع لا تحتمل هذا البحث الدقيق(٨١) .

ولشهرة ضعف علل النحويين قال ابن فارس :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تنمى لتركى
ترنو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى(٨٢)

والذى أميل اليه هو أن تستثمر دراسة هذه العلل بأنواعها للمتخصصين ، أما المبتدئون فتعطى لهم العلل الأوائل ، وأزيد على ذلك فأقول : ينبغى — كذلك — أن نقدم لهم من العلل الثوانى والثوالث واضحها ، وجيدها — مع التدرج فى مراحل التعليم — ليدركوا قيمة تلك القواعد اللغوية ، ويتبين لهم مفهومها جليا ، فيساعدهم ذلك على تلقيها بالقبول ، وثباتها فى أذهانهم .

جـ — نظرية العامل النحوى

اختلف النحاة فى العامل ، وشخصيته ، فرأينا منهم ثلاثة اتجاهات :

١ — أن يكون لفظا فى الجملة ، أو معنى نحويا .

٢ — المتكلم .

٣ — الله سبحانه وتعالى .

---

(٨١) حاشية الخضرى على ابن عقيل ١/٣٠ .

(٨٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ط دمشق ٣/٢١٩ وياقوت : معجم الأدباء ٤/٨٧ وابن جنى : الخصائص التعليق ١/٤٨ ، ود. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السادس ص١٨ .

١ — العامل اللفظي والمعنوي :

يبدو للناظـر في كتب النحـو أن قدامى اللغويين يرجعون مواقع الكلمات في الجمـل ، والتراكيب الى عوامل لفظية ، أو معنوية ، تظهر آثارهـا على الكلمات .

فـاذا كان العمل مسببا عن لفظ يصحبه فالعامل لفظي مثل : ضرب سعيد عمرا ، فالفعل «ضرب» — كما يعرب النحاة — رفع « سعيد » فاعلا ، ونصب « عمرا » مفعولا به .

وتقول : مررت بأحمد ، فالبـاء حرف جـر — وهي عامل لفظي — و « أحمد » مجرور بالبـاء ، وهو اسم ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعـل ، فأشبه الفعـل لفظـا .

واذا كان العمل عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به فالعامل معنوي كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعـل لوقوعه موقع الاسم والعوامل اللفظية ترجع الى العوامل المعنوية .

يقول ابن جني في « باب في مقاييس العربية » : وهي ضربان ، أحدهما معنوي والآخـر لفظي .

وهذان الضربان وان عمـا ، ونشوا في هذه اللغـة فان أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي .

ألا ترى أن الأسباب المـانعة من الصرف تسعة ، واحد منها لفظي ، — وهو شـبه الفعل لفظا نحو أحمد ويرمع .. والثمانيـة الباقية كلها معنوية ، كالتعريف ، والوصف ، .. فهذا دليل ، ومثاله : اعتبارك باب الفاعل ، والمفعول به ، بأن تقول : رفعت هذا لأنه فاعل ، ونصبت هذا لأنه مفعول ، فهذا اعتبار معنوي لا لفظي ، ولأجله ما كانت العـوامل

اللفظية راجعة فى الحقيقة الى أنهـا معنوية ، ألا تراك اذا قلت « ضربه سعيد جعفرا » فـان « ضرب » لم يعمل فى الحقيقة شيئا .

وهل تحصل من قولك « ضرب » الا على اللفظ بالضاد ، والراء ، والباء ، على صورة « فعل » فهذا هو الصوت ، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا اليـه الفعـل .

وانما قـال النحويون : عامل لفظى ، وعامل معنوى ليروك أن بعض العمل يأتى مسببا عن لفظ يصحبه كمررت بزيد وليت عمرا قائمـا ، وبعضه يأتى عاريا من مصاحبة لفظ يتعلق به كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعـل لوقوعه موقع الاسم ، هذا ظاهـر الأمر ، وعليه صفحة القول [٨٣] .

وقد توسع النحـاة فى أمر هذه العوامل ، وتفصيلها الى حـد دخلته الفلسفة والمنطق ، والتعقيد .

٢ ـ العـامل المتـكلم :

لم ينس القدامى أن يشيروا الى أن مسألة العوامل اللفظية ، والمعنوية ، ليست الا حيلة لجـأ اليهـا النحـاة لتقريب المسائل اللغوية ، والافـادة فى تعلم اللغـة ، والوقوف على مناهجها .

فالعامل على الحقيقة هو المتكلم ، أما العوامل اللفظية كقولنا : الفعل هو العامل ، أو الحرف هو العامل ، أو العلامات المانعة من الصرف تسعة ـ مثـلا ـ فانما هى آلات ، ووسائل تقرب اللغـة للدارسين .

---

(٨٣) ابن جنى : الخصائص ١/١٠٩ ، ١١٠ وابن جنى يتحـدث عن العوامل اللفظية كما يتحدث عنها النحويون . عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد السابق ص٢١ ، ٢٢ .

يقول ابن جنى : فأما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، انما هو للمتكلم نفسه ، لا لشىء غيره ، وانما قالوا : لفظى ومعنوى لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ ، وهذا واضح[٨٣] .

وبذلك صرح الامام الرضى ، قال فى شرح الكافية :

أعلم أن محدث هذه المعانى فى كل اسم هو المتكلم ، وكذلك محدث علاماتها ، لكنه نسب احداث هذه العلامات الى اللفظ الذى بواسطته قامت هذه المعانى بالاسم ، فسمى عاملا لكونه كالسبب للعلامة ، كما أنه كالسبب للمعنى المعلم ، فقيل : العامل فى الفاعل هو الفعل لأنه به صار أحد جزءى الكلام[٨٤] .

« فوجوه الاعراب عادة تعودها أصحاب اللغة ، وطبعت عليها ألسنتهم ، وساقتهم الى الوجوه الاعرابية سليقة فطرية ، وليست هذه العوامل التى أسند اليها الأثر الظاهر الا عوامل اعتبارية ، وآلات جامدة ينسب اليها الأثر تجوزا »[٨٥] .

٣ — العامل هو الله سبحانه وتعالى :

ثار ابن مضاء ثورة عنيفة على العامل اللفظى والمعنوى ، وتعقيداته ، فى كتابه (الرد على النحاة) .

قال : قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب ، والخفض ، والجزم ، لا يكون الا بعامل لفظى ، وأن الرفع

---

(٨٤) الرضى: شرح الكافية ١/١٨وانظر أيضا ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، وانظر نصوصا أخرى فى هذا المعنى للمبرد فى المقتضب ، وابن الأنبارى فى الانصاف ، وابن يعيش فى المفصل وقد جمعها الشيخ عضيمة فى بحثه بمجلة كلية اللغة العربية ، العدد السابق ص٢٠ ، ٢١ .

(٨٥) د. المخزومى : مدرسة الكوفة ص٢٦٤ .

منها يكون بعامل لفظي ، وبعامل معنوى ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم فى قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذى فى (زيد) والنصب فى (عمرو) انما أحدثه (ضرب) . وذلك بين الفساد[٨٦] .

وتقدير العامل — بهذه الصورة فى نظره — يحط من قدر كلام العرب ، اذ « لو لم يسقهم جعلها عوامل الى تغير كلام العرب وحطه عن رتبة البلاغة ، الى هجنة العى ، وادعاء النقصان فيما هو كامل ، وتحريف المعانى عن المقصود بها لسومحوا فى ذلك ، وأما مع افضاء أعتقاد كون الألفاظ عوامل الى ما أفضت اليه ، فلا يجوز اتباعهم فى ذلك[٨٧] .

ثم عاب على النحاة تقدير العوامل المحذوفة ، واستبعد أن تعمل وهى محذوفة ، (فنسبة العمل الى معدوم على الاطلاق محال)[٨٨] .

وان اضمار ما الكلام تام دونه لا حاجة اليه ، واظهاره عى مخالف ، لغرض القائل ، هذا فى كلام الناس ، فأما فى كلام الله تعالى فحرام[٨٩] .

---

(٨٦) ابن مضاء : الرد على النحاة ص٨٥ ، ٨٦ ، ونقد ابن مضاء للنحويين فى مسألة العوامل نقد غير موضوعى ، لأنه نسب الى النحويين أنهم يقولون ان العوامل النحوية هى التى تحدث حركات الاعراب وليس المتكلم ، وهذا زعم لم يقل به أحد من النحويين لا القدامى ، ولا المتأخرين . انظر : عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد السابق ص٢٢ ، ٢٣ .

(٨٧) المصدر السابق ص٨٨ وابن مضاء لايعتمد هذا الاجماع الذى لا يوافقهم عليه يقول : واذا كان النحويون قد أجمعوا على القول بالعوامل عن بكرة أبيهم فان اجماعهم ليس بحجة على من خالفهم ، وقد قال كبير من حذاقهم ، ومقدم فى الصناعة من متقدميهم ، وهو أبوالفتح ابن جنى فى خصائصه (اعلم أن اجماع أهل البلدين « يعنى البصرة والكوفة » انما يكون حجة اذا أعطاك خصمك يده الا تخالف المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، فاذا لم يعط يده بذلك فلا يكون اجماعهم حجة عليه) أنظر : المصدر السابق ص٩٣ وابن جنى : الخصائص ١٨٩/١ .

(٨٨) المصدر السابق ص٩١ .

(٨٩) المصدر السابق ص ١٤١ .

وادعـاء الزيادة فى كلام المتكلمين من غير دليـل يدل عليها خطأ بين لكنه لا يتعلق بذلك عقـاب ، وأما طـرد ذلك فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وادعـاء زيادة معـان فيه من غير حجـة ، ولا دليل ، ... فالقول بذلك حـرام[٩٠] .

وهو يحاول أن يرسم طريقا جديدة لدراسة النحـو ، وتيسيره ، دون نظـر الى تأويلات العامل النحـوى ، وما وصلت اليـه من افساد النحـو ، وصعوباته .

ويذكر كلام ابن جنى فى أن العامل الحقيقى للرفع ، والنصب ، والجـر والجزم ، هو المتكلم لنفسه[٩١] ويعقب عليها بقوله : وهذا قول المعتزلة ، وأما مذهب أهـل الحق ، فـان هذه الأصوات انما هى من فعـل الله تعـالى ، وانما تنسب الى الانسان كمـا تنسب اليـه سائر أفعـاله الاختيارية[٩٢] .

فهو يهذا يدعى أن العامل هو الله سبحانه وتعـالى .

وابن جنى على وفـاق معه من هذا الجـانب ، فهو يرى أن الفاعل

---

(٩٠) المصدر السابق ص٩٢ وهذه النغمة فى الكتاب — وهى نغمة مرددة فيه — تدل على أن ابن مضاء كان ظاهرى النزعة ، فهو ينكر الرأى مالم يستند الى دليل على نحو ما ينكره الظاهرية فى الفقه ، ثم هو يتشدد فى التمسك بحرفية النص دون تأويل فيه وهو يريد أن ينفذ من هذا التشدد الى هدم نظرية العامل ، لأنها تجر الى الزيادة فى آى الذكر الحكيم ، وأن يقول الانسان فى القرآن بغير علم ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وتوعد عليه ، (انظر حديث الدكتور شوقى ضيف فى مدخل الكتاب ص ٢٣ ، وانظر ما سبق ذكره فى فلسفة العلة ص ٣٥١ من هذا الكتاب) ، ولكن النحويين لم يقولوا عن محذوفات القرآن الكريم : انها قرآن ، لأن القرآن انما يكون باللفظ الثابت المتواتر عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العـدد السابق ص٣٢ .

(٩١) سبق ايراد عبارة ابن جنى فى عرض الرأى السابق .

(٩٢) ابن مضاء : الرد على النحاة ص٨٧ .

الأول هو الله سبحانه ، ثم نقل ذلك الى المتكلم فيقول : إن المتكلم وان كان هو العامل فقد استمد قوته على العمل من الله تعالى .

وقد ذكر ذلك فى (باب فى ورود الوفاق مع وجود الاختلاف) الذى تحدث فيه عن أفعال أتت فى اللغة العربية لازمة مرة ، ومتعدية مرة أخرى ، وذلك نحو قولهم : غاض الماء ، وغضته ، وجبرت يده ، وجبرتها ودان الرجل ، ودنته ، من الدين فى معنى أدنته ، وعاب الشىء ، وعبته ، وعثمت يده ، وعثمتها ، — أى جبرتها على غير استواء — سووا فيه بين المتعدى وغير المتعدى .

وبعد أن ذكر طائفة كبيرة من أفعال هذا النوع أوضح ما أشرته اليه من رجوع الفعل الى الله بقوله : فهذا كله شاذ عن القياس ، وان كان مطردا فى الاستعمال الا أن له عندى وجها لأجله جاز وهو أن كل فاعل غير القديم سبحانه فانما الفعل منه شىء أعيره ، وأعطيه وأقدر عليه فهو وان كان فاعلا فانه لما كان معانا مقدرا صار كأن فعله لغيره ، ألا ترى الى قوله سبحانه : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » .

نعم وقد قال بعض الناس : ان الفعل لله ، وان العبد مكتسبه ، وان كان هذا خطأ عندنا فانه قول لقوم .

فلما كان قولهم (غاض الماء) أن غيره أغاضه ، وان جرى لفظ الفعل له ، تجاوزت العرب ذلك الى أن أظهرت هناك فعلا بلفظ الأول متعديا لأنه قد كان فاعله فى وقت فعله اياه ، انما هو مشاء اليه أو معان عليه فخرج اللفظان — لما ذكرنا — خروجا واحدا فاعرفه[٩٣] .

أما المحدثون فقد وقفوا من هذه الأقوال مواقف النقد ، فقد ثاروا على العوامل اللفظية ، والمعنوية ، وما وصلت اليه من تعقيداته ومشكلات ، وعزوا ذلك التعقيد وتلك المشكلات وتعلق الأقدمين بالعامل

---

(٩٣) ابن جنى : الخصائص ٢/٢١٠ — ٢١٣ .

— بهذا المعنى الى تأثرهم بالمنهج الفلسفى الذى يقول بالعلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، ولا يصح — جريا على هـذا — أن يكون حدث من غير محـدث .

وقد دعـا الدكتور شوقى ضيف — بدعوة ابن مضـاء — الى الغاء العوامل النحوية بالتعقيد الذى وصلت اليـه وقـال :

من هنـا تبدو صحة تفكير ابن مضاء فانه حين ألغى نظرية العامل ، وما يطوى فيه من أقيسة ، وعلل ، لم يفهم أنه ألغى النحو العربى ، بل كل ما أراد انما هو تخليصه من عنت هذه النظريات ، التى لم يكسب منهـا الا فتونا من العسر ، والمشقة حتى أصبح كثير من مسائله لا يفهم الا بعد أن يجدد للنـاس الفهم مرارا وتكرارا[٩٤] .

ثم يقول : ومثله ينبغى أن ينفى من النحو ، حتى تستقيم مسائله على الجـادة[٩٥] .

ولكن الدكتور المخزومى يعيب على الدكتور ضيف أن يبنى رأيه فى اصلاح النحو واحيائه على رأى ابن مضاء ، وأن يرى الانصراف عن نظرية العامل هو الأصل الذى ينبغى أن يتكىء الدارس عليه فى تصنيف النحو ، وأن يرى منع التأويل والتقدير فى الصيغ ، والعبارات ، وهو مذهب ابن مضاء — أيضـا — هو الأصل الثانى ، لأن ذلك يريح الدارس من ثلاثة أشـياء :

١ — اضمار المعلومات .

٢ — حـذف العوامل .

---

(٩٤) من حديث الدكتور شوقى ضيف فى تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ص٧٤ .

(٩٥) د. ضيف فى تحقيق الكتاب السابق ص٧٥ وانظر عابدين : المدخل ١٠٩ — ١١٩ ، وعباس حسن : اللغة والنحو ص١٦١ .

٣ — بيان مجمل الجمل والمفردات[٩٦] .

ويعترف الدكتور المخزومي بأن العامل النحوي — بصورته التي وصل اليها — قد قام على أساس فلسفي ، وقد جاءت بعد الطبقة الأولى طبقات لم تتفهم منهج النحاة الأولين ، فتناولت العامل تناولا فلسفيا وهيأ لها ذلك طغيان المنهج العقلي واندفاع الدارسين الى الاستفادة من الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني فانتهت دراسة العامل الى أن يضفي عليه صفة العلة الفلسفية[٩٧] .

والدكتور المخزومي لا يطلب الغاء نظرية العامل ، والتقديرات والتأويلات التي تفرعت عنه ، بل يطلب الأخذ بالمفيد منها ، فتقدير الدارس وتأويله ، متأنسا بفهم الأساليب ، أو مدركا للقرائن التي تركها الاستعمال دلائل على الساقط من الجملة لا ينفيه البحث اللغوي ، لأن اللغة ترجمان للفكر ، وأداة من أدواته ، وأن حركة الجملة بترتيب أجزائها ، وقاليها تتبع حركة الفكر بترتيب صوره ، وقوالبها ، فاذا أسقط الاستعمال بعض أجزاء الجملة بقيت الصور الذهنية مفهومة بالقرائن ، فاذا أول الدارس جملة أو عبارة ، فانما يؤول استئناسا بما يفهم من مدلول الجملة[٩٨] .

ولا جدال — كما يقول الأستاذ العقاد — في دلالة العامل على معنى متصل بما تفيده الكلمة ، في موقعها ، وليست الحركات جزافا بغير دلالة الشيوع والتواتر ، لأن ذلك واضح في الحالات التي يتفق فيها موقع الكلمة ، ويختلف المعنى ، وأظهر مايكون ذلك في حكم جواب الطلب أو الشرط مع اتفاق أوضاع الجملة في ترتيب أفعالها ، فالجزم لازم في الجواب اذا فهم منه الجزاء ولكنه لا يلزم اذا وضح للعقل معنى آخر

---

(٩٦) د. المخزومي : مدرسة الكوفة ص٢٤٧ ، ٢٦٨ .
(٩٧) ص٢٧٤ و (في النحو العربي) ص٢٢٩ .
(٩٨) د. المخزومي : مدرسة الكوفة ص٢٦٨ .

غير جزاء الشرط ، أو جزاء الطلب مثل قوله تعالى : (فهب لى من لدنك وليا يرثنى) اذ أن (يرثنى) صفة الولى وقوله تعالى : (فذرهم فى طغيانهم يعمهون) : حال ، أى عمهين(٩٩) .

وقد راعى النحاة فى تقدير العامل أن يفيد المعنى الدقيق ومن ذلك ما قالوه فى قول الشاعر :

لن تراها ولو تأملت الا ولها فى مفارق الرأس طيبا

فقدر ابن جنى العامل للنصب فى (طيبا) فعلا : هو (تتحقق أو تعلم أو تشم) ومنع أن تقدر (ترى) البصرية قال : ان الرؤية وان كانت مشتملة عليها ليس لها طريق الى الطيب فى مفارقها اللهم الا أن تكون حاسرة الرأس غير مقنعة ، وهذه بذلة وتطرح لا توصف به الخفرات)(١٠٠) . وقدر ابن هشام (ترى) قلبية قال : (ترى) المقدرة الناصبة لـ (طيبا) قلبية لئلا يقتضى كون الموصوفة مكشوفة الرأس ، وانما تمدح النساء بالخفر والتصون لا بالتبذل)(١٠١) .

وعلى هذا فانكار العامل اللفظى ، والمعنوى مطلقا غير سديد ، والرأى وسط بين الاثبات المطلق ، والانكار المطلق .

فكلا الفريقين النحاة ، والثائرين عليهم قد تطرف فى التقديرات فلا شك فى وجاهة الاعتراض على افراط النحاة فى التقديرات التى يوجبها نقل السبب من معنى ملحوظ الى لفظ محدود لكن هذا الخطأ يلازم المعترضين على النحاة فى تقديراتهم وتأويلاتهم ، بل نرى من الانصاف أن تقرر هنا أن أخطاء المعترضين أكبر وأكثر من أخطاء المقدرين .

---

(٩٩) العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص١٥٠ .
(١٠٠) ابن جنى : الخصائص ٢/٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(١٠١) ابن هشام : المغنى ٢/١٥٧ وانظر د. عضيمة : مجلة كلية اللغة العربية العدد السابق ص٢٥ ، ٢٦ .

وقد ناقش الأستاذ العقاد الأستاذ ابراهيم مصطفى فى أمثلة كثيرة من كتابه (احياء النحو) وغيره[١٠٢] .

أما أن أصل العامل هو المتكلم ، أو الله سبحانه وتعالى ، فقد وقع تحت طائلة النقد أيضا .

فالدكتور تمام حسان نفى أن يكون العامل هو المتكلم وقال : انه يتنافى مع الطابع الاجتماعى للغة ، اذ تصير اللغة فوضى ، يرفع كل متكلم ، وينصب باختياره .

كذلك هاجم نظرية ابن مضاء فى أن العامل هو الله .

يقول : وأما أن العامل هو الله سبحانه فلست أدرى لم اختلف عمله سبحانه فيما بعد (ما) الحجازية ، عن عمله — جل شأنه — فيما بعدها فى ديار تميم ، على ساحل الخليج العربى .

وقد انتهى من نظريته الى أن لا عامل ، وأن وضع اللغة يجعلها منظمة من الأجهزة ، وكل جهاز منها متكامل ، مع الأجهزة الأخرى ، ويتكون من عدد من الطرق التركيبية العرفية ، المرتبطة بالمعانى اللغوية ، فاذا كان الفاعل مرفوعا فى النحو فلأن العرف ربط بين فكرة الفاعلية والرفع ، دون ما سبب منطقى واضح ، والعرف هو الذى ارتضاها وارتضى التفريق بين باب الفاعل والمفعول باختلاف الحركات الاعرابية[١٠٣] .

ويبدو لى أن نسبة الاعراب الى الله تعالى أمر غير سديد ، الا اذا قلنا بتوقيفية اللغة منذ نشأتها ، وهذا القول لم يعد مسلما للقائلين به .

---

(١٠٢) العقاد : أشتات مجتمعات ص٣٠ ومابعدها ، وانظر : مقالا للعقاد بعنوان (عوامل الاعراب فى اللغة العربية) بمجلة الأزهر عدد المحرم سنة ١٣٨٢ هـ — يونية سنة ١٩٦٢ م .

(١٠٣) د. تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص٥٠ — ٥٢ .

وأما أن العامل هو المتكلم — على الحقيقة — ونسبته الى الألفاظ ، والمعـــانى هى على سبيل المجـــاز باعتبارها آلات ، أو علامات ، فهذا هو الرأى المعقول الذى يناسب المنهج العلمى اللغـــوى .

فأرباب اللغـــة الناطقون بهـــا هـــم الذين طبعوا على تلك السليقة — من رفـــع ونصب ، وجـــر للألفاظ حسب مواقعها — وذلك هو طريقهم الذى سلكوه وهـــم المنشئون لغتـــهم المبتكرون لهـــا حسب عاداتهم وحالاتهم الاجتماعية فهم قد اختاروا بأنفسهم ذلك (١٠٤) .

وهذا يوافق رأى الدكتور تمـــام حسان فى أن وضع اللغـــة وضع عرفى تتعارف عليه الجمـــاعة البشرية المعينـــة .

ولا أرى رأيـــه فى الغـــاء العامل ، لأن النحويين حين قالوا : ان العامل هو المتكلم لم يقصدوا أنه يجوز لنـــا الآن أن نغير ، وأن نبدل ، لأننـــا الفاعلون الناطقون للألفاظ ، بل طلبوا منـــا أن نحاكى العرب ، وأن نفعل مثل ما فعلوا فـــلا نتعدى أقيستهم ونظمهم الكلامية ، فـــلا ننصب الفاعل ، ولا نرفع المفعول ، ولا نجـــر المنصوب .

ومن هنـــا لا يمكن أن تحـــل الفوضى فى اللغـــة على الوضع الذى تصوره الدكتور تمـــام .

ولذلك ولخوف النحـــاة من هذا الملحظ — لم يجهروا بأن العامل هو المتكلم ، وتركوا ذلك للباحثين المتخصصين ، أما المبتدئون المتعلمون للغة

---

(١٠٤) وكمـــا يقول الأستاذ العقاد : لا نستطيع اليوم أن نفهم جميع الأسباب فى جميع الحركات وعواملها الا اذا استعدنا الزمن السحيق الذى كان فيه نطلق الكلمة مقرونا بالايماء من اليدين ، والاشارة من الملامح ، والتغيير فى قوة الصوت ، ونغمة التوقيع ، والتمييز — بغير الكتابة — بين الخطاب فى الظلام ، والخطاب فى النور ، اذا استعدنا الزمن الذى كانت اللغة فيه تركيبة جامعا لفن التمثيل وفن الموسيقى ، وفن التصوير المنظور ، والمسموع .
انظر : العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص١٥٤ .

فقالوا لهـم : ان العامل هو اللفظ ، أو المعنى النحوى ، على الحـد الذى أوضحوه هنـاك .

ويؤيدنا فى رأينـا الأستاذ عباس حسن يقول : فـالأخذ برأى الجمهرة فى أمر العامل انمـا هو أخـذ بالأيسر عمـلا ، وتطبيقا ، وافـادة بالرغم من أنه ليس هو الحق فى الواقع المقطوع به ، وذلك أن الواقع اليقينى يقطع بأن الذى يجلب الحركات ، ويغيرها ، ويداور بينها انما هو المتـكلم(١٠٥) .

ويقول فندريس : لولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوى لأصـبح العـالم أمام حشد من صور التـكلم التى لا تزيدها الأيام الا تفرقـا ، ولكن الذين يتكلمون احـدى اللغـات يميلون دائما الى المحافظة عليها كمـا هى(١٠٦) .

وكل ما يمكن أن يؤخذ على النحـاة القدامى أنهـم توسعوا فى نظرية العامل ، وفلسفوها ، وجعلوا للمنطق سبيلا اليهـا ، فتعقدت ، وأصبحت احـدى المشكلات .

فالواجب تخليص النحـو مما عـلق به ، وابقـاء ما يصلح من تقديرات . وتعليلات .

---

(١٠٥) عباس حسن : اللغة والنحو ص١٩١ .
(١٠٦) فندريس : اللغة ص٣٢٦ .

رأى ومنهــج :

وبعــد :

فقد تناولت بالبحث (علم اللغــة) من حيث نشأته والداعى اليه ، وتقدم البحث فيــه ، وبعض الأصول والقواعد التى ارتكز عليها ، وبهــا قوام اللغــات البشرية ، وأسس بقــائها ، وعناصر قوتها ، وجوانب حياتهــا ، وظواهرها ، تناولت كل ذلك من خــلال دراســات الشرق والغــرب .

وقد نوهت بالجهود الجبــارة التى بذلها علماؤنا العرب فى خدمة العربية ووسائل الحفــاظ عليهــا ، والكشف عن جوهرها الأصيل .

وقارنت هذا الجهــد بمــا وصلت اليــه مناهج عــلم اللغــة فى الغرب مبينــا الاتجاهات العــامة والخاصة هنــا ، وهنــاك .

وقد كشفت المقارنة عن استفادة الحديث من القديم ، والحاجــة الملحــة الى المبتكر المستحدث حتى يجلى القديم ، وتتجدد فيه الحياة .

وقد خرجت بنتيجة حاسمة هى أن (علم اللغــة) قد استقر بين العلوم المختلفة ، وأصبحت له قوانينه التى يســير وفقها وله نتائجه المهمــة وطرائقه الخاصة فى دراسة اللغــات وكيفية علاج ظواهرها وبهذا العــلم يتضح طريق قوتهــا ، ونهوضها ، أو انقراضها ، وموتها .

واذا كانت الدراسة فى بعض صورها تتصل بالجــانب اللغوى التاريخى فــان ذلك يبين المسار التطبيقى ، ومدى نجــاحه أو اخفاقه .

ولــذا اقتضى المقــام أن ألجــأ الى مجــال التطبيق بعد مجــال البحوث النظرية ، فناقشت بعض قضايا (علم اللغة) فى ظــلال القواعد والقوانين التى وصــل اليهــا العلماء فى الشرق والغــرب .

وكان بحثنا لهـا قائما على أسس ومبادىء هذا العـلم التى أرسيت واستقرت ، ولم نكن مفرطين فى الاتجاه الى جانب معين دون الاستفادة من الجوانب الأخرى التى يمكن أن يكون لهـا تأثير على اللغـة وخط سيرهـا •

ولا نكون مبالغين اذا قلنـا ان كثيرا من عـلم العرب فى الحقـل اللغوى كان صحيحا ودقيقا فى ضوء ما استحدث من بحوث عند الغربيين •

ودائمـا ما كانت المقارنة تكشف خط السير المنهجى السليم •

وقد كان عنـائى الكبير فى استقراء الظاهرة اللغوية ، والاطلاع على أهـم ما قيل فيهـا ، وما وصل اليـه العلماء بشأنها قديما وحديثا ثم الادلاء بدلوى فى التحليل والحـكم والنقد البنـاء •

ولعـل القـارىء يقتنع معى بأن أسس هذا العـلم ومبادئه هى المقياس الصحيح الذى يجب أن يحتذى ، وأن تقوم عليه كل دراسة لغـوية •

ولعله يقتنع معى — أيضـا — بأن تعليمنا للعربية فى حاجة الى النظـر فى وسائله على ضـوء ما وصل اليـه هذا العـلم من قوانين وأحكام لغوية سـلم بهـا البحث اللغوى التجريبى •

والحقيقة أن وصل القديم بالحديث مهـم لتجديد ما عسى أن يكون قـد حال لونه وليكبح التعقل من غلواء الانطلاق دون قيود ، ليقوم التوازن والاعتدال ، والائتلاف فى العناية باللغـة والتمكن من السيطرة على توجيهها حتى تستقيم على الجادة ، وتحيـا حياة القـوة والاكتمال ، وحتى لا يفلت زمامها من أيدينا فتهوى من عليائها وتنحـدر الى قـرار سـحيق •

وما أحــوج لغتنـــا الآن الى الاهتمام والعنــاية لصــد التيارات العامية التى تريد أن تجرفها لتفقــد شخصيتها وهيبتهــا •

ولــذا فاننى أدعــو الى نظــرة جديدة فى الدراسات اللغوية العربية لتنصهر فى بوتقة (علم اللغــة) وتقوم على ما أرساه من قواعد وبذلك يمكن اعــادة لغتنــا الى أوج مجدهــا وعنفوانها •

ونرجو لهــا أن تعود ، ولاسيما فى عصر يحتاج فيــه الى توطيد الأواصر ، وتوثيق الروابط بين تراثنــا وحضارتنا العربية والاسلامية تالدهــا وطريفها •

ولعــل هذا الكتاب يكون نبراسا للدراسات اللغوية المتخصصة يهتدى به كل باحث يريد للغتــه أن تأخذ مكانها فى مصاف اللغات الحية •

والله أسأل أن ينفع بما بذل فيه من جهد واخلاص انه سميع مجيب •

أهم المصادر

— ابراهيم أنيس (دكتور) .

• الأصوات اللغوية . ط لجنة البيان العربى ١٩٦١ م .

• دلالة الألفاظ . ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م ، ط الثالثة ١٩٧٢ م .

• فى اللهجات العربية . ط ٢ لجنة البيان العربى ١٩٥٢ م ، ط ٣ المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٥ م .

• من أسرار اللغة . الأنجلو المصرية ط الأولى ١٩٥١ م ، ط ٣ ١٩٦٦ .

— ابراهيم بيومى مدكور (دكتور) .

• بحث بعنوان (منطق أرسطو والنحو العربى) بمجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ .

— ابراهيم السامرائى (دكتور) .

• دراسات فى اللغة . ط بغداد ١٩٦١ م .

— ابراهيم مصطفى .

• احياء النحو . مطبعة لجنة التأليف . القاهرة ١٩٢٧ م .

— ابراهيم نجا (دكتور) .

• فقه اللغة العربية ج ٣ ط ١٩٦٥ م ، ج ٤ ، ١٩٦١ م وطبعة أخرى جديدة .

• اللهجات العربية ط السعادة .

• المعاجم اللغوية . ط السعادة ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .

— أحمد بن حمدان الرازى (أبو حاتم) .

• الزينة فى الكلمات الاسلامية والعربية (ط ٢) ١٩٧٠ م .

— أحمد بن عبد الرحمن اللخمى القرطبى (ابن مضـــاء الأندلسى) .

• الرد على النحـــاة ط لجنـــة التأليف ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

— أحمد بن على بن أحمد (القلقشندى) .

• صبح الأعشى . ط الأميرية ١٣٣١ هـ — ١٩١٠ م .

— أحمد بن فـــارس .

• الصاحبى فى فقـــه اللغة . ط المؤيد بالقاهرة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م ، وبيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٤ م .

• مقاييس اللغـــة بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . ط دار احياء الكتب العربية ١٣٦٦ هـ .

— أحمد بن محمد بن شهاب الدين (الخفاجى) .

• شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ط ١٢٨٢ هـ .

— أحمد رضـــا العاملى .

• مولد اللغـــة ط ١٩٥٦ م .

— أحمد كمال أبو المجـــد (دكتور) .

• دراسات فى المجتمع العربى والوحدة العربية ط لجنة البيان العربى ١٩٦١ م — ١٩٦٢ م .

— آدم متـــز .

• الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريدة . ط لجنة التأليف ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م .

— أنستاس مارى الكرملى (الأب) .

• نشوء اللغــة العربية ونموها واكتهالها . المطبعة العصرية ١٩٣٨ م .

— تمــام حسان (دكتور) .

• اللغــة بين المعيارية والوصفية . الأنجلو المصرية ١٩٥٨ م .

• مناهج البحث فى اللغــة . ط الرسالة ١٣٧٤ — ١٩١٥ م .

— جبــر ضومط .

• فلسفة اللغة العربية وتطورها . ط المقتطف ١٩٢٩ م .

— جسبرسن .

• اللغة بين الفرد والمجتمع ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب . الأنجلو المصرية ١٩٥٤ م .

— جورجى زيدان .

• الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية . ط دار الهلال ١٩٢٣ م .

— الحسن بن عبد الغفار (أبو على الفارسى) .

• المسائل البغداديات (ميكروفيلم) بمعهد احيــاء المخطوطات العربية ٥٢ (نحــو) .

— الحسن بن عبد الله بن سهل (أبو هــلال العسكرى) .

• الصناعتين . ط ٢ . مطبعة محمد على صبيح .

— حسن ظاظــا (دكتور) .

• اللسان والانسان . ط دار المعارف ١٩٧١ م .

— حمزة فتح الله .

• المواهب الفتحية فى علوم اللغــة العربية . ج ١ ط الأولى . المطبعة الأميرية ١٣١٢ هـ ، ج ٢ ط ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م .

— الخليل بن أحمد الفراهيدى •

• العين ج ١ تحقيق الدكتور عبد الله درويش ط بغداد ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٢ م •

— زكى مبارك (دكتور) •

• النثر الفنى فى القرن الرابع • ط ٢ السعادة •

— رمضان عبد التواب (دكتور) •

• بحث بعنوان « التطور اللغوى وقوانينه » بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد الخامس ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م •

— ستيفن أولمان •

• دور الكلمة فى اللغة • ترجمة الدكتور كمال بشر ج ١ ط ١٩٦٢ م •

— سعيد الأفغانى •

• حاضر اللغة العربية فى الشام • لجنة التأليف ١٩٦٢ م

— صبحى الصالح (دكتور) •

• دراسات فى فقه اللغة • ط بيروت ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م •

— عبد الحميد حسن •

• الأصول الفنية للأدب • ط العلوم ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م •

— عبد الرحمن أيوب (دكتور) •

• أصوات اللغة • ط دار التأليف • الطبعة الأولى •

— عبد الرحمن بن اسحاق (أبو القاسم الزجاجى) •

• الايضاح فى علل النحو • تحقيق مازن المبارك • مطبعة المدنى ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م •

— عبد الرحمن بن جلال الدين أبى بكر (السيوطى) .

• الاقتراح . ط الأولى .

• بغية الوعاة ط السعادة ١٣٢٦ هـ ، والحلبى ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤م

• المزهر . ط الأولى ١٢٨٢ هـ ، ط صبيح ، دار احياء الكتب العـربية .

• همع الهوامع شرح جمع الجوامع ط ١ السعادة ١٣٢٧ هـ .

— عبد الرحمن بن محمد الأنبارى .

• نزهة الألبا فى طبقات الأدبا ط ١٢٩٤ هـ .

— عبد الرحمن بن محمد « ابن خلدون » .

• المقدمة ط بولاق ١٢٨٤ هـ ، ط لجنة البيان العربى ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م ج٤ .

— عبد الغفار هـلال (دكتور) .

• اللغـة العربية — خصائصها وسماتها . ط الحضارة العربية ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

— عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى .

• أسرار البلاغة ط المنـار ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٥ م .

• دلائل الاعجاز . المطبعة العربية ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م .

— عبد الله بن مسلم (ابن قتيبة) .

• الشعر والشعراء . ط دار المعارف ١٩٦٦ م .

— عبد الله بهـاء الدين بن عبد الرحمن (ابن عقيل) .

• شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . ط السعادة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٥ م ومع حاشية الشيخ محمد الخضرى . المطبعة الأزهرية ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م .

— عبد الله جمال الدين بن يوسف (ابن هشام) .

• أوضح المسالك ومعه منار السالك للأستاذين : محمد عبد العزيز النجار ، عبد العزيز حسن . ط الفجالة .

• شرح شذور الذهب . ط صبيح ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .

• مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب . الأزهرية ١٣٤٧ هـ ، المدنى بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٢٨ م ، ط عيسى الحلبى .

— عبد الله العلايلى .

• مقدمة لدرس لغة العرب . المطبعة العصرية .

— عبد المجيد عابدين .

• المدخل الى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامية . ط الأولى ١٩٥١ م .

— عبد الملك محمد بن اسماعيل (أبو منصور الثعالبى) .

• يتيمة الدهر . ط الصاوى ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م ، ط حجازى ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

— عباس حسن .

• رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية . مطبعة العالم العربى ١٣٧١ هـ — ١٥٩١ م .

• اللغة والنحو بين القديم والحديث . دار المعارف ١٩٦٦ م .

— عباس العقاد .

• أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب . دار المعارف . ط ٢ .

• اللغة الشاعرة . مطبعة مخيمر ١٩٦٠ م ، مطبعة الاستقلال .

• مقال بعنوان (التعريف والعدد فى اللغــة العربية واللغات الأوربية) بمجلة الأزهر عــدد شعبان ١٣٨١ هـ — يناير ١٩٦٢ م •

• مقال بعنوان (عوامل الاعراب فى اللغــة العربية) بمجلة الأزهــر عدد المحرم ١٣٨٢ هـ — يونية ١٩٦٢ م •

• مراجعات فى الآداب والفنون • نشر الياس أنطون الياس صاحب المطبعة العصرية •

— عثمان أمين (دكتور) •

• فلسفة اللغة العربية • ط الدار القومية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ م •

— عثمان بن جنى (أبو الفتح) •

• الخصائص ط دار الكتب ١٣٧١ هـ — ١٣٧٦ هـ (١٩٥٢ — ١٩٥٦ م) •

• سر صناعة الاعراب ج ١ ط ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٤ م ، ج ٢ مخطوطة الأزهر ١١٦ لغــة ومخطوطة دار الكتب ٨١٦ هـ

• المحتسب ط دار التحرير ١٣٨٦ هـ — ١٣٨٩ هـ •

— على بن اسماعيل (ابن سيدة) •

• المخصص • ط الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ ، ط بيروت •

— على بن الحسين بن على (المسعودى) •

• مروج الذهب ومعادن الجوهر • بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م •

— على بن الحسين بن محمد (أبو الفرج الأصفهانى) .

• الأغانى . ط التقـــدم .

— على بن محمد (الأشمونى) .

• منهج السالك الى ألفية ابن مالك ومعـــه حاشية الشيخ محمد بن على الصبان . ط دار احيـــاء الكتب العربية .

— على بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدى) .

• الامتـــاع والمؤانسة . تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين . مطبعة لجنـــة التأليف ١٩٣٩ م .

— على عبد الواحد وافى (دكتور) .

• علم اللغـــة . ط السلفية ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م ، ونهضة مصر ١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م .

• فقه اللغـــة . ط لجنة البيان العربى ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م ، ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م .

• اللغـــة والمجتمع . ط دار احيـــاء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م ونهضة مصر ١٩٧١ م .

— على النجدى ناصف .

• سيبويه امام النحـــاة . ط لجنة البيان العربى ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م .

— عمرو بن بحر بن محبوب (الجاحظ) .

• الحيوان . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . ط مصطفى الحلبى ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ م .

— عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) .

• الكتـــاب : ط بولاق ١٩١٦ ، ١٩٧١ م وبتحقيق الأســـتاذ عبد السلام هارون ج ١ ط دار القلم ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م ، ج ٢ ط دار الكاتب العربى ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

— فندريس :

• اللغـــة . تعريب الأستاذين : عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ط لجنة البيان العربى ١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م .

— القاسم بن على (الحريرى) .

• درة الغواص فى أوهـــام الخواص . تحقيق « محمد أبو الفضل ابراهيم » مطبعة نهضة مصر ١٩٧٥ م .

— كرامت حسين الكنتورى الهندى .

• فقـــه اللسان فى اللغـــة العربية . ط الهند ١٩٥١ م .

— كمال محمد بشر (دكتور) .

• دراسات فى علم اللغة . القسمان الأول والثانى . ط دار المعارف ١٩٧١ م .

• علم اللغة العـــام : القسم الثانى (الأصوات) . ط دار المعارف ١٩٧٠ م .

— كنـــدراتوف .

• أصوات واشارات (دراســـة فى علم اللغـــة) . نقله عن الانجليزية ادور يوحنا . مطبعة الجمهورية . الكويت ١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م .

— محمد أحمد عرفه : النحو والنحـــاة بين الأزهر والجامعة . مطبعة السعادة ١٩٣٧ م .

— محمد بن الحسن (الرضى الاسترا باذى) .

• شرح الكافية . المطبعة العامرية . ١٢٧٥ هـ .

— محمد بن القاسم الأنبارى .

• الأضداد . الكويت ١٩٦٠ م .

— محمد بن يزيد (أبو العباس المبرد) .

• الكامل فى اللغــة والأدب . ج ٢ مطبعة الاستقامة ١٣٦٥ هـ .

— محمد عبد الخالق عضيمة (دكتور) .

• بحث بعنوان (النحو بين التجديد والتقليد) بمجلة كلية اللغة العربية بالرياض . العدد السادس ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

— محمد عبد الحميد أبو العــزم .

• المسلك اللغوى ومهاراته ، ط الأولى . مطبعة مصر ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م .

— محمد المبــارك (دكتور) .

• فقــه اللغــة . ط جامعة دمشق ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .

— محمد مندور (دكتور) .

• النقد المنهجى عند العرب . مطبعة نهضة مصر ١٩٦٩ م .

— محمود السعران (دكتور) .

• علم اللغــة ط دار المعارف ١٩٦٢ م .

• االلغــة والمجتمع . ط ٢ دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٣ م .

— مرمرجى الدومنكى (الأب) .

• أبحــاث ثنائية ألسنية (ثلاث رسائل الأولى ط ١٩٣٧ م والثانية ط ١٩٤٧ م والثالثة ط ١٩٥٠ م) .

• المعجمية العربية على ضـوء الثنائية والألسنية السامية • مطبعة الآباء الفرنسيين فى القدس ١٩٣٧ م •

— مهدى المخزومى (دكتور) •

• مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو ، ط مصطفى الحلبى ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م •

— مصطفى صادق الرافعى •

• تاريخ آداب العرب ، مطبعة الأخبـار ١٩١١ م •

— موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر (أبو منصور الجواليقى) •

• المعرب مع مقدمتيه للأستاذ أحمد شاكر ، والدكتور عبد الوهاب عـزام • ط دار الكتب ١٣٦١ هـ والطبعة المعـادة عليهـا بالأوفست فى طهران ١٩٦٦ م •

— نصر الله بن محمد بن عبد الكريم (أبو الفتح بن الأثير) •

• المثل السائر ط حجازى ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ، ط نهضة مصر بتحقيق الدكتورين : أحمد الحوفى وبدوى طبـانة •

— يوهان فـك •

• العربية • ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار • ط دار الكتاب العربى ١٣٨٠ هـ — ١٩٥١ م •

— ياقوت الحمـوى •

• معجم الأدباء • ط دار المـأمون ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م •



محتوى الـكتاب

الموضـــوع		الصفحة
تقـــــــديم	٣	ـ ٤
حاجة الانسان الى اللغـــة ومبلغ اهتمامه بها	٥	ـ ١٢
الباب الأول		
علم اللغة عند علماء العرب	١٣	ـ ٦٢
مدلوله والموازنة بينه وبين فقه اللغة	١٥	
موقف علمـاء العربيـــة من مصطلحى (علم اللغـــة) و (فقـــه اللغـــة)	١٨	
الداعى اليـــه	٢٦	
التاريخ المنهجى لعلم اللغة	٣٢	
البحوث اللغوية عند العرب	٤٧	
● جمع الألفـــــاظ	٤٧	
● وضع القواعد التى تقى اللسـان من العثار	٤٩	
● الاهتمام بالقراءات القرآنيـــة وأثره	٥٢	
● الدراسة البـــلاغية	٥٥	
● الدراسة الأدبية والنقدية	٥٦	
الباب الثانى		
علم اللغـــة عند علماء الغرب	٦٣	ـ ١٢٠
مدلولـــه	٦٥	
الداعى اليـــه	٧٠	
البحوث اللغوية عنـــد الغربيين	٧٢	
مدخل تاريخى	٧٢	
● علم القواعد المقارن	٧٥	
● علم القواعد التاريخى	٧٧	

الموضــــوع	الصفحة

أولا : **الفوناتيك (علم الأصوات)** ٨٢
● علم الأصوات النطقى (أو الفسيولوجى) ٨٣
● علم الأصوات الفيزيائى (أو الأوكوستيكى) .. ٨٤
● علم الأصوات السمعى ٨٥
● الفوناتيك والفنولوجيا ٨٦
● رأى المدرسة البراجية ٨٩
● رأى المدرسة الانجليزية ٩١
● رأى المدرسة الأمريكية ٩٣
● الدراسة الصوتيــة المتخصصة ٩٦

ثانيا : **الديالكتولوجيا (علم اللهجات)** ٩٧

ثالثا : **السيمانتيــك (علم الدلالة)** ١٠٥

رابعا : **السيكولوجيا اللغوية (علم النفس اللغوى)** ١١٠

خامسا : **السوسيولوجيا اللغوية (علم الاجتماع اللغوى)** ١١٣

البـــاب الثالث

بعض قضـــايا علم اللغـــة

أولا : اللغـــة بين الفرد والمجتمع ١٢٣ — ١٨٩

مـــدخل ١٢٣

أثر الفرد فى اللغـــة ١٢٦

١ — أثر الفرد فى الأصوات ١٢٩
٢ — أثر الفرد فى المفردات والتراكيب ١٣٨

آثار المجتمع فى اللغة ١٤٠

١ — اللغـــة والجنس ١٤٠
٢ — اللغة والمكان والزمان ١٤٥
٣ — اللغـــة والنظم الاجتماعية ١٤٨
٤ — اللغة والطبقات الاجتماعية ١٥١
٥ — العرف واللياقة اللغوية ١٦١

الموضـــــوع	الصفحة

المنافسة بين اللهجات واللغات	١٦٥
١ ـــ المنافسة بين اللهجات	١٦٥
عوامل التوحيد اللغوى	١٦٧
٢ ـــ المنافسة بين اللغات	١٧٢
● فى السلم	١٧٢
● فى الحرب	١٧٥
تعقيب	١٨٠
● اللغة صورة لحياة الأمة	١٨١
● اللغة تتغير تبعا لظواهر الاجتماع	١٨٢
ـــ أثرها فى المفردات	١٨٢
● معانيها	١٨٢
● أصواتها	١٨٣
● حياتها وموتها	١٨٥
● اضافة الفاظ جديدة	١٨٦
● اقتراض الألفاظ	١٨٦
ـــ أثرها فى التراكيب والقواعد	١٨٧
ثانيـــا : دلالة الألفاظ وتطورها	**١٩٠ ـــ ٣٢٤**
دلالة الألفـــاظ	١٩٠
● الدال	١٩٠
● المـــدلول	١٩٠
● النسبة	١٩٠
مكونات الدلالة الأساسية	١٩٥
١ ـــ الدلالة المعجمية	١٩٦
٢ ـــ الدلالة الصوتية	١٩٨
٣ ـــ الدلالة الصرفية	١٩٩
٤ ـــ الدلالة النحوية	٢٠٠

الموضـــوع	الصفحة

التطور الدلالى ٢٠٤
— المعنى بين الثبات والتغير ٢٠٤
— أنواع التطور الدلالى ٢٠٨
التطور العام أو التلقائى ٢٠٨
التطور الخاص أو المقصـــود ٢٠٩
أسباب تطور الدلالة ٢١٢
الأسباب اللغوية ٢١٢
١ — كثرة استعمال الألفاظ ٢١٢
٢ — تطور أصوات اللفظ ٢١٦
٣ — خفاء معنى اللفظ أو نسيان مجال اســـتعماله ٢١٧
٤ — أثر بعض القواعد اللغوية ٢١٩
٥ — انتقال اللفظ من لغة لأخرى ٢٢٠
الأسباب الاجتماعية ٢٢١
١ — اختلاف طبقـــات المجتمع وأجياله ٢٢١
٢ — التغير الاجتماعى ٢٢٣
٣ — الحالة النفسية ٢٢٥
اتجـــاهات التطور الدلالى ٢٢٧
١ — المقارنة بين المعنى القديم والجديد ٢٢٧
٢ — ارتباط المعنى الجديد بالقديم ٢٣٠
٣ — العلاقة الاجتماعية بالمعانى واستعمالها ٢٣٣
الدلالة عند علماء العرب ٢٣٥
١ — علم الدلالة اللغوى ٢٣٥
٢ — عناية العرب بالألفاظ والمعـــانى ٢٤١
٣ — من بحوث الدلالة عند العرب ٢٤٨

الموضـــوع	الصفحة

قضية الاعراب	٢٤٨
● وجود الاعراب فى الساميات	٢٤٨
● وجوده فى العربية	٢٥٠
● لم دخل الاعـــراب الـكلام ؟	٢٥٨
١ ـــ رأى معظم البـــاحثين القدامى والمحدثين	٢٥٨
٢ ـــ رأى ابن مضاء	٢٦٢
٣ ـــ رأى قطرب ومن تابعـــه	٢٦٤
٤ ـــ رأى الأستاذ ابراهيم مصطفى	٢٧٢
٥ ـــ رأى بعض البـــاحثين	٢٨١
الاشـتراك والتضاد والترادف	٢٨٦
الاشـتراك	٢٨٦
فائـــدته	٢٨٧
أسبابه	٢٨٧
١ ـــ اختلاف اللغات واللهجات	٢٨٧
٢ ـــ المجـــاز	٢٨٨
٣ ـــ تطور المعنى	٢٨٨
٤ ـــ اختلاف الاشـتقاق	٢٨٩
٥ ـــ التطور الصوتى	٢٨٩
٦ ـــ حدوث الاشـتراك من الواضـــع الواحد	٢٩٠
آراء العلمـــاء فيـــه	٢٩٠
● رأى المنـــكرين	٢٩١
● رأى المثبتين	٢٩١

الموضـــــوع	الصفحة

التضـــاد ٢٩١

فائـــدته ٢٩٢

أســـبابه ٢٩٢

١ ــ اختـــلاف اللهجات ٢٩٢

٢ ــ المجـــاز ٢٩٣

٣ ــ التطور الصوتى ٢٩٣

٤ ــ اتفاق بعض الأبنية اللغوية لفظا مع اختلافها تقـــديرا ٢٩٣

٥ ــ رجوع الـــكلمة الى أصلين ٢٩٤

آراء العلماء فيـــه ٢٩٤

● رأى المنكرين ٢٩٤

رأى المؤيدين ٢٩٥

الترادف ٢٩٧

أثره اللغوى ٢٩٧

أسبابه ٢٩٨

١ ــ اختلاف اللغات واللهجات ٢٩٨

٢ ــ المجاز ٢٩٩

٣ ــ تنـــاسى الصفات والفروق ٢٩٩

٤ ــ التغير الصوتى ٢٩٩

آراء العلماء فيـــه ٣٠٠

● رأى المنكرين ٣٠١

● رأى المثبتين ٣٠٥

منشأ خلاف العلماء فيه ٣٠٦

الموضـــوع	الصفحة

تعقيب ٣٠٩

الدلالة عند علمـــاء الغرب ٣١١

دراسة المتخصصين ٣١٢

● الاتجـــاه الاجتماعى ٣١٣

● رأى دى ســـوسير والمدرســـة الاجتماعيـــة
السويسرية الفرنسية ٣١٣

● رأى مالينوفسكى البولندى وأتبـــاعه فى المدرسة
الاجتماعية الانجليزيـــة ٣١٤

● الاتجاه السلوكى ٣١٧

دراسة غير المتخصصين ٣٢٠

أوجـــدن وريتشاردز ٣٢٠

ستيفن أولمان ٣٢١

بردجمان ٣٢٢

ثورمان أرنولد ٣٢٢

الفرد كورتسبسكى ٣٢٢

ثالثا : اللغة العربية والفلسفة ٣٢٢ — ٣٦٧

(أ) تأثر الدراسـات اللغوية بالفلسفة والمنطق ٣٢٥

(ب) فلسفة العلة وموقف العلماء منها ٣٣٦

نشأة العلل ٣٣٦

تقسيم العلل ٣٣٩

● تقسيم الزجاجى للعلل ٣٣٩

● تقسيم ابن جنى للعلل ٣٤٠

الموضـــــوع	الصفحة

موقف القدامى من العلل ٣٤٤

● موقف ابن مضاء ٣٤٩

● موقف ابن سنان ٣٥١

● موقف الجـــاحظ ٣٥٢

موقف المحدثين منها ٣٥٢

(ج) نظرية العامل النحوى ٣٥٥

العامل اللفظى والمعنوى ٣٥٦

العامل المتكلم ٣٥٧

العامل هو الله سبحانه وتعـــالى ٣٥٨

تعقيب ٣٦١

رأى ومنهج ٣٦٨

أهم المصــــادر ٣٧١

محتوى الـكتاب ٣٨٣

مطبعة الجبلاوي
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية - شبرا

رقم الايداع بدار الكتب ٢٢٠١٠/١٩٨٦